حائز على جائزة هوغو

ن. ك. جيميسين

الموسم الخامس

ثلاثية الأرض المكسور - الكتاب الأول

ضباب
t.me/twinkling4

ترجمة: محمد أ. جمال

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمَ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

تأكد من أنك تقرأ هذه الرواية من قناة ضــاد الرسمية على تطبيق تيليجرام:

تمَ تجهيز هذا الكتاب الإلكتروني بـواسـطـة:

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

لجميع الكتب، المجانية والمدفوعة،
وكل ما تشتهيه قريحتك الثقافية.

الكاتب: ن. ك. جيميسين

عنوان الكتاب: الموسم الخامس: ثلاثية الأرض المكسور – الكتاب الأول

ترجمة: محمد أ. جمال

العنوان باللغة الأصلية: The Fifth Season

الكاتب: N.K. Jemisin

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-78-5

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2023

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

THE FIFTH SEASON: Copyright © 2015 by N.K. Jemisin. All rights reserved

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

٢٧٠٦٠٩٠٢٩٤

ملاحظة المترجم

أول ما ستلاحظونه أثناء قراءتكم للكتاب (أو لعلكم لاحظتموه بالفعل من عنوان الثلاثية: الأرض المكسور) هو تذكير كلمة «الأرض»، المؤنثة في اللغة العربية.

اتخذتُ هذا القرار عندما أدركت أن اتباع العرف في تأنيث الكلمة يضرب الرواية دراميًا في مقتل، إذ إن أحد أعمدة الفكرة هو اعتبار الأرض في عالم الرواية أبًا قاسيًا منتقمًا، كرونوسيًا، لا أمًّا رؤوفًا طيبة، مثلما اعتادت أغلب أدبيات العالم اعتباره.

لذا، رجاءً، تحلوا بالصبر وتحملوا غرابة تذكير ما اعتدتم تأنيثه في أول بضع صفحات، وأعدكم بأن تجدوه مبرَّرًا، بل مستساغًا مع مرور الوقت واتضاح الأحداث.

ويمكنكم أن تلجؤوا من وقت إلى آخر إلى ملحق قائمة المصطلحات الشائعة في آخر الكتاب (التي وضعتها المؤلفة)، لاستيضاح معاني الألفاظ الغريبة، وإن كنتُ أنصح بالصبر ومحاولة استنباط المعنى من السياق... فهذا أمتع.

تمنياتي بقراءة سعيدة

محمد أ. جمال

إلى كل المرغمين على القتال، من أجل احترام يناله الجميع عداهم، بلا سؤال

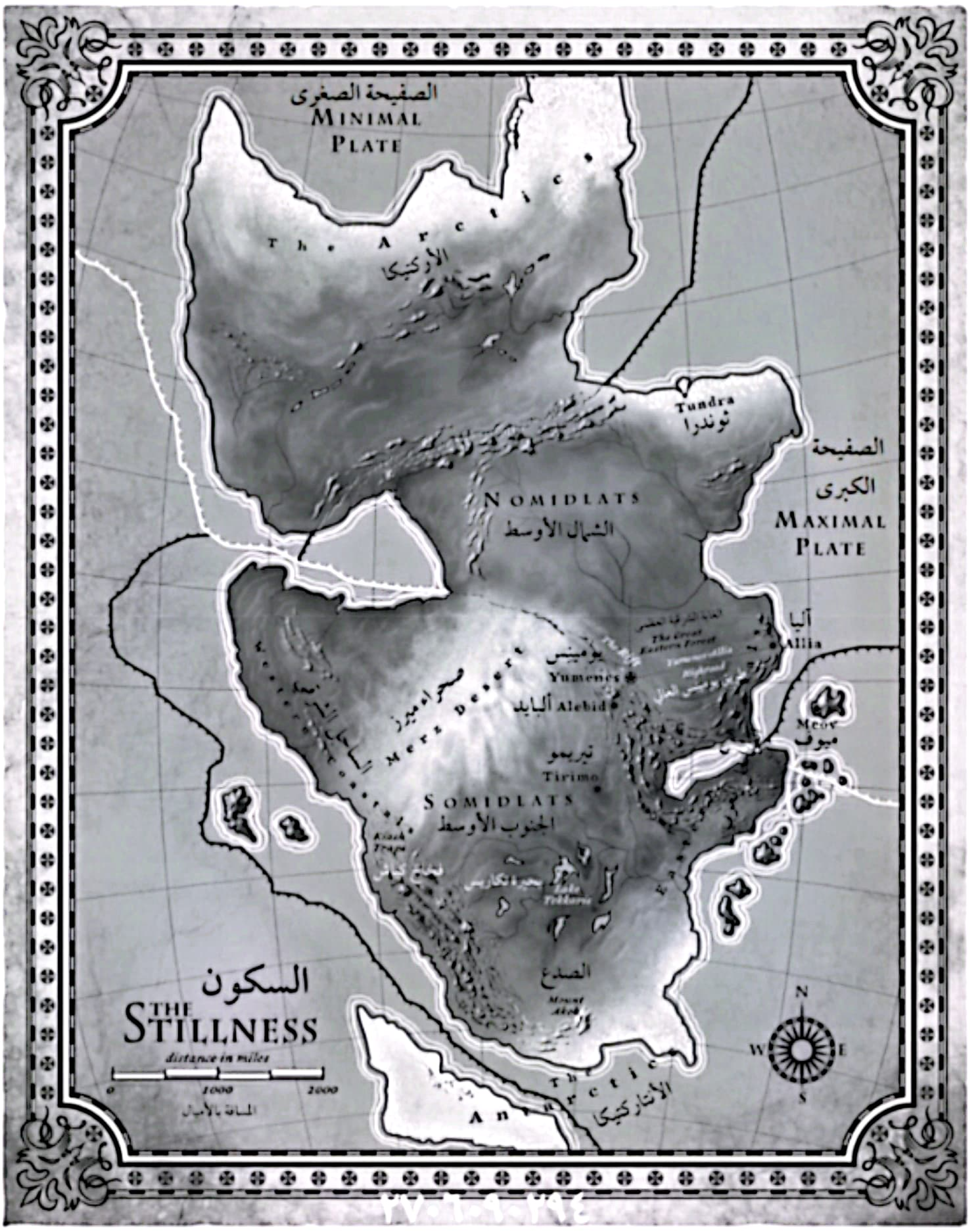
الصفيحة الصغرى
MINIMAL PLATE
The Arctics
الأركتيكا
Tundra
توندرا
الصفيحة
الكبرى
MAXIMAL
PLATE
NOMIDLATS
الشمال الأوسط
آليا
Allia
يوميني
Yumenes
صحراء ميرز
Mers Desert
ألبايد
Alebid
Meov
ميوف
تيريمو
Tirimo
SOMIDLATS
الجنوب الأوسط
السكون
THE STILLNESS
distance in miles
0
1000
2000
المسافة بالأميال
The Antarctics
الأنتاركتيكا
N
W
E
S

تمهيد

أنتِ هنا

لنبدأ من نهاية العالم. ولم لا نفعل؟ لننتهِ منه ونتابع إلى ما هو أهم.

النهاية الأولى شخصية. ثمة ما ستفكر فيه مرارًا وتكرارًا في الأيام القادمة وهي تتخيل كيف مات ابنها، وستحاول إيجاد معنى في ما لا معنى له إطلاقًا. ستغطي جثمان أوتشي الصغير المهشم ببطانية -كله إلا وجهه، لأنه يخشى الظلام- وستجلس إلى جواره مخدرة، ولن تلقي بالًا إلى العالم الذي ينتهي في الخارج، فقد انتهى آخر بالفعل داخلها، ولا هذا ولا ذاك أول عالم لها ينتهي، فقد اعتادت النهايات.

ما فكرت فيه حينئذ، وستفكر فيه بعدها: *لكنه كان حرًّا!*

لكن كل مرة يصدر عن نفسها الملتاعة الحائرة تلك الفكرة المتسائلة، تأتيها الإجابة من نفسها العليلة الآسفة: *بل لم يكن، لكنه أمسى الآن حرًّا*.

***

لكنك في حاجة إلى سياق. لنجرب النهاية مرة أخرى، على الصعيد القاري.

هنا أرض.

أرض عادي مثل باقي الأراضي. جبال وهضاب وأودية

وأنهار... أي العادي، العادي باستثناء مساحته ونشاطه. إن هذا الأرض كثير الحركة، مثل عجوز مضطجع مضطرب؛ يشهق ويتنهد ويتجعد ويضرط ويتثاءب ويبلع. ولقد أطلق الناس على هذا الأرض بالطبع اسمًا: السكون. إنه أرض السخرية المريرة.

ولقد كان للسكون من قبلُ أسماء أخرى. كانت ذات يومٍ عدة أراضٍ، أما الآن فهي قارة واحدة شاسعة غير مكسورة، لكنها ستنكسر مرة أخرى في نقطة ما من المستقبل.

المستقبل القريب.

تبدأ النهاية في مدينة، أقدم وأضخم وأعظم وأبهى مدينة حية في العالم. اسمها يومينِس، وكانت ذات يوم قلب إمبراطورية. لا تزال قلب العديد من الأشياء، حتى مع ذبول الإمبراطورية إلى حدٍّ ما بعد سنوات ازدهارها، مثلما تفعل الإمبراطوريات.

فرادة يومينِس لا ترجع إلى حجمها. في تلك الناحية من العالم هنالك العديد من المدن الضخمة المترابطة مثل سلسلة حول خط الاستواء، وكأنها حزام قاري. أما في بقية أنحاء العالم فقلَّما تنمو القرى فتصبح بلدات، وقلما تصبح البلدات مدنًا، إذ تصعب عليهم المحافظة على تلك التقاليد البنيوية بينما يحاول الأرض التهامهم... لكن يومينِس ظلت مستقرة طوال أغلب عمرها البالغ سبعة وعشرين قرنًا.

مكمن فرادة يومينِس في أن هنا فقط تجرَّأ البشر على البناء، ليس للأمان ولا للراحة ولا حتى للجمال، بل من أجل

الشجاعة. إن حوائط المدينة تُحفٌ فسيفسائية دقيقة عظيمة تصور تاريخ أهلها الطويل القاسي. وتتخلل كتل مبانيها الضخمة أبراج عالية طويلة مثل أصابع حجرية جبارة، وفوانيس يدوية الصنع تضيئها أعجوبة الطاقة الهيدروليكية الحديثة، وجسور تتقوس برشاقة صُنعت من الزجاج والجسارة، وهياكل معمارية تُدعى بلكونات، وهي أشياء مع أنها شديدة البساطة فهي شديدة الحماقة أيضًا، حتى أن أحدًا لم يجرب أن يبنيها قبل بدء التاريخ المكتوب (بيد أن أغلب التاريخ غير مكتوب، تذكري ذلك) . شوارعها ممهدة، ليس بحصى يسهل استبداله، وإنما بمادة إعجازية ملساء متصلة يسميها السكان أسفلت. حتى أكواخ يومينِس جريئة، فهي ليست أكثر من أكشاك رقيقة الجدران، عاصفة سيئة كفيلة بالإطاحة بها، ناهيك عن هزة أرضية، لكنها تصمد، مثلما صمدت، أجيالًا.

توجد مبانٍ عالية كثيرة في قلب المدينة، لذا فربما لا عجب في أن أحدها أكبر وأجرأ من البقية ولو اجتمعت: مبنى هائل ينتصب على قاعدة هرمية نجمية، من حجر السبج البركاني المنحوت ببراعة. إن الأهرامات أكثر الأشكال المعمارية ثباتًا، وهذا خمسة أهرامات في واحد، بلا احتياج حقيقي سوى... لم لا ؟ ولأن هذه يومينِس، تتوج ذروة الهرم قبة جيوديسية هائلة، جدرانها متعددة الأوجه تشبه الكهرمان الشفاف، وتبدو كما لو أنها مستقرة بالكاد، غير أن في الواقع كل جزء من ذلك المبنى الغرض الأوحد من وجوده هو الدعم. إنها فقط تبدو مترنحة، وهذا كل ما يهم.

مبنى النجمة السوداء هو حيث يجتمع قادة الإمبراطورية ليفعلوا ما يفعله القادة، والقبة الكهرمانية هي حيث يبقون إمبراطورهم، مُعتنًى به ومحفوظًا بعناية، يهيم في أروقتها الذهبية بيأس راقٍ، يفعل ما يؤمر به، ويخشى اليوم الذي سيقرر فيه سادته أن ابنته ستكون واجهة أفضل.

على فكرة، لا أهمية لتلك الأماكن ولا لهؤلاء الناس، أنا أشير إليهم فقط على سبيل السياق.

لكن هنا رجل أهميته فائقة.

يمكنك أن تتخيلي هيئته، مؤقتًا، ولعلك أيضًا تتخيلين ما يدور في رأسه. ربما تخطئين، ربما لا يزيد تخيلك على حدس، لكنك مع ذلك لن يجانبك الصواب كليةً، فبناءً على أفعاله التالية، قليلة هي الأفكار التي قد تراوده لحظتها.

إنه يقف على تلٍّ غير بعيد عن حوائط النجمة السوداء السبجية. يستطيع من هناك أن يرى أغلب المدينة، ويشم دخانها، ويسرح في كلامها. تمشي مجموعة فتيات في أحد الطرق الأسفلتية في الأسفل؛ إن التل في حديقة يحبها أهل المدينة (ينصح قول الحجر: «حافظ على الخضرة بين أسوارك»، لكن أغلب المجتمعات تزرع أراضيها بالبقوليات وغيرها من المحاصيل المغذية للتربة. في يومينِس وحدها تُنحت الخضرة من أجل الجمال). تضحك الفتيات على شيء قالته إحداهن، ويهبّ على الرجل ضحكاتهن مع النسيم العابر. يغلق عينيه ويستلذ بتردد أصواتهن الواهن، والصدى الأوهن لخطواتهن له وقع حفيف أجنحة الفراشات على سسبينته.

ليس في وسعه سسبنة كل سكان هذه المدينة السبعة ملايين طبعًا، إنه بارع لكن ليس إلى هذا الحد، وإنما يسسبن فقط أكثرهم. إنهم هناك، إنهم هنا. يتنفس بعمق ويتوحد مع الأرض. خطواتهم فوق فتائل أعصابه، أصواتهم تُهيج الشعيرات الدقيقة على جلده، أنفاسهم تموج الهواء الذي يسحبه في رئته. إنهم عليه، إنهم فيه.

بيد أنه يعرف أنه ليس، ولن يكون أبدًا، منهم.

يقول بنبرة مثرثرة: «أتعرفين أن أول نسخ قول الحجر كانت مكتوبة على الحجر فعلًا؟ لحفظها من التغيير كي تناسب الأهواء والسياسة، ولكيلا تبلى».

تقول رفيقته: «أعلم».

«آه، صحيح، نسيت، أنت على الأرجح كنت موجودة عندما كُتبت»، يتنهد بينما يراقب النساء يختفين من نطاق رؤيته. «إن حبك آمِن؛ لن تخذليني، ولن تموتي، وأعرف ثمنه مسبقًا».

لا ترد عليه رفيقته، وهو لم يتوقع ردًا، وإن كان جزء منه قد أمَّله. كم كان وحيدًا.

لكن لا مكان للأمل، الأمل مثل العديد من المشاعر الأخرى التي يعلم أنها لن تعود عليه إلا بالإحباط لو ترك نفسه لها مجددًا. لقد اكتفى من ذلك، زمن التردد هو الماضي.

يقول الرجل بينما يفرد ذراعيه: «نُقشت الوصايا على الحجر».

تخيلي أن وجهه يؤلمه من الابتسام. ظل مبتسمًا لساعات؛ أسنانه مطبقة وشفتاه مشدودتان إلى الخلف وعيناه متغضنتان. تحتاج الابتسامة إلى فن حتى يصدقها الآخرون، يجب أن تتضمن العينين، وإلا سيدرك الآخرون كراهيتك لهم.

«مطلقة هي الكلمات المنحوتة».

إنه لا يتحدث إلى أحد بعينه، لكن إلى جواره تقف امرأة... بشكل ما. إن محاكاتها للجندر الإنساني سطحي، مجاملة. وكذلك فستانها الواسع المتهدل ليس ملبسًا، وإنما هي فقط شكلت جزءًا من مادتها الصلبة كي تلائم تفضيلات تلك الكائنات الفانية الهشّة التي تتحرك الآن بينهم. أي مراقب افتراضي من مسافة سيحسبها امرأة تقف ثابتة، على الأقل لوهلة، أما عن قريب، فسيلاحظ فورًا أن بشرتها من الخزف الأبيض، وهذا ليس مجازًا. كانت لتكون تمثالًا رائعًا، هذا إن لم يكن أكثر واقعية بمراحل من أن يتحملها الذوق المحلي. إن أكثر اليومينِسيين يفضلون التجريد المهذب على الواقعية الوقحة.

عندما تستدير صوب الرجل -ببطء، لأن آكلي الصخر شديدو البطء فوق سطح الأرض، إلا حينما لا يكونون كذلك- تخرجها تلك الحركة من إطار الجمال الإبداعي إلى شيء مختلف تمامًا. لقد اعتاد الرجل هذا، لكنه برغم ذلك لا ينظر إليها، فهو لا يريد أن يفسد نفوره اللحظة.

يسألها: «ماذا ستفعلين بعدما يتم الأمر؟ هل سينهض جنسك

من الأنقاض ويسيطرون على العالم بدلًا منَّا؟».

تقول: «لا».

«ولم لا؟».

«يندر بيننا الاهتمام بذلك. على كل حال أنتم ستظلون هنا».

يفهم الرجل أنها تقصد بقولها أنتم جنسكم، أي البشر. كثيرًا ما تعامله وكأنه ممثل النوع البشري، وهو نفس ما يفعله معها. «تتحدثين وكأنك متأكدة».

لا ترد على هذا، إن آكلي الصخر قلما يتكلفون عناء قول ما هو واضح. وهو يمتن لهذا، لأن حديثها يزعجه عمومًا، فكلامها لا يقلقل الهواء مثل كلام البشر. لا يعرف سر هذا، ولا يهتم بمعرفته، كل ما يريده الآن هو صمتها.

صمت كل شيء.

يقول: «يكفي، لو سمحتِ».

ثم يتوجه إلى الأمام، مستدعيًا كل التحكم الدقيق الذي استخرجه العالم منه بغسيل المخ والخيانة والعنف، وبكل الحساسية التي ولَّدها سادته فيه عبر أجيال من الاستيلاد بالاغتصاب والإجبار والانتقاء غير الطبيعي على الإطلاق. امتدت أصابعه وارتجفت ريثما يتحسس نقاط تردد الصدى في خريطة وعيه؛ رفاقه العبيد. إنه لا يستطيع تحريرهم، ليس بالمعنى العملي للحرية، لقد حاول من قبل وفشل. بيد أنه يستطيع تحويل معاناتهم إلى خدمة هدف أعظم من تحقيق

كبرياء مدينة ومواجهة رعب إمبراطور.

يتوجه إلى العمق، ويقبض على المدينة الشاسعة بكل طنينها وأزيزها ونقرها وصخبها وترددها وتموجها، وعلى القاعدة الصخرية أسفلها، وعلى الحرارة والضغط المتأججينِ المضطرمينِ تحتها. ثم يتوجه باتساع، ويقبض على قطعة القشرة الأرضية الهائلة المنزلقة، التي تستقر فوقها القارة.

وأخيرًا، يتوجه إلى أعلى، مستحضرًا للطاقة.

ويمسك كل ذلك، طبقات الأرض والحمم والناس والطاقة، بأيدٍ متخيَّلة، كل شيء. يمسك بقوة. إنه ليس وحده. الأرض معه.

ويكسرهم.

***

هنا السكون، التي لا تسكن أبدًا، حتى في أفضل أيامها.

والآن تموج وتتزلزل وتنشق انشقاقًا. والآن صار هناك خط من الشرق إلى الغرب، خط شديد الاستقامة إلى حد يشي باصطناعيته، ويقطع امتداد أرض حزام الاستواء، ويبدأ من مدينة يومينِس.

خط عميق وحاد، قطع الكوكب حتى النخاع. وحال حدوثه فارت الحمم من الأعماق، حمراء ونضرة. إن الأرض لقادر على إشفاء نفسه، ستندمل الجروح بسرعة جيولوجية، وسيتبع ذلك تدفق المحيط المطهر في الشق ليشطر السكون إلى قارتين.

لكن إلى أن يحدث ذلك سيتقيح الجرح، وسيفرز مع الحرارة الغازات والرماد الخشن الداكن، ما يكفي لخنق السماء فوق أغلب وجه السكون في غضون أسابيع قليلة. ستموت النباتات في كل مكان، والحيوانات التي تعتمد عليها ستتضور جوعًا، وكذا الحيوانات التي تعتمد على أولئك. سيحلّ الشتاء مبكرًا، قاسيًا، ولسوف يمتد طويلًا، طويلًا. سينتهي بالطبع، مثلما ينتهي كل شتاء، وعندها سيعود العالم إلى حاله في آخر المطاف.

في آخر المطاف.

إن أهل السكون يعيشون في حالة استعداد مستمر للكوارث. لقد بنوا الحوائط وحفروا الآبار وخزنوا الطعام، ويستطيعون بسهولة أن يعيشوا إلى خمس أو عشر أو حتى خمس وعشرين سنة في عالم بلا شمس.

لكن «آخر المطاف» في هذه الحالة تعني في بضعة آلاف من السنوات.

انظر، لقد بدأت سحب الرماد تنتشر بالفعل.

***

وبينما نحكي قاريًا، كوكبيًا، علينا أيضًا أن ننظر إلى المسلات، تلك التي تطفو فوق ذلك كله.

كان للمسلات أسماء أخرى عندما صُنعت أول مرة ونُصبت واستُخدمت، لكن أحدًا لا يتذكر أسماء أو أغراض تلك الآلات العظيمة. إن الذكريات هشة مثل صخرة في السكون. في

الواقع، لا أحد في أيامنا هذه يأبه بتلك الأشياء على الإطلاق، مع أنها ضخمة وجميلة ومهيبة: شظايا بلورية هائلة تحوم بين الغيوم، تلفّ ببطء حول محورها وتهيم في مسارات سماوية مبهمة، وتتوارى من حين إلى حين وكأنها غير حقيقية، وكأنها ليست أكثر من خدعة بصرية (وهي ليست كذلك). إن من الجلي أن المسلات ليست من صنع الطبيعة.

ومن الجلي أيضًا أنها مُنبتَّة الصلة بالعالم، بديعة، لكن بلا هدف، شاهد قبر آخر على حضارة أخرى نجحت محاولات الأب الأرض الحثيثة في إفنائها. مثلها مثل غيرها من المعالم المتناثرة في أرجاء العالم: آلاف أطلال المدن، وملايين النُّصب لأبطال أو آلهة لا يذكرها أحد، وعشرات الجسور بلا وجهات. بحسب حكمة أهل السكون السائدة، لا أحد يتأمل في هذه الأشياء. إن من بنوا تلك الأشياء القديمة كانوا ضعفاء، وماتوا مثلما يتحتم على الضعفاء، بل وأكثر ما يدينهم أنهم قد فشلوا. ومن صنعوا المسلات تحديدًا فشلوا أكثر من غيرهم.

عدا أن المسلات باقية، وستلعب دورًا هامًّا في نهاية العالم، ولذا وجب ذكرها.

***

لنعد إلى الصعيد الشخصي، نحتاج إلى البقاء على *أرض* الواقع، ها هاها.

المرأة التي ذكرتها، تلك التي مات ابنها، لم تكن في يومينِس لحسن الحظ، وإلا لانتهت هذه القصة قبل أن تبدأ.

كانت في بلدة تدعى تيريمو. والبلدة بحسب طرق لسان السكون أحد أشكال الكومونات أو المجتمعات، وإن كانت تيريمو بالكاد ترقى لأن تصبح كومونة. تستقر تيريمو في وادٍ له نفس الاسم، عند سفح جبال تيريماس. أقرب مسطح مائي لها جدول متقطع يسميه السكان تيريكا الصغيرة. إن كلمة «إتيري» في لغة انقرضت إلا من تلك الشظايا اللغوية المتلكئة تعني «هدوء». إن تيريمو بعيدة عن مدن الاستوائيين المبهرجة المستقرة، لذا كان بنيان الناس هنا تحت ظل الزلازل الحتمية. لن تجد هنا أبراجًا وأفاريز متقنة، بل فقط حوائط من الخشب والحجارة البُنية المحلية الرخيصة نُصبت على أساسات من الحجر المنحوت. لا طرقات أسفلتية، بل منحدرات عشبية تقطعها ممرات ترابية، وإن كانت بعض هذه المنحدرات قد مُهدت بالألواح الخشبية أو الحصى. إنها مكان آمن، لكن الزلزال الذي حدث فورًا في يومينِس سيرسل عمَّا قريب تموجات زلزالية جنوبًا، ستسوي الأرض بالإقليم كلها.

في هذه البلدة بيت لا يختلف عن غيره. هذا البيت، المستقر في أحد تلك المنحدرات، ليس أكثر من حفرة في الأرض بُطنت بالطين والطوب لوقايته من الماء، وسُقفت بخشب الأرز والتربة العشبية. إن أهل يومينِس المتحضرين يسخرون (سخروا) من مثل تلك الحُفر البدائية ويستحقرون (استحقروا) ما شابهها من أشياء. أما بالنسبة إلى أهل تيريمو، فالعيش في الأرض أمر في غاية المنطقية والبساطة، إذ تحتفظ بيوتهم بالبرودة صيفًا وبالدفء شتاءً، وتتحمل الهزات والعواصف على حد

سواء.

اسم المرأة إيسّون، وعمرها أربعة وأربعون. إنها مثل أكثر نساء الأوسطيين: مديدة القامة عندما تقف، منتصبة الظهر وطويلة الرقبة، وذات فخذين حملتا بيسر طفلين، ونهدان أرضعاهما بنفس اليسر، ويدان عريضتان مرنتان، لحيمة البدن قوية الهيئة. تُقدَّر هذه الصفات في السكون كل التقدير. يتدلى شعرها حول وجهها في ضفائر حبلية متشابكة، سمك كل منها تقريبًا يساوي سمك خنصرها، أسود اللون يميل إلى البني عند الأطراف. بشرتها بنية مزعجة كأكسيد الحديد بالنسبة إلى البعض، وزيتونية مقرفة بالنسبة إلى آخرين. يطلق (أطلق) اليومينِسيون على أمثالها من الناس: المهجنين الأوسطيين؛ بهم ما يكفي من الأصل السانزي لتمييزه، دون أن يكفي لتمييزهم.

الولد كان ابنها. كان اسمه أوتشي، وكان في الثالثة من عمره. ضئيل بالنسبة إلى عمره، وكبير العينين ودقيق الأنف، أنضج من سنه، جميل الابتسامة. لم يفتقر إلى أيٍّ من السمات التي يستخدمها صغار البشر للفوز بحب الكبار منذ تطور الجنس البشري إلى ما يشبه العقل. كان صحيحًا وذكيًا، كان يجب أن يظل حيًا.

كانت تلك الغرفة قلب بيتهم. كانت دافئة وهادئة، المكان الذي تجتمع فيه العائلة للكلام أو للأكل أو للعب أو للعناق أو لمداعبة بعضهم بعضًا. كانت تحب إرضاعه هنا، وتعتقد أنها حبلت به هنا.

ضربه أبوه حتى الموت.

***

والآن، على سبيل آخر أجزاء السياق بعد مرور يوم، في الوادي المحيط بتيريمو. بحلول هذا الوقت كانت أول موجات أصداء الهزة قد عبرت بالفعل، ولا تزال هناك توابع قادمة.

نهاية الوادي الشمالية باتت حطامًا: انخلعت الأشجار وانهارت القمم، ولم تزل سحابة الغبار معلقة في الهواء الساكن العبق برائحة الكبريت. ما تركت الموجة الأولى شيئًا قائمًا حيثما ضربت، كانت من تلك الهزات التي ترجّ كل شيء حتى الانهيار وتخفق الحطام معًا حتى التفتيت. ثمة جثث أيضًا: حيوانات صغيرة لم تتمكن من الهروب، وغزلان، وغيرهم من الحيوانات الضخمة التي تعثرت في هروبها وسحقها الركام، وقليل من هؤلاء كانوا بشرًا قادهم سوء حظهم إلى السفر على طريق التجارة في أقل الأيام مناسبة للسفر.

كشافة تيريمو الذين جاءوا لاستطلاع الضرر لم يتسلقوا الركام، بل اكتفوا بالنظر من بعيد، من حيث لا يزال هناك طريق. تعجبوا عندما وجدوا بقية الوادي -الجزء المحيط ببلدة تيريمو، وعلى طول عدة أميال في كل اتجاه، ما يكاد يرسم دائرة تامة- سليمًا لم يُمسّ. طيب، بصراحة لم يتعجبوا تمامًا، بل تبادلوا النظر فيما بينهم عابسين مضطربين، فالكل يعلم ما يعنيه حسن الحظ الظاهري هذا. يقول قول الحجر: «ابحث عن مركز الدائرة». ثمة روجا في مكان ما في تيريمو.

إنها فكرة مرعبة. غير أن الإشارات الواردة من الشمال مرعبة أكثر، وكذا حقيقة أن قائد تيريمو قد أمرهم بجمع أكبر عدد ممكن من جثث الحيوانات الطازجة في طريق عودتهم. اللحم الذي لم يفسد بعد يمكن تجفيفه، والفراء والجلود يمكن سلخها ومعالجتها... على سبيل الاحتياط.

في النهاية يغادر الكشافة بعقول مشغولة بهذا «الاحتياط». لعلهم لو لم ينشغلوا كانوا ليلاحظوا ذلك الشيء الجاثم بالقرب من سفح تلك الحافة المقطوعة حديثًا، المعشّش خلسة بين شجرة مائلة وجلاميد صخر مشروخة، إذ إنه لافت للنظر بحجمه وشكله: مستطيل أشبه بكلية من العقيق المرقط، لونه بين الرمادي والأخضر القاتم، واختلافه ملحوظ عن الأحجار الرملية المهشمة حوله. ولو كانوا ذهبوا ووقفوا جواره، للاحظوا أنه يكاد يكون بارتفاع الصدر وبطول جسد الإنسان. ولو أنهم لمسوه لكانوا سيُذهلون من كثافة سطحه. إنه جسم ذو هيئة تشي بالثقل، ورائحة معدنية تُذكر بالصدأ والدم. وكانوا ليفاجَؤوا من دفء ملمسه.

بدلًا من ذلك لم يكن هناك أحد عندما يتأوه الشيء بوهن، ثم ينقسم، ينشطر بانتظام حول محوره وكأنه نُشر. فرار الضغط والحرارة مع الانشطار يطلق هسيسًا عاليًا يشبه الصراخ، ما يفزع كائنات الغابة القريبة الذين لا يزالون أحياء. وفي رمشة عين ينسكب من حافتي الانشطار نور، يشبه اللهب ويشبه السوائل، ويتحول إلى زجاج محروق عندما يقع على الأرض حول الشيء. ثم يسكن هذا الشيء لوقت طويل، ليبرد.

وتمر عدة أيام.

بعد وقت، شيء من الداخل يدفع الجسم الخارجي، ويزحف بضعة أقدام ثم ينهار. ويمر يوم آخر.

الآن وقد برد وانشطر، تغطي قشرة من البلورات غير المنتظمة السطح الداخلي للجسم، بعضها يغشاه الأبيض وبعضها أحمر كالدماء. يتجمع سائل شاحب في قاع تجويف كلٍّ من نصفي الشيء المشطور، مع أن أغلب السائل الذي كان يحتويه الجيود قد تسرب إلى الأرض أسفله.

يتمدد الجسد الذي كان يحتويه الجيود على وجهه بين الصخور، عاريًا، لحمه جاف لكنه لا يزال يتنفس في إنهاك واضح. بيد أنه، بالتدريج، طفق يحاول النهوض. كل حركاته متعمدة، وبطيئة، بطيئة جدًّا، تستغرق وقتًا طويلًا. ما إن انتصب حتى شرع يمشي بطيئًا متعثرًا صوب الجيود، ثم يستند إليه. ينحني -ببطء- ويمدّ يده إلى داخله، ثم بحركة مباغتة حادة يكسر طرف بلورة حمراء. كانت قطعة صغيرة، في حجم حبة عنب تقريبًا، ومسننة مثل شظية زجاج.

الولد -إذ كان يشبه الأولاد- يضعها في فمه، ويمضغ. يصدر عن ذلك جلبة عالية، أصوات طحن وخشخشة يتردد صداها في الخلاء حوله. وبعد لحظات يزدرد. ثم يبدأ يرتجف ارتجافًا عنيفًا. يلفّ نفسه بذراعيه لوهلة، وشرع يتأوه بخفوت وكأنما أدرك فجأة أنه عارٍ وبارد وأن هذا سيئ.

يستعيد الولد التحكم في نفسه بعد جهد جهيد. يمدّ يده

إلى داخل الجيود -وقد أمسى الآن أسرع- ويحرر مزيدًا من البلورات. أخذ يضعهم في كومة صغيرة فوق الجيود بينما يحررهم. أخذت قطع البلورات السميكة الحادة تتفتت بين أصابعه وكأنها من السكر، مع أنها في الواقع أقسى بكثير. بيد أنه في الواقع ليس طفلًا حقيقيًا، فلم يكن هذا عليه عسيرًا.

في النهاية يقف متمايلًا بأيدٍ مليئة بتلك الحجارة اللبنية الدموية. تهبّ الرياح بعنف للحظات، يستجيب لها جلده بوخزات موجعة، ينتفض إثرها بحركة سريعة متشنجة مثل دمية ميكانيكية. يغضب من نفسه. ثم يستجمع تركيزه، وتصبح حركته رويدًا رويدًا أسلس، ويبدأ وقع خطاه يتساوى، يصبح أقرب إلى البشر. يومئ لنفسه وكأنه يؤكد على تلك الفكرة، لعلها كانت إيماءة رضًا.

ثم يستدير الولد، ويبدأ يمشي صوب تيريمو.

***

هذا ما عليك أن تتذكريه: نهاية أي قصة ليست إلا بداية لأخرى. فكل هذا حدث من قبل. يموت الناس، تنهار الأنظمة القديمة، تولد مجتمعات جديدة. عندما نقول «انتهى العالم» فتلك عادةً كذبة، لأن الكوكب بخير.

لكن هكذا ينتهي العالم.

هكذا ينتهي العالم.

هكذا ينتهي العالم.

لآخر مرة.

١

أنت، في النهاية

أنتِ هي، وهي أنتِ. أنت إيسّون، أتذكرينها؟ المرأة التي مات ابنها.

أنت أوروچينية ظلت عشرة أعوام تعيش في البلدة النكرة التي تدعى. ليس هناك سوى ثلاثة أشخاص يعرفون حقيقتك، منهم اثنان أنجبتهم بطنك.

والآن، يتبقى واحد.

لقد عشت طوال أعوام العقد المنصرم حياة عادية بقدر الإمكان. جئتها قبل ذلك من مكان ما، ولم يأبه أهلها من أين جئت ولا لماذا، ولمّا كنت كما هو واضح متعلمة جيدًا، أصبحت معلمة للأطفال بين العاشرة والثالثة عشرة. لستِ أفضل المعلمين ولا أسوأهم، ينساك الأطفال عندما يتجاوزونك، لكنهم يتعلمون. الجزّارة تعرف اسمك على الأرجح، لأنها تحب أن تغازلك، والخبّاز لا يعرفه، لأنك هادئة، ولأنه مثل جميع أهل المدينة لا يفكر فيك إلا باعتبارك زوجة جيجا. جيجا رجل من تيريمو بالولادة والاستيلاد، كسّار حجارة من طائفة-استخدام المقاومين. الكل يحبه، ولذا يحبونك من خلاله. إنه صدر اللوحة التي هي حياتكما معًا، وأنت خلفيتها، وهذا ما تفضلينه.

أنت أم لطفلين، لكن أحدهما الآن ميت والأخرى مفقودة.

ربما ميتة أيضًا. تكتشفين هذا عندما تعودين من العمل ذات يوم. البيت خاوٍ، وهادئ أكثر من المعتاد، وثمة طفل دامٍ ومكدوم على أرض غرفة المعيشة.

وأنت... تنطفئين. انطفاؤك ليس متعمدًا، بل الأمر يفوق احتمالك، أليس كذلك؟ يفوقه بمراحل. لقد مررت بكثيرٍ، وأنت قوية جدًا، لكن لاحتمالك حدود.

يمر يومان قبل أن يأتي من يسأل عنك.

قضيتهما في البيت بصحبة ابنك الميت. لقد نهضت واستخدمت المرحاض وأكلت شيئًا من الخزانة الباردة وشربت آخر قطرة ماء في الصنبور. كلها أشياء في وسعك فعلها بغير تفكير، بالروتين، وبعدها تعودين إلى جوار أوتشي.

(وأحضرت له بطانية في إحدى تلك الجولات، وغطيته بها حتى ذقنه المهشمة. إنه التعود. لقد توقف صخب أنابيب البخار، صار البيت باردًا، قد يمرض).

ثم في اليوم التالي، يطرق أحدهم الباب الأمامي. لا تدفعين نفسك إلى إجابة الطارق، فذلك سيتطلب التساؤل عمن قد يكون الطارق وإن كنت ستسمحين له بالدخول، والتفكير في هذه الأشياء سيجبرك على تأمل جثة ابنك تحت البطانية، لماذا قد تفعلين كل ذلك؟ تتجاهلين الطرقات.

يطرق أحدهم نافذة الغرفة الأمامية، بإلحاح، وتتجاهلينه أيضًا.

في النهاية، يكسر أحدهم زجاج الباب الخلفي. تسمعين

خطوات في الطرقة بين غرفة أوتشي وغرفة ناسّون، ابنتك.

(ناسّون، ابنتك).

تبلغ الخطوات غرفة المعيشة وتتوقف. «إيسّون؟».

تعرفين الصوت. صغير، ذكر. مألوف، ومطمئن على نحو مألوف. إنه لِرنا، ابن ماكنبا الذي يقطن في آخر الشارع، الولد الذي سافر عدة سنوات وعاد طبيبًا. لم يعد طفلًا، لم يعد كذلك منذ فترة طويلة، تُذكرين نفسك بذلك وتبدئين في التفكير فيه باعتباره رجلًا.

أوه، تفكير، حذاري من التفكير، تتوقفين.

يشهق، ويرتجف جلدك من رعبه عندما يقترب كفاية لرؤية أوتشي. اللافت للنظر أنه لم يصرخ. ولم يلمسك أيضًا، وإنما يتحرك إلى الناحية الأخرى من أوتشي، ويحدق إليك تحديقًا، محاولًا رؤية ما الذي يحدث في داخلك؟ *لا* شيء، *لا* شيء. يقشر البطانية ليرى جثة أوتشي. *لا* شيء، *لا* شيء. يعيد البطانية مجددًا، مغطيًا هذه المرة وجه ابنك.

تقولين: «إنه لا يحب ذلك»، أول مرة تتحدثين منذ يومين، تستغربين الكلام، «إنه يخشى الظلام».

بعد هنيهة صمت، ينزل لِرنا البطانية مجددًا تحت عيني أوتشي.

تقولين: «شكرًا لك».

يومئ لِرنا. «هل نمت؟».

«لا».

يدور لِرنا حول الجثة ويأخذ بذراعك، يحثّك على النهوض. إنه رقيق، لكنْ يداه حازمتان، ولا يستسلم عندما تظلين بلا حركة في البداية، بل يزيد الضغط حتى لا يعود أمامك إلا النهوض أو الوقوع، لا يترك لك خيارًا غير هذين. تنهضين. ثم بنفس الرقة الحازمة يقودك إلى الباب الأمامي، يقول: «يمكنك أن ترتاحي في بيتي».

لا تريدين أن تفكري، فلا تعترضي بأن عندك فراشك الخاص الممتاز، شكرًا، ولا تعلنين أنك بخير ولست في حاجة إلى مساعدته، ما كان ليكون كذبًا. يخرجك ويمشي بك عبر المربع السكني، محافظًا على قبضته حول مرفقك طوال الوقت. احتشد البعض في الشارع، يقولون أشياء لا تسمعين أيًّا منها ويرد عليها لِرنا. أصواتهم ضوضاء مبهمة لا يُعنى عقلك بتفسيرها. يكلمهم لِرنا بدلًا منك، كنتِ ستمتنين له لو كان في وسعك الاهتمام.

يأخذك إلى بيته، الذي يفوح بالأعشاب والكيماويات والكتب، ويضعك في فراش طويل يشغله قط رمادي سمين. يتحرك القط مفسحًا لك مساحة للاستلقاء، ثم يدس نفسه جوارك حالما تستقرين. كنتِ لتجدين في هذا بعض الراحة لو لم يكن وزنه ودفئه يذكرانك بصغيرك أوتشي، عندما يغفو بصحبتك.

كان يغفو. لا، تصريف الأفعال يتطلب إعمال التفكير. يغفو. يقول لِرنا «نامي»، ولا يصعب عليك الانصياع.

***

تنامين طويلًا. وفي لحظة ما تستيقظين. ترك لك لِرنا طعامًا في صينية جوار الفراش: حساء وثمرة فاكهة مقطعة وقدح شاي، وقد صار كل ذلك بدرجة حرارة الغرفة. تأكلين وتشربين، ثم تذهبين إلى الحمام. صندوق الطرد في المرحاض لا يعمل، ثمة دلو بجواره ممتلئة بالماء، يبدو أن لِرنا تركها لهذا الغرض. تحتارين في أمره قليلًا، ثم تشعرين بأنك على وشك التفكير، وتضطرين إلى المقاومة بشدة كي تظلي في السكون الدافئ للخواء العقلي. تصبين بعض الماء في المرحاض، وتنزلين عليه الغطاء، وتعودين إلى الفراش.

***

ترين في الحلم أنك في الغرفة مع جيجا وهو يفعلها. هو وأوتشي مثلما كانا في آخر مرة رأيتِهما: جيجا يضحك، ويحمل أوتشي على أحد ركبتيه ويلعب معه «زلزال»، والطفل يقهقه ويشبك فخذيه ويطوح ذراعيه كي يتزن. ثم يتوقف جيجا عن الضحك فجأة، ينهض -ملقيًا أوتشي على الأرض- ويشرع في ركله. تعلمين أن هذا لم يحدث، لقد رأيت آثار قبضة جيجا، كدمة ذات أربع علامات متوازية على معدة أوتشي ووجهه، لكنه في الحلم يركله، لأن الأحلام ليست منطقية.

لا يتوقف أوتشي عن الضحك وهزّ ذراعيه، وكأنها لا تزال لعبة، حتى وقد غطت الدماء وجهه.

تستيقظين صارخة، ينحسر صراخك إلى نحيب لا تقدرين

على إيقافه، يأتي لِرنا ويحاول قول شيء ما، يحاول أن يمسكك، وأخيرًا يجعلك تشربين شايًا قويًا كريه الرائحة. تنامين مجددًا.

***

يخبرك لِرنا: «حدث أمر ما في الشمال».

تجلسين على حافة السرير، وهو على مقعد مقابل لك. تشربين مزيدًا من الشاي المقرف. رأسك يؤلمك أكثر حتى من صداع ما بعد الثمالة. الوقت ليلًا، لكن نورًا ضعيفًا يضيء الغرفة، لم يشعل لِرنا سوى نصف الفوانيس. تلاحظين لأول مرة الرائحة الغريبة في الهواء حتى مع دخان الفوانيس؛ رائحة كبريت، حادة ولاذعة. كانت الرائحة حاضرة طوال اليوم، تزداد سوءًا بالتدريج، أشد لحظاتها كانت في أثناء غياب لِرنا.

«انسد الطريق خارج المدينة على مسافة يومين بالناس القادمين من كل اتجاه». يتنهد لِرنا ويفرك وجهه. إنه أصغر منك بخمسة عشر عامًا، لكنه لم يعد يبدو أصغر. شعره الطبيعي رمادي مثل كثير من السيباكيين، غير أن ما يجعل هيئته أكبر هو تلك التجاعيد الجديدة في وجهه، والظلال الجديدة في عينيه. «وقعت هزة قبل يومين، هزة كبيرة. لم نشعر بها هنا، لكن في سومى...»، تقع سومى في الوادي التالي، على مسافة يوم بالحصان، «البلدة كلها...»، ويهزّ رأسه.

تومئين، لكنك تعرفين كل هذا من قبل أن يقال لك، أو على

الأقل في وسعك التخمين. عندما كنت تجلسين في غرفة المعيشة تحدقين إلى ابنك المهشم، جاء شيء ما في اتجاه المدينة: اضطراب أرضي هائل لم تسسبني مثله قط، إن كلمة هزة لا تقترب حتى من وصفه. كان ذلك -أيًّا ما كانت ماهيته- قادرًا على هدم البيت فوق أوتشي، لذا وضعت شيئًا ما في طريقه، ما يشبه كاسر الأمواج، مزيجًا من إرادتك المركَّزة وطاقة الوضع المستمدة من هذا الشيء نفسه. لم يتطلب فعلك أي تفكير، في وسع طفل رضيع أن يفعله، وإن كان ليس بهذه الدقة؛ إذ إن الهزة انقسمت بعدها وتدفقت حول الوادي، ثم تابعت طريقها.

يلعق لِرنا شفتيه. ينظر إليك، ثم يحيد عنك. إنه الثالث، والوحيد الذي يعرف حقيقتك غير ابنيك. يعرفها منذ بعض الوقت، لكنه يواجهها الآن أول مرة. وأنت كذلك غير قادرة على التفكير فيها.

«راسك لا يسمح بالدخول ولا الخروج»، راسك هو راسك مبتكر تيريمو، وقائد البلدة بالانتخاب، «قال إن هذا ليس إغلاقًا كاملًا، ليس بعد، لكنني كنت ذاهبًا إلى سومى لعلي أستطيع المساعدة، وراسك رفض، ثم بعد ذلك وضع عمال المناجم على السور لدعم الأشداء ريثما يعود الكشافة من الخارج. وأمرهم بألا يسمحوا لي تحديدًا بتجاوز البوابات»، يكوِّر لِرنا قبضتيه ويكشر ملامحه، «ثمة أناس في الخارج على الطريق الإمبراطوري، بينهم مرضى ومصابون كثر، وهذا النغل الصدئ لا يدعني أساعد».

تهمسين: «أَمِّن البوابات أولًا». همسك مبحوح، صرخت كثيرًا بعد الحلم بجيجا.

«ماذا؟».

تحتسين مزيدًا من الشاي لتهدئة الوجع. «قول الحجر».

يحدق لِرنا بك. إنه يحفظ نفس النصوص أيضًا، يتعلمها الأطفال كلهم في المدرسة. يتربى الجميع على حكايات القوالين والجيوميستيين البارعين، الذين ينبهون المتشككين للعلامات التي بدأت في الظهور، ولا يجدون آذانًا منصتة، ثم ينقذون الناس عندما تثبت صحة القول.

يقول ببطء: «أتظنين الأمر وصل إلى ذلك؟ يا نار الأرض! هل أنت جادة يا إيسّون؟».

أنت جادة، وصل الأمر إلى ذلك، لكنك تعرفين أنه لن يصدقك لو حاولت أن تشرحي، فتهزّين رأسك. يخيم عليكما صمت ثقيل مؤلم. يقول لِرنا بخفوت بعد وهلة طالت: «لقد جلبت أوتشي معي، إنه في المستشفى، في الـ... الغرفة الباردة. سأشرف على الـ... الترتيبات».

تومئين ببطء.

يتردد، «أكان جيجا؟».

تومئين مجددًا.

«هل رأيته يـ...»

«عدت إلى البيت بعد المدرسة».

«أوه». يسود صمت مربك آخر. «يقول الناس إنك غبت اليوم الذي سبق الهزة. أعادوا الأطفال إلى البيت لما لم يجدوا بديلًا لك. لم يعرف أحد سبب غيابك». حسنًا، طردوك من العمل غالبًا. يأخذ لِرنا نفسًا عميقًا، ثم يخرجه، بعد هذا التحذير المسبق أصبحت شبه جاهزة. «لم تصبنا الهزة يا إيسّون، بل تجاوزتنا. فقط هزت بعض الأشجار وقلبت صخرة عند الجدول». الجدول عند النهاية الشمالية للوادي، حيث لم يلاحظ أحد جيودًا من العقيق ينفث البخار. «كل شيء حول المدينة بخير، فيما يشبه الدائرة تامة الاستدارة».

في زمن مضى كنتِ لتتظاهري بالدهشة. كان لديك ما يدعو إلى التنكر، حياة تستدعي الحماية.

تقولين: «أنا فعلتها».

تلتوي شفتا لِرنا، لكنه يومئ. «لم أقل لأحد...»، يتردد، «إنك... أوروچينية».

إنه شديد الدماثة والكياسة. كم سمعتِ من قبل أسوأ الألفاظ في وصف حقيقتك، وسمعها أيضًا، لكنها لن تخرج من فمه أبدًا. ولا من فم جيجا، فقد كان كلما ألقى أحدهم حوله لفظة روچا، يقول «لا أحب أن يسمع الأولاد هذه اللغة البذيئة»...

وبدون مقدمات تنحنين فجأة وتتقيئين، قيئًا جافًا. يهرع لِرنا كي يحضر أي شيء قريب، يجلب إناء التبرز في السرير الذي لم تحتاجيه. لكن شيئًا لا يخرج من معدتك، وبعد لحظة يتوقف القيء الجاف. تتنفسين نفسًا حذرًا، يليه آخر. يعطيك

لِرنا قدح ماء من دون كلمة. تلوحين رافضة، ثم تغيرين رأيك، يغشى فمك مذاق العصارة الصفراوية.

تقولين في النهاية: «لست أنا». يتجهم مرتبكًا، وتدركين أنه يحسبك لا زلت تتحدثين عن الهزة. «جيجا. لم يكشف حقيقتي أنا»، هكذا تفكرين، يجب ألا تفكري، «لا أعلم كيف أو ماذا، لكن أوتشي... إنه صغير، مازال غير قادر على التحكم في نفسه. لا بد من أن أوتشي فعل شيئًا، وجيجا أدرك...».

أن أبناءك مثلك. هذه أول مرة تؤطرين فيها الفكرة بالكامل.

يغلق لِرنا عينيه، ويسمح لزفير طويل بالخروج. «هذا هو السبب إذن».

هذا ليس سببًا، لا يجب أبدًا أن يكون هذا سببًا كافيًا لدفع أب إلى قتل ابنه. لا يجب أن يكون ثمة سبب لهذا.

يلعق شفتيه. «أتودين رؤية أوتشي؟».

لماذا قد تفعل؟ لقد رأته يومين كاملين. «لا».

ينهض لِرنا متنهدًا، لا يزال يفرك شعره بيده. تسألينه: «أستخبر راسك؟». بيد أن النظرة التي حثّها سؤالك على وجه لِرنا راعتك. إنه غاضب. إنه صبي هادئ ومهذب، لم تحسبينه قادرًا على الغضب.

يصيح: «لن أخبر راسك بشيء، أنا لم أقل شيئًا طوال كل هذا الوقت، ولن أفعل».

«إذن ماذا سـ. . .».

«سأذهب إلى إران». إران هي المتحدثة باسم طائفة استخدام المقاومين. وُلد لِرنا شديدًا، لكن عندما عاد إلى تيريمو طبيبًا تبنته طائفة استخدام المقاومين. لدى البلدة ما يكفيها من الأشدّاء، والمبتكرون لم يكن لهم حظ فيه. أنت أيضًا ادعيت أنك مقاومة. «سأخبرها بأنك بخير، وأجعلها تخبر راسك بهذا. *أما أنت* فستلتزمين بالراحة».

«وعندما تسألك لماذا فعل جيجا. . .».

يهز لِرنا رأسه. «الجميع خمنوا الإجابة بالفعل يا إيسّون. في وسعهم قراءة الخرائط. الواضح كالشمس أن مركز الدائرة هو هذا الحي. لن يصعب على من عرف بما فعل جيجا أن يستنتج السبب. ربما كان التوقيت غير صحيح، لكن الناس لا تفكر بهذه الدقة»، تحدقين به وتفهمين ببطء، تلتوي شفتاه ويتابع: «نصف الناس ملتاعون، لكن النصف الآخر ممتنون لجيجا، لأنهم يحسبون أن طفلًا في الثالثة قادر على بدء زلزال في يومينِس على بعد آلاف الأميال!».

تهزّين رأسك، مرتبكة من غضب ليرنا، وغير قادرة على تقبل أن الناس يظنون أن ولدك المشرق الضاحك يستطيع أن. . . استطاع أن. . . لكن جيجا ظن نفس الشيء.

يأخذ لِرنا نفسًا عميقًا آخر. كان يفعل ذلك طوال محادثتكما، رأيته يفعل تلك العادة من قبل، إنها طريقته في تهدئة نفسه. «ابقي هنا وارتاحي، سأعود عمّا قريب».

يغادر. تسمعين جلبة تجهُّزِه للذهاب أمام البيت، ثم بعد لحظات يذهب إلى اجتماعه. تفكرين في الراحة ثم تقررين ألَّا تفعلي، بدلًا منها تذهبين إلى حمام لِرنا، حيث تغسلين وجهك، ثم تتوقفين عندما يبصق صنبور المياه الساخنة فجأة، ثم يصبح لون المياه بنيًّا محمرًّا وتفوح رائحتها، ثم تنحسر بالتدريج إلى نقاط. انكسرت ماسورة في مكان ما.

قال لِرنا إن ثمة ما حدث في الشمال.

أبناؤنا هلاكنا. قالها لك أحدهم يومًا، قبل زمن طويل.

«ناسّون»، تهمسين بها لانعكاسك. في المرآة عينا ابنتك اللتان ورثتهما منك، رماديتان كالإردواز وبهما حزن. «جيجا ترك أوتشي في غرفة المعيشة، أين وضعك؟».

لا إجابة. تغلقين الصنبور. ثم تهمسين: «يجب أن أذهب، الآن». لأنك يجب أن تذهبي، وأن تجدي جيجا، وعلى أية حال تعرفين أن التلكؤ ليس في صالحك، أهل البلدة سيأتون قريبًا.

***

الهزة المنقضية سيرتد صداها، والموجة المنحسرة ستعود، والجبل الذي يغلي سيفور.

- اللوح الأول - «عن النجاة» - البيت الخامس

٢

دامايا، ذات شتاء مضى

القش دافئ جدًّا، حتى أن دامايا لا تريد القيام منه. تفكر -وهي في تلك المنطقة المبهمة بين النوم واليقظة- في أنه مثل اللحاف الذي حاكته لها جدتها الكبرى من بقايا قماش الأزياء الموحدة. عملت موه العزيزة قبل أن تموت بسنوات عديدة خياطة لدى ميلشيات برِفارد، وسمحوا لها بالاحتفاظ بالقصاصات المتبقية من أي إصلاحات قد تحتاجها الملابس الجديدة. لحاف دامايا كان منقطًا وقاتمًا، ذا شرائط متموجة كحلية وخضراء ورمادية، مثل خطوط المارشات العسكرية. لكن موه العزيزة حاكته بيديها، لذا لم تهتم دامايا قط بقبح شكله. كانت تفوح منه دومًا رائحة حلوة ورمادية وعطنة نوعًا، لذا يسهل عليها تخيل أن القش -ذو الرائحة العفنة مثل الروث القديم لكنها مع ذلك تشبه الفطر الحلو من بعيد- هو لحاف موه. اللحاف الحقيقي في غرفة دامايا لا يزال على فراشها حيث تركته، الفراش الذي لن تنم عليه مجددًا أبدًا.

تتسرب إليها بعض الأصوات من خارج كومة القش: أمها وشخص آخر يتحدثان في حين يقتربان منها. يتردد صرير خافت مع انفتاح باب الحظيرة، ثم يدخلان. صرير آخر مع انغلاق الباب خلفهما. ثم يرتفع صوت أمها ينادي: «داماداما؟».

تتكور دامايا على نفسها أكثر، تجزّ على أسنانها. تكره هذا اللقب الغبي. تكره الطريقة التي تقوله بها أمها، بدلع وخفة،

وكأنه تعبير حقيقي عن الحب وليس كذبة.

تقول أمها عندما لا ترد: «لا يمكن أن تكون قد خرجت، لقد تأكد زوجي من كل أقفال الحظيرة بنفسه».

«أمثالها للأسف لا يعيقهم قفل»، هذا صوت رجل، ليس أباها ولا شقيقها الأكبر، وليس قائد الكومونة، وليس أي شخص تعرفه. صوت هذا الرجل عميق، ويتحدث بلهجة لم تسمع مثلها قط: لهجة حادة وثقيلة، أصوات الواو والألف فيها طويلة ومتشدقة، وبدايات الكلمات فيها ونهاياتها هشة. يشي صوته بالذكاء. لمشيته رنة، حتى إنها تتساءل إن كانت تتدلى منه سلسلة مفاتيح ضخمة، أو ربما في جيبه أموال كثيرة؟ سمعت أن الناس يستخدمون نقودًا معدنية في بعض أنحاء العالم.

فكرة المال والمفاتيح جعلتها تتكور على نفسها أكثر، لأنها بالطبع قد سمعت همس الأطفال في المدرسة عن أسواق الأطفال في مدن الحجر المشطور البعيدة. ليس العالم كله متحضرًا مثل الشمال الأوسط. ضحكت على الهمسات عندما سمعتها أول مرة، أما الآن فكل شيء مختلف.

قال صوت الرجل الذي بات قريبًا: «هنا. أظنني أرى آثار حديثة».

تصدر أمها صوتًا مشمئزًا، ويغشى دامايا العار عندما تدرك أنهما وجدا الركن الذي لجأت إليه لقضاء حاجتها. الرائحة هناك مريعة، حتى مع كل القش الذي تغطيه به كل مرة.

«تقرفص على الأرض كالحيوانات؟ يا خسارة تربيتي فيها».

يسألها تاجر الأطفال بفضول مهذب: «هل يوجد هنا مرحاض؟ أو تركتِ لها دلوًا؟».

تجيب أمها بالصمت الذي يسود بعد ذلك بينهما. تدرك دامايا متأخرًا أن سؤال الرجل للأم كان توبيخًا. هذا ليس نوع التوبيخ الذي تعرفه دامايا، لم يرفع الرجل صوته ولم يلقِ شتيمة، لكن مع ذلك تقف أمها في مكانها مصعوقة كما لو أنه أتبع كلماته بلكمة في رأسها.

تتصاعد ضحكة إلى حلق دامايا، فتسارع إلى دسّ قبضتها في فمها لمنعها من الخروج. قد يسمعان دامايا تضحك على خزي أمها، وعندها سيعلم تاجر الأطفال أنها طفلة سيئة. لكن هل هذه مشكلة؟ لعل هذا يجعل الثمن الذي يتقاضاه والداها مقابلها أقل. هذا يجعل ضحكتها تكاد تنفجر أكثر، لأن دامايا تكره والديها، تكرههم، وكل ما قد يضايقهما يسعدها.

ثم تعضّ على يدها، بقسوة، وتكره نفسها، لأن الطفلة التي تفكر هكذا تستحق أن يبيعها والداها.

خطوات قريبة. يقول الرجل: «البرد هنا قاسٍ».

تقول أمها: «كنا لنحتفظ بها في البيت لو كان البرد يصل إلى التجمد»، وتكاد دامايا تضحك مجددًا على نبرتها المتبرمة الدفاعية.

لكن تاجر الأطفال يتجاهلها. تقترب خطواته. خطواته... غريبة. تستطيع دامايا سسبنة الخطوات، وهو شيء ليس في

وسع أكثر الناس، بل يستطيع الناس سسبنة الأشياء الضخمة فقط، الزلازل مثلًا، لكن لا شيء واهن مثل وقع قدم (عرفت هذا عن نفسها طوال عمرها، لكنها أدركت أخيرًا فقط أنه تحذير). التمييز أصعب عندما لا تكون على اتصال مباشر بالأرض، يصلها كل شيء عبر خشب هيكل الحظيرة والمسامير المعدنية التي تحافظ عليه قائمًا، لكنها مع ذلك تعرف ماذا عليها أن تتوقع، حتى وهي في الدور العلوي. دبّدبّ، الخطوة، ثم ترددها في الأعماق، دبّدبّ، دبّدبّ. أما خطوات تاجر الأطفال فلا تتردد ولا تتصدى. تستطيع أن تسمعهم، لكنها لا تتسبنهم. لم يحدث هذا من قبل قط.

وها هو يصعد السلم إلى العلية، حيث تربض تحت القش.

قال لما بلغ العلية: «آه، هنا أدفأ».

«داماداما!»، أمسى صوت أمها غاضبًا، «انزلي فورًا».

تنكمش دامايا في نفسها تحت القش أكثر ولا تقول شيئًا. تقترب خطى تاجر الأطفال.

يقول بصوته المتدحرج: «لا تخافي». أقرب. تشعر بتردد صوته عبر الخشب، ونزولًا إلى الأرض وإلى الصخور في الأسفل، ثم صعودًا مجددًا. أقرب. «لقد جئت لمساعدتك يا دامايا شديدة».

وهذا شيء آخر تكرهه، اسم استخدامها. إنها ليست قوية البدن على الإطلاق، ولا أمها. كل ما يعنيه اسم «شديدة» أن أسلافها من الإناث فزن بالانضمام إلى كومونة، لكن دون أية

ميزة تساعدهن في اكتساب مكانة آمنة فيها. قال لها أخوها تشاجا ذات مرة ليغيظها إن الأشدّاء يُلقون خارجًا مثلهم مثل الأغيار عندما يسوء الحال. ثم ضحك، وكأن هذا ظريف، وكأنه غير حقيقي. تشاجا بالطبع مقاوم، مثل أبيهما. تحب الكومونات أن تحتفظ بالمقاومين حتى في أصعب الأزمنة، مثلما في الأوبئة والمجاعات وغيرها.

تتوقف خطوات الرجل بالضبط عند كومة القش. يقول مرة أخرى: «لا تخافي»، صوته هادئ. لا تزال أمها تحت، وعلى الأرجح لم تسمعه. «لن أترك أمك تؤذيك».

داميا تشهق.

إنها ليست غبية. الرجل تاجر أطفال، وتجار الأطفال يرتكبون أشياء مريعة. لكن لقوله تلك الكلمات، ولأن جزءًا منها تعب من الخوف والغضب، تفكّ انكماشها، تسلك طريقها بين القش الناعم الدافئ حولها واعتدلت جالسة، وطفقت تنظر إليه من بين خصلات شعرها الملفوف والقش المتسخ.

هيئته غريبة مثل صوته، لا يبدو من باليلا ولا من أي مكان قريب. لونه يكاد يكون أبيض، شاحبًا كما الورق، لا شك أنه يحترق ويتجعد تحت الشمس الحامية. شعره طويل أملس، ما يرجح إلى جوار لون بشرته أنه أركتيكي، وإن كان لونه -أسود ثقيل، مثل التربة بالقرب من بركان ثار قديمًا- لا يرجح ذلك. إن لون شعر الساحل-شرقيين أسود مثله، لكن شعرهم مجعد وليس أملس، زائد أن لون بشرة الشرقيين أسود على عكسه. إنه ضخم، أطول من أبيها ومنكباه أعرض. لكن بينما يلتقي

كتفا أبيها في صدر ضخم ومعدة ممتلئة، هذا الرجل مسطح بشكل ما. كل شيء في هذا الغريب يبدو نحيلًا مخففًا. وكأنه لا ينتمي إلى أي عرق.

لكن أكثر ما يشدّ انتباه دامايا هو عينا تاجر الأطفال. لونهما أبيض تمامًا، أو يكاد يكون. في لحظة ترى بياض عينه، ثم في أخرى ترى قرصًا رماديًّا فضيًّا لا تكاد تميزه عن البياض، حتى عن قرب. إن حدقتيه متسعتان في عتمة الحظيرة، ومحيرتان في صحراء اللالون. لقد سمعت من قبل عن مثل تلك العيون، يسمونها بياض الثلج في القصص وقول الحجر. إنها نادرة، ونذير شؤم دائمًا.

بيد أن تاجر الأطفال يبتسم لدامايا، ولا تفكر مرتين قبل أن تجيبه بابتسامة مماثلة. تثق به فورًا. تعلم أن هذا خطأ، لكنها لا تملك غير ذلك.

يقول: «جميل، جميل»، لا يزال يتكلم بهدوء كي لا تسمعه أمها، «أنت دامادما شديدة؟».

تجيب تلقائيًّا: «دامايا فقط».

يميل رأسه بأناقة، ويمد إليه يده. «سأتذكر ذلك. هلا انضممت إلينا يا دامايا؟».

دامايا لا تتحرك، وهو لا يمسكها، بل يظل في مكانه صابرًا كصخرة، بيد مانحة لا آخذة. تنقضي عشرة أنفاس، عشرون، تعرف دامايا أنها ستضطر إلى الذهاب معه في النهاية، لكنها تحب كيف أنه يجعلها تشعر وكأن لها الخيار. هكذا تأخذ يده

أخيرًا، وتدعه يساعدها على النهوض. يحتفظ بيدها ريثما تنفض عن نفسها القش بقدر ما تستطيع، ثم يجذبها إليه قليلًا. «لحظة واحدة».

«ماذا؟».

لكن يد تاجر الأطفال الأخرى صارت بالفعل وراء رأسها، تضغط بإصبعين على قاعدة جمجمتها، بسرعة وبراعة كي لا تجفل. يغلق عينيه للحظة، يرتجف داخليًا، ثم يزفر بعمق ويتركها.

يقول بغموض: «الواجب أولًا». تلمس مؤخر رأسها مرتبكة، لا يزال الإحساس بضغط إصبعيه يتلكأ. «والآن هيا بنا ننزل».

«ماذا فعلت؟».

«مجرد طقس بسيط، شيء لتيسير العثور عليك لو تهت». ليس في وسعها تخيل ما يقصده. «هيا بنا، أحتاج إلى إخبار أمك بأنك مغادرة معي».

ما خمنته حقيقي إذن. تعضّ دامايا على شفتها. وعندما يستدير الرجل عائدًا إلى السلم، تتبعه متأخرة عنه بخطوة أو اثنتين.

يقول تاجر الأطفال خلال نزولهم إلى أمها: «حسنًا، هذا كل شيء» (تتنهد أمها عندما تراها، ربما سخطًا). «هل تسمحين بحزم متاعها؟ غيار أو غياري ملابس، وأي طعام تستطيعين توفيره للسفر، ومعطف، وبعدها سنذهب فورًا».

تتجمد أمها متفاجئة. «لقد تخلينا عن معطفها».

«تخليتم عنه؟ في الشتاء؟».

يتحدث بلطف، لكن أمها تبدو غير مرتاحة على الإطلاق. «ابنة خالتها احتاجت إليه. لسنا جميعًا نمتلك خزانات عامرة بأغلى الثياب فائضة عن الحاجة، و...»، وهنا تتردد أمها وتنظر إلى ابنتها. تحيد دامايا ببصرها عنها، فهي لا تريد أن ترى إن كانت أمها آسفة على تخليها عن المعطف، ولا تريد خصوصًا أن ترى إن لم تكن آسفة.

يقول الرجل بتنهيدة ضجرة: «وأنت سمعت أن الأوروچينيين لا يشعرون بالبرد كالآخرين. هذه أسطورة. ألم ترَيْ ابنتك مصابة بالبرد من قبل؟».

تبدو أمها مضطربة. «أوه، أنا... نعم، لكني حسبت...».

إن دامايا كانت تتظاهر بذلك. هذا ما قالته لدامايا في ذلك اليوم، بعدما عادت من المدرسة وبينما كانوا يودعونها الحظيرة. ثارت ثورة أمها وغرق وجهها في الدموع، في حين جلس أبوها في مكانه صامتًا وأبيض الشفتين. قالت إن دامايا أخفت عليهم حقيقتها، أخفت كل شيء، وتظاهرت بأنها طفلة مع أنها في الواقع وحش، وأن هذا ما يفعله الوحوش، وإنها لطالما عرفت أن ثمة خطبًا ما بدامايا، وكم كانت دومًا طفلة كاذبة...

هزّ الرجل رأسه. «رغم ذلك لا تزال تحتاج إلى حماية من البرد. ستقل البرودة بينما نقترب من الأراضي الاستوائية، لكن

لا يزال أمامنا أسابيع على الطريق حتى نصل».

يلتوي فك أمها. «إذن أنت ستأخذها فعلًا إلى يومينِس».

«بالطبع أنا...»، يحدق إليها، «أوه»، ينظر إلى دامايا، ينظر كلاهما إلى دامايا، نظراتهما تشعرها بالحكة، تنتفض. «إذن حتى مع أنك حسبتِ أني سأقتل ابنتك، طلبتِ من قائد كومونتك أن يستدعيني».

تتوتر أمها. «لا، أنا لم، لست...». ترتعش يداها في جانبيها، ثم تحني رأسها كما لو أنها تشعر بالعار، ما تعلم دامايا أنه كذب. أمها لا تخجل أبدًا من شيء فعلته، لو كانت خجلة فلماذا تفعله؟

قالت أمها بنعومة شديدة: «الناس العاديون لا يستطيعون رعاية الـ... مثلها من الأطفال»، تلتفت صوب دامايا مرة ثم تحيد عنها سريعًا، «لقد كانت على وشك قتل طفل في المدرسة. عندنا ابن آخر، وعندنا جيران، و...»، وتفرد كتفيها فجأة وترفع ذقنها، «وهذا واجب على أي مواطن، أليس كذلك؟».

«صحيح، صحيح، كل هذا صحيح. تضحيتك ستجعل العالم أفضل لنا جميعًا». كلماته مديح معلَّب مسبقًا، ونبرته ليست كذلك. تنظر دامايا إلى الرجل مرة أخرى، مرتبكة لأن تجار الأطفال لا يقتلون الأطفال، فهذا يناقض المغزى من تجارتهم. وما موضوع الأراضي الاستوائية هذا؟ هذه الأراضي في الجنوب البعيد جدًّا.

ينظر تاجر الأطفال إلى دامايا ويفهم أنها بشكل ما لا تفهم. ترتخي ملامحه، ما يفترض أنه مستحيل بهاتين العينين المرعبتين.

يقول الرجل إلى الأم ودامايا: «نعم، إلى يوميِنس. إنها صغيرة بما يكفي، لذا سآخذها إلى المرتكز. هناك ستتدرب على استخدام لعنتها. تضحيتها أيضًا ستجعل العالم أفضل».

دامايا تحدق إليه، وقد أدركت إلى أي مدًى كانت مخطئة. إن الأم لم تبع دامايا، بل تخلت عنها. وهي لا تكرهها، بل في الواقع تخشاها. هل هناك فارق؟ ربما، لا تعرف دامايا ماذا ينبغي عليها أن تشعر إزاء هذه الاكتشافات.

والرجل، هذا الرجل ليس تاجر أطفال، بل هو...

تسأل: «هل أنت وصيّ؟»، حتى وهي تعلم الإجابة يقينًا. يبتسم مرة أخرى. يبتسم مجددًا. لم تحسب أن الأوصياء هكذا، لطالما تخيلتهم طوال القامة باردي الوجوه مثقلين بالأسلحة والمعارف السرية. إنه على الأقل طويل.

يقول: «أجل»، ويأخذ بيدها. تفكر في أنه يحب لمس الناس كثيرًا، «أنا وصيّك».

تتنهد أمها. «يمكنني أن أعطيك لها بطانية».

«هذا مناسب، شكرًا»، ثم يسكت، ينتظر. بعد بضعة أنفاس تدرك الأم أنه ينتظرها أن تذهب لتحضرها. تومئ بارتباك، ثم تغادر الحظيرة بظهر متيبس. عندها يصبح الرجل ودامايا وحدهما.

يقول: «خذي»، ويمد يده إلى كتفيه. يرتدي ما يشبه الزي الرسمي: منتفخ الأكتاف وذا خطوط طويلة جامدة تجري على طول الأكمام والسيقان، من قماش خمري اللون يبدو متينًا لكن مثيرًا للحكة، مثل لحاف موه. تتدلى منه حرملة قصيرة لا فائدة لها إلا الزينة، لكنه ينزعها ويلفها حول دامايا. طولها كان كافيًا لتغطيتها، ولا تزال تحتفظ بدفء جسده.

تقول: «شكرًا. من أنت؟».

«اسمي شافا وصيّ وارانت».

لم تسمع دامايا من قبل بمكان اسمه «وارانت»، لكن لا شك في أنه موجود، وإلا ما فائدة أسماء الكومونات؟ تسأله: «هل «وصيّ» اسم استخدام؟».

«نعم، للأوصياء»، يقولها متشدقًا، فتحمر وجنتاها حرجًا، «لسنا ذوي فائدة للكومونات في الظروف العادية».

تعبس دامايا في حيرة. «ماذا؟ أتقصد أنهم سيرمونك في الخارج عندما تحل المواسم؟ لكن...». تعرف دامايا من الحكايات أن الأوصياء متعددو القدرات: إنهم محاربون عظام وصيادون وأحيانًا -الأغلب- سفاحون. تحتاج الكومونات إلى أمثال هؤلاء في الأزمنة الصعبة.

يهز شافا كتفيه بينما يتجه ليجلس على بالة قش قديمة. توجد بالة أخرى خلف دامايا، لكنها تظل واقفة، إذ تحب أن تكون في نفس مستواه. إنه أطول منها حتى وهو جالس، لكن على الأقل ليس بكثير.

«إن الأوروچينيين في المرتكز يخدمون العالم. من الآن فصاعدًا لن يكون لك اسم استخدام، لأن استخدامك ينبع منك، لا من إرثك العائلي. إن الطفل الأوروچيني منذ الولادة قادر على إيقاف الهزات. أنت أوروچينية، حتى ولو بلا تدريب، حتى ولو بلا كومونة كما الأغيار، *أنت أوروچينية*. لكن عبر التدريب، وعبر إرشاد غيرك من الأوروچينيين المهرة في المرتكز، يمكنك أن تكوني مفيدة ليس فقط لكومونة واحدة، بل للسكون برمتها»، ويفرد ذراعيه، «وأنا، كوصيٍّ، ومن خلال الأوروچينيين تحت وصايتي، أسعى إلى نفس الأهداف في نفس إطار التأثير، لذا من الإجحاف ألا أشارك رعاياي مصيرهم المحتمل».

يشتعل في دامايا الفضول ويمتلئ عقلها بالأسئلة، إلى حد أنها لا تعرف أيهم تسأل أولًا. «هل لديك...»، تتعثر أفكارها، وكلماتها، وقبولها لنفسها، «آخرون، مثـ... مثلي...»، ثم تنفد كلماتها.

يضحك شافا، وكأنه أحسّ بلهفتها وسعد بها، قال: «أنا الآن وصي على ستة»، ومال برأسه ليجعل دامايا تعرف أن هذه هي الكلمات المناسبة لقول هذا، للتفكير فيه، «بما فيهم أنتِ».

«وهل أخذتهم كلهم إلى يومينِس؟ وجدتهم هكذا... مثلي...؟».

«ليس بالضبط. بعضهم وُضع تحت وصايتي منذ أن وُلدوا في المرتكز، أو ورثتهم من أوصياء آخرين، وبعضهم وجدته منذ

أن كُلفت بالتجوال في الشمال الأوسط»، يفرد ذراعيه، «عندما أبلغ والداك عن ابنتهما الأوروچينية قائد باليلا، أرسل القائد برقية إلى برِفارد، وبرفارد أرسلوها إلى جيدو، وجيدو أرسلوها إلى يومينِس، وأولئك أرسلوا برقية إليَّ»، يتنهد، «والحظ وحده هو ما دفعني إلى زيارة محطة التوصيل القريبة من برفارد بعد وصول الرسالة بيوم، ولولا ذلك ما كنت لأراها إلا بعد أسبوعين».

تعرف دامايا برفارد، ويومينِس بالنسبة إليها أسطورة، أما بقية الأماكن التي ذكرها فبالنسبة إليها مجرد كلمات في كتب المدرسة. برفارد هي المدينة الأقرب إلى باليلا، أكبر منها بكثير، وهي المكان الذي يذهب إليه أبوها ليبيع نصيبه في المحاصيل مع بداية كل موسم زراعي. ثم استوعبت كلماته؛ أسبوعين آخرين في هذه الحظيرة، في البرد، تقضي حاجتها في الركن. إنها أيضًا سعيدة بأنه تلقى رسالة برفارد مبكرًا.

يقول: «أنت محظوظة جدًّا»، لعله قرأ ما ارتسم على محياها، وعلى محياه ترتسم الجدية، «لا يلتزم كل الأهالي بفعل الصواب. أحيانًا لا يحتفظون بأطفالهم معزولين مثلما ينصح المرتكز والأوصياء، وأحيانًا يفعلون، لكن تتأخر علينا رسالتهم، ولا يصل الوصيّ إلا بعدما تحتشد جمهرة غاضبة وتنتزع الطفلة وتضربها حتى الموت. لا تسيئي الظن بوالديك يا داما، أنت حية وبخير، وهذا ليس بشيء هين».

تنتفض دامايا قليلًا، لا ترغب في قبول ذلك. يتنهد، يتابع: «وأحيانًا، يحاول والدا الطفلة الأوروچينية مداراة الطفلة،

والاحتفاظ بها بغير تدريب ولا وصيّ. نهاية هذا دومًا سيئة».

هذا ما كان يدور في ذهنها على مدار الأسبوعين المنقضيين، منذ ذاك اليوم في المدرسة. لو كان أبواها يحبانها، ما كانا ليحبسانها في الحظيرة، ولا أرسلا طلبًا إلى هذا الرجل، ولا نعتتها أمها بكل هذه النعوت البشعة.

تندفع قائلة: «ولم لا يـ. . .» قبل أن تدرك أنه قال هذا عمدًا ليرى إن كانت فكرة (لم لا يحتفظون بي هنا ويخبئونني) قد دارت في ذهنها، وعرف الآن الحقيقة. اعتصرت قبضتا دامايا الحرملة حيث تمسكها لتشدها حولها، لكن شافا أومأ.

«أولًا لأن عندهما طفل آخر، وأقل عقوبة لأي شخص يُضبط في حيازة أوروچيني غير مُسجل، هي الطرد من الكومونة». دامايا تعرف هذا، وإن كانت تكره هذه المعرفة. لكن الآباء الذين يهتمون بابنتهم مستعدون للمخاطرة، أليس كذلك؟ «ليس في وسع والديك أن يخسرا بيتهما وحياتهما وحضانة ابنيهما معًا. بل اختارا أن يحتفظا بشيء عوضًا عن خسارة كل شيء. بيد أن الخطر الخبر يكمن في طبيعتك يا داما. إن قدرتك على إخفائها ليست أكثر من قدرتك على إخفاء أنك أنثى، أو إخفاء عقلك الصغير الذكي». تتورد خجلًا، غير متأكدة إن كان هذا مديحًا. يبتسم، فتتأكد.

يتابع: «كلما تحرك الأرض، ستسمعين نداءه. في لحظات الخطر ستلجئين غريزيًا إلى أقرب مصدر للدفء والحركة. إن قدرتك مثل القبضة للرجل القوي، عند الخطر يفعل المرء ما في وسعه لحماية نفسه. وعندما تفعلين، سيموت أشخاص».

داميا تجفل. يبتسم شافا مجددًا بنفس لطفه الدائم. ثم تفكر داميا في ذلك اليوم. كان ذلك بعد الغداء، في ساحة المدرسة. كانت قد تناولت شطيرتها في أثناء جلوسها جوار البركة مع ليمي وشانتار كما تفعل دائمًا، بينما يلعب بقية الأطفال أو يتقاذفون بالطعام. وبعض الأطفال كانوا منكبين في ركن الساحة ينبشون في التراب؛ كان عندهم اختبار جيوميستيا بعد الظهر. حينها أتى زاب ثلاثتهما، عدا أنه نظر إلى داميا وحدها وقال: «اتركيني أغش منك».

ليمي ضحكت. كانت تعتقد أن زاب يحب داميا. لكن داميا لم تحبه، فقد كان شنيعًا، يضايقها طوال الوقت وينبزها وينغزها حتى تصيح عليه كي يتوقف، فيعاقبها المدرس على ذلك. لذا قالت لزاب: «لن أعرض نفسي للعقاب من أجلك».

قال: «لن تُعاقبي لو فعلتِها صح، حركي فقط ورقتك قليلًا و...».

قالت مرة أخرى: «لا، لن أفعلها صح، لن أفعلها أبدًا، اذهب». وعادت لتواجه شانتار لتتابع الحديث الذي قاطعه زاب.

بعدها لم تدرك داميا نفسها إلا وهي على الأرض. دفعها زاب عن الصخرة بكلتا يديه. تعثرت وانقلبت رأسًا على عقب حرفيًا، ووقعت على ظهرها. ستتذكر لاحقًا -عندما تظل أسبوعين في الحظيرة تفكر في الأمر- نظرة الصدمة على وجهه، وكأنه لم يحسب أنها ستقع بهذه السهولة. لكنها

وقتها لم تعِ إلا أنها على الأرض، في الطين. أمسى ظهرها باردًا ومبتلًا وموحلًا، كل شيء فيها يفوح بنتانة المستنقعات والعشب المسحوق. دخل الطين في شعرها، وهذه أفضل ملابسها، كم ستغضب أمها، كم هي غاضبة، ولذا قبضت على الهواء و...

ترتجف. *سيموت أشخاص*. شافا يومئ وكأنه سمع أفكارها.

يقول بصوت شديدة النعومة: «أنت زجاج بركاني يا داما. أنت هدية من الأرض، لكن الأب الأرض يكرهنا، لا تنسيْ ذلك، وهداياه ليست مجانية ولا آمنة. لكن لو أننا أخذناك، وشحذناك، وعاملناك بالعناية والاحترام كما تستحقين، ستصبحين قيمة. لكن لو تركناك من دون رعاية، ستجرحين أول من يصطدم بك حتى النخاع، أو ربما أسوأ، ستؤذين وتدمرين عديدًا».

تتذكر دامايا النظرة على وجه زاب. هبّ الهواء من حولها باردًا للحظة وكأنه فرقعة بالون. كان ذلك كافيًا لتشكيل قشرة ثلجية فوق العشب أسفلها، ولجعل قطرات العرق على وجه زاب صلبة. تجمدا في مكانيهما، وحدقا أحدهما إلى الآخر.

تتذكر وجهه، ونظرة *كدت تقتليني* التي رأتها عليه.

شافا، الذي يراقبها عن كثب، لم يتوقف عن الابتسام.

يقول: «هذا ليس خطأك. أغلب ما يُقال عن الأوروچينيين ليس صحيحًا، ليس لك ذنب في أنك ولدتِ هكذا، ولا ذنب لوالديك. لا تغضبي منهما ولا من نفسك».

تبدأ تبكي، لأنه محق. محق في كل ما قال، صحيح تمامًا. إنها تكره أمها لتعريضها لكل ذلك، وتكره أباها وأخاها لسماحهما لأمها بفعل ذلك، وتكره نفسها لأنها وُلدَت هكذا وخيبت أملهم جميعًا. والآن شافا يعلم كم أن كل هذا هشٌّ ومريع.

يقول: «ششش»، ينهض ويتجه إليها. ينزل إليها على ركبته ويأخذ بيديها، تأخذ في البكاء أكثر. لكن شافا يعتصر يديها بحدة توجعها، فتجفل، وأخذت تكتم أنفاسها، وتراه مشوشًا من خلال جفنيها اللذين لا ينفكان يرمشان بسرعة. «لا تبكي يا صغيرة، أمك ستعود قريبًا. لا تبكي أبدًا حيث يمكنهم رؤيتك».

«ما... ماذا؟».

بدا شديد الحزن -على دامايا؟- عندما مدّ يديه واحتوى وجنتيها فيهما. «هذا غير آمن».

لا فكرة لديها عما قد يعنيه.

ومع ذلك تتوقف. ما إن مسحت وجنتيها حتى يمسح بإبهامه دمعة فلتت منها، ثم يومئ بعدما تفحصها بسرعة. «أمك ستلاحظ على الأرجح، لكن هذا سيكفي للآخرين».

يتردد صرير الباب، عادت الأم، بصحبة الأب هذه المرة. فم الأب منطبق تمامًا، ولا ينظر نحو دامايا مع أنه لم يرها منذ أودعتها أمها الحظيرة. يركز كلاهما على شافا، الذي ينهض ويتحرك قليلًا إلى أمام دامايا، ويقبل بإيماءة شاكرة من الأم

البطانية وصرة مربوطة بإحكام.

يقول الأب بجمود: «لقد سقينا حصانك، أتريد له بعض العلف؟».

يقول شافا: «لا داعي، لو تحركنا بسرعة سنصل إلى برفارد بعد الغروب».

يتجهم الأب. «رحلة صعبة».

«صحيح، لكن أحدًا من هذه القرية لن تخطر له فكرة أن يلحقنا في برفارد ليودع دامايا بالطريقة الفظّة».

تستغرق دامايا بعض الوقت كي تفهم، ثم تدرك أن هناك أناسًا في باليلا يريدون قتلها. لكن هذا خطأ، أليس كذلك؟ لا يقدرون، صح؟ تفكر في كل الناس الذين تعرفهم، معلمي المدرسة وبقية الأطفال والسيدات الكبار في النزل على الطريق اللواتي كن صديقات لموه قبل أن تموت.

أبوها أيضًا يفكر في ذلك، تستطيع رؤية ذلك على وجهه. يتجهم، يفتح فمه ليقول ما تفكر فيه: *لن يفعلوا مثل ذلك أبدًا*. لكنه يتوقف قبل أن تغادر الكلمات فمه. يرنو إلى دامايا، بوجه محمَّل بالآلام، ثم يتذكر أن يحيد عنها ببصره مرة أخرى.

يقدم شافا البطانية إلى دامايا ويقول: «تفضلي». إنه لحاف موه. تحدق إليه، ثم تنظر إلى أمها، لكن أمها لا تبادلها النظر.

البكاء غير آمن. حتى وهي تنزع عنها حرملة شافا وتلف

حولها اللحاف -أليف وعطن وخشن وممتاز- تحافظ على ملامحها صلبة. يتبادل معها شافا نظرة سريعة، يومئ إيماءة بسيطة مؤيدًا. ثم يأخذ بيدها ويتجه بها إلى باب الحظيرة.

يتبعهما الأب والأم، لكن دون أن ينطقا حرفًا. دامايا بدورها لا تقول شيئًا. تصدر عنها التفاتة صوب البيت، تلمح فيه شخصًا عبر خصاص الستائر، قبل أن تنغلق الستائر بحدة. إنه تشاجا، أخوها الأكبر، الذي علمها القراءة وركوب الحمار ورمي الحجارة على البحيرة بحيث تقفز. إنه لم يلوح لها حتى مودعًا... لكن هذا ليس كرهًا، باتت تعرف ذلك.

يرفعها شافا على حصان أكبر من أي حصان رأته على الإطلاق، كميت ضخم لامع طويل الرقبة، ثم يصعد على السرج خلفها، ويلفّ لحافها حول رجليها وحذائها كي لا ترتجف ولا تصاب بقضمة صقيع، ثم ينطلقان.

ينصحها شافا: «لا تنظري إلى الخلف، هكذا أسهل». فلم تفعل. لاحقًا، ستدرك أنه كان محقًّا في ذلك أيضًا.

لكن لاحقًا أكثر، ستتمنى لو كانت فعلت على أية حال.

***

[غير مقروء] العين بياض الثلج، الشعر رماد البركان، الأنف مصفاة، الأسنان مشحوذة، اللسان ملحي مشطور.

- اللوح الثاني - «الحقيقة الناقصة» - البيت الثامن

٣

أنتِ، في طريقك

لا زلت تحاولين أن تقرري من ستكونين. لم يعد هناك معنى للمرأة التي كنتها أخيرًا، فقد ماتت هذه مع أوتشي. لم يعد لها فائدة، بكل خنوعها وهدوئها وعاديتها، ليس بعدما وقع من أحداث فوق العادة.

لكنك لا زلت تجهلين أين دُفنت ناسّون، وإن كان جيجا قد اهتم بدفنها. عليك أن تظلي نفس الأم التي أحبتها ابنتك حتى يتسنى لك وداعها.

لذا تقررين ألا تنتظري مجيء الموت.

إنه قادم إليك، ربما ليس الآن لكن عمّا قريب. حتى مع أن تلك الهزة الكبرى القادمة من الشمال قد أخطأت تيريمو، يعرف الجميع أنها كان ينبغي أن تصيبها. إن السِسَبينا لا تكذب، أو على الأقل لن تكذب مع تلك القوة العاتية المحطمة للأعصاب الزاعقة في العقول. الجميع من حديثي الولادة إلى الشيوخ المنهكين سسبنوا أن الهزة قادمة. ولا شك أن مع اختناق الطرق باللاجئين الهائمين من القرى والمدن الأقل حظًا (اللاجئين المتجهين جنوبًا)، لا شك أن أهل تيريمو بدؤوا يسمعون الحكايات. سيلاحظون أثر الكبريت في الرياح، سينظرون إلى السماء التي تتغير، ويفكرون في أن التغيير نذير شؤم (وهو كذلك). ولعل راسك، القائد، قد أرسل أخيرًا من يتفقد أحوال سومى، القرية الواقعة في الوادي التالي.

إن لأغلب التيريميين قرابة هناك ونسبًا، وقد ظلت القريتان تتبادلان البضائع والناس لأجيال. إن الولاء للكومونة أهم مما عداه طبعًا، لكن طالما لا زلنا لم يتضور أحدنا جوعًا، قد يعني النسب والعرق شيئًا أيضًا. لا يزال حتى الآن في وسع راسك أن يكون كريمًا. ربما.

وما إن يعود الكشافة ليبلغوا عن الدمار الذي تعلمين أنهم سيجدونه في سومى -والناجين، الذين تعرفين أنهم لن يجدوهم، أو على الأقل ليس بأعداد ضخمة- لن يعود الإنكار ممكنًا. ولن يعود هناك مكان إلا للذعر. والمذعورون يحبون كباش الفداء.

هكذا ترغمين نفسك على الأكل، وتحذرين هذه المرة من التفكير في الأوقات السابقة والوجبات الماضية مع جيجا والأطفال (إن الدموع اللاإرادية أفضل من القيء اللاإرادي، لكن من ذا الذي يقدر على اختيار طبيعة حزنه؟). ثم تخرجين بهدوء من باب حديقة لِرنا، وتعودين إلى بيتك. لا أحد بالخارج، لا بد أنهم جميعًا عند راسك ينتظرون الأخبار أو توزيع المهام.

في البيت، يحتوي أحد بيوت أحراز الأسرة تحت البساط على مخلاة هروب الأسرة. تجلسين على أرضية الغرفة التي ضُرب فيها أوتشي حتى الموت، وتفحصين محتويات المخلاة، تزيلين منها الأشياء التي لن تحتاجيها (فقد جهزت المخلاة مع جيجا قبل حتى أن يولد أوتشي، وتجاهلتما تحديثها): طقم ملابس السفر المريحة لناسّون صغير جدًّا. قالب متحجر من

الفواكه المجففة، غطاه العفن بطبقة بيضاء مزغبة. ربما لا يزال قابلًا للأكل، لكنك لست يائسة إلى هذه الدرجة (بعدُ). تحتوي المخلاة أيضًا أوراقًا تثبت ملكيتك أنت وجيجا للبيت، وأوراق أخرى تثبت أنكما غير متأخرين في دفع الضرائب إلى حكومة الربع، وأنكما عضوان في طائفة استخدام المقاومين. تتركين كل هذا، كل ما يثبت وجودك المادي والقانوني لعقد كامل، في كومة صغيرة مع الفاكهة المتعفنة.

حفنة النقود في المحفظة المطاطية -نقود ورقية، إذ كانت المحفظة مكتظة بها- لن يكون لها فائدة ما إن يدرك الناس إلى أي درجة تدهور الحال، لكنها ستظل ذات قيمة إلى هذا الحين، ووقود ممتاز للنار بعدها. تحتفظين بسكين السلخ السبجية التي أصر جيجا على الاحتفاظ بها، أنت على الأرجح لن تستخدميها (فلديك أسلحة طبيعية أفضل)، لكنها ستفيد في المقايضة، أو على الأقل كتحذير مرئي. ويمكن أيضًا المقايضة بحذاء جيجا طويل الرقبة، فلن يرتديه مجددًا، لأنك ستجدينه قريبًا، وستقضين عليه.

تتوقفين، تراجعين الفكرة الأخيرة لتناسب المرأة التي اخترت أن تكونيها: ستجدينه وتسألينه لماذا فعل ما فعل، وكيف طاوعه قلبه على ذلك، ثم ستسألينه السؤال الأهم، أين ابنتك.

تحزمين المخلاة من جديد، ثم تضعينها في أحد الصناديق التي كان جيجا يستخدمها في النقل. لن يفكر أحد مرتين عندما يراك تحملين صندوقًا في المدينة، فلقد كنت تفعلين ذلك كثيرًا حتى أيام قليلة ماضية، مساعدةً لجيجا في نقل

السيراميك ومعدات كسر الصخور. في النهاية سيخطر لشخص ما أن يتعجب من قيامك بتوصيل طلبات بينما القائد على وشك إعلان الأحكام الموسمية. لكن أكثر الناس لن يخطر لهم هذا في البداية، وهذا ما يهم.

تمرين بينما تغادرين بالبقعة التي كان أوتشي ممددًا عليها لأيام. أخذ لِرنا الجثة وترك البطانية. بقايا الدماء لا تُرى، لكنك مع ذلك تتحاشين النظر في ذاك الاتجاه.

بيتك واحد من عدة بيوت في ذاك الركن من المدينة، يعشش بين الحافة الجنوبية من السور وخضرة المدينة. لقد اخترتما البيت عندما كنتِ وجيجا تقرران شراءه لأنه معزول، ويقع في ممرر ضيق تحفه الأشجار. كان وسط المدينة على بعد تمشية قصيرة من الخضرة، ما كان على هوى جيجا تمامًا. ذلك كان شيئًا لطالما اختلفت معه بشأنه: أنت لم تحبي أن تكوني قريبة من الآخرين أكثر من اللازم، بينما كان جيجا اجتماعيًّا صاخبًا يثير الصمت جنونه...

يباغتك غضب خالص ساحق محطم للدماغ. تضطرين إلى التوقف عند مدخل بيتك، تستندين إلى حلق الباب بيدك، تأخذين أنفاسًا عميقة كي تمنعي نفسك من الانفجار في الصراخ، أو لعلك تطعنين أحدهم (نفسك؟) بسكين السلخ، أو ما هو أسوأ، تجعلين درجة الحرارة تهبط.

طيب. لقد كنت مخطئة، الغثيان ليس أسوأ أشكال الحزن، مقارنة بغيره.

لكنك ليس لديك وقت لهذا، ليس لديك طاقة لهذا. تجعلين تركيزك على أشياء أخرى، أية أشياء أخرى. خشب حلق الباب تحت يدك، الهواء، الذي صرت تلاحظينه أكثر بعدما أصبحت في الخارج. لا يبدو أن رائحة الكبريت تسوء، على الأقل الآن، وهذا شيء على الأرجح جيد. تسسبنين أن ليست هناك شقوق أرضية قريبة، ما يعني أن الرائحة قادمة من الشمال، حيث الشق، الجرح المتقيح الهائل من الساحل إلى الساحل الذي تعرفين يقينًا أنه موجود، مع أن ما يحكيه المسافرون على الطريق الإمبراطوري لا يزيد حتى الآن على إشاعات. تأملين ألا يزيد تركيز الكبريت إلى حد سيئ، لأنه لو فعل سيخنق الناس ويصيبهم بالغثيان، وعندما تمطر السماء المرة القادمة سيموت السمك في الجدول وتحمض التربة...

نعم، صرت أفضل، بعد لحظات بات في وسعك المشي مبتعدة عن البيت أخيرًا، تستعيدين قشرة الهدوء والثبات الخارجية.

لا يوجد كثير من الناس في الخارج، لا بد من أن راسك أعلن الإغلاق أخيرًا. بوابات الكومونة تُقفل عندما يعلن الإغلاق، وعندما ترين بعض الناس يتحركون قريبًا من أحد أبراج المراقبة عند السور تخمنين أن راسك نشر الحراس في مواقعهم، خطوة استباقية، فهذا لا ينبغي أن يحدث قبل إعلان الموسم. تلعنين حذر راسك سرًّا، وتأملين أنه لم يفعل أي شيء آخر يصعِّب عليك أمر التسلل مبتعدة.

السوق مغلقة، على الأقل الآن، كي لا تُكنز البضائع ولا

تُضرب الأسعار. يبدأ حظر التجوال من الغسق، وعلى كل الأعمال غير الضرورية لحماية المدينة أو لدعمها أن تقفل. الكل يعرف كيف ينبغي أن تجري الأمور. كل شخص مكلف بدور، وكثير من هذه الأدوار يمكن أن تتم بين الحيطان: نسج سلال التخزين وتجفيف وحفظ الأطعمة القابلة للفساد وتعديل الغرض من الملابس والأدوات. تتم الأمور بكفاءة إمبراطورية وبحسب نصوص قول الحجر، اتباعًا للقواعد والإجراءات التي يفترض بها أن تكون عملية وفي نفس الوقت تحافظ على عدد ضخم من البشر المتوترين مشغولين. على سبيل الاحتياط.

ومع ذلك، وبينما تمشين إلى جوار حافة الخضرة -لا يمشي الناس على الخضرة خلال الإغلاق، وذلك ليس اتباعًا لأي قانون، بل لأن مثل تلك الأزمنة تذكرهم بأن الأخضر يعني احتمال زراعة محاصيل في المستقبل، وليس مجرد رقعة للحشائش والزهور البرية- تلمحين عددًا من التيريميين في الخارج، أغلبهم من الأشداء. بعضهم يبني مرعى وسقيفة لحجز ركن من الخضرة لأجل الماشية. إن البناء عمل شاق، ومن يعملون فيه ينهمكون إلى حدٍّ لا يدع لهم فسحة للانتباه إلى امرأة وحيدة تحمل صندوقًا. بعض الوجوه مألوفة لك من بعيد، وجوه أناس رأيتها في السوق من قبل أو عبر عمل جيجا. يعرفونك بما يكفي لعدم اعتبارك غريبة، ولكنهم مشغولون الآن إلى حد يمنعهم من تذكر أنك قد تكونين أيضًا *أم روجا . . .*

أو من التساؤل عن أي من الوالدين ربما قد ورث الطفل

الروچا الميت لعنته.

وسط المدينة أكثر ازدحامًا. تختلطين هنا بالجموع، تمشين بنفس سرعة الآخرين، تردين الإيماءة لو وُجهت إليك بمثلها، تحاولين تجنب التفكير في أي شيء كي يرتسم على وجهك محيًّا الملل والانفصال. ثمة حشد حول مكتب القائد؛ شيوخ الأحياء ونواب الطوائف جاءوا لتسجيل ما تم من مهام الإغلاق قبل أن يعودوا لتنظيم المزيد، وآخرون يتجولون في الأنحاء أملًا في سماع كلمة عمَّا حدث في سومى أو غيرها. لكن حتى هنا لا يوجد من يأبه بشأنك. ولماذا قد يفعلون؟ إن الهواء يعبق بعطن انشطار الأرض وكل شيء بعد دائرة نصف قطرها عشرون ميلًا دمرته هزة لم يشهد كائنٌ حيٌّ أقوى منها. لدى الناس أمور أهم تشغلهم عنك.

عدا أن كل هذا يمكن أن يتغير في لحظة. لا ترخي حذرك.

مكتب راسك في الواقع بيت صغير يقع بين حرز الحبوب وورش العربات. تقفين على أصابع قدميك لتنظري من فوق المحتشدين، لا تتفاجئين برؤية أويامار، نائب راسك، يقف على الشرفة مخاطبًا رجلين وامرأة يغطيهم الطين والملاط أكثر من الملابس. إنهم في الأغلب «يدعمون البئر»، أحد الأشياء الذي ينصح بها قول الحجر حال وقوع هزة، وتشجع عليها إجراءات الإغلاق الإمبراطورية أيضًا. ما دام أويامار هنا، راسك إذن في مكان آخر، إما يعمل وإما -طبقًا لمعرفتك به- ينام، بعدما أنهك نفسه في الأيام الثلاثة التي أعقبت الحادثة. لن يكون في بيته لأن الناس سيجدونه بسهولة هناك. لكنك تعرفين من

ثرثرة لِرنا أين يختبئ راسك عندما يرغب في ألا يزعجه أحد.

مكتبة تيريمو مخجلة. إن لديهم مكتبة فقط لأن جد زوج قائدة سابقة من أثار لغطًا وكتب الخطابات لمحافظ الربع حتى موَّل المحافظ في النهاية إنشاء مكتبة، فقط ليخرسه. لم يستخدمها الكثيرون بعد موت الرجل، لكن رغم الطلبات الدائمة بإغلاقها في اجتماعات الكومونة، لم تحظَ أي منها بأصوات كافية قط. هكذا ظلت المكتبة: كوخ عتيق متداعٍ تصول فيه الفئران ليس أكبر من صالة بيتك، يزخر بأرفف الكتب والمخطوطات. لا يستطيع أن يمشي بين الرفوف بحرية إلا طفل أو شخص هزيل، وأنتِ لستِ بطفلة ولا هزيلة، لذا عليك أن تنثني وتنسلي وتمشين بالجنب، بل وربما تزحفين بشكل ما. لا مجال حتى للتساؤل إن كان يمكن إحضار صندوقك معك، فتتركيه حذاء الباب بالداخل، وهذا لا يهم على أية حال، فلا أحد هنا قد يتلصص على محتوياته... إلا راسك، الملتف حول نفسه على حشية صغيرة في مؤخرة الكوخ، حيث تترك الرفوف الأصغر مساحة تتسع بالكاد لجسده.

تتمكنين أخيرًا من شقّ طريقك عبر الأكوام. يجفل راسك ويرمش ناظرًا ناحيتك، ويبدو على وشك البدء في توبيخ أيًّا كان من أقلق راحته. ثم يتروى، لأنه رجل حصيف، ولهذا انتخبه التيريميون، وترين في تقلب وجهه اللحظة التي تتحولين فيها من زوجة جيجا، إلى أم أوتشي، إلى أم *روچا*، إلى (يا للأرض!) روچا كذلك.

جيد، هذا يسهل الأمور.

«أنا لن أؤذي أحدًا»، تقولينها بسرعة، قبل أن ينتفض أو يصرخ أو أيًّا ما كان قد اشتد وتره ليفعله. وتتعجبين عندما ترين أن راسك رمش مجددًا لمَّا سمع كلماتك، وتروَّى مجددًا، وتراجع الهلع من وجهه. يعتدل جالسًا، يسند ظهره إلى الحائط الخشبي، ويتأملك طويلًا، متفكرًا.

يقول: «أظن أنك لم تأتي فقط كي تخبريني هذا».

تلعقين شفاهك وتحاولين القرفصة. يصعب عليك ذلك لعدم وجود مساحة كافية، تضطرين إلى سند مؤخرتك إلى الرفوف، وتنتهك ركبتاك مساحة أكثر مما تودين من مكان راسك. تفلت منه نصف ابتسامة على هيئتك بادية الانزعاج، ثم تتلاشى الابتسامة عندما يتذكر حقيقتك، ثم يعبس وكأن تزامن كلا الشعورين يزعجه.

تقولين: «هل تعرف إلى أين ذهب جيجا؟».

يرتجف وجه راسك. إنه كبير بما يكفي ليكون والدك، لكنه أبعد رجل ممكن عن الأبوة عرفتِه قط. لطالما أردت أن تجلسي بصحبته في مكان ما وتتناولا البيرة، حتى ولو كان ذلك لا يلائم التمويه الوديع العادي الذي اختلقته لنفسك. أكثر أهل المدينة ينظرون إليه نفس النظرة، حتى مع حقيقة أنه -بحسب علمك- لا يشرب. غير أن النظرة على وجهه في تلك اللحظة، تجعلك تفكرين لأول مرة أنه يمكنه أن يكون أبًا جيدًا، لو أنجب.

يقول: «هذا ما في الأمر إذن؟»، صوته أجش بفعل النوم، «هو من قتل الطفل؟ هذا ما يقوله الناس، لكن لِرنا قال إنه غير متأكد».

تومئين إليه، لم تقدري على قول *نعم* لِلِرنا كذلك.

عينا راسك تفحصان وجهك. «والطفل كان. . . ؟».

تومئين مرة أخرى، وراسك يتنهد. تلاحظين أنه لا يسأل إن كنت *أنتِ* أي شيء.

يقول: «لم يرَ أحد الاتجاه الذي ذهب فيه جيجا»، وانزاح ليحرر ركبتيه ويريح ذراعه عليهما، «كان الناس يتكلمون عن الـ. . عن القتل، فهذا أسهل من الكلام عن. . .»، رفع يديه وتركهما تقعان في إيماءة العاجز، «لغو كثير، وأكثره طين لا حجر. رأى البعض جيجا يجهز عربتكما ذات الحصان وينطلق برفقة ناسّون. . .».

أفكارك ترتبك. «مع ناسّون؟».

«نعم، معها، عندما. . .»، ثم يفهم، «أوه، اللعنة، هي أيضًا روچا؟».

تحاولين ألا ترتجفي. تكورين قبضتيك سعيًا إلى كبح هذا، تشعرين أن طبقات الأرض العميقة صارت فجأة أقرب، والهواء المحيط بك فجأة أبرد، ثم تقدرين على احتواء يأسك وبهجتك ورعبك وسخطك.

بعد لحظة مرت عليك دهرًا، كل ما تقولينه هو: «لم أعلم

أنها حية».

«أوه»، راسك يرمش، وتعود إلى وجهه تلك النظرة المتعاطفة، «نعم، صحيح، كانت كذلك عندما غادرا على الأقل. لم يعلم أحد أن ثمة شيئًا خاطئًا أو حتى فكر في أن في ذهابهما مشكلة. أكثر الناس رأوا أبًا يحاول تعليم ابنته الكبرى العمل أو يسلي طفلته الضجرة، أي المعتاد. ثم حدث كل هذا الخراء في الشمال، ونسي الجميع كل شيء عن ذلك، حتى قال لِرنا إنه وجدك و... وطفلك». يتوقف هنا، يلتوي فكه، «لم أحسب قط أن جيجا من هذا النوع. هل كان يضربك؟».

تهزين رأسك، «أبدًا». لعل جيجا لو كان عنيفًا من قبل لصار هذا أسهل بشكل ما، كنت لتلومين نفسك على ذنب سوء الاختيار أو الانصياع، وليس على ذنب التكاثر فقط.

يأخذ راسك نفسًا عميقًا بطيئًا. «خراء، فقط... خراء». يهز رأسه، ويفرك شعره الزغبي الرمادي. لم يولد راسك رمادي الشعر مثل لِرنا وغيره ذوي شعر الرماد براكيني، لا زلت تذكرين شعره عندما كان بنيًا. «هل ستذهبين خلفه؟»، ترنو عيناه بعيدًا للحظة ثم تعود. هذه ليست أمنية بالضبط، لكنك تفهمين ما تمنعه لباقته من قوله، *غادري المدينة بأسرع ما يمكنك أرجوك*.

تومئين، يسعدك أن تفعلي، «أحتاج منك إلى تصريح بالخروج».

«تم»، يتوقف لوهلة، «تعرفين أنك لن يكون في وسعك

العودة».

«أعرف»، تجبرين نفسك على الابتسام، «لا رغبة لديَّ في الرجوع».

«لا ألومك»، يتنهد، ثم يتزحزح مرة أخرى بعدم ارتياح، «أخـ... أختي...».

لم تعرفي أن لراسك أختًا، ثم تفهمين. «ماذا حدث لها؟».

هز كتفيه، «المعتاد. كنا نعيش في سومى، ثم اكتشف أحدهم حقيقتها، وأخبر بعضهم، وجاءوا وأخذوها ذات ليلة. لا أذكر الكثير عمَّا حدث، كنت في السادسة فقط من عمري. انتقلت أسرتي بعدها إلى هنا»، استطالت شفتاه فيما لا يشبه الابتسامة، «لهذا السبب لم أرغب في الإنجاب قط».

تبتسمين، «ولا أنا»، لكن جيجا رغب.

«يا صدأ الأرض!». أغلق عينيه للحظة، ثم نهض مرة واحدة على قدميه، ونهضت بدورك، وإلا كان وجهك ليصبح قريبًا من بنطاله المتسخ القديم أكثر من اللازم. «سأصطحبك إلى البوابة، لو أنك ذاهبة الآن».

هذا يفاجئك. «أنا ذاهبة، لكنك لست مضطرًّا». أنت لست متأكدة إن كانت تلك فكرة جيدة، فربما يستدعي انتباهًا أكثر مما تريدين، لكن راسك يهزّ رأسه متجهمًا، ويجزّ على أسنانه.

«بل مضطر، هيا».

«راسك...».

ينظر إليك، وأنت من يجفل هذه المرة. لستِ محور الكلام هذه المرة، الغوغاء الذين أخذوا أخته منه ما كانوا ليجرؤوا على ذلك لو كان رجلًا بما يكفي وقتها.

أو ربما كانوا ليقتلوه أيضًا.

تمشيان في شارع السبعة مواسم، شارع المدينة الرئيسي، تريدان البوابة الرئيسية. راسك يحمل الصندوق، وأنت مضطربة، تحاولين اتخاذ هيئة الواثقة المسترخية، مع أنك لا هذه ولا تلك. لم تكوني لتختاري اتخاذ هذا الطريق وسط كل هؤلاء الناس. راسك يشدّ انتباه الجميع، في البداية، يلوحون له أو ينادونه أو يقتربون منه يسألونه عن الأخبار الجديدة... ثم يلاحظونك. يتوقفون عن التلويح أو يتوقفون عن الاقتراب ويبدؤون -من مسافة- في المشاهدة، وبعضهم يتبعونكما. لا صوت أعلى من جلبة المدن الصغيرة العادية، على الأقل ظاهريًّا. لكنك ترين تلك الكتل البشرية الصغيرة تتهامس، وتشعرين بهم يحدقون، وهذا يشعل النار في أعصابك على أسوأ نحو.

يُحيي راسك حراس البوابة عند اقترابكما. ثمة حوالي عشرة أشداء من الذين يعملون في الظروف العادية عمال مناجم أو مزارعين، يتهادون أمام البوابة بغير نظام؛ يوجد اثنان في أعشاش الغربان فوق السور حيث يسعهما المراقبة من فوق، واثنان يقفان في الأسفل عند فتحات النظر في البوابة، أما البقية فيتلكؤون بهيئة بادية الضجر أو يتبادلون المزاح. اختارهم راسك على الأرجح لهيئاتهم المهيبة، فكلهم ضخام

الجثة كما السانزيون ويبدون قادرين على الاهتمام بأمورهم حتى بغير السكاكين السبجية والأقواس المستعرضة التي يحملونها.

يتقدم أضألهم لتحية راسك، وهو رجل تعرفينه وإن كنت لا تتذكرين اسمه. كان أبناؤه تلاميذًا في فصولك بمدرسة المدينة. وهو أيضًا يتذكرك، تدركين ذلك عندما تثبت عيناه عليك وتضيقان.

راسك يتوقف، ينزل الصندوق أرضًا، يفتحه ويعطيك مخلاة هرويك. يقول للرجل: «هل كل شيء تمام هنا يا كارا؟».

يقول كارا من دون أن يرفع عينيه عنك: «كان كل شيء تمامًا، حتى الآن». الطريقة التي ينظر بها إليك تجعل جلدك يشتدّ. ثمة شديدان يراقبان أيضًا، ينقلان نظراتهما بين كارا وراسك، مستعدين لتنفيذ الأوامر، وهناك امرأة تحدق إليك علنًا، أما البقية فقانعون باختلاس النظر إليك في لمحات خاطفة.

يقول راسك: «جميل، جميل»، ترين أنه يتجهم قليلًا، لعله قرأ نفس الإشارات التي التقطتِها، «هلا أخبرت جماعتك بفتح البوابة دقيقة؟».

لا ينزل كارا عينيه من عليك. «أتظن أن هذه فكرة جيدة يا راسك؟».

راسك يكفهر، ويقترب من كارا بحدة حتى يكاد وجهاهما يتلامسان. راسك ليس ضخمًا -إنه من المبتكرين لا الأشدّاء،

وإن كان ذلك لم يعد يهم- وهو في تلك اللحظة ليس في حاجة إلى الضخامة في شيء. يقول بصوت خفيض ومشدود حتى أن كارا ينقل تركيزه إليه أخيرًا: «نعم، أعتقد ذلك. افتح الباب إذا سمحت، لو لم تكن يداك الصدئتان مشغولتين».

تفكرين في ذلك السطر من قول الحجر، البنيان – البيت الثالث: «الجسد يهون، يحتاج الزعيم إلى ما هو أكثر كي يدوم».

يلتوي فك كارا، لكن بعد لحظة يومئ. تحاولين أن تبدي مشغولة في تثبيت المخلاة. أحزمتها واسعة، جيجا كان آخر من جرب ارتداءها.

يعمل كارا وغيره من رعاة البوابة على تشغيل نظام من البكرات التي تساعد في رفع البوابة. أغلب أسوار تيريمو من الخشب، فهي ليست كومونة غنية الموارد بما يكفي لاستيراد الحجارة الجيدة أو لتأجير البنائين، لكنها مع ذلك أفضل حالًا من الكومونات سيئة الإدارة، أو الكومونات الجديدة التي لا تمتلك حتى سورًا بعدُ. غير أن البوابة نفسها حجرية، لأن البوابة أضعف نقطة في سور كل كومونة. لا يحتاجون إلى رفعها من أجلك سوى قليلًا، وبعد لحظات قليلة بطيئة ضاغطة، وصيحات متبادلة بين من يشدّون ومن يراقبون، يتوقفون.

يلتفت راسك إليك بعدم ارتياح جلي، يقول: «آسف بشأن... بشأن جيجا». ليس بشأن أوتشي، لكن لعل هذا أحسن، تحتاجين إلى الحفاظ على ذهنك متيقظًا، «بشأن كل هذا...

تبًّا، أتمنى أن تجدي هذا النغل».

تكتفين بهز رأسك، تشعرين بغصة في حلقك. لقد كانت تيريمو بيتًا لك عشرة أعوام. صحيح أنك لم تبدئي في اعتبارها بيتًا إلا منذ ولادة أوتشي تقريبًا، لكن يظل هذا أكثر مما حسبت أنه سيكون. تتذكرين مطاردة أوتشي عبر المساحة الخضراء بعدما تعلم الركض، وتتذكرين جيجا عندما ساعد ناسّون على صنع طائرة ورقية وطيرها معها، وفشلا. لا تزال بقايا الطائرة عالقة في شجرة بمكان ما في الناحية الشرقية من المدينة.

بيد أن المغادرة ليست بالصعوبة التي تخيلتها، ليس ونظرات جيرانك السابقين تنهمر على وجهك مثل زيت زنخ.

تهمهمين: «شكرًا»، تقصدين بها الشكر على أشياء كثيرة، لأن راسك لم يكن مضطرًّا إلى مساعدتك. لقد دمر نفسه بفعله ذلك، لن يعود رعاة البوابة يحترمونه بنفس القدر، وسيتكلمون، وعمَّا قريب سيلقبه الجميع صاحب الروچا، وهذا أمر خطير، لا يمكن لقائد أن يتحمل مثل هذا الضعف في وقت اقتراب موسم. لكن ما يهمك أكثر مما عداه الآن لحظة الاحترام العلني تلك، فيها من اللطف والشرف ما لم تتوقعي تلقيه قط. لا تعرفين كيف يفترض أن يكون رد فعلك.

يومئ إليك بنفس عدم الارتياح، ويدور مبتعدًا بينما تتجهين إلى فتحة البوابة. لعله لم يرَ كارا يومئ إلى أحد رعاة البوابة الآخرين، ولعله لم يرَ المرأة التي رفعت بسرعة قوسها المستعرض إلى كتفها وصوبته إليك. ستفكرين لاحقًا في أن راسك ربما كان ليستطيع أن يوقف المرأة، ويمنع بشكل ما كل

ما سيقع بعد ذلك، لو كان قد رأى.

لكنك ترينها، خارج محيط بصرك. ثم يحدث كل شيء أسرع مما يحتمل التفكير. ولأنك لا تفكرين، لأنك منعت نفسك من التفكير عمدًا ما يعني أنه لم يعد خاصية فعالة، لأن التفكير يعني أن تتذكري أن أسرتك ماتت وأن كل ما كان يعني لك السعادة من قبل أمسى الآن كذبة وأن التفكير سيجعلك تنهارين وتنفجرين في البكاء والصراخ و

لأنك ذات مرة في حياة أخرى تعلمت الاستجابة للخطر بطريقة معينة،

تمدين يديك إلى الهواء المحيط بك وتشدين و

تثبتين قدميك في الأرض تحتك وترتكزين وتركزين و

عندما تطلق المرأة السهم، وترينه يلمع متجهًا إليك، وقبل أن يلمسك مباشرة، ينفجر إلى مليون شذرة لامعة متجمدة.

(يوبخك صوت في رأسك: «يا لك من شقية». صوت ضميرك، صوت عميق وذكوري. تنسين تلك الفكرة في نفس لحظة ورودها تقريبًا. هذا الصوت من حياة أخرى).

حياة.

تنظرين إلى المرأة التي حاولت فورًا قتلك.

«ما هذا... اللعنة». كارا يحدق إليك، وكأنما بُهت فشلك في الموت. انحنى، تكورت يداه في قبضتين، يكاد يقفز في مكانه من فرط الهياج. «أطلقي مرة أخرى، اقتلوها، أطلقوا

عليها، عليك لعنة الأرض...».

«ما هذا الخراء الذي تفعله؟». راسك، يلتفت عائدًا بعدما أدرك أخيرًا ما يحدث، لكن بعد فوات الأوان.

تحت قدميك وتحت أقدام الجميع، تبدأ هزة.

يصعب تمييزها في البداية، إذ لم يأتِ أي طنين سسونا تحذيري، مثلما يحدث عادة عندما تكون الهزات الأرضية من الأرض. لهذا يخشى أمثال هؤلاء الناس أمثالك من الناس، لأنكم تتجاوزون الاستشعار، تتجاوزون الاستعداد. أنتم مفاجأة، مثل ألم أسنان مباغت، مثل أزمة قلبية. الذبذبة الناجمة عمَّا تفعلين تتصاعد، تتسارع، تصبح اضطرابًا وهياجًا يمكن إدراكهما بالآذان والأقدام واللمس وليس بالسِّسَبينا وحدها، لكن في هذه المرحلة فات أوان فعل أي شيء.

كارا يعبس، ينظر إلى الأرض تحت قدميه. المرأة ذات القوس المستعرض تتوقف فجأة عن تعمير قوسها بسهم جديد، وتتسع عيونها التي تنظر إليك من فوق الخيط المتوتر في سلاحها.

تقفين وسط شذرات الثلج وشظايا السهم المتفتت، التي تلف حولك في دوامة رقيقة. ثمة دائرة قطرها قدمان من الصقيع تغلف رقعة الأرض التي تقفين عليها. ضفائرك تهفهف برقة مع النسيم المتصاعد.

«لا». يهمس بها راسك وعيناه تركزان في النظرة المرتسمة على وجهك (لا تعرفين كيف هي هيئتك الآن، لكن لا شك في

أنها مريعة) يهز رأسه وكأن الإنكار سيمنع ما يحدث، ويتراجع خطوة إلى الخلف، ثم أخرى. «إيسّون».

تقولين لراسك: «أنت قتلته». هذا كلام غير عقلاني، تقصدين «أنتم»، أي جمعًا، حتى لو كنت تتحدثين إليه بالتحديد. راسك لم يحاول قتلك، ولم يكن له دخل فيما حدث مع أوتشي، لكن محاولة قتلك قدحت زناد شيء خام وغاضب وبارد فيك. *أيها الجبناء، أيها الحيوانات، يا من تنظرون إلى طفل فلا ترون فيه إلا فريسة*. جيجا وحده الملوم على ما حدث لأوتشي، جزء منك يعرف هذا. لكن جيجا نشأ هنا في تيريمو، ومن هؤلاء الناس حولك تعلّم الكراهية التي تجعل الرجل يقتل ابنه.

راسك يشهق: «إيسّون. . .».

ثم ينشق أرض الوادي.

جاءت الهزة الأولى الناجمة بعنف كافٍ لإلقاء كل من يقف على الأرض ولرجّ كل بيت في تيريمو. ثم أخذت البيوت ترتجف بينما تتحول الهزة بنعومة إلى ذبذبة مستمرة مستقرة. ورشة سايدر لإصلاح العربات هي أول ما انهار بعدما انزلق الإطار الخشبي القديم للمبنى عن أساساته. يعلو صراخ من فيها، ثم تتمكن امرأة واحدة من الفرار قبل أن يتداعى إطار الباب إلى الداخل. على الحافة الشرقية للمدينة، بالقرب من الجبال التي تحيط بالوادي، يبدأ انهيار صخري. يندفن جزء كبير من سور الكومونة وثلاثة بيوت تحت وابل ساحق من الطين والأشجار والحجارة. تحت سطح الأرض بمسافة بعيدة،

حيث لا يبلغ إدراك أحد سواك، تتصدع الحوائط الطينية لطبقة المياه الجوفية التي تغذي آبار المدينة، وتبدأ مياه تلك الطبقة تتسرب. لن يدركوا لعدة أسابيع أنك قتلت المدينة في تلك اللحظة، لكنهم سيتذكرونك عندما تجف الآبار.

على الأقل أولئك الذين سينجون من اللحظات التالية.

دائرة الصقيع حول قدميك تتمدد ومعها شذرات الثلج الهائمة حولك، بسرعة. تصل أول ما تصل إلى راسك. يحاول أن يهرب من حافة القرص المتسعة حثيثًا، لكنه أقرب من اللازم. تصل إليه وسط اندفاعه، تغلف قدميه وتجمد رجليه وتلتهم جسده صعودًا على عموده الفقري في غمضة عين، يقع على الأرض جامدًا كصخرة، وقد تحول جلده إلى لون شعره الرمادي. ثاني مَن تلتهمه الدائرة هو كارا، الذي كان لا يزال يصرخ طالبًا من أي شخص قتلك. تموت صرخته في حلقه بينما يقع، بعدما تجمد في لحظة، آخر أنفاسه الدافئة تخرج بهسيس عبر أسنانه المنطبقة إلى الأرض المثلجة، وأنت تسرقين الحرارة منها.

أنت لا تصبين الموت على جيرانك القرويين فقط بالطبع. الطائر الجاثم على سور قريب يقع فريسة للتجمد بدوره، والعشب يتقصف، والتربة تنشف، والهواء يصفر ويعوي بينما تُنتزع منه الرطوبة والكثافة... لكن أحدًا لا ينعي أبدًا ديدان الأرض.

يمرق الهواء بخفة على طول السبعة مواسم، فتتراقص الأشجار ويصرخ أي شخص تصادف وجوده فزعًا عندما يدرك ماذا يحدث. لم يتوقف الأرض عن الحركة. تتمايلين مع

الأرض، ويسهل عليك نقل مركز توازنك مع الأرض لأنك تعرفين إيقاعه. تفعلين هذا بغير تفكير، لأن لا مكان في تفكيرك إلا لفكرة واحدة.

قتل هؤلاء الناس أوتشي. قتلوه بكراهيتهم، بخوفهم، بعنفهم غير المبرر. هم...

(هو...)

قتلوا ابنك.

(جيجا قتل ابنك).

يهرب الناس إلى الشوارع، يصرخون، ويتساءلون لماذا لم تكن هناك أية تحذيرات مسبقة، وتقتلين كل من دفعه منهم هلعه أو غباؤه إلى الاقتراب.

جيجا، إنهم جيجا، المدينة الصدئة كلها جيجا.

غير أن شيئين ينقذان الكومونة، أو على الأقل أغلبها. أولهما أن أغلب المباني لا تنهار. ربما كانت تيريمو أفقر من أن تُبنى بالحجر، لكن أكثر بنائيها محترمون ويتلقون أثمانًا باهظة كي لا يستخدموا إلا التقنيات التي ينصح بها قول الصخر: الإطار المتدلي، والعارضة المركزية. وثانيهما أن خط صدع الوادي -الذي تمزقينه الآن بعقلك- يقع على بعد عدة أميال غربًا. سينجو أغلب تيريمو بسبب هذين الأمرين، على الأقل حتى تجف آبارها.

بسبب هذين الأمرين، وبسبب الصراخ المرعوب المتقطع

لطفل صغير يركض أبوه هاربًا به من مبنى يتراقص بجنون.

تلتفتين بحكم العادة نحو الصوت، تتحرين المصدر بآذان الأم. يحتضن الرجل الطفل بذراعيه، وليس معه حتى مخلاة هروب؛ أي أن الشيء الوحيد الذي استغرق وقتًا ليحمله كان ابنه. لا يشبه الولد أوتشي من قريب ولا من بعيد، لكنك تحدقين إلى الطفل المرعوب الذي يمدّ ذراعيه تجاه البيت بحثًا عن شيء تركه الرجل خلفه (لعبته المفضلة؟ أمه؟)، وفجأة، أخيرًا، *تفكرين*.

وعندها تتوقفين.

بحق الأرض اللامبالي، انظري ماذا فعلت.

تتوقف الهزة. يُصفر الهواء مجددًا، لكنه هذه المرة هواء رطب دافئ يندفع إلى رقعة الأرض التي تقفين عليها. تبتل بشرتك والأرض تحتك فورًا بفعل التكثيف. يسكن هدير اهتزاز الوادي، ولا يبقى إلا الصراخ وجلبة الأخشاب المتداعية وصافرة إنذار الهزات الذي لم يبدأ إلا الآن.

تغلقين عينيك، ألمًا وارتجافًا وتفكيرًا. *لا، أنا من قتل أُوتشي، قتلته بكوني أمه*. تنساب الدموع على وجهك، بعدما حسبت أنك غير قادرة على البكاء.

لم يعد هناك الآن من يمنعك عن البوابة. رعاة البوابة الذين كانوا يحاولون ذلك هربوا، ومنهم من لم يتمكنوا من الهرب بسرعة كافية مثل راسك وكارا. تضعين مخلاة الهروب على كتفك وتتجهين إلى فتحة البوابة بينما تفركين وجهك بإحدى

يديك. تبتسمين، ابتسامة مريرة مؤلمة. ليس في وسعك منع نفسك من إدراك المفارقة في الأمر كله. كنت راغبة في تجنب انتظار مجيء الموت، أليس كذلك؟

يا لك من امرأة غبية. كان الموت هنا طوال الوقت، أنت الموت.

***

لا تنسي من أنت.

- اللوح الأول - «عن النجاة» - البيت العاشر

٤

سينايت، بعد الصقل والتلميع

تفكر سيانيت خلف درع ابتسامتها البديعة «هذا خراء».

لكنها لا تدع المهانة تظهر على وجهها، ولا حتى تتململ قيد أنملة في مقعدها. يداها -اللتان يزين أربعة من أصابعهما خواتم بسيطة من العقيق الأحمر والأوبال الأبيض والذهب والأونكس-تستقران على ركبتيها. إنهما خارج نطاق رؤية فلدسبار، تحت المكتب، تستطيع أن تكورهما في قبضتين دون أن تلاحظ فلدسبار، لكنها لا تفعل.

«إن الشعاب المرجانية أزمة كبيرة كما تعرفين». فلدسبار تبتسم من فوق قدح الأمان الخشبي الضخم الذي يشغل يديها بحمله. إنها تعلم جيدًا ما تخفيه سيانيت خلف ابتسامتها. «ليست الشعاب مثل الصخور العادية، بل هي مسامية ومرنة. تتطلب تحكمًا دقيقًا لتحطيمها من دون التسبب في تسونامي ضخم».

وساين يمكنها فعلها وهي نائمة، أيُّ ذي خاتمين يمكنه ذلك، بل وحتى الحصى أيضًا قادرة، وإن كان بصراحة ليس من دون أضرار جانبية ضخمة. تمد يدها إلى قدح أمانها أيضًا، تلف نصف الكرة الخشبية بين أصابعها كي لا تهتز، ثم ترتشف. «أنا ممتنة لأن حضرتك وضعتني تحت رعاية مرشد».

«بل أنت لست ممتنة». فلدسبار تبتسم وترتشف بدورها من قدحها بينما يرتفع خنصرها ذو الخاتم في الهواء. وكأنهما في منافسة إتيكيت خاصة، صاحبة أفضل ابتسامة مزيفة تكسب. «لكن على سبيل العزاء، لن يقلل هذا منك في نظر أحد».

لأن الكل يعلم حقيقة ما في الأمر. هذا لا يمحُ الإهانة، لكنه يمنح ساين بعض الراحة. على الأقل «مرشدها» الجديد هذا يرتدي عشرة خواتم. وذلك أيضًا مريح، يعني أنهم يقدرونها كثيرًا. ستعتصر الفكرة حتى آخر قطرات تقدير الذات الممكنة.

تقول فلدسبار برقة: «لقد أكمل فورًا جولة كاملة في الجنوب الأوسط». ليس هناك أية رقة في موضوع المحادثة، لكن ساين تقدر مجهودات السيدة المسنة. «عادةً كنا لنسمح له بالراحة بعض الوقت قبل السفر مجددًا، لكن محافظ الربع لا يتوقف عن الإلحاح كي نفعل شيئًا بشأن انسداد مرفأ آليا في أقرب وقت ممكن. أنت المكلفة بالعمل، أما هو فسوف يشرف عليك لا أكثر. الوصول إلى هناك سيستغرق شهرًا على الأقل، هذا لو لم تنحرفا عن الطريق وسافرتما بإيقاع هادئ. لا داعي إلى التعجل، فالشعاب المرجانية ليست مشكلة تظهر بين يوم وليلة».

وهنا بدا على فلدسبار، للحظة عابرة لكن صادقة، الانزعاج. لا بد أن محافظ آليا أو قيادتها مزعجون إزعاجًا خاصًا. على مدار السنوات التي عُينت فيها فلدسبار مشرفة عليها، لم ترَ ساين أي تعبير أسوأ من ابتسامة جافة على وجه السيدة المسنة. كلتاهما تعلم القواعد: أوروچينيو المرتكز -أو

الأوروچينيون الإمبراطوريون، أو المعاطف السوداء، أو من لا ينبغي قتلهم... أيًّا كان ما يطلق عليهم الناس- يجب أن يكونوا دومًا مهذبين ومحترفين. يجب أن يعكس أوروچينيو المرتكز الثقة والخبرة أينما حلّوا بين الناس. أوروچينيو المرتكز يجب ألا يبدو عليهم الغضب لأن هذا يُشعر الراكدين بالتوتر. وإن كانت فلدسبار لن تكون قليلة الذوق أبدًا إلى حدٍّ يجعلها تتلفظ ببذاءات مثل *راكدون*. لكن لهذا فلدسبار مشرفة ومكلفة بمسؤوليات الإشراف، في حين سيانيت تصقل نصالها بنفسها وحدها. سيتعين عليها إبداء احترافية أكثر لو أرادت الحصول على وظيفة فلدسبار، وكذلك على ما يبدو نيل مزيد من الخواتم.

تسأل سيانيت: «متى أقابله؟»، وأخذت رشفة من مشروبها كي يبدو سؤالها عابرًا، مثل محادثة عامة بين أصدقاء قدامى.

هزت فلدسبار كتفيها، «وقتما ترغبين. إن لديه مخدعًا في قاعة المشرفين. أرسلنا إليه طلبًا لحضور هذا الاجتماع...»، ومرة أخرى تبدو منزعجة نوعًا، لا بد أن الموقف برمته مزعج إلى أقصى درجة بالنسبة إليها، «... لكن لعل الرسالة لم تصله، بما إنه يرتاح من جولته. إن عبور المرء لجبال لايكش وحده لأمر عسير».

«وحده؟».

«ذوو الخمسة خواتم فما أعلى لا يحتاجون إلى زميل أو وصي عندما يسافرون خارج المرتكز»، ترتشف فلدسبار من أمانها، غافلة عن صدمة سيانيت، «إننا نُعتبر منذ تلك النقطة

متحكمين في أوروچينيتنا بما يكفي للحصول على قدر من الاستقلالية».

خمسة خواتم. معها أربعة. لا تشتري هراء أن هذا له علاقة بالتحكم في الأوروچينية، لو أن وصيًّا لديه أدنى شك في استعداد أي أوروچيني لاتباع القواعد، فلن يحصل هذا الأوروچيني على أول خاتم له، ناهيك عن خمسة. لكن... «هذا يعني أننا سنكون وحدنا؟».

«نعم، لقد قررنا أن هذا سيكون أنسب وضع في مثل هذه الظروف».

بالطبع.

فلدسبار تتابع: «ستجدينه في مجمع البارزين»، هذا هو مجمع المباني الذي يقطن فيه كبار المرتكز المميزين، «البرج الرئيسي، الدور العلوي. إنه الوحيد الذي يرتدي عشرة خواتم في الوقت الحالي، لا مانع من منحه مساحة إضافية ولو قليلة بالأعلى».

تقول ساين بينما تدير القدح مرة أخرى: «شكرًا، سأذهب إليه بعدما ننتهي».

تتوقف فلدسبار للحظة طويلة، يزداد وجهها لطفًا واستعصاءً على القراءة عن المعتاد، فترفع سيانيت من حذرها: «ينبغي عليك معرفة أن بما إنه ذو عشرة خواتم، فمن حقه رفض أية مهمة إلا في حالة إعلان الطوارئ».

ماذا؟ تتوقف أصابع ساين عن تدوير القدح، عيناها ترتفعان

لمواجهة عيني المرأة العجوز. هل هي تقول ما يبدو أنها تقول؟ لا يمكن! ساين تضيق عينيها، لم تعد مهتمة بإخفاء ريبتها، ومع ذلك فلدسبار تمنحها مهربًا. لماذا؟

تبتسم فلدسبار ابتسامة هزيلة. «عندي ستة أبناء».

أها.

لا مجال لقول المزيد إذن. ترتشف ساين رشفة أخرى، محاولة كبح الاشمئزاز الذي ينتابها عندما تصل إلى الثمالة الحبيبية في قاع القدح. إن الأمان مشروب مغذٍّ، لكنه ليس شرابًا يستمتع به أي شخص. يُصنع من الحليب النباتي الذي يتغير لونه في حالة اختلاطه بأية مادة أخرى، حتى اللعاب. يُقدَّم إلى الضيوف في الاجتماعات لأنه، كما هو واضح، أمان. وكأنه إيماءة مهذبة تقول للضيف: أنا لا أسمك، *على الأقل حتى الآن*.

بعد ذلك تخرج ساين من عند فلدسبار، ثم تغادر المبنى الإداري المُلقب بـ«الرئيسي». ينتصب الرئيسي وسط مجموعة من المباني الأصغر منه عند حافة امتداد شاسع شبه بري، تتألف منه حديقة الخاتم. يصل عرض الحديقة إلى فدادين متعددة، وتلفّ في شريحة طويلة دائرية تحيط بالمرتكز محيطها أميال. سعة الحديقة تعطي فكرة عن ضخامة المرتكز، إنه بمثابة مدينة كاملة تستقر داخل الجسد الأعظم لمدينة يومينِس مثل... آه. كانت سيانيت لتتابع تفكيرها *مثل طفل في رحم امرأة*، لكن هذه المقارنة تبدو لها بشعة بشاعة استثنائية في هذا اليوم.

تومئ إلى زملائها المستجدين عند مرورها بمن تعرفه. بعضهم واقفون أو جالسون في مجموعات يتحدثون، بينما البعض مسترخون على العشب أو بين الورد، يقرؤون أو يتغازلون أو ينامون. حياة ذوي الخواتم سهلة، إلا عندما يُكلفون بمهام خارج المرتكز، وهي عادة مهمات وجيزة وقليلة. تأتي بعض الحصى وتدب على ممر مرصوف في طابور أنيق يشرف عليه بعض المستجدين الذين تطوعوا للتدريب. ليس من المسموح للحصى الاستمتاع بالحديقة، هذا الامتياز محجوز لمن نجحوا في اختبار الحصول على أول الخواتم وصدَّق أوصياؤهم على تمام تهيئتهم.

وكما لو أن التفكير فيهم استدعاهم، لمحت ساين بعض الأوصياء في أزيائهم الخمرية يقفون معًا بمحاذاة إحدى البحيرات العديدة في الخاتم. وثمة وصي آخر على الناحية الأخرى من البحيرة، يسترخي في كوة تحيط بها شجيرات الورد، ويبدو كما لو أنه ينصت بأدب إلى مستجد صغير يغني أمام جمهور محدود يجلس قريبًا. لعل الوصي ينصت فعلًا بأدب، فأحيانًا ما يفعلون ذلك، وأحيانًا يحتاجون إلى الراحة أيضًا. غير أن ساين تلاحظ نظرة الوصي تتلكأ على أحد أفراد الجمهور بالتحديد: صبي نحيل أبيض، لا يظهر أنه مستغرق بالكامل مع المغني، بل ينظر إلى يده بدلًا من ذلك، يده المضمومة في حجره، وثمة ضمادة تحيط باثنتين من أصابعه، تحافظ عليهما متجاورتين ومفرودتين.

تمضي ساين قدمًا.

تتوقف أولًا عند الدرع الدائرية، أحد مجمعات المباني العديدة التي تأوي مئات الأوروپينيين المستجدين. رفاق سكنها غير موجودين ليروها تستخرج بعض الأشياء الضرورية من صندوقها، ولذلك هي ممتنة امتنانًا مؤلمًا. سيعرفون عن مهمتها عمًّا قريب من الشائعات بلا شك. تخرج من جديد، متجهة أخيرًا إلى مجمع البارزين. البرج من أقدم مباني مجمعات المرتكز، مبنى قصير عريض، بُني من كتل الرخام الأبيض في بنية عادية، على عكس البنيان اليومينِسي الجامح الفاره. ينفتح الباب المزدوج الضخم على بهو واسع أنيق، أرضه وحوائطه مرصعة بمشاهد من التاريخ السانزي. تحافظ على خلو خطواتها من التعجل، تحيي من تقابلهم من المشرفين سواء تعرفهم أو لا -إنها تريد فعلًا وظيفة فلدسبار- وترتقي الدرج الواسع على مهل، تتوقف من حين إلى حين لتستمتع بأنماط النور والظل المميزة التي تلقيها النوافذ الضيقة. إنها في الواقع غير متأكدة مما يجعل هذه الأنماط مميزة، لكن الجميع يقولون إنها مذهلة، لذا تحتاج إلى أن تُرى مستمتعة بها.

في الطابق الأعلى، حيث تغطي أنماط نور الشمس السجاد المخملي الممتد بطول القاعة، تتوقف لتستعيد أنفاسها، ولتستمتع صدقًا بشيء آخر: الصمت، العزلة. لا أحد يتحرك في هذه الطرقة، ليس حتى صغار المستجدين المكلفين بالنظافة أو غيرها من الواجبات. لقد تنامت الشائعات إلى مسامعها والآن تيقنت منها: الطابق بأكمله مخصص لصاحب العشرة خواتم.

هذا إذن الجزاء الأوفى للتفوق: الخصوصية، وحرية الاختيار.
بعدما أغلقت عينيها للحظة من وجع الرغبة، تمضي ساين في الطرقة حتى تبلغ الباب الوحيد الذي يوجد أمامه بساط.

بيد أنها في تلك اللحظة، تتردد. إنها لا تعرف شيئًا عن هذا الرجل، لقد نال أعلى رتبة ممكنة في النظام، ما يعني أن أحدًا لن يلقي بالًا لأفعاله ما دام أبقى بابه مغلقًا على أي سلوك مُحرج. ولقد كان رجلًا مسلوب الحرية أغلب حياته، ولم ينل إلا أخيرًا الاستقلالية والأفضلية على الآخرين. لن يلومه أحد على شيء تافه مثل انحراف أو أذى، ليس والضحية مجرد أوروچينية أخرى.

لكن لا فائدة لهذا، ليس لديها خيار. بتنهيدة، تطرق سيانيت الباب.

ولأنها استغرقت في توقع *اختبار عليها أن تتحمله لا شخصًا*، تفاجأ عندما يرد عليها صوت منزعج من الداخل: «ماذا؟».

بينما هي لا تزال تفكر في كيف عليها أن ترد، صفعت الأقدام الأرض الحجري -بحدة، وبانزعاج بادٍ من مجرد الصوت- وانفتح الباب بغتة. يرتدي الرجل الغاضب أمامها روبًا مجعدًا، وأحد جانبي شعره يلتصق مسطحًا بجانب رأسه، وعلى وجنته لوحة من الخطوط العشوائية رسمتها ثنايا الفراش. إنه أصغر مما حسبت. وإن كان ليس صغيرًا، بل عمره تقريبًا ضعف عمرها، أربعون عامًا على الأقل. لكنها حسبت أن... لقد قابلت العديد من ذوي الستة خواتم في

الستينيات والسبعينيات من أعمارهم، وتوقعت أن ذا العشرة خواتم لا بد من أنه عتيق، وأكثر هدوءًا ومهابة وفخامة. إنه حتى لا يرتدي خواتمه، غير أنها بين إيماءاته الغاضبة تميز الشرائط الباهتة على جلد بعض أصابعه.

«ماذا تريدون بحق هزات الأرض المتتالية؟»، وعندما تكتفي ساين بالتحديق في وجهه، ينقلب لسانه إلى آخر، إلى لغة لم تسمع مثلها من قبل، وإن كانت تبدو ساحلية على نحو مبهم، وساخطة على نحو واضح. ثم بدأ يفرك شعره بيده، وتكتم ساين ضحكتها بالكاد. شعره كثيف ومجعد، من النوع الذي يحتاج إلى عناية فائقة كي يبدو أنيقًا، وما يفعله الآن لا يزيده إلا فوضى.

يقول بعد أن عاد إلى اللسان السانزي البليغ، ولملم بمشقة شتات صبره: «قلت لفلدسبار وغيرها من المتطفلين المثرثرين في لجنة المشرفين أن يتركوني في حالي. لقد عدت فورًا من التجوال، لم أحظَ حتى بساعتين لنفسي طوال العام الماضي دون مشاركتهما مع حصان أو شخص غريب. لو أنك هنا لتعطيني مزيدًا من الأوامر، سأجمدك حيثما تقفين».

إنها متأكدة أن هذه مبالغة، لكنها من نوع المبالغات التي لا ينبغي عليه أن يستخدمها. إن أوروچينيي المرتكز لا يجب أن يمزحوا بخصوص بعض الأشياء، هذه من القواعد غير المنطوقة... لكن لعل ذوي العشرة خواتم لا تنطبق عليهم مثل هذه الأشياء. تتمكن من قول: «ليست أوامر بالضبط». يلتوي وجهه.

«إذن لا أريد معرفة ما أنت هنا لقوله. اذهبي واصدئي بعيدًا». ويبدأ يغلق الباب في وجهها.

لا تستطيع أن تصدق. أي شخص هذا الذي... فعلًا؟ إنها مذلة فوق مذلة؛ كم يؤلمها اضطرارها لفعل هذا في الأصل، ومع ذلك تُهان؟

تحشر قدمها في مسار الباب قبل أن ينغلق، ثم تنحني إلى الأمام قائلة: «أنا سيانيت».

لا يعني ذلك له شيئًا، ترى ذلك من عينيه المشتعلتين. يأخذ نفسًا ليبدأ في الصراخ، ليس عندها أدنى فكرة عمًا سيقول لكنها لا ترغب في سماعه، لذا، وقبل أن ينفجر، تقول: «أنا هنا *لأجلك*، بحق نار الأرض، ألا يستحق هذا إزعاج نومك الهانئ؟».

جزء منها يصعقه غضبها وفجاجتها، لكن بقيتها راضٍ، لأنها أخرست فمه الصدئ.

يسمح لها بالدخول.

أمسى الوضع محرجًا. تجلس ساين إلى مائدة صغيرة في جناحه -*جناح*. لديه جناح كامل مليء بالغرف المفروشة خاص به *وحده*- وتراقبه يتململ. يجلس إلى أحد أرائك الغرفة، يجثم بالكاد على حافتها، حافتها البعيدة، وكأنه يخشى الجلوس بالقرب منها.

يقول: «لم أحسب أن هذا سيبدأ بهذه السرعة مرة أخرى»، ينظر إلى يديه المعقودتين أمامه، «أعني... لقد كانوا دومًا

يخبرونني أن ثمة حاجة إلى... لكن هذا... أنا لم...»، يتنهد.

سيانيت تقول: «هذه إذن ليست مرتك الأولى».

لم يحصل على حق الرفض إلا مع خاتمه العاشر.

«لا، لا، لكن...»، يأخذ نفسًا عميقًا، «لم أكن أعرف».

«تعرف ماذا؟».

يتجهم. «النساء في الأول... حسبت أنهن كنّ راغبات».

«أنت...»، ثم تفهم. لقد كان الإنكار حاضرًا طوال الوقت. حتى فلدسبار لم تقل لها مباشرة *مهمتك أن تنجبي طفلًا من الرجل في خلال سنة*. افتقار المعرفة هذا يفترض به تسهيل الأمر بشكل ما. لم تفهم المغزى منه قط، لماذا نتظاهر بأن الموقف مختلف عما هو عليه؟ لكنها تدرك أن في حالته لم يكن هناك تظاهر، ما أذهلها. كيف له أن يكون بهذه السذاجة؟

ينظر ناحيتها ويرتسم عليه الألم. «صحيح، أعرف».

تهزّ رأسها، «لا بأس». لا يهم، لا يتعلق الأمر بذكائه. تنهض، وتفك حزام ردائها.

يحدق إليها. «بهذه السهولة؟ أنا حتى لا أعرفك».

«لا حاجة إلى المعرفة».

«أنت لا تعجبينني».

الشعور متبادل، لكن ساين تمتنع عن ذكر ما هو واضح. «أنا

جاهزة الآن، يمكنك أن تسكن تمامًا وسأفعل أنا كل شيء». إنها ليست خبيرة جدًّا، لكنه ليس علم طبقات الأرض. تنزع معطف زيها الرسمي، ويبدو مذعورًا. «بل في الواقع يستحسن ألا تتحرك، الوضع محرج بما فيه الكفاية».

ينهض بدوره، عدا أنه يتراجع. نظرة الاضطراب على وجهه... ليست مضحكة. لكن سيانيت لا تستطيع منع نفسها من الشعور بشيء من الراحة إزاء رد فعله. بل لا، ليس فقط الراحة، إنه هو الضعيف هنا، برغم خواتمه العشرة. صحيح أنها مَن عليها أن تحمل طفلًا لا ترغب فيه، ربما يقتلها أو يغير جسدها إلى الأبد، أو يغير حياتها بالكامل، لكنها هنا والآن على الأقل المتحكمة تمامًا. هذا يجعلها... ليس بأحسن حال، لكن أفضل إلى حد ما.

يغمغم: «لسنا مضطرين إلى فعل ذلك، أستطيع أن أرفض»، يضيق وجهه، «أعلم أنك لا تستطيعين، لكني أستطيع، لذا...».

تقول متذمرة: «لا ترفض».

«ماذا؟ لم لا؟».

«أنت قلتها: أنا مضطرة إلى فعل ذلك، لو ليس معك فمع غيرك». أنجبت فلدسبار ستة أطفال. لكن فلدسبار لم تكن قط أوروچينية واعدة، على عكس سيانيت. لو لم تكن ساين حذرة، لو أنها أغضبت الأشخاص الخطأ، لو تركتهم يقولون عنها إنها «صعبة»، سيقتلون مستقبلها في مهده وتُعين داخل المرتكز

إلى الأبد، ولن يصبح لديها ما تفعله سوى التمدد على ظهرها وتحويل شخير وضراط الرجال إلى أطفال. ستكون محظوظة لو أنجبت ستة فقط لو على هذا النحو سارت الأمور.

يحدق إليها كما لو أنه لا يفهم، مع أنها تعلم أنه يفهم. تقول: «أود الانتهاء من هذا الأمر».

ثم يفاجئها. توقعت منه مزيدًا من اللعثمة والاحتجاج، غير أن قبضتيه تتكوران إلى جانبه، ويشيح بنظره بعيدًا عنها، وتتحرك عضلة ما في فكه. لا يزال يبدو سخيفًا في روبه وشعره المُعوَج، لكن النظرة على وجهه... يبدو كما لو أنه طُلب منه أن يعذب نفسه. تعلم أنها ليست منظرًا يسر الناظرين سرورًا خاصًا، على الأقل ليس طبقًا للمعايير الاستوائية. في هيئتها الكثير من سمات الأوسطيين. لكنه أيضًا كما هو واضح ليس من أفضل السلالات، بهذا الشعر، وبهذه البشرة شديدة السواد حد الزرقة، وهو كذلك ضئيل. طوله نفس طولها، ما يعدّ طويلًا بمقاييس الرجال والنساء، لكنه نحيل، لا هو بالعريض ولا بالمهيب.

لو كان بين أسلافه أي سانزيون، فلا يبدو أنهم أورثوه شيئًا من تفوقهم البدني.

يغمغم: «الانتهاء من الأمر، طيب». عضلة فكه صارت تقفز صعودًا ونزولًا، يجزّ على أسنانه بقوة. و... لم يعد ينظر إليها، ولهذا أصبحت فجأة ممتنة، لأن هذا الذي على وجهه *كراهية*. لقد رأتها من قبل على وجوه أوروچينيين آخرين، بل، يا للصدأ، لقد شعرت بها بنفسها عندما كان عندها ترف العزلة

والصدق التام، غير أنها لا تسمح أبدًا بتركها تبدو عليها بهذا الوضوح. ثم يرفع عينه نحوها، فتحاول ألا تجفل.

يقول بصوت صار باردًا: «أنتِ لم تولدي هنا». تدرك بعد وقت أن هذا سؤال.

«لا»، لا تحب أن تكون على الناحية الأخرى من إلقاء الأسئلة، «وأنت؟».

«أوه، نعم، أنا مستولد هنا». يبتسم، وكم من الغريب رؤية ابتسامة فوق كل تلك الطبقات من الكراهية، «بل ولست حتى مستولدًا عشوائيًّا مثلما سيكون ابننا، أنا نتيجة اجتماع اثنتين من أقدم وأسمى سلالات المرتكز، أو هكذا قيل لي. كان لي وصي منذ أن ولدت تقريبًا»، دسّ يديه في جيبي روبه المجعد. «أنت برية».

بوغتت بهذه النتيجة. ظلت ساين لبعض الوقت تتساءل إن كانت هذه طريقة جديدة لقول روچا، ثم أدركت ما يعنيه. لقد تجاوز كل الحدود. «انظر، لا يهمني كم خاتمًا ترتدي...».

«أقصد أن هذا ما سيقولونه عليك»، يبتسم مجددًا، وتجد مرارته صدًى عندها حتى يخيم عليها صمت مرتبك. «إن كنت لا تعرفين، فالبريون -أي الذين جاءوا من الخارج- غالبًا لا يعرفون ولا يهتمون. لكن هذا ما يقولونه عن الأوروچيني الذي يولد من والدين ليس أيهما كذلك، ولم يظهر على أي من أسلافه أثر لتلك اللعنة قط. كلب هجين وحشي مقارنة بالسلالات المستأنسة النقية، حادثة غير مخطط لها». يهزّ

رأسه، ما يجعل صوته يرتجف، «لكن ما يعنيه هذا في الواقع أنهم لا يستطيعون توقعك. أنت دليل على أنهم لن يفهموا الأوروچينية أبدًا. إنها ليست علمًا، بل شيئًا مختلفًا تمامًا. ولن يتمكنوا أبدًا من التحكم فينا، ليس بالكامل».

لم تعد ساين تعرف ماذا تقول. لم تكن تعرف بموضوع البرية هذا، عن كونها مختلفة إلى حد ما. لكنها وقد عرفت، فهي تتذكر كيف أن أغلب الأوروچينيين الذين تعرفهم مستولدون في المرتكز. ولقد لاحظت أيضًا كيف كانوا ينظرون إليها. حسبت أن هذا كان يرجع فقط إلى أنهم استوائيون وهي شمالأوسطية، أو لأنها حصلت على خاتمها الأول قبلهم. ومع ذلك، الآن وقد قال ذلك... هل كون المرء بريًّا شيء سيئ؟

لا بد أنه سيئ. لو تكمن المشكلة في أن البريين غير متوقعين، فالأوروچينيون عليهم أن يثبتوا أنهم يعتمد عليهم. إن للمرتكز سمعة يحتاج إلى الحفاظ عليها، هذا جزء من ذلك. لأجل ذلك يوجد التدريب، والقواعد اللانهائية التي عليهم اتباعها، والاستيلاد أيضًا، وإلا لماذا هي هنا؟

تجد إطراءً في التفكير أنهم رغم أصلها البري يريدون تضمين شيء منها في سلالات الاستيلاد. ثم تتساءل لماذا يحاول جزء منها أن يجد قيمة في هذه المهانة.

تسرح في التفكير حد أنه يفاجئها عندما يصدر عنه صوت مستسلم.

يقول باقتضاب: «أنت محقة»، بلهجة عملية تشي بإدراكه

أن هذا لن ينتهي إلا بشكل واحد. والسلوك العملي سيسمح لكليهما بالاحتفاظ بما يشبه الكرامة. «آسف... يا لصدأ الأرض. حسنًا، لننتهِ من هذا الأمر».

هكذا يذهبان إلى غرفة النوم، ويتعذر الأمر عليه في البداية. تلعن في سرها، وتقرر أن هذه عاقبة فعلها مع رجل أكبر سنًا، لكنها تجزّ على أسنانها وتتولى الزمام. تمضي الأمور على نحو غير مرضٍ لكلاهما، لكنه كاف. بعد فترة يصدر هو أنينًا منهكًا، وينتهي.

يتنهد بينما تضع حذاءها ثم يعتدل جالسًا وينظر إليها نظرة قاتمة، حتى تشعر بعار مبهم مما فعلته به.

يسأل: «قلت لي ما اسمك؟».

«سيانيت».

«أهذا ما سماك به أبواك؟»، عندما تحدق إليه ترتجف شفتاه بما هو أقل من ابتسامة، «آسف، أشعر فقط بالغيرة».

«غيرة؟».

«أنا مستولد في المرتكز، ألا تذكرين؟ لم يكن لي إلا اسم واحد فقط».

أوه.

يتردد، يبدو أن هذا يشق عليه. «يمكنك أن تناديني...».

تقاطعه، لأنها تعرف اسمه بالفعل، وهي لا تنوي عمومًا أن تناديه بأي شيء إلا «أنت»، ما سيكفي بالتأكيد لتمييزه عن

حصانيهما. «فلدسبار قالت إننا سنسافر إلى آليا غدًا». تضع الفردة الثانية وتقف كي تدبّ لتثبيت الكعب.

«مهمة أخرى؟ بهذه السرعة؟»، يتنهد، «كان عليَّ أن أعرف».

نعم، كان عليك أن تفعل. «ستكون مرشدي، وستساعدني في تنظيف شعاب مرجانية من مرفأ ما».

«طيب»، يعلم أيضًا أنها مهمة تافهة، ليس هناك إلا سبب وحيد لتكليفهما معًا بمهمة مثلها. «لقد أعطوني بالأمس ملفًّا للمهمة، يبدو أنني سأقرؤه أخيرًا. نتقابل في ساحة الإسطبل ظهرًا؟».

«أنت الذي يرتدي عشرة خواتم».

يدعك وجهه بكلتا يديه. ينتابها شعور سيئ، لكن محدود.

يقول: «حسنًا»، عادت اللهجة العملية، «ليكن موعدنا في الظهر».

تخرج من عنده، موجوعة، ومنزعجة من رائحته التي علقت بها بعض الشيء، ومنهكة. أكثر ما ينهكها على الأرجح هو التوتر؛ فكرة أنها ستقضي شهرًا على الطريق برفقة رجل لا تطيقه، تفعل أشياء لا تريدها، نيابة عن ناس يزداد ازدراؤها لهم يومًا بعد يوم.

لكن هذا ما يعنيه أن تكون متحضرًا، أن تفعل ما يقول سادتها، لأجل الصالح الظاهري العام. وهي في الواقع لن

تخرج بلا منفعة: ستقضي عامًا أو نحوه غير مرتاحة، وتنجب طفلًا لن تضطر إلى تربيته لأنه سيودع في مدرسة ما إن يولد، وستتم مهمة مرموقة تحت إرشاد مشرف قوي. بهذه الخبرات وبالدفعة التي ستتلقاها سمعتها، ستقترب كثيرًا من الخاتم الخامس. ما يعني شقة خاصة بها بلا رفاق سكن، ومهمات أفضل، وإقامات خارجية أطول، ورأي أكثر في خيارات حياتها. هذا يستحق ذاك، يستحق ونار الأرض.

تقول لنفسها كل ذلك في طريق عودتها إلى غرفتها، ثم تحزم متاعها للسفر، وترتب المكان كي تجد كل شيء منظمًا عندما تعود. وتغتسل. تفرك كل ما تطوله يداها من جلدها فركًا حتى تحرقها بشرتها.

***

«قل لهم إنهم سيصبحون عظماء ذات يوم، مثلنا. قل لهم إنهم ينتمون إلينا، مهما كانت معاملتنا لهم. قل لهم إنهم في حاجة إلى اكتساب الاحترام الذي يكتسبه كل من عداهم بلا سؤال. قل لهم إن ثمة معيارًا للقبول، وهذا المعيار هو ببساطة الكمال. واقتل كل من يسخرون من التناقضات، وقل للبقية إن الموتى استحقوا الهلاك لضعفهم وشكوكهم. عندها، سيحطمون أنفسهم سعيًا إلى ما لن يحققوه أبدًا».

إرلسّت، الإمبراطور الثالث والعشرون للائتلاف السانزي الاستوائي، في السنة الثالثة عشرة من موسم الأسنان. تعليق مُسجل في حفلة أقيمت قبل إنشاء المرتكز بقليل.

٥

أنتِ لست وحدك

حلّ الليل، وأنتِ جالسة في كنف التل والظلام.

بلغ منك الإنهاك مبلغه. قتلُ كل هؤلاء الناس ليس هينًا. بل والأسوأ أنك لم تفعلي ما يقترب بالكاد حتى مما كان يمكنك فعله بعد أن بلغت ثورتك أقصاها. إن الأوروچينية معادلة غريبة؛ تأخذ الحرارة والحركة مما يحيط بك، وتضاعفها عبر عملية لا يمكن تعريفها من التركيز أو التحفيز أو الاحتمالات شبه المتوقعة، وتخرج الحركة والحرارة والموت من الأرض. طاقة داخلة، طاقة خارجة. لكن الاحتفاظ بالطاقة الداخلة بلا خروج، أي عدم تحويل طبقة المياه الجوفية في الوادي إلى مرجل يفور أو قلب المنطقة رأسًا على عقب، يستهلك مجهودًا يجعل أسنانك وظهرك وعينيك تؤلمك. تمشين لمسافة طويلة في محاولة لحرق بعض ما اكتسبته، لكنه يغلي تحت جلدك بينما جسدك يتعب وقدماك توجعانك. إنك لسلاح قادر على تحريك الجبال، تمشية بسيطة لا تكفي لتخفيف ذلك عنك.

لكنك مع ذلك مشيتِ حتى خيم الظلام، ثم مشيتِ أكثر، وها أنت الآن هنا، منكمشة ووحيدة، على حافة حقل هاجع قديم. تخشين من إشعال نار رغم ميل الجو إلى البرودة. من دون النار لن تتمكني من رؤية الكثير، لكن شيئًا أيضًا لن يراك: امرأة وحيدة تحمل متاعًا وليس لديها ما يحميها سوى سكين (لستِ بلا حيلة، لكن ما قد يهاجمك لن يعلم ذلك إلا بعد

فوات الأوان، وأنت لا تحبذين قتل أي شخص آخر اليوم).

ترين على مسافة الطريق العالي ممتدًا في قوس قاتم يعلو فوق السهول وكأنه يترفع عنها. عادة ما تضيء الطرق العالية مصابيح كهربية، بفضل السانزا، لكنك لا تتفاجئين من أن هذا الطريق مظلم. حتى لو لم تحدث الهزة الشمالية، فكل محطات الطاقة المائية أو الأرضية غير الأساسية يجب غلقها بحسب الإجراءات الموسمية القياسية. والطريق على كل حال أبعد من أن يستحق تحويل المسار إليه.

إنك ترتدين معطفًا، ولا شيء في الحقل يستحق الخوف غير الفئران. النوم بلا نار لن يقتلك، وأنت على كل حال ترين جيدًا نسبيًا، رغم غياب النار والمصابيح. تغطي السماء شرائط السحاب المتموجة، مثل الصفوف المعزوقة في الحديقة التي اعتنيت بها يومًا. تسهل رؤيتها لأن ثمة ما يضيء السحب من الأسفل بشرائط من الوهج الأحمر والظل. عندما تنظرين إلى ذلك الاتجاه ترين خطًا غير مستقيم من الجبال عند الأفق الشمالي، ولمعة بلون رمادي مزرق لمسلة بعيدة، تبرز حافتها السفلية بين كتل السحاب. لكن أيًا من هذا لا يخبرك بشيء. وعمًا قريب ثمة رفرفة ما يبدو وكأنها مستعمرة خفافيش خرجت لتأكل. الوقت متأخر على الخفافيش، لكن قول الحجر ينص على أن كل شيء يتبدل خلال الموسم. كل الكائنات الطبيعية تفعل ما في وسعها كي تستعد، وكي تنجو.

يأتي الوهج من خلف الجبال، وكأن الشمس الغاربة ذهبت في الاتجاه العكسي وعلقت هناك. تعلمين ما يسبب الوهج، ولا

شك أن رؤيته عن قرب ستكون مذهلة، ذلك المزق الهائل الذي يبصق النيران إلى عنان السماء، لولا أنك لا تريدين أبدًا رؤيته.

ولن تفعلي، لأنك متجهة جنوبيًا. حتى لو أن جيجا لم يبدأ متوليًا ذاك الاتجاه، فسيدور إليه بالتأكيد بعد تلك الهزة الشمالية، هذا هو التصرف العاقل الوحيد.

بالطبع لم يعد من اللائق تمامًا وصف رجل ضرب ابنه حتى الموت بالعاقل. ولا امرأة وجدت هذا الطفل وانقطعت عن التفكير ثلاثة أيام أيضًا. لكن ليس لديك ما تفعلينه سوى اتباع جنونك.

تأكلين شيئًا من مخلاتك: خبز رماد مدهون بصبغ الأكابا المملح، من مرطبان ملأته بنفسك قبل عمر كامل. يظل الأكابا سليمًا لفترة بعدما ينفتح المرطبان، لكن ليس إلى الأبد، وبما إنك فتحتِه فعليك أن تأكليه على مدار الوجبات القليلة القادمة حتى ينفد. لا بأس بذلك، فأنت تحبينه. تشربين بعض الماء من القربة التي ملأتها قبل عدة أميال، عند مضخة بئر بيت الطريق. لقد كان هناك عدة أشخاص، العشرات، منهم من يخيم حول بيت الطريق ومنهم من توقف لوهلة. على وجوههم جميعًا تلك النظرة التي بدأتِ تُعرّفينها بأنها هلع في طور التكوين. لأن الجميع قد بدؤوا يدركون أخيرًا ما الذي تعنيه تلك الهزة والوهج الأحمر وغيوم السماء. وأن يكون المرء خارج أسوار كومونة في وقت مثل هذا معناه -على المدى البعيد- حكم بالإعدام. إلا قلة قليلة من المستعدين لأن يصبحوا متوحشين بما يكفي أو فاسدين بما يكفي لفعل ما ينبغي فعله

للنجاة. وحتى أولئك ليس لديهم للنجاة أكثر من فرصة.

لكن أحدًا من الموجودين عند بيت الطريق لن يستطيع تصديق أنه قادر على أيٍّ من هذا، ذلك ما رأيته فيهم وأنت تنظرين حولك، تستقرئين الوجوه والملابس والمخاطر. لم يبدُ على أيهم أنه مولع باختبارات البقاء حيًّا أو أنه مشروع أمير حرب قادم. ما رأيتِه في بيت الطريق كان أناسًا عاديين، بعضهم لا يزال مغطًّى بالأوساخ بعدما حفروا واستخرجوهم من انهيارات طينية أو أنقاض مبانٍ منهارة، بعضهم لا تزال جروحه المغطاة بضمادات مرتجلة أو لم تُمس بالكامل، تنزف. ما رأيتِه كان مسافرين، علقوا بعيدًا عن بيوتهم، ناجين، لم تعد بيوتهم موجودة. رأيتِ رجلًا عجوزًا لا يزال في عباءة نومه، نصف ممزقة ومتربة في أحد جانبيها، يجلس بجانب شاب لا يرتدي إلا قميصًا طويلًا ملطخًا بالدماء، وكلاهما عيناه غائرتان من فرط الأسى. رأيتِ امرأتين تحتضن إحداهما الأخرى، وتتمايلان سعيًا إلى بعض الطمأنينة. رأيتِ رجلًا في مثل عمرك يبدو شديدًا، يحدق إلى يديه الضخمتين سميكتي الأصابع، لعله يتساءل إن كان عفيًّا بما يكفي لنيل مكانًا في كومونة ما.

تلك هي الحكايات التي هيأك قول الحجر لمواجهتها، مهما كانت مأساوية. عدا أن قول الحجر لا يذكر الأزواج قتلة الأبناء في أي مكان.

تستندين إلى عمود قديم نصبه أحدهم لِصق الجبل، لعله من بقايا حاجز قديم، وتقعين في النوم، بيديك مدسوستين في جيوب معطفك وركبتيك منثنيتين. ثم، وببطء، تدركين أن شيئًا

ما تغير. لم ينبهك صوت، ولا تعلو رائحة على رائحة الكبريت الباهتة التي اعتدت عليها بالفعل، لكنْ ثمة شيء ما هناك، شيء آخر.

شخص آخر.

تنفتح عيناك بغتة. نصف عقلك يتوجه إلى الأرض، جاهزًا للقتل، والنصف الآخر يتجمد، لأن على بعد عدة أقدام منك، يجلس صبي صغير معقود القدمين، وينظر إليك.

في البداية لا تدركين ماهيته بالضبط. إنه مظلم. تتساءلين إن كان من كومونة ما بالساحل الشرقي. لكن شعره يهفّ قليلًا عندما تهبّ الرياح مجددًا، تخمنين أن بعض شعره منتصب كالعشب حولكما. إذن هو من الساحل الغربي؟ يبدو بقية شعره ملتصقًا بـ... ربما بزيت شعر أو ما شابه. لكن لا، إنك أم. هذا وحل، إنه مغطًّى بالوحل.

أضخم من أوتشي، وأضأل من ناسّون، إذن لعله ذو سبع أو ثماني سنوات. أنت لست متيقنة تمامًا أنه ولد، تدعين التأكد لوقت لاحق، وتكتفين الآن بالتخمين. يجلس محدودبًا في وضع غريب على الكبار وعادي تمامًا بالنسبة إلى طفل لم يقل له أحد اجلس معتدلًا. ترين اللمعة الباهتة في عينيه.

يقول: «أهلًا». صوت صبي، عالٍ وواضح. تخمينك سليم.

تقولين أخيرًا: «أهلًا». تبدأ كثير من القصص المرعبة هكذا، بعصابات من الأطفال الأغيار المتوحشين، الذين يتضح أنهم آكلو لحوم بشر. لكن الوقت مبكر على مثل تلك الأمور، لا

يزال الموسم في أوله. «من أين أتيت؟».

يهز كتفيه، لا يعلم، وربما لا يهتم. «ما اسمك؟ أنا هوّا».

اسم صغير غريب، بيد أن العالم مكان كبير غريب. لكن الأغرب أنه لم يقدم سوى اسم واحد، إنه صغير إلى حدٍّ قد يبرر أنه ليس له كومونة بعد، لكنه بالتأكيد ورث طائفة استخدام أبيه. «هوّا فقط؟».

«هممم، ممم». يومئ، وينحني جانبًا وهو يضع ما يشبه الصرة أرضًا، ويربت عليها وكأنه يتأكد أنها آمنة. «هل يمكنني النوم هنا؟».

تنظرين حولك، وتسسبنين، وتصغين. لا شيء يتحرك إلا العشب، ولا أحد هناك إلا الولد. لا شيء يفسر كيف اقترب منك في صمت تام... لكنه ضئيل، وأنت تعلمين بواقع خبرتك أن الأطفال الصغار قادرون على التزام الهدوء التام لو أرادوا ذلك، وإن كان ذلك معناه انعقاد نيتهم على أمر ما. «من هنا غيرك يا هوّا؟».

«لا أحد».

الظلام أشد من أن يرى عينيك وقد ضيقتِهما، لكنه يستجيب لفعلك رغم ذلك وينحني إلى الأمام. «صدقيني. أنا فقط. رأيت أشخاصًا آخرين على الطريق، لكني لم أحبهم، اختبأت منهم»، وقفة، «أحببتك أنت».

يا روحي!

تعيدين دسّ يديك في جيوبك بتنهيدة، وتخرجين انتباهك من استعدادك الأرضي. يسترخي الولد قليلًا -بحسب القليل الذي ترينه منه- ويبدأ يتمدد على الأرض العاري.

تقولين: «انتظر»، وتتجهين إلى مخلاتك، ثم تلقين إليه سريرًا قابلًا للطي. يلتقطه وينظر إليه بحيرة لبعض الوقت، ثم يفهم. يفرد السرير بسعادة ويتكور فوقه مثل قطة. لا تهتمين بما يكفي لتصحيح طريقة نومه.

يُحتمل أنه كاذب، ويُحتمل أنه خطر. ستجعلينه يذهب في الصباح، لأنك لست في حاجة إلى صحبة طفل في رحلتك، سيبطؤك. ولا شك أن هناك من يبحث عنه. أم ما في مكان ما، لم يمت ابنها.

لكن في وسعك أن تكوني إنسانة قليلًا هذه الليلة، هكذا تسندين ظهرك إلى العمود، وتغلقين عينيك.

سيبدأ الرماد يهطل غدًا.

***

إنهم أشياء غريبة، أشياء خيميائية. مثل الأوروچينية، لو كانت الأوروچينية قادرة على التلاعب بالبنية متناهية الصغر للمادة لا الجبال. هناك قرابة ما واضحة بينهم وبين البشرية، ويعبرون عنها باختيارهم للهيئة الشبيهة بالتماثيل التي نراهم غالبًا عليها. لكنهم أيضًا قادرون على اتخاذ أشكال أخرى. لن نعرفهم جيدًا أبدًا.

أومباي مبتكر آليا – «مقال عن الكائنات الواعية غير

البشرية

الجامعة السادسة، العام ٢٣٢٣ إمبراطوري / السنة الثانية من موسم الحمض

٦

دامايا، بين شِقّي الرَّحى

مرّ أول يومين لها على الطريق مع شافا بلا أحداث تذكر. لكن بلا ملل. ثمة أجزاء مملة، مثل عندما يقطع الطريق الإمبراطوري الذي يسافران عليه حقول بلا نهاية من سيقان الكرجا أو السامشيت، أو عندما يمر في مساحات من الغابات القاتمة، الساكنة والضيقة حد أن دامايا لا تكاد تجرؤ على الحديث مخافة إغضاب الأشجار (الأشجار في الحكايات دومًا غاضبة). لكن حتى هذا جديد، لأن دامايا لم تتجاوز قط حدود باليلا، ليس حتى إلى برفارد بصحبة أبيها وتشاجا في أيام السوق. تحاول ألا تبدو فلاحة ساذجة تحملق إلى كل شيء غريب يمرون به، لكنها أحيانًا لا تتمكن من تمالك نفسها، حتى عندما تشعر بأن شافا خلفها يضحك. لا تجد في نفسها ميلًا إلى اعتبار ضحكه تهكمًا.

برفارد مزدحمة وضيقة وعالية على نحو لم ترَ له مثيلًا من قبل. تميل على السرج بينما يخوضان في المدينة، وتتأمل المباني العالية على جانبي الطريق، وتتساءل هل يمكن أن تنهار فجأة على المارة؟ لا يبدو أن هناك من يلاحظ غيرها أن هذه المباني عالية علوًّا غبيًّا ومحشورة بعضها إلى جوار بعض حشرًا، لذا يبدو أنهم وضعوها هكذا عمدًا. هناك عشرات الناس في الشارع مع أن الشمس قد غربت، يفترض بالجميع بحسب ما تعرف الاستعداد للنوم الآن.

لكن أحدًا لا يفعل. يمران بمبنى يتوهج بفعل مصابيح الزيت ويضجّ بالضحك، حتى أن فضولها غلبها وسألت عنه. أجاب شافا: «نزل، من نوع ما»، ثم ضحك عندما سألته عما يدور في خلدها. «لكننا لن ننزل فيه».

توافقه: «جيد، لأنه صاخب جدًّا»، في محاولة لأن تبدو عليمة بالأمور.

«هممم، هذا صحيح أيضًا، لكن مشكلته الأكبر أنه ليس مكانًا ملائمًا للأطفال». تنتظر، لكنه لا يوضح. «نحن ذاهبان إلى مكان نزلت فيه أكثر من مرة من قبل. الطعام جيد والأَسِرَّة نظيفة، ومتاعنا لن تختفي على الأرجح قبل استيقاظنا».

هكذا مضت أول ليالي دامايا في نزل. صُعقت من كل شيء: تناول الطعام في غرفة مليئة بالأغراب، تناول طعام يختلف طعمه عمَّا كان يطبخه والداها أو تشاجا، موضوع في وعاء سيراميكي ضخم تحته نار، بدلًا من نصف برميل المياه الباردة المزيت في المطبخ، والنوم في فراش أكبر من فراشها وفراش تشاجا مجتمعين. يظل فراش شافا أكبر، وهذا منطقي لأنه ضخم، لكنها مع ذلك ذُهلت عندما جرَّ السرير ووضعه أمام باب غرفة النزل (وهذا على الأقل شيء مألوف، فعل هذا أباها من قبل عندما كانت هناك شائعات بوجود أغيار على الطريق حول القرية). لقد دفع على ما يبدو المزيد للحصول على سرير أكبر. قال مبتسمًا وكأنه يمزح: «أنا أنام مثل هزة. لو كان السرير ضيقًا سأقع عنه».

لم تفهم قصده إلا مع منتصف تلك الليلة، عندما استيقظت

على صوت شافا يئن ويتقلب في نومه. لو كان يرى كابوسًا فهو من ألعن الكوابيس. وتساءلت لبعض الوقت إن كان عليها أن تنهض وتحاول إيقاظه. إنها تكره الكوابيس، لكن شافا رجل ناضج، والناضجون يحتاجون إلى النوم، هذا ما كان أبوها يقوله كلما فعلت هي أو تشاجا شيئًا يوقظه، وكان يغضب أيضًا. وهي لا تود أن تغضب شافا، إنه الشخص الوحيد الذي يهتم بشأنها في العالم كله. لذا تظل متمددة في مكانها، متوترة مترددة، حتى ينبس بشيء غير مفهوم، فتحسبه يموت.

تسأل برقة فائقة: «هل أنت مستيقظ؟»، لأنه كما هو واضح ليس كذلك، لكن ما إن تنطق حتى يفعل.

يقول بصوت أجش: «ماذا هناك؟».

«لقد كنت...»، لا تعرف ماذا تقول، لو تابعت *تحلم بكابوس* ستشعر أنها تبدو كأمها. هل يقول المرء مثل ذلك الكلام للكبار الأقوياء مثل شافا؟ تتابع: «تصدر ضجة».

«أكنت أغطّ؟»، يتنهد طويلًا وبعمق في الظلام، «آسف»، ثم يتزحزح، ويظل صامتًا بقية الليلة.

تنسى دامايا في الصباح أن هذا قد حدث، أو على الأقل لبعض الوقت. ينهضان ويأكلان بعضًا من الطعام الذي تُرك لهما في سلة على عتبة بابهما، ويأخذان بقيته معهما عندما يتابعان رحلتهما إلى يومينِس. بعد بزوغ الفجر بقليل صارت برفارد أقل رعبًا وغرابة، ربما لأنها الآن صارت ترى أكوامًا من روث الأحصنة في المصارف والأطفال يحملون صنارات

الصيد وعمال الإسطبل يتثاءبون وهم ينقلون الصناديق أو بالات القش. ثمة شابات يحملن دلاء المياه إلى حمام المدينة كي تُسخن، وشباب صدورهم عارية يمخضون الزبد أو يقشرون الأرز في أكواخ ملحقة بالمباني الضخمة. كل هذه الأشياء مألوفة، وتساعدها في رؤية أن برفارد ليست إلا نسخة أكبر من القرى الصغيرة، أهلها لا يختلفون عن موه العزيزة أو تشاجا، وبرفارد على الأرجح بالنسبة إلى أهلها مملة ورتيبة بنفس القدر الذي شعرت به تجاه باليلا.

يسافران لنصف يوم ثم يتوقفان للراحة، ثم يسافران بقية اليوم، حتى أمست برفارد في الوراء البعيد ولا شيء خلفهما إلا مساحات من هشيم صخري قبيح شاسع يمتد لأميال. شرح لها شافا أن هناك صدع نشيط قريب من هنا، ظل يمخض سطح الأرض لسنوات وعقود، ولذلك يبدو سطح الأرض في بعض الأماكن مكدومًا وعاريًا. يشير إلى كومة ضخمة من الصخور الرمادية الخضراء المفتتة، تبدو حادة الأطراف ورطبة بشكل ما، يقول: «هذه الصخور لم تكن موجودة قبل عشر أعوام، ثم حدثت هزة سيئة، من الدرجة التاسعة. أو هكذا قيل لي. كنت أتجول وقتها في ربع آخر. وإن كان هذا المنظر يدفعني إلى التصديق».

دامايا تومئ. إنها تشعر بالأرض الأب هنا أقرب مما كان في باليلا، أو... ليس أقرب، هذه ليست الكلمة المناسبة، لكنها لا تعرف أي الكلمات أنسب. ربما مثلًا لمس الأرض هنا أيسر، لو أنها أرادت أن تلمسه. و...و... تشعر بأن سطح

الأرض حولهما هشّ إلى حد ما، مثل قشرة بيض تشقها خطوط دقيقة لا تكاد ترى، لكنها مع ذلك تسمح بتسرب الموت العاجل للفرخ بداخلها.

يوكزها شافا برجله. «توقفي».

تجفل دامايا ولا تفكر في الكذب. «لم أكن أفعل شيئًا».

«كنت تنصتين للأرض، وهذا شيء».

كيف عرف؟ تميل إلى الأمام، لا تعرف إن كان عليها الاعتذار أم لا. تتململ، تضع يداها على مقبض السرج، ما يشعرها بالضآلة لأن المقبض هائل، مثل كل ما يمت لشافا بصلة (باستثنائها). لكنها تحتاج إلى أي شيء يشغل انتباهها عن الإنصات مجددًا. بعد دقيقة، شافا يتنهد.

يقول: «كان يجدر بي توقع هذا»، وضايقها الإحباط في صوته. «هذا ليس خطأك، إنك من غير تدريب مثل... مثل جذع جاف، ونحن الآن نعبر حريقًا مستعرًا يرمي بالشرر»، يبدو عليه التفكير، «هل قد يساعدك لو حكيت حكاية؟».

الحكاية فكرة رائعة. تومئ، وتحاول ألا تبدو متشوقة. يقول شافا: «حسنًا. هل سمعت بشمشنا؟».

«من؟».

يهز رأسه. «يا نار الأرض. ما الذي يعلمونه لكم في المدارس الأوسطية؟ لا شيء غير القول على ما أظن، صح؟ بل ولعلهم لا يعلمونكم منه إلا ما تعرفون به مواقيت زرع

المحاصيل وما إلى ذلك».

تقول دامايا وقد شعرت بأنها ملزمة بالدفاع عن باليلا: «لا وقت لما هو أكثر من ذلك. ربما الأطفال في الكومونات الاستوائية غير مضطرين إلى المساعدة في الحصاد...».

«أعرف، أعرف، لكن تظل هذه خيبة»، يتزحزح كي يرتاح أكثر على السرج، «طيب، أنا لست قوالًا لكني سأخبرك عن شمشنا. قبل زمن بعيد، خلال موسم الأسنان -كان ذلك على ما أظن ثالث موسم بعد نشأة سانزا، ربما قبل مئتي عام مثلًا؟- كان هناك أوروچيني اسمه ميسالم قد قرر أن يقتل الإمبراطور. كان ذلك في الوقت الذي لم يزل للإمبراطور فيه دور، وقبل نشأة المرتكز بكثير. لم يتلقَ أغلب الأوروچينيين تدريبًا لائقًا في ذلك الزمن، وكانوا يتصرفون مثلك بناءً فقط على المشاعر والغريزة، هذا فقط إن نجا الواحد منهم من الطفولة. لم يتمكن ميسالم فقط من النجاة، بل ودرب نفسه أيضًا. بلغ مستوًى هائلًا من التحكم، ربما إلى حد الخاتم الرابع أو الخامس...».

«ماذا؟».

وكز رجلها مجددًا. «نظام رتب المرتكز. توقفي عن مقاطعتي». تحمر وجنتا دامايا وتطيعه.

يتابع شافا: «مستوى تحكم هائل، استخدمه ميسالم لقتل كل من يتنفس في عدة قرى ومدن، بل وحتى بعض الأغيار المشردين. قتل في المجمل الآلاف».

تشهق دامايا رعبًا. لم يخطر لها قط أن الروچات... توقف

نفسها فورًا. هي، هي روچا. أصبحت فجأة لا تحب تلك الكلمة، الكلمة التي كانت تسمعها طول حياتها. إنها كلمة سيئة لا يفترض بها قولها، حتى لو كان الكبار يتبادلونها بحرية، صارت مرة واحدة أقبح مما كانت بكثير.

الأوروچينيون إذن. يسيئها معرفة أن الأوروچينيين قادرون على قتل كل هذا العدد بتلك السهولة. لكنها تفترض هنا أن ذلك سبب كراهية الناس لهم.

لها.

هذا سبب كراهية الناس لها.

تسأل، وقد نسيت أنها لا يفترض بها المقاطعة: «لماذا فعل ذلك؟».

«ومن ذا الذي يعلم لماذا؟ ربما جنّ قليلًا». يميل إليها شافا كي تستطيع رؤية وجهه وهو يفتعل الحَوَل بعينيه ويلاعب حاجبيه. يباغت هذا دامايا فتنفجر ضحكًا، ويمنحها شافا ابتسامة تآمرية. «أو لعل ميسالم كان ببساطة شريرًا. بعيدًا عن ذلك، عندما توجه إلى يومينِس أرسل إلى أهلها يهددهم بتدمير المدينة وأهلها إن لم يخرج الإمبراطور للقائه، وليموت. حزن الناس لما أعلن الإمبراطور أنه قد وافق على طلب ميسالم، لكنهم أيضًا ارتاحوا، فما الذي يسعهم فعله غير ذلك؟ لم تكن لديهم أدنى فكرة عن كيفية محاربة أوروچيني بمثل هذه القوة»، يتنهد، «لكن الإمبراطور عندما وصل، لم يكن وحده، بل كانت معه امرأة واحدة، حارسته الشخصية، شمشنا».

تتأوه دامايا من الحماس، «لا بد أنها تحب الخير جدًّا، بما إنها كانت حارسة الإمبراطور».

«جدًّا. كانت محاربة مشهورة من أرقى السلالات السانزية. وكانت علاوة على ذلك من طائفة المبتكرين، وقد درست الأوروچينية طويلًا وفهمت طريقة عملها بعض الشيء. لذا، قبل قدوم ميسالم، كانت قد جعلت كل أهل يومينِس يغادرونها، وأخذوا معهم كل الماشية والمحاصيل. بل إنهم حتى قطعوا الأشجار والشجيرات وأحرقوها، وحرقوا بيوتهم، وأخمدوا كل نار حتى لا يتركوا خلفهم إلا الرماد المبتل البارد. إن طبيعة قوتك كما ترين تكمن في انتقال طاقة الحركة، والتحفيز السيسوني. إن المرء لا يحرك الجبال بإرادته وحدها».

«ماذا تـ. . . ؟»

يقاطعها شافا برقة: «لا، لا، يجب عليَّ أن أعلمك أشياء عديدة يا صغيرة، لكن هذا الجزء ستتعلمينه في المرتكز. دعيني أنتهي». تسكت دامايا على مضض.

«لكني سأخبرك بهذا القدر. بعض الطاقة التي تحتاجينها، عندما تتعلمين لاحقًا كيف تتحكمين في قدرتك تحكمًا ملائمًا، ستأتي من داخلك»، ويلمس شافا مؤخر رأسها مثلما فعل أول مرة في الحظيرة، بإصبعين فقط فوق خط شعرها، وتقفز على الفور قليلًا، لأنها شعرت بما يشبه الشرارة عندما فعل، مثل الكهرباء الإستاتيكية. «غير أن أكثر الطاقة ستأتي من الخارج. لو كان الأرض يتحرك بالفعل، أو كانت هناك نار تحت الأرض قريبة من السطح، فيمكنك استخدام هذه الطاقة،

بل *يفترض بك* استخدامها. عندما يفور الأب الأرض، يطلق عنان قوى خام هائلة، أخذ بعضها لن يؤذيك أو يؤذي غيرك».

«الهواء عندها لن يبرد؟»، تحاول دامايا، تحاول بشدة، أن تكبح فضولها، لكن القصة جيدة جدًّا، وفكرة استخدام الأوروچينية استخدامًا آمنًا لا يسبب أذًى مثيرة جدًّا، «ولن يموت أحد؟».

تشعر به يومئ، «بلى، فقط عندما تستخدمين طاقة الأرض. لكن الأب الأرض طبعًا لن يتحرك حسب رغباتنا. عندما لا تكون هناك طاقة أرضية قريبة، يظل في وسع الأوروچينية جعل الأرض تتحرك، لكن ذلك فقط بأخذ الحرارة والطاقة والحركة المطلوبة من الأشياء المحيطة بها، أي شيء يتحرك أو فيه دفء؛ نيران المخيمات، الماء، الهواء، بل وحتى الصخور، وطبعًا الكائنات الحية. لم يكن في وسع شمشنا طبعًا إزالة الأرض والهواء، لكن كان في وسعها أخذ كل ما عدا ذلك، وفعلت. وعندما تقابلت هي والإمبراطور ميسالم عند بوابات يومينِس السبجية، كانا آخر كائنين على قيد الحياة في المدينة، ولم يعد في المدينة إلا حوائطها».

تشهق دامايا ذهولًا، وتحاول تخيل باليلا خاوية وعارية من كل شجيرة وبهيمة، وتفشل. «وكل الناس... ببساطة ذهبوا؟ فقط لأنها قالت ذلك؟».

«لأن الإمبراطور قال ذلك، لكن نعم. كانت يومينِس أصغر بكثير في تلك الأيام، لكنها مع ذلك كانت مكانًا هائلًا. مع ذلك كان إما هذا أو السماح لوحش بأخذهم رهائن»، هز شافا

كتفيه، «ادعى ميسالم أنه لا رغبة لديه في الحكم مكان الإمبراطور، لكن من يصدق ذلك؟ رجل مستعد لتهديد مدينة للحصول على ما يريد لن يوقفه شيء».

تشعر أن كلامه منطقي. «ولم يعرف عمّا فعلته شمشنا قبل أن يصل إلى يومينِس؟».

«لم يعرف. كان الحريق قد خمد قبل وصوله وسافر الناس في اتجاهات مختلفة. لذا عندما واجه ميسالم الإمبراطور وشمشنا، حاول استحضار الطاقة ليدمر المدينة، ولم يجد شيئًا. لا طاقة، ولا مدينة ليدمرها. وفي تلك اللحظة، استغلت شمشنا تخبط ميسالم بينما يحاول استحضار القليل من الدفء الموجود في التربة والهواء، ورمت سكينًا سبجية في نطاق قدرته. لم تقتله، لكنها شتتته بما يكفي لكسر أوروچينيته، وقامت شمشنا عندها بما توجب عليها بسكينها الأخرى. بهذا انتهى أكبر خطر واجهته إمبراطورية سانزا القديمة، اعذريني، أقصد *الائتلاف السانزي الاستوائي*».

ترتجف دامايا من فرط المتعة. لم تسمع قصة جيدة مثل هذه منذ زمن بعيد. بل وقصة حقيقية؟ أفضل وأفضل. تبتسم لشافا بخجل، «أعجبتني هذه القصة»، إنه ممتاز في حكي القصص أيضًا، صوته شديد العمق والحلاوة، حتى أنها استطاعت رؤية كل ما حدث بينما يتكلم.

«كنت متأكد أنها ستعجبك. أتعرفين؟ تلك كانت بداية الأوصياء أيضًا. مثلما المرتكز نظام الأوروچينيين، نحن النظام الذي *يراقب* المرتكز. نحن نعلم، مثل شمشنا، أنكم رغم كل

قدراتكم المريعة، لستم منيعين، وهزيمتكم ممكنة».

يربت على يدي دامايا فوق مقبض السرج، ولم تعد دامايا ترتجف، لم تعد تحب القصة بنفس القدر. لما حكاها كانت تتخيل نفسها مكان شمشنا، تواجه بشجاعة عدوًّا مرعبًا وتهزمه بالحذاقة والمهارة. لكن مع كلمات مثل *أنكم... وقدراتكم... ولستم... وهزيمتكم...* في حديثه، بدأت تفهم: إنه لا يعتبرها مشروع شمشنا.

يتابع، ربما لم يلاحظ جمودها في مكانها: «نحن الأوصياء أيضًا نتدرب». لقد توغلا عميقًا في منطقة الهشيم، الصخور الحادة المنحدرة عالية علو مباني برفارد، وتصطف على جانبي الطريق على امتداد البصر. أيًّا كان من بنى هذا الطريق لا شك في أنه نحته على نحو ما، نحته في الأرض نفسه. يقول مرة أخرى: «نتدرب مثلما فعلت شمشنا، نتعلم كيف تعمل القوى الأوروچينية، ونكتشف طرقًا لاستخدام تلك المعرفة ضدكم. ونراقبكم كي نرى مَن منكم قد يصبح ميسالم التالي، ونقضي عليه. أما البقية فنعتني بهم». يميل إليها مبتسمًا من جديد، لكن دامايا لم ترد ابتسامته هذه المرة. «أنا وصيك الآن، وواجبي هو التأكد من أن تظلي شخصًا نافعًا، لا مؤذيًا».

عندما اعتدل وصمت، لم تحثه دامايا على حكي قصة أخرى مثلما كانت تود أن تفعل. لم تحب القصة التي حكاها، ليس بعد ما قاله. وبشكل ما أدركت فجأة أنه لم يقصد بالقصة أن تعجبها.

يستمر الصمت بينما بدأ الهشيم يتراجع، ويتحول بالتدريج

إلى سفح تل أخضر. لا يوجد أي شيء هنا: لا مزارع ولا مراعي ولا غابات ولا قرى. ثمة ما يشير إلى أن ربما عاش الناس هنا ذات يوم، إذ ترى كتلة ضخمة تغطيها الأعشاب والطحالب في الأفق، لعلها صومعة حبوب، لو كانت الصوامع بحجم الجبال. وهناك أيضًا هياكل أخرى أكثر انتظامًا وحدة من أن تكون طبيعية، تحللت بفعل الزمن فلم يعد في وسعها التعرف عليها. تستوعب أن هذه أطلال، لا شك أنها أطلال مدينة ماتت قبل مواسم عديدة، إذ لم يتبقَّ منها إلا القليل. وفيما وراء الأطلال، عند السحاب الهائم في الأفق، مسلة ضبابية بلون الغيوم الرعدية، تدور ببطء وتلتمع.

السانزا هو البلد الوحيد الذي نجا من موسم خامس سليمًا معافًى، ليس فقط مرة واحدة، بل سبعًا. تعلمت هذا في المدرسة. سبعة عصور انشق فيهم الأرض في مكان ما وبصق الرماد أو الغازات المميتة على السماء، فأدى إلى شتاء بلا نور يدوم لسنوات أو عقود بدلًا من عدة شهور. غالبًا ما تنجو الكومونات المتفرقة من المواسم لو كانوا مستعدين، لو كانوا محظوظين. تعرف دامايا قول الصخر، الذي يعلمونه لكل طفل في مدرسة باليلا الصغيرة. *أمِّن البوابات أولًا، وحافظ على بيت الأحراز جافًّا ونظيفًا، وأطع القول.* وربما عندما ينتهي الموسم يتبقى عدد كافٍ من الناس يتذكرون كيف تعمل الحضارة.

لكن لم يحدث في التاريخ سوى مرة واحدة، أن بلدًا كاملًا، أي عدة كومونات تعمل معًا، نجا، بل وازدهر أيضًا، مرة تلو

المرة تلو المرة، يصبح مع كل كارثة أكبر وأقوى. لأن أهل السانزا أقوى وأذكى من كل ما عداهم.

تحدق دامايا إلى الأفق، تفكر، *أذكى حتى ممن بنوا هذه الأشياء؟*

لا شك. لا يزال السانزا موجودين، أما المسلات فليست إلا آثار حضارة مندثرة.

يربت شافا على يديها فوق المقبض بعد فترة ليخرجها من شرودها، ويقول: «صرت هادئة»، يده أكبر مرتين من يدها، ضخامتها دافئة ومطمئنة، «لا زلت تفكرين في القصة؟».

كانت تحاول تجنب التفكير فيها، لكنها كانت بالطبع تفعل. «قليلًا».

«لا يعجبك أن ميسالم هو شرير الحكاية، وأنك خطر محتمل مثل ميسالم لو لا توجد شمشنا لتتحكم فيك». يقول هذا بنبرة أمر واقع لا تساؤل.

دامايا تجفل، كيف له أن يبدو وكأنه يعرف دومًا ما تفكر فيه؟ قالت بصوت خافت: «أنا لا أريد أن أكون خطرًا»، ثم تتجرأ وتضيف، «ولا أريد أيضًا... أن يُتحكم فيَّ، أريد أن أكون...»، تستحضر الكلمات، ثم تتذكر شيئًا قاله أخوها ذات مرة عمًّا يعنيه أن تكون ناضجًا: «مسؤولة عن نفسي».

يقول شافا: «أمنية جديرة بالاحترام، لكن واقع الحال يا دامايا أنك غير قادرة على التحكم في نفسك، هذا ليس من طبيعتك. إنك مثل الكهرباء، خطيرة إن لم تُجمع في الأسلاك.

أنت نار، تنيرين الليلة الباردة وتدفئينها بلا شك، لكنك أيضًا حريق هائل قد يلتهم كل ما يمر في طريقه...».

«لن أدمر أحدًا، أنا لست شريرة إلى هذه الدرجة»، فجأة بات هذا أكثر من احتمالها. تحاول أن تلفّ لتنظر إليه، لكن هذا يفقدها توازنها وتنزل من السرج. شافا على الفور يدفعها كي تعتدل وتنظر إلى الأمام، بحركة حازمة تقول بغير كلام *اجلسي معتدلة*. فتفعل، وتقبض على المقبض أكثر بإحباط. ثم، ولأنها متعبة وغاضبة ومقعدتها تؤلمها من قضاء ثلاثة أيام على ظهر الحصان، ولأن حياتها كلها أخذت منعطفًا خاطئًا فجأة، وأدركت مرة واحدة أنها لن تعود عادية أبدًا، تقول أكثر مما تعني قوله: «وعلى أية حال، أنا لا أحتاجك لتتحكم فيَّ، أستطيع التحكم في نفسي».

يشدّ شافا لجام الحصان فيوقفه.

تتيبس دامايا ذعرًا. لقد استفزته. كانت أمها تضربها دومًا على رأسها عندما تفعل ذلك في البيت. هل سيضربها شافا الآن؟ لكن صوته لطيف الوقع كالعادة وهو يقول: «أتستطيعين فعلًا؟».

«ماذا؟».

«التحكم في نفسك. هذا سؤال مهم، أهم سؤال على الإطلاق. هل تستطيعين؟».

تقول دامايا بصوت ضئيل: «أنا... أنا لا...».

يضع شافا يده على يديها حيث تستقران على مقبض السرج.

لمَّا حسبت أن هذا يعني أنه سيترجل من الحصان، بدأت تزيح يدها كي يتمكن من التشبث جيدًا، لكنه يعتصر يدها اليمنى ليثبتها في مكانها، وتركها تسحب اليسرى. «كيف اكتشفوك؟».

تعرف من دون أن تسأل ماذا يقصد، قالت: «في المدرسة، عند الغداء، كنت... دفعني ولد».

«هل آلمك؟ هل كنت خائفة أم غاضبة؟».

تحاول أن تتذكر. تشعر وكأن ذلك اليوم في ساحة المدرسة حدث في الماضي البعيد. «غاضبة»، لكن هذا لم يكن كل شيء، أليس كذلك؟ زاب كان أضخم منها أيضًا، وكان يجري *وراءها* طوال الوقت. ولقد تألمت أيضًا، قليلًا، عندما دفعها. «خائفة».

«صحيح. إن الأوروچينية من الغريزة، ولدت من الحاجة إلى النجاة من التهديدات القاتلة. مهما كان الخطر، سواء كان متنمرًا أو بركانًا. قوتك الداخلية لا تفرق هذا عن ذاك، لا تستوعب درجته».

تستحكم يده حول يدها وتثقل بينما يتكلم.

«إن قدرتك تعرب عن نفسها لتحميك بنفس الطريقة، بغض النظر عن عظمة أو قلة الخطر المحسوس. عليك أن تعرفي يا داමايا أنك محظوظة، غالبًا ما يكتشف الأوروچينيون أنفسهم عندما يقتلون قريبًا أو صديقًا. إن أحب الناس إلينا هم أكثر من يؤذوننا في النهاية».

تفكر دامايا: إنه منزعج، لعله يفكر في شيء سيئ، ربما ذلك الشيء الذي يجعله يئن ويتقلب ليلًا. هل قتل أحدهم قريبًا أو صديقًا له؟ هل لهذا تضغط يده على يدها بهذه القوة؟ تقول: «شش..ـافا»، تخاف فجأة، لا تعلم السبب.

يقول «هشش»، ويعدل وضع أصابعه ليجعلها مصطفة بإحكام مع أصابعها. ثم يضغط أكثر، على نحوٍ يجعل ثقل يده يضغط على عظم كفها. يتعمد هذا.

هذا مؤلم، «شافا!»، يعلم أن هذا مؤلم، لكنه لا يتوقف.

«هوني عليك ياصغيرة، اهدئي». عندما تنشج دامايا وتحاول سحب يدها، تؤلمها. يؤلمها الضغط المستمر ليده، المعدن القاسي البارد للمقبض، عظامها التي تسحق لحمها. يتنهد شافا ويلف يده الحرة حول خصرها. «اثبتي وتشجعي، سأكسر يدك الآن».

«ما...؟».

يفعل شافا شيئًا يجعل فخذيه تشتدان وصدره ينتفخ إلى الأمام، لكنها لا تكاد تلاحظ ذلك، فجُل وعيها منصب الآن على يدها، ويده، والطرقعة المرعبة، والأشياء التي تتحرك مع أنها لم تتحرك من قبل قط، والوجع الحاصل مباغت وحاد وشديد إلى حد يجعلها تصرخ. تخدش يده بيدها الحرة وتنبش فيه أظافرها بيأس وقلة حيلة. ينتزع يده الحرة ويثبتها على فخذها، كي لا يكون في وسعها إلا خدش نفسها.

ثم، في أثناء ألمها، تصبح واعية فجأة بالبرد والسلام

المطمئن للصخرة المستقرة تحت أقدام الحصان.

يتراجع الضغط. يرفع شافا يدها المكسورة، ويعدل من قبضته كي تستطيع رؤية محل الضرر. تتابع الصراخ، وأكثره هذه المرة نابع من رؤيتها يدها ملتوية إلى حيث لا ينبغي عليها أن تفعل، بشرتها تتكرمش وتتحول إلى اللون البنفسجي في ثلاثة أماكن، وكأنها مجموعة مفاصل جديدة، وتبدأ أصابعها تتيبس متشنجة.

الصخرة تناديها. يكمن في قلبها دفء وطاقة قادران على جعلها تنسى الألم. تكاد تستحضرهما أملًا في ذلك الوعد بالراحة، ثم تتردد.

أتستطيعين التحكم في نفسك؟

يقول شافا في أذنها: «يمكنك أن تقتليني»، وبرغم كل شيء، تصمت تمامًا كي تسمعه، «يمكنك التوجه إلى نار الأرض، أو امتصاص القوة من كل شيء حولك. أنا جالس ضمن نطاق قوتك»، لا تفهم معنى أيٍّ من هذا، «هذه منطقة شائكة بالنسبة إلى أوروچينيتك، فأنت لم تتدربي قط، غلطة واحدة ستؤدي إلى زحزحة الصدع تحتنا، والتسبب في هزة هائلة. هذا قد يقتلك أيضًا، لكنك لو تمكنت من النجاة ستصبحين حرة. ستجدين كومونة في مكان ما وتتوسلين ليسمحوا لك بالدخول، أو تنضمين إلى قطيع أغيار وتتماهين بقدر الإمكان. لو كنت شاطرة فستقدرين على إخفاء حقيقتك، لبعض الوقت. لن يدوم هذا أبدًا، فذاك ليس أكثر من وهم، لكنك ستشعرين أنك عادية لبعض الوقت. أعلم أنك ترغبين

في هذا أكثر من أي شيء».

دامايا تسمعه بالكاد. الألم يعصف بيدها، وذراعها، وأسنانها، يطمس حواسها. عندما سكت، يصدر عنها صوت وتحاول سحب يدها من جديد. تضيق أصابعها محذرة، فتثبت فورًا.

يقول: «جيد جدًا، لقد تحكمت في نفسك خلال الألم، أغلب الأوروچينيين الصغار لا يقدرون على ذلك من دون تدريب. الآن حان وقت الاختبار الحقيقي. يعدل من قبضته بحيث تغلف كفه الضخمة كفها الصغيرة. دامايا ترتعش، لكن يده رقيقة، حتى الآن. «أظن أن يدك مكسورة في ثلاثة مواضع على الأقل. لو أننا وضعناها في جبيرة واعتنينا بها، فستشفى على الأرجح من دون أثر دائم، غير أنني لو هشمتها...».

لا تستطيع أن تتنفس، يملأ الرعب رئتيها. تزفر آخر قبضة هواء في حلقها على شكل كلمة: «لا!».

يقول: «*لا تقولي لي لا أبدًا*». تلسع الكلمات جلدها. ينحني ليهمهم في أذنها. «ليس للأوروچينيين الحق في رفض أي شيء. أنا وصيك. سأهشم كل عظمة في يدك، كل عظمة في جسدك، لو أنني رأيت هذا ضروريًا لتأمين العالم من خطرك».

لن يهشم يدها. لماذا؟ فقط لن يفعل. أخذ شافا يمسد بإبهامه على العقد المتورمة التي بدأت تظهر على ظهر يدها وهي ترتجف في صمت. ثمة شيء تأملي في حركته، شيء مثير للفضول. لا تستطيع دامايا أن تشاهد، تغلق عينيها،

تشعر بالدموع تجري بحرية من تحت جفنيها. تشعر بالغثيان، بالبرد، صوت دمائها يتردد في أذنيها.

«لمـ.. لماذا؟»، صوتها مبحوح، يشقّ عليها التقاط الأنفاس. تشعر باستحالة حدوث ما يحدث، على الطريق، بعيدًا عن كل مكان، في مساء هادئ. إنها لا تفهم. لقد تعلمت من أهلها أن الحب كذبة، ليس صلبًا كالصخر، بل يتهشم ويتفتت بسهولة، واهن كمعدن صدئ. لكنها مع ذلك حسبت أن شافا مُعجب بها.

يتابع شافا تمسيد يدها المكسورة، يقول: «أنا أحبك».

تجفل، يهدئها بصوت ناعم في أذنها، ولا تزال إصبعه تمسد اليد التي كسرها. «لا تشكّي أبدًا في حبي لك يا صغيرة. كنت منبوذة مسكينة محتجزة في حظيرة، يغشاك الرعب فلا تكادين تنطقين. ومع ذلك كان في داخلك ناران، نار الفطنة ونار الأرض، ولم أستطع تجنب الإعجاب بكليهما، حتى مع الشر الكامن في الثانية»، يهز رأسه ثم يتنهد، «أكره أن أفعل بك هذا، أكره حقيقة أن هذا ضروري، لكن أرجوك افهمي: لقد أذيتك كي لا تأذين أحد آخر».

يدها تؤلمها. قلبها يخفق والألم يدق معه، إنه يحرقها، يحرقها يحرقها يحرقها يحرقها. تهمس الصخرة أسفلها أن كم سيكون من الرائع أن تبرد هذا الألم. لكن ذلك يعني قتل شافا، آخر شخص يحبها في هذا العالم.

شافا يومئ، وكأنه يومئ إلى نفسه. «تحتاجين إلى معرفة

أني لن أكذب عليك أبدًا يا دامايا. انظري تحت ذراعك».

فتحُ عينيها وتنحية ذراعها الأخرى جانبًا يتطلبان منها مجهودًا وزمنًا لا نهائيين. لكنها بعدما تفعل، ترى يده الحرة تحمل خنجرًا زجاجيًا أسود طويلًا مشطوفًا، طرفه الحاد مستقر على قماش قميصها، تحت أضلعها بالضبط، مصوبًا إلى قلبها.

«إن مقاومة رد الفعل الغريزي شيء، ومقاومة الرغبة الواعية المتعمدة لقتل شخص آخر، سواء دفاعًا عن النفس أو لأي سبب غيره، شيء آخر». ويربت شافا بسكينه على جانبها، وكأنه يوضح هذه الرغبة. طرف الخنجر حاد بما يكفي لوخزها حتى عبر ملابسها. «لكن يبدو أنك، مثلما قلت، قادرة على التحكم في نفسك».

وبعد قوله يسحب شافا الخنجر من جانبها، ويديره بين أصابعه مثل خبير، ويدسه في غمده بحزامه دون أن ينظر. ثم يأخذ يدها المكسورة بين كفيه. «استعدي».

لا تستعد، لأنها لا تعرف ما الذي يعنيه ذلك. إن الانفصام بين كلماته الرقيقة وأفعاله القاسية يربكها إرباكًا. ثم تصرخ من جديد عندما يشرع شافا في إعادة كل عظام يدها إلى أماكنها. لا يستغرق هذا إلا لحظات، لكنها تشعر بأنه استغرق عمرًا.

بعدما ترتخي في حضنه، دائخة ومرتجفة وضعيفة، يحثّ شافا الحصان مجددًا، ويتسارع خبب الحصان هذه المرة. دامايا الآن تجاوزت الألم، لا تكاد تلاحظ احتفاظ شافا بيدها

المصابة في يده، معقودة هذه المرة لصق جسدها للحد من الحركة غير المقصودة. لا تتعجب مما حدث. لا تفكر في شيء، لا تفعل شيئًا، لم يعد لديها ما يقال.

أمست المرتفعات الخضراء خلفهما، وعاد سطح الأرض تحتهما مسطحًا مرة أخرى. لكنها لا تلقي بالًا. تراقب السماء، وتلك المسلة البعيدة الرمادية الضبابية في الأفق، التي لا يبدو أنها تتزحزح من مكانها حتى مع أنهم قطعوا أميالًا. السماء حولها أخذت تزرق أكثر وأكثر، ثم تظلم حتى يسود الأسود، ولا يعود يظهر من المسلة إلا بقعة قاتمة أمام النجوم الوليدة. أخيرًا، ومع خفوت آخر أشعة الشمس من السماء، يقود شافا الحصان إلى خارج الطريق ويترجل عنه كي يخيِّم. يحمل دامايا عن الحصان وينزلها، وتقف حيث وضعها بينما ينظف سطح الأرض ويجمع الحجارة الصغيرة في دائرة كي يوقد نارًا. لا توجد هنا أخشاب، لكنه يخرج من حقائبه عدة كتل من شيء ما ويستخدمها لإشعال النار. خمنت من الرائحة الخبيثة أنه فحم أو خُث جاف. لا تهتم، تظل مكانها بينما ينزع السرج عن الحصان ويعتني به، وبينما يفرد السرير القابل للطي ويضع إناء فوق النار. بعد قليل طغت رائحة الطبخ على نتانة الوقود.

تقول دامايا: «أريد أن اذهب إلى البيت». لا تزال تحمل يدها لصق صدرها.

يتوقف شافا عن تحضير العشاء ثم ينظر إليها. تبدو عيناه الثلجيتان كما لو أنهما ترقصان في ضوء النار الخفّاق. «لم

يعد لك بيت يا دامايا، لكن سيكون لك قريبًا، في يومينِس. سيكون لك هناك معلمون وأصدقاء وحياة جديدة كاملة». يبتسم.

منذ أن أعاد أصابعها إلى مكانها تخدرت يدها تقريبًا، لكن يظل هناك وجع صغير متلكئ نابض. أغلقت عينيها، تمنت أن يذهب كل هذا، كل شيء، الوجع، يدها، العالم. فاحت رائحة مثيرة للعاب، لكن ليس عندها شهية. «لا أريد حياة جديدة».

لا يجيبها إلا الصمت لبعض الوقت، ثم يتنهد شافا وينهض، يقترب منها. تجفل منه إلى الخلف، لكنه يركع على ركبتيه أمامها ويضع يديه على كتفيها.

يقول: «هل تخشينني؟».

تتصاعد في داخلها الرغبة في الكذب لبعض الوقت. تفكر في أنه لن يسعد إن قالت الحقيقة. لكنها تتألم كثيرًا، وهي أكثر خدرًا من أن تخاف أو تنافق أو ترغب في إسعاده. لذا تقول الحقيقة: «نعم».

«جيد، عليك أن تخشيني. لست آسفًا على الألم الذي سببته لك يا صغيرة، لأنك في حاجة إلى تعلم درس الألم. ماذا فهمتِ عني حتى الآن؟».

تهزّ رأسها، ثم تجبر نفسها على الإجابة، لأن هذا بالطبع هو الهدف. «عليَّ أن أفعل ما تقول وإلا ستؤذيني».

«و؟».

تغلق عينيها أكثر، هذا يجعل الوحوش الشريرة تذهب في الأحلام.

تضيف: «وستؤذيني لو أنك شعرت بحاجة إلى ذلك، حتى لو كنت مطيعة».

«صح». تستطيع سماع ابتسامته. يزيح خصلة تائهة على وجنتها، تاركًا ظهر يده يمسد بشرتها. «ما أفعله ليس عشوائيًّا يا دامايا، الهدف هو التحكم، لا تعطيني سببًا للشك في تحكمك، وأنا لن أؤذيك مجددًا. أتفهمين؟».

إنها لا تريد أن تسمع هذا الكلام، لكنها تسمعه رغمًا عنها. ورغمًا عنها أيضًا تسترخي أجزاء منها قليلًا. مع ذلك لا ترد، لذا يقول: «انظري إليَّ».

تفتح عينيها. وجهه سيلويت قاتم يحيط به شعره الأقتم أمام ضوء النار. تحيد عنه.

يمسك بوجهها ويديره إليه، بحسم. «هل تفهمين؟».

هذا بالطبع تحذير.

تقول: «أفهم».

راضيًا، يتركها. ثم يسحبها إلى حيث النار ويشير إليها كي تجلس على صخرة قلبها على ظهرها، فتفعل. عندما يعطيها طبقًا معدنيًّا صغيرًا مليئًا بحساء العدس، تأكل على نحو غريب، لأنها ليست عسراء. تشرب من القربة التي يعطيها إياها. التبول عسير؛ تمشي بتعثر على أرض غير مستوية في

الظلام، بعيدًا عن النار، ما يجعل يدها تؤلمها، لكنها تفعلها. ولما كان هناك سرير قابل للطي واحد، تتمدد إلى جواره عندما يربت لها على الفراش. وعندما يقول لها أن تنام، تغلق عينيها، لكنها لا تروح في النوم إلا بعد وقت طويل.

لكنها عندما تنام، تمتلئ أحلامها بالألم المبرح وحركة الأرض وحفرة هائلة في النور الأبيض تحاول أن تبتلعها. وعندما يوقظها شافا يبدو لها وكأن لم تمضِ إلا لحظة واحدة. لا يزالان في منتصف الليل، عدا أن أماكن النجوم تزحزحت. لا تذكر، على الأقل في البداية، أنه كسر يدها، وتبتسم له بغير تفكير. يرمش، ثم يرد لها الابتسامة بسعادة حقيقية.

«كنت تصدرين ضجة».

تلعق شفتيها، لم تعد تبتسم، لأنها تذكرت، ولأنها لا تريد أن تخبره إلى أي مدى أرعبتها الكوابيس، والاستيقاظ.

تسأل: «هل كنت أغطّ؟ يقول أخي إني أغطّ كثيرًا».

يتأملها صامتًا لوهلة، تبهت ابتسامته. بدأت تنفر من وهلات الصمت تلك، إنها ليست وقفات طبيعية في الحديث أو لحظات لاستجماع الأفكار، بل هي اختبارات، وإن كانت لا تعرف اختبارات لماذا. إنه يختبرها طوال الوقت.

يقول في النهاية: «نعم، كنت تغطّين، لكن لا تقلقي، لن أضايقك لهذا السبب مثل أخيك». ويبتسم، وكأن أخاها الذي لم يعد كذلك والكوابيس التي تلتهم حياتها أمور مضحكة.

بيد أنه الشخص الوحيد المتبقي لها لتحب، لذا تومئ،

وتغلق عينيها مرة أخرى، وتسترخي إلى جواره. «ليلتك سعيدة يا شافا».

«ليلتك عزيزة يا صغيرة. عسى أن تكون أحلامك ساكنة».

***

موسم الغليان (١٨٤٢ – ١٨٤٥ إمبراطوري): انفجرت بقعة ساخنة تحت بحيرة تكاريس، ونثرت من البخار وجسيمات المواد ما كان يكفي لحثّ المطر الحمضي وحجب السماء فوق كومونات الجنوب الأوسط والأنتاركتيكا والساحل الشرقي. لكن المناطق الاستوائية والشمالية لم يصبها أذى، لذا يختلف المؤرخون إن كان هذا يعتبر موسمًا «بحق» أم لا.

مواسم السانزا– من كتب الصف الثاني عشر الدراسي

٧

أنت زائد واحد يساوي اثنين

تستيقظين في الصباح، وتمضين قدمًا، ويذهب الولد معك. تمشيان جنوبًا، عبر أراضٍ جبلية وتحت الرماد المتساقط.

يشكل الولد على الفور مشكلة. إنه قذر. لم تريْ ذلك في ظلام الليل، لكنه مغطى تمامًا بطين جاف وطين في طريقه إلى الجفاف والأغصان المهشمة، والأرض يعلم ماذا أيضًا. لعله علق في انهيار طيني، تحدث تلك الأشياء كثيرًا خلال الهزات. لو أن ذلك ما حدث فهو محظوظ لبقائه حيًا. لكنك مع ذلك تتجهمين عندما تجدينه قد لطخ السرير القابل للطي بالبقع والتراب بعدما استيقظ. تستغرقين نحو عشرين دقيقة كي تدركي أنه تحت كل تلك الفوضى عارٍ.

عندما تسألينه عن هذا -وكل شيء آخر- يتحفظ. في مثل هذا السن يفترض أن الأطفال غير قادرين على التحفظ، لكنه كذلك. إنه لا يعلم اسم كومونته ولا أسماء من أنجبوه، وهم على ما يبدو «ليسوا كثيرين». يقول إنه ليس لديه أب ولا أم، ولا يعلم اسم استخدامه، وأنت متأكدة أن هذه كذبة صارخة. إنه صغير، وربما يتيم، لكنه ليس أصغر من أن يعرف مكانه في العالم. أطفال أصغر منه بكثير يفهمون تلك الأشياء، كان أوتشي في الثالثة فقط من عمره عندما عرف أنه مقاوم مثل والده. وعرف أيضًا أن هناك أمورًا لا يمكنه أن يناقشها مع أحد إلا أمه، وفقط عندما يكونان وحدهما. تلك التي تتعلق بالأب

الأرض وهمساته، النداءات القادمة من تحت جدًّا جدًّا، أطلق أوتشي على ذلك...

لكنك لست جاهزة بعد للتفكير في هذا.

بدلًا من ذلك تتأملين في هوّا، لأن فيه الكثير مما يستحق النظر. تلاحظين عندما يقف أن هذا الشيء القصير بالكاد يصل طوله إلى أربعة أقدام. سلوكه أقرب إلى طفل في العاشرة، إذن هو إما ضئيل بالنسبة إلى سنه أو سلوكه أنضج من جسده. تميلين إلى الاختيار الثاني، وإن كنت لست متأكدة لماذا. لا تستطيعين قول الكثير عنه، عدا أن لون بشرته أفتح على الأرجح، إذ إن الأماكن التي تقشر عنها الطين ذات لون رمادي متسخ لا بني متسخ. لعله إذن من مكان ما ناحية الأنتاركتيكا، أو الساحل القاري الغربي حيث الناس شاحبون.

والآن، هو هنا، على بعد أميال عديدة عند الجنوب الأوسط والساحل الشرقي، وحيد وعارٍ. طيب.

ربما حدث شيء ما لعائلته، ربما كانوا يبدلون الكومونات. يفعل هذا عديد من الناس، ينتزعون جذورهم ويقضون الشهور والسنين مسافرين في أرجاء القارة، يتوسلون إلى الانضمام إلى الكومونات حيث يزرعون أنفسهم من جديد، كزهور شاحبة في مرج ظليل.

ربما.

حسنًا.

على أية حال...

لهوّا أيضًا عينان بلون بياض الثلج، بياض ثلج حقيقي. خفتِ منهما قليلًا عندما أيقظك في الصباح ونظر إليك، كل ذلك الطين المظلم يحيط بنقطتين متوهجتين بلون فضي مزرق. لا يكاد يبدو إنسانًا بهاتين، غير أن ذوي عيون بياض الثلج قلما يبدون كالبشر. لقد سمعت في يومينِس أن هذه العيون مرغوبة -كانت مرغوبة- جدًّا بين طائفة استخدام المستولدين. أحبها السانزيون لأنها تسبب شعورًا بالتهديد والغرابة. لكنهما ليسا فقط ما يجعل هوّا غريبًا.

إنه أيضًا مبتهج ابتهاجًا غريبًا. عندما استيقظت في الصباح التالي لانضمامه إليك، وجدته مستيقظًا بالفعل، ويلعب بقداحتك. لم يكن حولك في المرج شيء لإيقاد نار -باستثناء العشب الذي حتى لو وجدت منه كمية جافة كافية فسيحترق في ثوانٍ، وربما يتسبب في حرق بقية المرج أيضًا- لذا لم تخرجي القداحة من مخلاتك في الليلة السابقة. لكنها كانت معه، يهمهم لنفسه في كسل بينما يقلبها بين أصابعه، ما يعني أنه كان يعبث في متاعك. لم يثِر هذا بهجتك، وظلت تلك الصورة في عقلك وأنت تجمعين متاعك: طفل ناجٍ على ما يبدو من كارثة ما، يجلس عاريًا في منتصف المرج، محاطًا بالرماد المتساقط، ومع ذلك يلعب، بل وحتى يهمهم، وعندما يراك مستيقظة تنظرين إليه، يبتسم.

لهذا قررت أن تبقيه معك، مع أنك تعتقدين أنه يكذب بشأن عدم معرفة من أين جاء، لأنه... طفل.

لذا عندما تحملين متاعك، تنظرين إليه، فينظر إليك. يحمل

على صدره تلك الصرة التي لمحتها معه في الليلة السابقة؛ مجموعة خرق مربوطة بإحكام حول شيء ما، تقعقع عندما يضغط عليها. هذا أقصى ما يسعك تمييزه. ترين أنه متوتر، لا تستطيع هاتان العينان إخفاء شيء. حدقتاه ضخمتان. يتململ قليلًا، ينقل وزنه إلى إحدى قدميه ويستخدم الأخرى ليحك ربلة ساقه.

تقولين: «هيا»، وتلفّين تريدين الطريق الإمبراطوري. تحاولين ألا تلاحظي لهاثه الناعم، والطريقة التي يَخبُّ بها كي يلحقك بعد لحظة.

عندما تبلغين الطريق، تجدين من الناس القليل، يتحركون فرادى ومجتمعين، يتجهون كلهم تقريبًا جنوبًا، تثير أقدامهم الرماد الذي لا يزال أقرب إلى الغبار الناعم، ويهطل في ندف كبيرة فلا داعي إلى أقنعة التنفس حتى الآن، هذا لمن تذكروا حزم الأقنعة في متاعهم. يمشي رجل إلى جوار عربة متهالكة وحصان مريض، العربة مليئة بالمتاع وكبار السن، وإن كان الرجل لا يكاد يوصف بأنه أصغر. ينظرون جميعًا إليك وأنت قادمة من وراء التل. عصبة من ست نساء اجتمعن على ما يبدو التماسًا للأمان يتهامسن فيما بينهن عند رؤيتك، ثم تقول إحداهن للبقية بصوت مسموع: «يا صدأ الأرض! انظروا إليها! لا يمكن!». يبدو أن شكلك خطير، أو غير مرغوب، أو كلاهما.

أو لعل ما ينفرهم هو هيئة هوّا. لذا تلتفتين إلى الصبي. يتوقف عندما تتوقفين ويبدو قلقًا مرة أخرى، ويباغتك شعور

بالعار لتركه يمشي بتلك الهيئة، حتى مع أنك لم تطلبي انضمام طفل غريب إليك.

تنظرين حولك. ثمة جدول على الناحية الأخرى من الطريق. لا يوجد ما ينبئ متى سيكون بيت الطريق التالي، يفترض أن هناك بيتًا كل خمسة وعشرين ميلًا على الطريق الإمبراطوري، لكن يحتمل أن الهزة الشمالية دمرت البيت التالي. ثمة أشجار كثر الآن لكن ليس بما يكفي لإخفائكما عن العيون، خاصة وأن أكثر الأشجار مكسورة بعد الهزة الشمالية. يساعدك نزول الرماد قليلًا، إذ لا ترين ما يزيد على ميل حولك. لكن ما ترينه رغم ذلك أن السهول المحيطة بالطريق تبدأ تتحول إلى مساحات أكثر وعورة. تعرفين من الخرائط وكلام الناس أن تحت جبال تيريماس هناك صدع عتيق وربما ملتئم، وغابة شابة بدأت تنمو من الموسم السابق، وبعد ذلك بحوالي مئة ميل تتحول السهول إلى مسطحات ملحية، وبعدها صحراء، حيث الكومونات أقل والمسافات بينها أكثر، وتنزع إلى التحصن أكثر من الكومونات في الأماكن ذات البيئة الألطف.

(لا يمكن أن يكون جيجا قد ذهب حتى الصحراء، فهذا غباء، من ذا الذي قد يستقبله هناك؟).

أنت متأكدة أنك ستجدين كومونات على طول الطريق بينك وبين المسطحات الملحية. لو استطعت تحسين هيئة الطفل، ستقبل كومونة منهم أخذه على الأرجح.

تقولين للطفل: «تعالَ معي»، وتنزلين من الطريق. يتبعك على مساحة حصوية، وتلاحظين حدة أطراف بعض الحصى

والحجارة، وتضيفين أحذية جيدة إلى قائمة الأشياء التي تحتاجينها من أجله. لحسن الحظ لا تنجرح أقدامه، ولكنه ينزلق على الحصى في لحظة ما انزلاقة سيئة حد أنه يقع ويتدحرج على منحدر. تهرعين إليه بعدما يتوقف عن التدحرج، لكنك تجدينه قد اعتدل جالسًا بالفعل ويبدو عليه السخط، لأنه وقع في الطين على حافة الجدول. تقولين له: «تعال»، وتمدين إليه يد المساعدة.

ينظر إلى يدك، وتدهشين من رؤية ما يشبه الارتباك على وجهه. يقول حينها: «أنا بخير»، متجاهلًا يدك وهو ينهض. يتساقط الطين منه بينما يفعل. ثم يهرع متجاوزًا إياك ليلتقط صرته التي أسقطها خلال وقعته.

طيب، أيها الوغد الصغير ناكر الجميل.

يقول: «أتريدينني أن أغتسل؟».

«كيف خمنت؟».

لا يبدو أنه لاحظ التهكم. يضع صرته جانبًا على ضفة الجدول الحصوية، ويخوض في الماء حتى صارت بعلو خصره، ثم يقرفص كي يبدأ يحك نفسه. تتذكرين، فتخوضين في مخلاتك بحثًا عن شريحة الصابون. يلتفت استجابة لصفيرك، فتقذفينها له. تجفلين عندما لا يحاول التقاطها، لكنه يغطس على الفور ثم يخرج حاملًا إياها. فتضحكين، لأنه يحملق إلى الصابونة وكأنه لم يرَ مثلها قط.

«ادعك بها جسدك»، وتمثلين الحركة بتهكم مرة أخرى،

لكنه يعتدل ويبتسم قليلًا وكأنك أوضحت له بالفعل شيئًا، ويطيع.

تقولين: «وشعرك أيضًا»، وتخوضين في مخلاتك مجددًا، وتتحركين كي يكون في وسعك رؤية الطريق. بعض المارة يحدقون من أعلى إليك، في عيونهم الفضول أو الرفض، لكن أغلبهم لا يهتم بالنظر. هذا أفضل.

ما تبحثين عنه هو قميصك الآخر. سيبدو على الولد فستانًا. تقصين قدرًا من بكرة الخيط في مخلاتك، كي يستخدمها لحزم القميص تحت فخذيه، على سبيل التواضع ولحفظ قليل من الدفء في بدنه. لن يكفي هذا على المدى البعيد بالطبع، يقول القوالون إن الوقت لا يطول قبل أن يسود البرد بعد بدء الموسم. سيتعين عليك أن تحاولي اكتشاف إن كانت المدينة التالية التي ستقابلونها مستعدة لبيع الملابس والمستلزمات لكم، هذا إن لم تكن قد أعلنت الأحكام الموسمية بعد.

ثم يخرج الولد من الماء، وتحدقين إليه.

طيب، هذا مختلف.

شعره رماد براكيني خشن ممتاز، ذو ملمس سانزي مضاد للماء من النوع الذي يقدّره السانزيون أيما تقدير، بدأ يجف بعد تحرره من الطين وينتفخ بينما ينشف. سيكون الشعر طويلًا بما يكفي لتدفئة ظهره، على الأقل. لكنه *أبيض*، وليس رماديًا كالعادة. وبشرته أيضًا بيضاء، لا شاحبة فقط مثلًا. حتى الأنتاركتيين ليسوا عديمي اللون إلى هذا الحد، ليس بقدر ما

رأيتِ. حتى حاجباه فوق عينيه بياض الثلج أبيضان. أبيض في أبيض في أبيض. يكاد يختفي بين الرماد المتساقط عندما يمشي.

هل هو أمهق؟ ربما. ثمة شيء خاطئ في وجهه. تتساءلين ما هذا الذي ترين؟ ثم تدركين: لا شيء سانزي فيه سوى ملمس شعره. عظام وجنتيه عريضة، وزوايا فكه وعيناه حادة، يبدو ذلك غريبًا تمامًا عليك. فمه ضيق وضخم الشفاه، حد أنك تفكرين في أنه ربما يصعب عليه الأكل، عدا أن هذا على الأرجح غير صحيح، وإلا ما كان لينجو حتى هذه السن. بنيته أيضًا ملغزة؛ إنه ليس ضئيلًا فقط بل غليظًا، وكأن قومه قد صُمموا بغرض نوع آخر من المتانة غير تلك التي قضى السانزيون ألف عام يستولدونها. لعله من عرق كلهم بيض، أيًّا من كانوا.

لكن كل هذا لا معنى له، إن السانزية في كل أعراق العالم. لقد حكموا السكون لقرون، ولا يزالون يفعلون بشكل أو بآخر، ولم تكن طرقهم دومًا سلمية. لذا، حتى أكثر العروق نقاءً تحمل طابعًا سانزيًّا، سواء رحب أسلافهم بالاختلاط أو لا. يُحكم على الجميع بالانحراف المعياري عن المتوسط السانزي. غير أن قوم هؤلاء الصبي على ما يبدو قد تمكنوا من الاحتفاظ بشذوذهم عن القياسي.

تقولين: «ماذا أنت بحق النار تحت الأرض؟»، قبل أن يخطر لك أن هذا قد يجرح مشاعره. لم تحتاجي إلى أكثر من بضعة أيام من الرعب لتنسين كل شيء عن الاعتناء بالأطفال.

لكن الفتى لا يبدو عليه إلا المفاجأة، ثم يبتسم. «النار تحت الأرض؟ أنت غريبة. هل صرت نظيفًا؟».

باغتك نعته لك بالغرابة حتى أنك لن تلاحظي إلا لاحقًا أنه تجنب السؤال.

تهزين رأسك لنفسك، ثم تمدين يدك طلبًا لقطعة الصابون، فيعطيها لك. ثم تحملين له القميص كي يدس ذراعيه ورأسه فيه. يفعل ذلك على نحو أخرق، وكأنه غير معتاد على أن يلبسه شخص آخر. لكنه مع ذلك أسهل من إلباس أوتشي، فهو على الأقل لا يتنصل و...

تتوقفين.

فلت الزمام منك قليلًا.

عندما تعودين لنفسك تجدين السماء أشرقت أكثر وهوّا متمدد على العشب القريب القصير. مرت ساعة على الأقل، وربما أكثر.

تلعقين شفتيك وتركزين عليه بعدم ارتياح، تنتظرين أن يقول شيئًا عن... شرودك. لكنه ينهض على قدميه ما إن يراك قد عدت، وينتظر.

طيب، يبدو أنكما قد تنسجمان في النهاية.

بعد ذلك تعودان إلى الطريق. يمشي الولد جيدًا رغم حفاه. تراقبينه عن كثب بحثًا عن أي علامة على العرج أو التعب، وتتوقفين أكثر مما تفعلين لو كنتِ وحدك. يبدو ممتنًا للفرصة

المتاحة للراحة، لكنه فيما عدا ذلك لا تبدو عليه مشكلة. يا له من محارب صغير.

لكنك مع ذلك تقولين في إحدى وقفات الاستراحة: «لن يمكنك أن تبقي معي»، من الأفضل ألا تدعي آماله تعلو، «سأحاول أن أجد لك كومونة، سنتوقف عند من يفتح بواباته منهم للمقايضة. لكني مضطرة إلى المتابعة حتى لو وجدت لك مكانًا. أنا أبحث عن أحدهم».

يقول الولد: «ابنتك»، فتُصعقين. تمر لحظة، ويتجاهل الولد صدمتك، يهمهم ويربت على صرته الملفوفة بالخرق وكأنها حيوانه الأليف.

تهمسين: «كيف عرفت؟».

«إنها قوية جدًّا. لكني بالطبع لست متأكدًا أنها هي». ينظر إليك ويبتسم، غافلًا عن تحديقك إليه، «ثمة العديد منكم في هذا الاتجاه، ما يجعل الأمر أصعب دائمًا».

لا شك أن هناك كثيرًا من الأمور في عقلك الآن، لكنك لا تقدرين إلا على استجماع أحدهم فقط للتفوه به: «أتعرف أين ابنتي؟».

يهمهم مجددًا همهمة محايدة. أنت متأكدة أنه يدرك مدى جنون ادعائه، أنت متأكدة أنه يضحك تحت هذا الوجه القناعي.

«كيف؟».

يهز كتفيه. «أنا فقط أعلم».

«كيف؟». إنه ليس أوروچيني، كنت ستعرفين لو كان كذلك. لكن حتى لو كان، لا يستطيع الأوروچينيون تتبع بعضهم بعضًا مثل الكلاب التي تتقصى بعضها بعضًا من مسافة، وكأن للأوروچينيين رائحة. لا يستطيع فعل ذلك إلا الأوصياء، لكن هذا فقط لو كان الروچا جاهلًا أو غبيًّا بما يكفي للسماح لهم.

يرفع نظره إليك، تحاولين ألا تجفلي. «أنا فقط أعرف. ذلك شيء في وسعي فعله»، ينظر بعيدًا، «شيء كان في وسعي دائمًا فعله».

تتعجبين. لكن. ناسّون.

إنك مستعدة لبلع الكثير من الخزعبلات لو وجدتِ في أيها مساعدة على إيجادها.

«طيب»، تقولينها ببطء، لأن هذا جنون. أنت مجنونة، لكنك صرت مدركة أن هذا الولد على الأرجح كذلك، ما يعني أنك في حاجة إلى الحذر. لكن لو أن هناك فرصة واهية لأنه غير مجنون، أو أن جنونه في الواقع يعمل مثلما يقول إنه يعمل...

«كيف... كم تبعد عن هنا؟».

«أيام من المشي. إنها تتحرك أسرع مما نفعل».

لأن جيجا أخذ عربة وحصانًا. «ناسّون لا تزال حية». تحتاجين إلى وقفة هنا، فذلك أكثر مما يسع إحساسك، أكثر من قدرتك على الاحتواء. أخبرك راسك بأن جيجا غادر تيريمو بصحبتها،

لكن خوفك منعك من التفكير في أنها حية الآن. حتى مع أن جزءًا منك لا يريد أن يصدق أن جيجا قادر على قتل ابنته، أما بقيتك فليس فقط يصدقه، بل يتوقعه أيضًا إلى درجة ما. إن تهيئة نفسك للوجع القادم عادة قديمة.

الولد يومئ. إنه يراقبك. صار وجهه الصغير رصينًا رصانة غريبة. في الواقع ليس في هذا الطفل كثير من سمات الأطفال، تدركين هذا بشرود، متأخرًا.

لكنه يستطيع إيجاد ابنتك. لن تهتمي حتى لو كان الأرض الشرير نفسه.

تبحثين في مخلاتك حتى تجدي قربتك، القربة التي تحوي المياه الجيدة، فقد ملأتِ الأخرى من الجدول، تحتاجين إلى غلي تلك المياه قبل استخدامها. بعدما ترتشفين منها تناولينه إياها، وعندما ينتهي من الشرب تقدمين إليه حفنة من الزبيب. يهزّ رأسه ويعيدها إليك. «لست جائعًا».

«أنت لم تأكل».

«أنا لا آكل كثيرًا». يلتقط صرته. لعله يحمل مؤونته فيها. لا فارق، أنت لا تهتمين على أية حال، إنه ليس ابنك، بل هو فقط يعرف أين ابنتك.

تفضين المخيم المرتجل وتتابعين الرحلة جنوبًا، بصحبة طفل يمشي إلى جوارك هذه المرة، يقود الطريق.

***

أنصتوا، أنصتوا، وأحسنوا الإنصات.

كان هناك قبل المواسم زمنٌ ازدهرت فيه الحياة بصحبة الأب الأرض (وكان للحياة أم أيضًا، لكن أصابها ضرر مريع). أبونا الأرض عرف أنه في حاجة إلى حياة ماهرة، لذا استخدم المواسم لتفرقنا عن الحيوانات: جعل لنا أيادي ماهرة لصنع الأشياء وعقولًا ماهرة لحل المشكلات وألسنة ماهرة لنعمل معًا وسِسَبينا ماهرة لتحذرنا من الخطر. صار البشر ما احتاجه الأب الأرض منهم، ثم أكثر مما احتاج، ثم انقلبنا عليه، ومن وقتها اشتعلت فيه نيران الكراهية، ولا تزال.

تذكروا ما أقول، تذكروه، وأحسنوا الذكرى.

تلاوات القوالين (خلق الثلاثة أشخاص – الجزء الأول)

٨

سيانيت على الطريق العالي

في النهاية يتحتم على سيانيت أن تسأل مرشدها عن اسمه. يقول لها إنه ألابستر، وتفترض أنه سُمي كذلك تهكمًا على الأرجح. تحتاج إلى اسمه كثيرًا لأنه لا يني يقع في النوم فوق سرجه خلال أيام السفر الطويلة، ما يتركها تقوم بالعمل كله وحدها، تراقب الطريق وتنتبه للمخاطر المحتملة، وتسلي نفسها بنفسها. إنه يستيقظ بسهولة عندما تنطق اسمه، ما يجعلها تعتقد في البداية أنه يزيف نومه كي يتجنب الحديث معها. عندما تفصح عن اعتقادها يبدو منزعجًا ويقول: «بل أنا أنام حقًّا. لو أردتني أن أكون مفيدًا لك في الليل، فعليك أن تتركينني أنام».

ما يثير حنقها، فهو ليس المضطر إلى أن ينجب طفلًا من أجل الإمبراطورية والأرض، وليس الأمر وكأنه يبذل أي مجهود حقيقي لهذا الغرض.مملً

لكن بعد أسبوع أو نحوه من السفر، تلاحظ أخيرًا ما الذي يفعله خلال ترحالهم اليومي، بل وحتى خلال الليل، أثناء استلقائهما منهكين في حقيبة النوم التي يتشاركانها. لكنها تفكر في أن سهوها معذور، لأن فعله دائم، مثل همهمة منخفضة في غرفة تعجّ بالمتكلمين. إنه يخمد كل الهزات في المنطقة، كلها، ليس فقط الهزات التي يحسّ الناس بها. كل تموجات الأرض وحركاته متناهية الصغر، التي قد يتنامى

بعضها إلى تحركات أعظم وبعضها عشوائي. حيثما تمضي هي وألابستر تسكن تلك الحركات لبعض الوقت. إن الثبات الأرضي معتاد في يومينِس، لكنه لا ينبغي أن يوجد في المناطق النائية، حيث تغطية شبكة الوصل ضعيفة.

ما إن أدركت سيانيت هذا حتى... ارتبكت. لأن لا فائدة من كبح الهزات الميكروية، بل فعل هذا قد يؤدي إلى جعل المرة القادمة التي تحدث فيها هزة كبرى أسوأ. أكدوا مرارًا على تعليمها ذلك عندما كانت لا تزال حصاةً تتعلم أساسيات الجيوميستيا وعلم الهزات: الأرض لا يحب التضييق عليه. هدف الأوروچيني ليس الكبح، بل إعادة التوجيه.

تظل تتفكر في هذا اللغز لعدة أيام من تلك التي يقضونها في قطع طريق يومينِس-آليا العالي، تحت مسلة تدور وتتألق مثل حجر تورمالين بحجم الجبال، عندما يكون صلبًا كفاية لعكس نور الشمس. الطريق العالي هو أسرع طريق بين عاصمتي الربعين، بُني مستقيمًا بقدر الإمكان، بأساليب لا يجرؤ عليها سوى السانزيين القدامى؛ مرفوعًا على أبراج حجرية وعبر وديان شاسعة، وأحيانًا يقطع الجبال الأعلى من تسلقها بأنفاق تمر خلالها. ما يعني أن رحلتهما إلى الساحل لن تستغرق أكثر من عدة أسابيع لو سافرا على مهل، أي نصف المدة التي كانا ليستغرقاها لو سافرا عبر الطرق المنخفضة.

لكن الطرق العالية، وصدأ الأرض العفن، مملة. أكثر الناس يحسبونها أفخاخًا مميتة قد تنغلق في أية لحظة، مع أنها في الواقع أكثر أمانًا من الطرق العادية. كل الطرق الإمبراطورية

قد بناها فرق من أفضل المهندسين والأوروچينيين، أنشؤوها عمدًا في أماكن تُعدّ دائمة الاستقرار. وبعضها نجت من عدة مواسم. لذا، كان سيانيت وألابستر لا يقابلان لعدة أيام كل مرة غير قوافل التجار وناقلي البريد ودوريات الربع المحلية، ولم يجدا من كل هؤلاء إلا النظرات المستريبة والترفع عن تبادل الأحاديث عندما يلاحظون أزياء المرتكز السوداء عليهم. ثمة القليل من الكومونات تحف مخارج الطريق، ولا توجد متاجر تقريبًا يمكن شراء المستلزمات منها، غير أن هناك أرصفة عادية على طول الطريق نفسه بها مناطق مجهزة للتخييم. تقضي ساين كل ليلة إلى جوار النار تهشّ الحشرات، بلا شيء تفعله سوى التحديق في ألابستر، وممارسة واجبها معه أيضًا، وإن كان هذا لا يستغرق أكثر من دقائق معدودة.

أما هذا فمثير للاهتمام، وأخيرًا بعد ثلاثة أيام من ملاحظتها أنه يخمد الهزات الميكروية تسأله: «ما الذي يجعلك تفعل هذا؟». لقد فعلها مجددًا الآن، بينما ينتظران العشاء (خبز رماد مُسخن مع شرائح اللحم البقري وخوخ منقوع. منتهى الرفاهية). يتثاءب بينما يفعل، مع أنه بذل بلا شك مجهودًا، الأوروچينية ليست مجانية أبدًا.

يسأل وهو يوقف هزة تابعة تحت سطحية وينكز في النار بضجر «أفعل ماذا؟». تود أن تضربه.

«هذا».

يرتفع حاجباه. «تشعرين بهذا إذن!».

«طبعًا أشعر به، أنت تفعل ذلك طوال الوقت».

«طيب، لم تقولي شيئًا قبل الآن».

«لأني كنت أحاول اكتشاف ما الذي تفعله».

يبدو متحيرًا. «إذن كان عليك أن تسألي».

ترغب في قتله، ويبدو أن بعضًا من شعورها ترجمه له الصمت، لأنه يتجهم ثم يبدأ أخيرًا في الشرح. «أنا أريح الموصلين. كل هزة ميكروية أخمدها ترفع عنهم عبئًا».

تعرف ساين عن الموصلين بالطبع. مثلما تربط الطرق الإمبراطورية إقطاعيات الإمبراطورية القديمة بيومينِس، توصل نقاط الوصل بين المرتكز والأرباع النائية، لتوسيع حماية المرتكز إلى أبعد ما يمكن. يوجد في شتى أنحاء القارة -حيثما ارتأى كبار الأوروچينيين أنه مكان مناسب للتلاعب بالصدوع والبقع الساخنة القريبة- محطات، يتمركز في كل من تلك المحطات أوروچيني مُدرب في المرتكز، وظيفته الوحيدة الحفاظ على استقرار المنطقة المحيطة. تتقاطع مناطق تغطية المحطات في المناطق الاستوائية، فلا تحدث أدنى رجفة. لهذا، ولوجود المرتكز، بُنيت يومينِس مثلما بُنيت. بيد أن بعد المناطق الاستوائية، تتباعد المحطات لمنح أوسع تغطية لأكبر عدد سكان، وثمة فجوات في تلك الشبكة. إن وضع محطة وصل عند كل كومونة زراعة أو تعدين صغيرة في المناطق النائية لا يستحق العناء (على الأقل بالنسبة إلى كبار الأوروچينيين). على سكان تلك الأماكن إيجاد حلول لأنفسهم.

لا تعرف ساين أيًّا من المساكين الحمقى المكلفين بتلك الواجبات المضجرة، لكنها ممتنة جدًّا جدًّا لأن أحدًا لم يقترحها عليها قط. مثل تلك المهمات يكلفون بها الأوروچينيين الذين لن يصلوا أبدًا إلى الخاتم الرابع، أولئك الذين يملكون قدرات خام ضخمة وتحكم محدود. هكذا يسعهم على الأقل إنقاذ الحيوات، حتى لو كان مصيرهم قضاء أعمارهم كلها في عزلة مبهمة.

تقترح سيانيت: «ربما عليك ترك تلك الهزات للموصلين»، صار الطعام دافئًا بما يكفي، تستخدم عصًا لدفعه خارج النيران. يجري لعابها على الرغم منها، فقد كان اليوم طويلًا. «الأرض يعلم أنهم في حاجة إلى ما يشغلهم كي لا يموتوا مللًا».

جل انتباهها مع الطعام، حتى أنها لا تلاحظ صمته إلا عندما قدمت إليه نصيبه. ثم تتجهم، لأن ها هي تلك النظرة على وجهه مجددًا، تلك الكراهية. على الأقل هي ليست هدف أغلب الكراهية هذه المرة.

«أفهم من هذا أنك لم تزوري محطة وصل من قبل».

يا للصدأ. «لا، لما قد أفعل؟».

«لأن عليك أن تفعلي، على كل روچا أن يفعل».

تجفل سيانيت قليلًا مع كلمة روچا. يعيب المرتكز على أيٍّ من ينطق بها، لذا لا تسمعها كثيرًا، باستثناء الهمهمات القليلة التي يلقيها الناس الذين يقابلونهم في الطريق، أو

الحصى الذين يحاولون أن يبدوا شجعانًا عندما لا يكون المشرفون قريبين. إنها كلمة قبيحة، حلقية حادة، وقعها مثل صفعة على الأذن. لكن ألابستر يستخدمها مثلما يستخدم الآخرون كلمة أوروچيني.

يتابع بنفس النبرة الباردة: «وما دمت قادرة على الإحساس بما أفعله، فبوسعك فعله أيضًا».

هذا يربك ساين أكثر، ويغضبها أكثر. «لماذا بحق نار الأرض أخمد الهزات الميكروية؟ هذا سيجعلني...»، ثم توقف نفسها، لأنها كادت تقول *منهكة وعديمة الفائدة مثلك*، وهذه وقاحة. ثم يخطر لها أن لعله منهك وعديم الفائدة لأنه يفعل ذلك.

لو أن هذا شيء مهم حد أنه ينهك نفسه به، ربما إذن رفضه بلا تروٍّ خطأ. في النهاية، على الأوروچينيين أن يهتموا بعضهم ببعض. تقول: «طيب، أعتقد أني أستطيع مساعدة مسكين أحمق ما عالق في آخر الدنيا من دون أن يشغل نفسه بشيء سوى استقرار الأرض». على الأقل سيساعد هذا على مرور الوقت.

يسترخي قليلًا، ثم تفاجئها رؤيته يبتسم. لا يفعل هذا أبدًا تقريبًا. لكن لا، لا تتوقف العضلة في فكه عن الارتجاف. لا يزال حانقًا من شيء ما. «ثمة محطة وصل على مسافة يومين من هنا، عند مخرج الطريق العالي التالي».

تنتظر ساين خاتمة لقوله، لكنه يبدأ يأكل. يصدر أصوات

نشوة خافتة تشير إلى جوعه أكثر من استمتاعه بالمذاق. ولما كانت سيانيت جائعة أيضًا، تبدأ تأكل بدورها... ثم تعبس. «انتظر، هل تخطط أن تذهب إلى المحطة؟ أهذا ما تقول؟».

«نعم، كلانا ذاهبين». يرفع ألابستر وجهه إليها، وتلمح فيه نظرة آمرة، وتباغتها كراهية عنيفة تجاهه أكثر من أي وقت مضى.

إن شعورها تجاهه غير منطقي بالمرة. يفوقها ألابستر رتبة بستة خواتم، وعلى الأرجح كان ليفوقها أكثر لو لم تكن العشرة خواتم أعلى رتبة؛ لقد سمعت شائعات عن مدى قدراته. لو اقتتلا، فسيمزق نطاق قدرتها تمزيقًا ويثلجها في ثانية، هذا وحده كافٍ لجعلها تتلطف معه. وعندما تضيف إلى ذلك احتمال أن تنال حظوته، وغايتها في الترقي إلى أعلى مراتب المرتكز، لن يكون من المبالغة أن تحبه.

لكنها حاولت أن تكون مهذبة معه ومتملقة، ولم تفلح. إما يتظاهر بعدم الفهم أو يهينها حتى تتوقف. لقد قدمت إليه كل فروض الاحترام التي يحبذها كبار المرتكز عادة من المستجدين، عدا أن هذا يغضبه، ما يحنقها، والغريب أن حنقها يبدو أكثر ما يسعده. لذا، ومع أنها لم تكن لتفعل هذا مع أي من المشرفين الآخرين، تنفجر: «تمام يا أفندم»، وتصمت لتدع بقية الليلة تمر في صمت مدوٍّ ساخط.

يأويان إلى كيس النوم، فتراوده كالعادة، لكنه يتقلب هذه المرة موجهًا ظهره إليها. «سنفعلها في الصباح لو لا يزال يتحتم علينا. ألم يحن وقتك؟».

فتشعر بأنها أكبر مغفلة في العالم. المسألة ليست في أنه يكره أن يكون معها معها بقدر ما تكرهه هي، بل الأسوأ أنه من كان ينتظرها أن تنقطع بينما هي لم تكن تحسب الأيام. تبدأ في الحساب الآن، بخرق، لأنها لا تتذكر بدقة يوم بدأت آخر مرة، و... إنه محق، لقد تأخرت.

يتنهد ردًّا على صمتها المتفاجئ، وقد كان على حافة النوم. «تأخرك لا يعني شيئًا بعد، إن السفر ينهك الجسد»، يتثاءب، «في الصباح إذن».

ويفعلانها في الصباح. لا توجد كلمات أفضل لوصف فعلهما، إذ لا تناسب البذاءات فعلهما لرتابته الشديدة. إنه روتين، تمرين، مثله مثل تمارين الاستطالة التي تعلمت ممارستها قبل ركوب الحصان كل يوم. لكنه أكثر نشاطًا هذه المرة، لأنه قد ارتاح قبلها. استلقى بعدما انتهيا يراقبها تنهض لتغتسل بسرعة في إناء جوار النار. لقدلقعد اعتادت على ذلك حتى أنها ترتبك عندما يقول: «لماذا تكرهينني؟».

سيانيت تتوقف، تفكر للحظة في الكذب عليه. لو كانت في المرتكز كانت لتكذب، ولو كان هو أيًّا من المشرفين المهووسين بالانضباط والتأكد من استقامة سلوك أوروچينيو المرتكز طوال الوقت، كانت لتكذب. لكنه أوضح من قبل جليًّا أنه يفضل الصراحة، مهما كانت فظة. لذا تتنهد، «لا أعرف لذلك سببًا».

يتقلب حتى يستقر على ظهره ناظرًا نحو السماء، وتحسب أن

هذه نهاية المحادثة، حتى يقول: «أعتقد أنك تكرهينني لأن... لأنني شخص في وسعك كرهه. أنا هنا، أنا متاح. لكن ما تكرهينه حقًّا هو العالم».

تلقي ساين ملابسها المتسخة في إناء الماء الذي تستخدمه وتحدق إليه. «العالم لا يقول ترهات مثل تلك».

«أنا غير مهتم بأن أكون مرشدًا لمتملقة. أريدك أن تكوني على طبيعتك معي. وعندما تكونين على طبيعتك، لا تكادين تنطقين بكلمة متحضرة واحدة لي، مهما كنت متحضرًا معك».

تشعر ببعض الذنب عندما يصيغ قوله بتلك الطريقة. «ما الذي تعنيه إذن بأني أكره العالم؟».

«تكرهين الطريقة التي تعيشين بها. الطريقة التي يرغمنا العالم على العيش بها. إما أن نعيش ممتلكات للمرتكز وإما نضطر إلى التخفي ونُطارَد كما الكلاب لو انكشفنا، وإما أن نصبح وحوشًا ونحاول قتل كل شيء. حتى داخل المرتكز علينا أن نراعي طوال الوقت كيف يريدوننا أن نتصرف. لا يمكننا أبدًا أن... نعيش». يتنهد، يغلق عينيه، «يجب أن تكون هناك طريقة أخرى».

«لا يوجد».

«يجب أن توجد. لا يمكن أن تكون السانزا أول إمبراطورية استطاعت النجاة من عدة مواسم. يمكننا أن نرى أدلة على وجود طرق متعددة للحياة، أقوام كانوا عظامًا»، يشير إلى

العالم حول الطريق العالي، باتجاه التضاريس التي تمتد حولهما. إنهما بالقرب من الغابة الشرقية العظيمة، حيث لا شيء غير بساط هائل من الأشجار يعلو ويهبط على امتداد البصر، إلا...

... إلا عند حافة الأفق تقريبًا، حيث تلمح شيئًا يبدو مثل يد عظمية معدنية، تنبش مخالبها من بين الأشجار. أطلال أخرى، ولا شك أنها هائلة الضخامة طالما تراها من هنا.

يقول وهو يعتدل جالسًا: «إننا نتقبل قول الحجر بسهولة، لكننا لا نحاول أبدًا تذكر أي شيء آخر مما حاوله الأقدمون، محاولات لعل منها ما نجح».

«لأنها لم تنجح. لقد مات هؤلاء الناس، ونحن لا نزال أحياء. طريقتنا صحيحة وطرقهم خاطئة».

يرميها بنظرة تترجمها إلى *لن أتعب نفسي بإخبارك عن مدى غبائك*، لكن ربما لم يعنِ هذا المعنى. إنه محق، هي فقط لا تحبه. «أنا مدرك أنك لم تتلقيْ سوى تعليم المرتكز، لكن هلا فكرت؟ إن النجاة لا تعني الصواب. أستطيع أن أقتلك الآن، لكن فعل هذا لن يجعلني شخصًا أفضل».

ربما، لكن هذا لن يفرق معها. علاوة على أنها ممتعضة من افتراضه السهل بضعفها، حتى مع أنه محق بالكامل. «طيب». تنهض وتبدأ في ارتداء ملابسها، تضعها عليها في حركات سريعة. «أخبرني إذن بأية طريقة أخرى».

لبعض الوقت لا يقول شيئًا. أخيرًا تلتفت لتنظر إليه، يبدو غير

مستريح. «أظن. . .»، يلقي تصريحه بحذر، «يمكننا تجربة أن يدير الأوروچينيون الأمور».

تكاد تضحك. «سيدوم ذلك لعشرة دقائق، قبل أن يأتي كل وصيّ في السكون ليقتلنا، ومعه نصف سكان القارة للمشاهدة والتهليل».

«يقتلوننا لأن قول الصخر يخبرهم في كل سطر بأننا نولد أشرارًا، أننا عملاء الأب الأرض، وحوش لا ترقى إلى مرتبة الإنسان».

«صحيح، لكن لا يسعنا تغيير قول الحجر».

«قول الحجر يتغير طوال الوقت يا سيانيت»، هو أيضًا قلما يقول اسمها، فعندما يقوله يجذب انتباهها، «كل حضارة تضيف إليه، والأجزاء التي لا تهم أهل كل زمان تُنسى. اللوح الثاني لم يهشم نفسه بنفسه، شخص ما في مكان ما قرر أنه ليس مهمًا أو خاطئًا، ولم يهتم برعايته، أو لعله حاول طمسه عمدًا، ما قد يبرر تضرر كثير من النسخ القديمة بنفس الشكل. وجد الأركيوميستيون بعض الألواح القديمة في إحدى المدن المندثرة على هضبة تابيتا. لقد كتب أولئك القوم قول حجرهم الخاص أيضًا، بهدف تمريره إلى الأجيال المستقبلية. لكن ما كُتب على تلك الألواح كان مختلفًا اختلافًا جذريًا عن القول الذي تعلمناه في المدرسة. بل بقدر علمنا، القول برفض تغيير القول ذاته إضافة حديثة».

لم تكن تعلم ذلك، ومعرفته ضايقتها، وجعلتها لا ترغب

في تصديقه، أو لعل ذلك بغضها له يطفو مجددًا. لكن... قول الحجر قديم قدم الوعي الإنساني، هو ما أعطى البشر القدرة على النجاة من موسم خامس تلو موسم خامس، عندما جمعهم معًا بينما يظلم العالم بالخارج ويبرد. يحكي القوالون الحكايات عما يحدث للناس -القادة السياسيون أو الفلاسفة أو المتطفلون حسنو النوايا- عندما يحاولون تغيير القول. تتبع ذلك الكوارث بلا مناص.

لذا لا تصدقينه. «من أين سمعت بألواح تابيتا؟».

«إني أذهب في مهمات خارج المرتكز منذ عشرين عامًا. عندي أصدقاء في الخارج».

أصدقاء يتحدثون مع أوروچيني؟ عن هرطقات تاريخية؟ يبدو لها هذا سخفًا. لكن مع ذلك... «طيب، كيف لهم أن يغيروا القول بطريقة تـ...».

لم تكن تلقي بالًا لحركة طبقات الأرض من حولهما، لأن حجته شغلتها أكثر مما تود أن تعترف به. أما هو فعلى ما يبدو لم ينفك يخمد الهزات حتى خلال حديثه، زائد أنه ذو عشرة خواتم، لذا لا غرابة في أنه شهق مرة واحدة وانتفض واقفًا وكأنما شُدت خيوطه، والتفت ليواجه الأفق الغربي. عبست ساين واتبعت نظرته؛ الغابة في تلك الجهة من الطريق العالي ترقعها فجوات ناجمة عن التحطيب ويشقها طريقان أرضيان يتفرعان عبر الأشجار. على مدى البصر ثمة أثر آخر من حضارة ميتة، قبة أقرب إلى صخرة متداعية. وتستطيع أن ترى ثلاث أو أربع كومونات مسورة تتخلل الأشجار بينها هنا وهناك.

لكنها لا تعرف ما الذي جعله يـ. . .

ثم تسسبنها. يا شر الأرض! إنها هزة هائلة، من الدرجة التاسعة أو العاشرة. لا، بل أكبر. ثمة بقعة ساخنة على بعد مئتي ميل، تحت ضواحي مدينة صغيرة اسمها ميهي. . . لكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا. ميهي عند حافة النطاق الاستوائي، ما يعني أنها داخل نطاق حماية شبكة التوصيل. لماذا. . .

السبب لا يهم. ليس وهي قادرة على رؤية الهزة ترجف كل الأراضي حول الطريق العالي وتراقص كل الأشجار. وقع خطب ما، وقعت الشبكة، والبقعة الساخنة تحت ميهي تتصاعد صوب السطح. بدايات الهزة، حتى من هنا، تبلغ من القوة حتى أنها تذوق مرارة الحديد القديم ومنابت أظفارها تتألم. حتى أكثر الراكدين خدرًا سيكون في وسعهم الشعور بها، بهذا الوابل الثابت من المويجات التي تقعقع الأطباق على الموائد وتجعل الكبار يشهقون ويمسكون رؤوسهم والأطفال يبكون. لو لم يقف شيء ما في طريق هذا التيار المتصاعد، فسيشعر الراكدون بما هو أكثر عندما يثور بركان تحت أقدامهم.

«ما. . .»، تلتفت سيانيت إلى ألابستر، ثم تُصعق عندما تجده على يديه وركبتيه يزأر على الأرض.

ثم تشعر بها بعد لحظة، موجة صاعقة من الأوروچينية الخام، تموج من فوق الطريق العالي ونزولًا عبر أعمدته إلى الصخور الشستية في الأرض بالأسفل. إنها ليست قوة حقيقية، بل هي فقط قوة إرادة ألابستر والطاقة التي تغذيها،

لكنها لا تستطيع منع نفسها من المراقبة على الناحيتين، بينما تتسارع قوة ألابستر -أسرع مما قد تستطيع هي أبدًا- في اتجاه تلك الممخضة البركانية.

وقبل أن تستوعب ساين ما يحدث، يقبض ألابستر عليها بشكل لم تعرف مثله قط. تشعر الآن باتصالها مع الأرض، وعيها الأوروچيني الخاص صار فجأة تحت التحكم المشترك، تحت قيادة شخص آخر. لا يعجبها هذا الشعور على الإطلاق. وعندما تحاول استرجاع زمام قوتها تحترق، مثل احتكاك، وفي العالم الواقعي تعوي وتقع على ركبتيها، ولا تعلم ما الذي يحدث. لقد سلسلها ألابستر معه بشكل ما، مستخدمًا قدرتها لتعظيم قدرته، وليس في وسعها ما تفعله حيال ذلك.

ثم صارا معًا، يغطسان بالتزامن في الأرض، يهيمان في مسار حلزوني إلى قلب بئر الموت الهائلة الفائرة هذه. عرض البقعة الساخنة أميال، أكبر من جبل. يفعل ألابستر أمرًا ما، ويلقي شيئًا، وتصرخ سيانيت من ألم عارم يخمد تقريبًا على الفور بعد أن غُير مساره. يفعلها ألابستر مرة أخرى، وهذه المرة تدرك ماذا يفعل: إنه يخفف عنها الحرارة والضغط وهياج البقعة الساخنة. هذا لا يزعجه لأنه أصبح بدوره الحرارة والضغط والهياج، آلف نفسه معهم مثلما فعلت ساين من قبل فقط مع حجيرات حرارية محدودة في طبقات أرض مستقرة، لكن تلك الأشياء ليست إلا شرارة نار أوقدها مسافر على طريق مقارنة بهذه العاصفة النارية التي لا يوجد ما يقابلها. لذا يستخدم ألابستر قدرتها، لكنه أيضًا يسرب الطاقة التي

لا يسعها معالجتها، يوجهها بعيدًا قبل أن تغلب على وعيها و...و... إنها في الواقع ليست متأكدة مما قد يحدث. يعلِّمون الأوروچينيين في المرتكز ألا يحاولوا تجاوز حدود قدراتهم، ولكنهم لا يذكرون ما الذي قد يحدث لمن يفعلون.

وقبل أن تفكر سيانيت فيما يحدث، قبل أن تلملم ذاتها لتساعده ما دامت عاجزة عن الهروب منه، يفعل ألابستر شيئًا آخر. لكمة حادة. شيء ما في مكان ما ثُقب. وعلى الفور يبدأ الضغط الذي يدفع الحمم إلى أعلى في الانحسار. لقد سحب الضغط من النار وأطلقه في الأرض الذي لا يزال يرتعد. وهنا هي تعلم جيدًا ما ينبغي فعله، لأنها مجرد هزات، لا غضب الأب الأرض المتجسد. تغير شيء ما تغيرًا مفاجئًا، صارت قوته تحت تصرفها. قوة هائلة. إن الأرض وحش هائل، لكنه صار سهلًا عليها. يسهل عليها تسوية التموجات وإغلاق الشروخ ودعم الطبقات المكسورة كي لا يتشكل هنا صدع جديد حيث سطح الأرض مضغوط وواهن. إنها قادرة على سسبنة خريطة الشقوق فوق سطح الأرض بوضوح لم يتأتَ لها من قبل. تغلقهم، تحكم تضميد بشرة الأرض الخارجية بدقة جراحية لم تقدر على بلوغها قط. وبينما تستقر البقعة الساخنة حتى تعود مجرد خطر خامل آخر، ترجع سيانيت إلى نفسها، لتجد ألابستر متكورًا أمامها، وبقعة ثلجية في نمط أشبه بلسع النيران تمتد حول كليهما، وقد بدأت بالفعل تتسامى إلى بخار.

إنها راكعة على أطرافها الأربعة، ترتعش. عندما تحاول

أن تتحرك تبذل مجهودًا هائلًا كيلا تقع على وجهها. يحاول مرفقاها أن يستسلما، لكنها ترغم نفسها على المحاولة، وتزحف مسافة قدمين حتى تصل إلى ألابستر، إذ إنه يبدو ميتًا. تلمس ذراعه فتشعر بالعضلة متيبسة تحت قماش زيه الرسمي، مشدودة ومتحجرة لا مرتخية، تفكر في أن هذه علامة طيبة. تشده قليلًا، وتقترب منه فترى عينيه مفتوحتين على آخرهما، تحدقان، ليس بخواء الموت بل بذهول المتفاجئ.

يهمس فجأة: «بالضبط كما قال هسيونايت»، فتقفز، لأنها ظنته غير واعٍ.

رائع. إنها على الطريق العالي بعيدة عن كل مكان، نصف ميتة بعدما استنزف أحدهم أوروچينيتها رغمًا عنها، وبلا أحد يساعدها سوى حمار صدئ العقل هائل القوى، هو من فعل بها هذا في المقام الأول، وتحاول استجماع شتاتها بعد... بعد...

في الواقع، ليست لديها أدنى فكرة عما حدث. لا معنى له. لا تحدث الزلازل بهذا الشكل، البقع الساخنة التي ظلت ساكنة لعصور لا تنفجر على حين غرة. لا بد من حافز ما؛ صفيحة ما تزحزحت، بركان في مكان آخر انفجر، أوروچيني ذي عشرة خواتم انتابته نوبة غضب، شيء من هذا القبيل. ولما كان هذا حدثًا ذا قوة هائلة، فقد كان عليها أن تسببن ماذا حفزه، كان ينبغي أن يكون هناك تحذير ما غير شهقة ألابستر.

وما الذي فعله ألابستر بالضبط بحق الصدأ؟ لا تستطيع

استيعاب ما حدث. لا يمكن لأوروچينيين العمل معًا. ثبت ذلك من قبل: عندما يحاول أوروچينيان أن يُسلطا نفس التأثير على نفس الحدث الأرضي، صاحب التحكم والدقة الأعلى يهيمن، والآخر سيظل يحاول حتى يحرق نفسه، أو قد يخترق الأقوى نطاق قدرة الآخر ويثلجه ويثلج معه الجميع. لهذا السبب يدير كبار الأوروچينيين المرتكز، ليس فقط لأنهم الأكثر خبرة، بل لأنهم أيضًا قادرون على قتل كل من يعترض طريقهم، حتى لو كانوا لا يفترض بهم ذلك. ولهذا يحظى ذو العشرة خواتم بحرية الاختيار، لأن أحدًا لن يقدر على إرغامه على فعل شيء، باستثناء الأوصياء طبعًا.

لكن ما فعله ألابستر لا لبس فيه، ولا تفسير له.

الصدأ على كل هذا. تتزحزح سيانيت لتجلس قبل أن تنقلب. يدور العالم حولها دورانًا. تسند ذراعيها إلى ركبتيها المضمومتين وتضع رأسها عليهما لبعض الوقت. إنهما لم يسافرا قيد أنملة اليوم، ولا يبدو أنهما سيفعلان. ليس في ساين أية قوة على الركوب، وألابستر يبدو كما لو أنه لن يقدر على النهوض من الفراش القابل للطي. إنه حتى لم يرتدِ ملابسه، فقط تكور في مكانه بمؤخرة عارية، يرتجف، بلا فائدة ترجى منه على الإطلاق.

هكذا يتعين على ساين أن تنهض في النهاية وتعبث في متاعهما، لتجد ثمرتي درمنثرميلا -نوع من البطيخ الصغير له قشرة قاسية ينمو في الأرض خلال الموسم، أو هكذا يدَّعي الجيومستيون- وتدحرجهما في بقايا النار التي لم تخمد

بالكامل بعد لحسن حظها. لقد نفد منهما الحطب والوقود، لكن الفحم سيكفي لطهو الميلا، هكذا سيتناولان عشاءهما خلال بضع ساعات.

تنتزع من كومة العلف حزمة كي يتشارك فيها الحصانان، وتصب بعض الماء في دلو كي يشربا، وتنظر إلى كومة مخلفاتهما وتفكر في كنسها من الطريق العالي كي لا يضطرا إلى شمها.

ثم تزحف إلى الفراش القابل للطي، الذي صار لحسن الحظ جافًا بعدما ثُلج من قبل. تنقلب هناك فوق ظهر ألابستر، وتنجرف. لا تنام، التشنجات الدقيقة في المنطقة التي تنحسر عنها البقعة النشيطة لا تنفك تطّن في سسبينتها وتمنعها من الاسترخاء الكامل. لكن مع ذلك مجرد الاستلقاء بهذا الشكل يكفي لاسترجاع قوتها بشكل ما، ويهمد عقلها بالتدريج، حتى يعيدها الهواء البارد إلى وعيها. إنه الغروب.

ترمش، تجد نفسها ممددة خلف ألابستر. لا يزال مكورًا، لكن عينيه الآن مغلقتان وجسده مسترخ. ينتفض قليلًا عندما تجلس، ويرغم نفسه على الاعتدال بدوره.

يغمغم بصوت لم يفاجئها صدؤه: «علينا أن نذهب إلى محطة الوصل».

تقول: «لا»، إنها أكثر تعبًا من أن تدعه يزعجها، وتقرر أخيرًا التخلي الكامل عن محاولات التزام التهذيب، «لن أركب حصانًا خارج الطريق العالي في الليل وأنا متعبة. انتهى

مخزوننا من الخُث الجاف ويكاد ينتهي كل شيء آخر، وعلينا الذهاب إلى أية كومونة لشراء المزيد من المؤن. ولو حاولت أن تأمرني بالذهاب إلى نقطة وصل في مؤخرة العالم، فلتحاكمني بتهمة العصيان». لم تعصِ سيانيت أمرًا من قبل قط، ولا تعرف كثيرًا عن العواقب، وفي الواقع هي أكثر إنهاكًا من أن تهتم.

يئن، ويضغط جبهته براحة يده وكأنه يضغط الصداع حتى ينجلي، أو حتى يدفعه إلى العمق البعيد. ثم يسبّ باللغة التي سمعته يستخدمها من قبل، ولا تزال غير قادرة على تمييزها، لكنها تزداد يقينًا أنها من الكريوليات الساحلية، وهو شيء غريب قياسًا إلى قوله بأنه استولد ونشأ في المرتكز. لكن مع ذلك لا شك في أن أحدهم رباه في أول بضع سنوات، قبل أن يكبر بما يكفي لإلقائه في حوض الحصى. لقد سمعت أن كثيرًا من أعراق الساحل الشرقي داكنو البشرة مثله، لذا لعلهما يسمعان هذه اللغة تجري على الألسنة ما إن يبلغا آليا.

ينفجر أخيرًا باللسان السانزي: «إن لم تأتِ معي سأذهب وحدي». ثم ينهض، ويبحث عن ملابسه ويضعها، وكأنه جاد فيما قال. تحملق إليه سيانيت بينما يفعل، لأنه كان يرتجف ارتجافًا يكاد يمنعه من الوقوف منتصبًا. لو اعتلى حصانًا وهو بهذا الحال سيقع.

تقول: «انتظر»، ويتابع استعداده المحموم وكأنه لا يستطيع سماعها، «*انتظر*»، ينتفض ويحدق إليها، وتدرك متأخرًا أنه لم يسمعها. لقد كان ينصت إلى شيء مختلف تمامًا كل

هذا الوقت، ربما الأرض، وربما أي شيء مجنون في داخله. «ستقتل نفسك بهذا الشكل».

«لا أهتم».

«هذا . . .»، تنهض، تتجه إليه، تقبض على ذراعه وهو يهمّ بالقبض على السرج. «هذا غباء، لا يمكنك أن. . .».

«*لا تقولي لي ما لا يمكنني فعله*». يشتد ذراعه في يدها مثل سلك صلب بينما ينحني ليرمي كلماته في وجهها. تكاد ساين تتراجع خائفة. . . لكنها ترى عن قرب بياض عينيه محتقنًا بالدم، ولمعة الهوس، والنظرة المهتاجة لبؤبؤيه. به خطب ما. «أنت لست وصية، ليس من حقك أن تأمريني بشيء».

«هل فقدت عقلك؟»، لأول مرة منذ أن قابلته تشعر. . . بالقلق. لقد استخدم أوروچينيتها بمنتهى السهولة، ولا علم لها بكيف فعلها. إنه هزيل جدًا حدًّ أن في وسعها غالبًا ضربه ضربًا مبرحًا بيسر، عدا أنه سيثلجها بمنتهى البساطة بعد أول ضربة.

إنه ليس غبيًا، عليها أن تريه. تقول بحزم: «سأذهب معك»، ويبدو ممتنًا جدًا حتى أنها تشعر بالسوء حيال أفكارها السيئة عنه من قبل. «مع بزوغ أول ضوء، عندما يصبح في وسعنا أخذ الملف النازل إلى الطرق السفلية، دون أن نكسر أرجل أحصنتنا ولا رقابنا. حسنًا؟».

يتقلص وجهه ألمًا. «هذا أطول من اللازم. . .».

«لقد نمنا طوال اليوم بالفعل، ولقد قلت من قبل إن الطريق سيستغرق يومين بالأحصنة. لو أننا خسرنا الأحصنة، كم سنستغرق في رأيك؟».

هذا القول يوقفه. يرمش ويخطو متعثرًا، مبتعدًا عن السرج لحسن الحظ. كل شيء أحمر في نور الغروب. ثمة تشكيل صخري في الأفق خلفه، أسطوانة طويلة منتظمة تميز سيانيت من أول نظرة أنها ليست طبيعية، إما هي من صنع أوروچيني وإما هي أثر آخر لحضارة بائدة تماهت مع ما حولها أكثر من غيرها من الأطلال. بهذه في الخلفية، يتطلع ألابستر إلى السماء فوقه وكأنه سيبدأ في العواء. تنقبض يده وتسترخي، تنقبض وتسترخي.

يقول أخيرًا: «نقطة الوصل».

«ما لها؟»، تمطّ الكلمة على أقصاها، محاولةً ألا تدعه يسمع نبرة *خُذِ المجنون على قدر عقله* في صوتها.

يتردد، ثم يسحب نفسًا عميقًا، وآخر، مهدئًا نفسه. «تعرفين أن الهزات والثورات لا تحدث من العدم على هذا النحو. ما حفز هذه الثورة، ما عطل توازن هذه البقعة الساخنة، كان نقطة الوصل».

«كيف لك أن...»، لكنه بالطبع من يعرف، إنه ذو عشرة خواتم. ثم تفهم ما يقصد. «ثانية واحدة، أتقول إن الموصلين هم من أثاروها؟».

«هذا بالضبط ما أقول»، يلتفت إليه وتتكور قبضتاه من

جديد، «أرأيت لمَ أود الذهاب إلى هناك؟».

تومئ، بذهول. تذهل لأن الأوروچيني الذي يثير بركان خارق لا يفعل ذلك من دون خلق نطاق قدرة حوله بحجم مدينة. تتطلع رغمًا عنها إلى ما بعد الغابة، صوب نقطة التوصيل. لا ترى شيئًا من هنا، لكنها تعلم أن في مكان ما هناك، ثمة أوروچيني من المرتكز قتل كل ما في دائرة نصف قطرها عدة أميال.

وهناك أيضًا سؤال أهم على الأرجح: لماذا؟

يغمغم ألابستر فجأة: «طيب. نحتاج إلى المغادرة مع بداية اليوم، بأسرع ما يمكننا. إنها رحلة يومين لو تمهلنا، لكن لو ضغطنا على الأحصنة...»، يعجل بكلماته عندما ينفتح فمها كي يطغى على اعتراضها، «لو ضغطنا عليهم، لو تحركنا قبل الفجر، سنصل مع حلول الليل».

هذا غالبًا أفضل ما سيسعها أن تجعله يفعل. «الفجر إذن». تحك شعرها. فروة رأسها متربة بغبار الطريق، لم تحظَ بفرصة للاستحمام منذ ثلاثة أيام. كان يفترض بهما أن يمرًا على مرتفعات أديا غدًا، وهي كومونة متوسطة كانت لتحثّه على قضاء الليلة هناك في نزل... لكنه محق. لا مناص من الذهاب إلى النقطة. «لكن علينا أن نتوقف عند أقرب جدول ماء أو بيت طريق، مياه الأحصنة تكاد تنتهي».

يبدو محبطًا من احتياجات الكائنات الفانية، لكنه يقول: «حسنًا».

يقرفص بجوار الفحم، يلتقط أحد الميلاتين ويكسر قشرتها، ويأكل بأصابعه ويمضغ بانتظام. تشك في أنه يتذوق، بل هو يتزود بالوقود لا أكثر. تنضم إليه وتأكل الميلا الأخرى، ويخيم الصمت على بقية الليلة، وربما الراحة.

في اليوم التالي -أو بالأحرى، لاحقًا في نفس الليلة- يهيئان الأحصنة وينطلقان بحذر صوب الملف الذي سينزلهما من الطريق العالي. وما إن كانت الشمس في كبِد السماء حتى كانا قد وصلا إلى مستوى الأرض، وعندها يقود ألابستر الطريق ويحثّ الأحصنة على الانطلاق في خبب كامل تتخلله لحظات مشي هادئ من حين إلى حين لإراحتها. تأثرت سيانيت، فقد حسبت أنه سيقتل الأحصنة بهوس التعجل الذي ركب عقله. إنه على الأقل ليس غبيًا، ولا قاسيًا.

بهذه السرعة يوفران وقتًا مناسبًا على الطرق الأرضية الأكثر انشغالًا وتشعبًا من العالية، حيث يمران بالعربات الخفيفة والمسافرين العاديين وقليل من أفراد المليشيا المحلية، الذين يفسحون لهما الطريق ما إن يروهما. تفكر ساين في أن هذا يكاد يكون مثيرًا للسخرية؛ إذ إن أرديتهما السوداء في أي وقت آخر تفسح لهم الطريق وكأنهما مجذومان، لأن لا أحد يحب الأوروچينيين، أما الآن، وقد شعر الجميع بلا شك بما حدث للبقعة السوداء، فإنهم يفسحون لهما الطريق بتلهف، وعلى وجوههم تبدو الراحة والامتنان. ها قد جاء المرتكز للإنقاذ. تود ساين أن تضحك على كل هذا.

يتوقفان في الليل وينامان حفنة ساعات وينطلقان مجددًا

قبل الفجر، ومع ذلك لا تظهر محطة التوصيل في الأفق إلا وعتمة الليل تكاد تعلن هيمنتها التامة. تظهر المحطة بين جبلين منخفضين عند قمة طريق متعرج. ليس الطريق أكثر من ممر مترب في البرية به القليل من الأسفلت المتشقق القديم، كإيماءة للحضارة. المحطة نفسها إيماءة أخرى. لقد مرَّا على عشرات الكومونات في طريقهم إلى هنا، تبدي كل كومونة نطاقًا واسعًا للبنيان، بين ما هو نتاج أصيل للإقليم المحلي، وبين الموضات السائدة التي يحاول الأغنياء من سكان الكومونة استجلابها من الخارج، محاكاة رديئة للأساليب اليومينِسية. غير أن المحطة تنتمي بالكامل إلى الإمبراطورية القديمة: أسوار شاهقة من حجر السكوريا الأحمر تحيط بمجمع يتكون من ثلاث أهرامات صغيرة وهرم أوسط ضخم. البوابات من معدن فولاذي ما، ما يثير حفيظة ساين. لا أحد يضع بوابات معدنية على أماكن يود أن يحميها. لكن لا شيء في المحطة باستثناء أوروچيني يعيش فيها وطاقم عمل لدعمه (أو لدعمها)، وليس لمحطات التوصيل أية بيوت أحراز، وتعتمد بدلًا منها على قوافل الإمداد المستمرة من الكومونات القريبة. لا يوجد الكثيرون ممن يهتمون بسرقة أي شيء من داخل أسوارها.

تجفل ساين عندما تجد ألابستر يشدّ لجام حصانه قبل بوابات المحطة بمسافة، ويضيق عينيه ناظرًا إليها. «ماذا هناك؟».

يقول وكأنما يتحدث إلى نفسه: «لا أحد يخرج، ولا أحد

يتحرك وراء البوابة. لا أسمع شيئًا من الداخل، أتسمعين أنتِ؟».

لا تسمع إلا الصمت. «كم عدد الناس الذين ينبغي أن يكونوا هناك؟ موصل ووصي و. . . ؟».

«لا يحتاج الموصلون إلى وصاة. هناك عادة فرقة جنود صغيرة، فرقة إمبراطورية من ستة إلى عشرة أفراد، مكلفة بحماية الموصل في المحطة. وطباخون وخدم، وطبيب واحد على الأقل».

ألغاز كثيرة في كلمات قليلة. أوروچيني لا يحتاج إلى وصي؟ إن الموصلين رتبتهم تحت الخاتم الرابع، وقليلي الخواتم لا يسمح لهم بالخروج من المرتكز بلا وصاة، أو على الأقل بلا أوروچينيين كبار للإشراف عليهم. أما الجنود فتتنفهم وجودهم، أحيانًا لا يعود في وسع السكان المتطرفين التمييز بين الأوروچينيين المدربين في المرتكز والبقية. لكن لماذا طبيب؟

لا يهم. تقول: «كلهم ميتون على الأرجح». لكن حتى مع قولها هذا منطقها لا يصمد. لو كان هذا صحيحًا فكان ينبغي أن تموت الغابة أيضًا، وكل الأشجار والحيوانات على مدى عدة أميال حولها، حتى التربة كان يجب أن تتجمد ثم تذوب إلى طين. وكذا كل المسافرين على الطريق. وإلا من أين أتى الموصل بالطاقة الكافية لإزعاج البقعة الساخنة؟ لكن كل شيء يبدو على ما يرام من هنا، باستثناء صمت محطة التوصيل.

ومرة واحدة يكِز ألابستر حصانه ليحثه على الانطلاق، لم يعد هناك وقت لمزيد من الأسئلة. ينطلقان صوب البوابة محكمة الغلق، ولا تستطيع ساين التفكير في طريقة لفتحها إن لم يكن بالداخل من يفتحها لهم. ثم يهسّ ألابستر ويميل إلى الأمام. يظهر فجأة نطاق قدرة حاد هزيل لامع، ليس حولهما، بل حول البوابة. لم ترَ ساين قط شخصًا يصنع نطاق قدرة في مكان آخر، لكن يبدو أن ذوي الخواتم العشرة قادرون.

يصهل حصانها صهيلًا قصيرًا متوترًا أمام دوامة الهواء البارد والثلج المفاجئة، تشد لجامه حتى يسكت، فيتراجع خطوتين خجلتين إلى الخلف. في اللحظة التالية يئن شيء ما في الداخل ثم تسمع صوت تشقق خلف البوابة. ترك ألابستر نطاق قدرته يتداعى بعدما انفتحت إحدى دفَّتي البوابة، وبدأ يترجل من حصانه.

تقول ساين: «انتظر، أعطِه فرصة ليدفأ حتى»، لكنه يتجاهلها ويمضي صوب البوابة، دون أن يأبه بمراقبة خطواته بينما يخطو على الأسفلت المثلج الزلق.

يا نار الأرض الصدئة! هكذا تترجل ساين بدورها وتعقل الحصانين في شجيرة قريبة. يتحتم عليها بعد يوم من السفر القاسي أن تدعهما يبردان قبل أن تقدم إليهما الطعام أو الماء، وعلى الأقل أن تربت عليهما، لكنْ ثمة شيء ما في هذا المبنى الصامت الضخم يربكها، لا تعلم ماذا بالضبط. لذا تتركهما مسرجين على سبيل الاحتياط، وتتبع ألابستر.

كل شيء هادئ داخل مجمع المباني، وقاتم. لا توجد كهرباء في هذه الأطراف النائية، لا شيء سوى مصابيح الزيت، المطفأة. هناك ساحة مفتوحة كبيرة بعد البوابة الرئيسية، وسقالات معلقة على الأسوار من الداخل وبالقرب من المباني، كي تحيط أي زائر بالرماة من جميع الجوانب. نفس الاستقبال الحميمي للزوار في الكومونات عالية الحراسة، وإن كان على مستوى أصغر بكثير. لكن لا أحد في هذه الساحة، رغم أن ساين تلمح مائدة ومقاعد في أحد الجوانب، حيث لا شك في أن المكلفين بواجبات الحراسة كانوا يلعبون الورق ويأكلون الطعام قبل وقت ليس بعيد. المجمع كله ساكن. أرضية المكان المرصوفة بالسكوريا مهترئة وغير مستوية إثر مرور الأقدام عليها عبر السنوات، عدا أنها لا تسمع أي خُطى عليها الآن. ثمة إسطبل على أحد جانبي الساحة، لكن أكشاكه مغلقة وساكنة. تصطف إلى جوار الأسوار بالقرب من البوابة عدد من أحذية الجنود مغطاة بالطين، بعضها مُلقًى عشوائيًّا أو مكوم بعضه فوق بعض، وبعضها مرصوص بنظام. لو أن كلام ألابستر عن وجود جنود إمبراطوريين هنا صحيح، فمن الواضح أنهم ليسوا من الجنود الجاهزين للتفتيش في أية لحظة. يبدو أن التكليف في مكان مثل هذا ليس مكافأة.

تهزّ ساين رأسها. ثم تلتقط رائحة حيوانية من داخل الإسطبل، ما يوترها. إنها تشمّ أحصنة لكنها لا تستطيع أن تراهم. تقترب -تتشنج يداها، ثم ترغم نفسها على إرخائهما- وتختلس النظر إلى أول الأكشاك، ثم تنظر إلى بقيتهم لتستكمل الجرد.

ثلاثة أحصنة ميتة مستلقية على جوانبها فوق القش. لم تنتفخ الجثث بعد، ربما هذا لأنه لم يرتخِ بفعل الموت إلا رؤوس الحيوانات وأرجلها، أما جذوعها فتغطيها قشرة من الجليد، لا يزال الجلد متجمدًا إلى حد كبير. تخمن أن الذوبان بدأ من يومين.

هناك هرم صغير من أحجار السكوريا في مركز المجمع، ذو بوابة حجرية خاصة، وإن كانت هذه البوابة مفتوحة على مصراعيها الآن. لا تستطيع سيانيت رؤية إلى أين ذهب ألابستر، لكنها تخمن أنه داخل الهرم، بما إن ذلك حيث يجب أن يكون الموصل.

تقف على مقعد وتستخدم عود ثقاب قريب لإضاءة أحد مصابيح الزيت، ثم تدخل الهرم بنفسها. تتسارع حركتها بعدما صارت تعلم ما الذي ستجده، ووجدته. داخل ممر الهرم المظلم، ترى الجنود والعاملين الذين عاشوا هنا ذات يوم، بعضهم واقع خلال جريه، وبعضهم ملتصق بالحوائط، والبعض مُلقًى بأذرع مفرودة تجاه مركز المبنى. منهم من حاول الهروب مما هو قادم ومنهم من حاول الوصول إلى مصدره لإيقافه، وكلهم فشلوا.

ثم تجد ساين غرفة التوصيل.

لا شك في أنها هي. إنها غرفة في منتصف المبنى، يقود إليها ممر مقنطر أنيق مزين برخام وردي شاحب ومنقوش بتصاميم تحاكي جذور الأشجار. الغرفة بعد ذلك عالية ومقببة

وقاتمة، لكن خاوية، إلا في مركزها حيث يوجد... شيء ضخم. كانت لتقول إنه مقعد لو كان صُنع من أي شيء غير الأسلاك والأحزمة. لا يبدو مريحًا راحة استثنائية، وإن كان يسمح لشاغله بالاستلقاء على نحو سلس. إن الموصل يجلس فيه على أية حال، لذا لا بد من أن...

أوه. *أوه.*

يا نار الأرض اللعينة الحارقة.

يقف ألابستر على المنصة التي يستقر عليها المقعد السلكي، ينظر إلى جسد الموصل، ولا يرفع نظره عندما تقترب منه. وجهه جامد، لا حزين ولا كئيب، بل قناع صلب.

يقول: «حتى أقل من فينا عليه خدمة المصلحة العامة». لا يحمل صوته أي تهكم.

جسد الموصل ضئيل ونحيل، وعار. أطرافه ضامرة، وعديم الشعر. ثمة أشياء -أنابيب وخراطيم وأشياء لا تعرف كنهها- تدخل في ذراعيه العصويتين، وفي حنجرته الجاحظة، وفي عانته المنكمشة. وهناك كيس مرن على معدة الجثة، متصل بمعدة الجثة على نحو ما، ومليء بـ... آخخ! الكيس في حاجة إلى التغيير.

تركز في كل هذا، في التفاصيل الصغيرة، لأن التركيز يساعد. لأن جزءًا منها هلع، والطريقة الوحيدة التي ستمكنها من إخراس هذه الجزء وقمعه هي التركيز في كل ما تراه. إن ما فعلوه في الواقع عبقري. لم تحسب أن من الممكن إبقاء

د حيًّا بهذا الشكل: مقيد الحركة ومنزوع الإرادة طوال ت. لذا تركز انتباهها في كيف فعلوها. بنية الأسلاك ت تحفة عبقرية؛ بالقرب ثمة بكرة وذراع تحريك، إذن ن قلب الجهاز كله لتسهيل تنظيفه. وربما السلك يهدف تقليل قرح الفراش. تفوح في الهواء عفونة المرض، لكن عمّا قريب رف مليء بزجاجات الحبوب والأصباغ، مفهوم ، بما إنهم بلا شك يحتاجون إلى مضادات حيوية أفضل لبنسلين الذي تصنعه الكومونات محليًّا. لعل أحد هذه طيم يضع العلاج في الموصل. وهذه للطعام، وتلك لشفط ا، والقماشة حول الرقبة لتشرب اللعاب.

أنها ترى أيضًا الصورة الأكبر، رغم محاولاتها للتركيز في صيل الدقيقة. إن الموصل طفل، ظل بهذا الوضع إلى ما ل عن أشهر أو سنوات. *طفل*، بشرته قاتمة مثل ألابستر ا، وملامحه كانت لتكون مطابقة له لو لم يكن أقرب إلى ل عظمي.

ا...»، أقصى ما تمكنت من نطقه.

حيانًا لا يتمكن الروچا من تعلم التحكم». الآن فقط أن استخدامه اللفظة الفظة متعمد. إنها كلمة منزوعة انية، يستخدمها للإشارة إلى أشخاص تجردوا إلى أشياء. يساعد. لا يحمل صوت ألابستر أي تأثر أو مشاعر، لكن شيء يُفهم من اختياره لكلماته. «أحيانًا يقبض الأوصياء بري كبر على التدريب لكن لا يزال صغيرًا إلى حد يجعل تله خسارة. وأحيانًا ما يلاحظون أن إحدى الحصى، خاصة

من ذوي الحساسية الفائقة، يبدو غير قادر على إتقان التحكم. يحاول المرتكز أن يُعلم هؤلاء لبعض الوقت، لكن لو لم يتطور الأطفال بمعدل يراه الأوصياء مناسبًا، فالسانزا الأم تجد دائمًا وأبدًا وسيلة مناسبة للاستفادة منهم».

«مثل...»، لا تقدر ساين على إزاحة ناظرها عن وجه الجسد، *الولد*. عيناه مفتوحتان، بنيتان لكن يغشاهما غيوم وبرودة الموت. في أعماقها تُدهش من أنها لا تتقيأ. «مثل هذا؟ يا نار الأعماق. ألابستر، أنا أعرف أطفالًا أُخذوا لمحطات التوصيل. لم أعلم... لا أفهم...».

ألابستر يرتخي. لم تدرك إلى أي مدى كان يشدّ نفسه حتى ارتخى ليمرر يده تحت عنق الولد، ويرفع رأسه الأضخم من الطبيعي قليلًا. «عليك أن تري هذا».

لا تريد أن تنظر، لكنها تفعل. على مؤخر رأس الطفل الحليقة، ثمة ندبة جدرة طويلة متشعبة تزخرفها أماكن تخييط الجرح. تقع بالضبط عند نقطة التقاء الجمجمة بالعمود الفقري.

«إن سِسَبينا الروچا أضخم وأعقد من سِسَبينات الناس العاديين». بعدما رأت بما يكفي يترك ألابستر رأس الطفل، فتقع على مكانها في المهد السلكي بقوة تجعلها تتقافز. «يسهل هنا إجراء جراحة تمحو التحكم الذاتي للروچا بالكامل، لكن تسمح باستمرار الاستخدام الغريزي للسِّسَبينا. هذا لو نجا من الجراحة طبعًا».

فكرة عبقرية. إن الأوروچيني حديث الولادة قادر على كبح هزة أرضية. هكذا هي فطرته، وهي أعمق وأقوى حتى من قدرة الطفل على الرضاعة. وهذه القدرة بالذات هي أكثر ما يؤدي بالأطفال الأوروچينيين إلى الموت، أكثر مما عداها. هكذا يفصح أقوى الأوروچينيين عن أنفسهم قبل أن يكبروا بما يكفي لاستيعاب الخطر.

لكن، أن يتم تجريد الطفل من كل شيء عدا الغريزة، كل شيء عدا القدرة على قمع الهزات...

يجدر بها أن تتقيأ.

«وبعدها يسهل البقية»، ألابستر يتنهد، كما لو أنه يلقي محاضرة مملة في المرتكز. «حافظ عليه من الأمراض والعدوى بالأدوية، وأبقه حيًّا بما يكفي لتأدية وظيفته، وبهذا تحصل على ما لا يستطيع حتى المرتكز توفيره: مصدر أوروچيني أليف مستدام ومفيد». ومثلما لا تستطيع سيانيت فهم لماذا لا تشعر بالغثيان، لا تفهم كيف له ألا يصرخ. «أفهم من هذا أن أحدهم اقترف خطأ السماح له بالاستيقاظ».

يدور رأسه، وتتبع سيانيت نظره إلى جثة رجل إلى جوار الحائط البعيد. ملابسه ليست كملابس الجنود، بل مدنية، وأنيقة.

«الطبيب؟». تمكنت من مجاراة الصوت المنفصل الثابت الذي يستخدمه ألابستر. هكذا أسهل.

«ربما. أو ربما أحد المواطنين المحليين دفع مقابل تلك

الميزة»، ويهز كتفيه، مشيرًا إلى كدمة لا تزال مزرقة على أعلى فخذ الولد. تبدو مثل يد، وآثار الأصابع واضحة بما يكفي على البشرة السوداء. «قيل لي إن هناك كثيرًا ممن يستمتعون بمثل هذه الأشياء، يشتهون العاجزين عن المقاومة. وينتشون أكثر إذا كانت الضحية واعية بما يجري فيها».

«يا للأرض، ألابستر، أنت لا تعني...».

يتجاوز كلامها مجددًا وكأنها لم تفتح فمها. «المشكلة هي أن الموصلين يشعرون بأفظع الآلام كلما استخدموا أوروچينيتهم، بسبب الجراحة. ولما كانوا غير قادرين على منع أنفسهم من التفاعل مع كل هزة تحدث في الجوار، بما فيها الهزات الميكروية، فتخديرهم طوال الوقت يُعدّ من الإنسانية. وكل الأوروچينيين يتفاعلون غريزيًّا مع أي شيء يعدونه تهديدًا...».

أوه. بلغ تحملها أقصاه.

تتجه ساين بخطوات متعثرة إلى أقرب حائط وتستفرغ المشمش المجفف واللحم المقدد الذي تناولتهم على ظهر الحصان خلال طريقها إلى المحطة. تفكر في أن هذا خطأ، كل هذا خطأ، ولا تفكر في شيء، لا تستوعب شيئًا...

ثم تمسح فمها، وترفع رأسها لتجد ألابستر يراقبها.

يختتم قوله بنعومة شديدة: «مثلما قلت، على كل روچا أن يرى محطة توصيل، على الأقل مرة».

«لم أعلم»، تتلفظ بالكلمات من خلف ظهر يدها. لا تشعر أن

للكلام معنى، لكنها تشعر بأنها مجبرة على قوله. «لم أعلم».

«أتظنين أن هذا يهم؟». انعدام المشاعر في صوته ووجهه يكاد يكون قاسيًا.

«يهمني أنا!».

«أتظنين أنك تهمين؟»، ثم يبتسم بغتة، وكم هي ابتسامة قبيحة، وباردة مثل بخار الثلج، «أتظنين أن أيًّا منا ذو أهمية تتجاوز ما نفعله من أجلهم؟ عن طاعة أو عن إجبار؟»، يومئ برأسه تجاه جثة الطفل المنتهك المقتول. «أتظنين أنه كان ذا أهمية بعد ما فعلوه به؟ إن السبب الوحيد لعدم فعلهم هذا بنا جميعًا هو أن من يتحكم منهم في نفسه يكون أكثر تنوعًا، يستفيدون منه أكثر. مجرد وحش مفيد، دماء جديدة تُضاف إلى سلالات المستولدين. مجرد *روچا* لعين آخر».

لم تسمع من قبل قط كل هذا القدر من الكراهية في كلمة واحدة.

لكنها، وهي واقفة هنا، مع الدليل الأعظم على كراهية العالم ميتًا وباردًا ومتعفنًا بينهما، ليس في وسعها حتى أن يطرف لها جفن. لأن... ما دام المرتكز قادرًا على فعل هذا، أو الأوصياء أو القيادة اليومينِسية أو الجيومستيين أو أيًّا كان من ابتكر هذا الكابوس، فلا مغزى من تلطيف حقيقة سيانيت وألابستر وأمثالهم من الناس، إنهم ليسوا بشرًا، ليسوا أوروچينيين، التهذيب إهانة في وجه ما رأته لتوها. إنهم *روچات*.

بعد لحظة، يلتفت ألابستر ويغادر الغرفة.

***

يخيمان تلك الليلة في الساحة المفتوحة. إن مباني المحطة بها كل وسائل الراحة التي كانت سيانيت تتوق إليها: ماء ساخن وأسرَّة ناعمة وطعام ليس مجرد خبز رماد ولحمًا مجففًا. لكن هنا في الساحة، الجثث ليست جثث بشر.

يجلس ألابستر صامتًا، يحدق إلى النار التي أشعلتها سيانيت، ملتفًّا ببطانية ويحمل قدح الشاي الذي صنعته له. لقد زارت، على الأقل، مخازن المحطة وتموّنت منها. لم ترَه يشرب من القدح. تفكر في أنه كان ليكون من اللطيف أن تعطيه ما هو أقوى ليشربه، أو لا، ليست متأكدة ما الذي قد يفعله أوروچيني بهذه القوة لو ثمل. إنهم ممنوعون من الشرب لهذا السبب بالذات... لكن الصدأ على هذا السبب الآن، الصدأ على كل شيء.

يقول ألابستر: «أبناؤنا، هلاكنا»، عيناه يستعر فيهما اللهب.

سيانيت تومئ، مع أنها لا تفهمه. لكنه يتحدث، وهذا أفضل.

«أظن أن عندي اثني عشر ابنًا»، يشدّ البطانية أكثر حول نفسه، «لست متأكدًا، فلا يخبرونني بكل مرة، ولا أرى الأمهات بعدها في الأغلب. لكني أظنهم اثني عشر. ولا أعلم أين أكثرهم».

لقد كان يلقي بحقائق مماثلة طوال الليل، هذا إن تحدث. لم تجد سيانيت في نفسها القدرة على الرد على أغلب أقواله،

لذا لم يكن هناك ما يشبه المحادثة. أما هذه، فتجعلها تتكلم، لأنها كانت تفكر في كم كان الولد على المقعد السلكي يشبه ألابستر.

تبدأ: «طفلنا. . .».

يقابل عيناها ويبتسم من جديد. ابتسامة عطوف هذه المرة. لكنها تتردد، هل تصدقها أم تصدق الكراهية تحت قناعها.

«هذا ليس إلا أحد المصائر المحتملة»، ويومئ إلى أسوار المحطة الحمراء، «قد يصبح ابننا نسخة أخرى مني وينال الخاتم تلو الخاتم ويضع معايير جديدة للأوروچينية، أسطورة مرتكزية. أو قد تصبح عادية لا تفعل أبدًا شيئًا يذكر، ذات أربعة أو خمسة خواتم تنظف الموانئ من الشعاب المرجانية وتنجب أطفالًا في وقت فراغها».

نبرته الصدئة شديدة البهجة حتى أنها يصعب عليها التركيز في الكلمات وليس النبرة فقط. النبرة تريحها، وجزء منها يتوق إلى الراحة الآن. لكن الكلمات تبقيها متأهبة، تجرحها مثل شظايا زجاجية متناثرة على رخام ناعم.

تقول: «أو راكد، حتى اثنين من الروچا. . .»، يشقّ عليها قول هذه الكلمة، لكن كلمة أوروچيني أشقّ، لأن المصطلح المهذب أمسى الآن كذبة، «حتى نحن قد ننجب راكدًا».

«لا أتمنى ذلك».

«لا تتمنى ذلك؟». إن هذا آمن مصير تتخيله لطفلهما. يمد ألابستر يديه إلى النار ليدفئهما، تلاحظ فجأة أنه يرتدي

خواتمه. لم تره تقريبًا يرتديها من قبل، لكنه وضعها في لحظة ما قبل بلوغ المحطة. حتى وهو يغلي في عروقه الخوف على ابنه، وجد مساحة للتفكير في التقاليد. التمع بعضهم في ضوء النار وظل بقيتهم خامدين في الظلام. خاتم على كل إصبع، بما فيهم الإبهامان. شعرت ست من أصابع سيانيت بالحكة الخفيفة من عربهم.

يقول: «إن أي طفل من والدين ذوي خواتم مرتكزية يجب أن يكون أوروچينيًّا. هذا صحيح، لكنه غير أكيد. إن الأوروچينية ليست علمًا، ليس لها منطق ثابت»، يبتسم ابتسامة نحيلة، «المرتكز سيعامل أي ابن لأي روچا على أنه روچا محتمل على سبيل الاحتياط، حتى يثبت العكس».

«لكن ما إن يثبت العكس حتى يصبح الطفل... إنسانًا»، ذلك هو الأمل الوحيد الذي تستطيع التفكير فيه، «ربما يتبناه أحدهم في كومونة جيدة، ويرسلونه إلى مدرسة حقيقية، ويدعونه يتلقى اسم استخدام...».

يتنهد. في تنهده كم من الإرهاق يجعل ساين تصمت، حيرةً وخوفًا.

يقول: «لا توجد كومونة تقبل تبني طفلنا»، كلماته متعمدة وبطيئة، «قد تتجاوز الأوروچينية أحد الأجيال، أو اثنين أو ثلاثة، لكنها تعود في النهاية. لا ينسى الأب الأرض ديونه».

تتجهم سيانيت. لقد قال من قبل أمورًا كهذه، أمورًا تعود إلى حكايات القوالين عن الأوروچينيين؛ إنهم ليسوا أسلحة

المرتكز، بل أسلحة الكوكب البغيض الذي ينتظر تحت أقدامهم. الكوكب الذي لا يرغب في شيء أكثر من تدمير الحياة الغازية لسطحه الذي كان ذات يوم بكرًا. ثمة شيء في كلام ألابستر يجعلها تعتقد بأنه يؤمن بتلك الحكايات القديمة، أو حتى القليل منها. لعله يفعل، لعله يجد بعض الراحة في الاعتقاد بأن نوعهم عنده هدف ما، حتى لو كان مريعًا. لكن لا صبر لها على كلام الكهنة الآن. «طيب، لن يتبناها أحد»، اختارت اعتبارها أنثى اعتباطًا، «ماذا بعد؟ هل يحتفظ المرتكز بالراكدين؟».

أعين ألابستر مثل خواتمه، تعكس النار في لحظة وتظلم وتخمد في التالية. «لا، ستصبح وصية».

يا للصدأ. هذا يفسر الكثير.

وعند صمتها، يرفع عينه إليها. «والآن، كل شيء رأيتِه اليوم، انسِيه».

«*ماذا؟*».

«الشيء في المقعد السلكي لم يكن طفلًا»، لم يعد في عينيه نور الآن، «لم يكن طفلي، لم يكن طفلًا غيري، لم يكن شيئًا، لم يكن أحدًا. لقد حيَّدنا البقعة الساخنة وأصلحنا ما كاد أن يفجرها. وجئنا هنا للبحث عن الناجين ولم نجد منهم أحدًا. هذا ما سأبرقه إلى يومينِس وهذا ما سنقوله إن استجوبونا عندما نعود».

«لا... لا أعلم إن كنت قادرة على...». فك الفتى المشوه

ونظرته الميتة. ما مدى شناعة أن تعلق إلى الأبد في كابوس؟ أن تصحو على الألم، وعلى القبضة المشتهية لطفيليٍّ حقير؟ إنها لا تشعر إلا بالشفقة على الولد، وبالراحة لتحرره.

«ستفعلين ما أقوله بالضبط»، صوته سوط، تحملق إليه بغضب هائل، «لو أنت آسفة، فأنت آسفة على الموارد المهدرة. ولو سألوك عنه، فأنت سعيدة أنه مات. اشعري بهذا، صدقيه. لقد كاد أن يقتل من الناس أكثر مما يسعنا إحصاؤه. ولو سألوك عما تشعرين حياله، فأنت تتفهمين لماذا هم مضطرين إلى فعل هذه الأشياء بنا، تعرفين أن هذا لمصلحتنا، وتعرفين أنه لمصلحة الجميع».

«أيها النغل الصدئ، أنا لا أعرف...».

يضحك، فتجفل، لأن غضبه عاد الآن، جَلَدَة مباغتة. «لا تستفزيني يا ساين، أرجوك لا تستفزيني»، لا يزال يضحك، «أقصى ما سأناله على قتلك هو التوبيخ».

هذا تهديد. طيب. عندما ينام، ستغطي وجهه بينما تطعنه. حتى أسوأ جراح السكين يستغرق عدة ثوانٍ كي يقتل، ولو ركز أوروچينيته عليها في تلك النافذة الصغيرة سيقتلها. لكن قدرته على التصويب الدقيق ستقل من دون عينيه، أو لعلها تشتت انتباهه بكتم الأنفاس...

لكن ألابستر لا يزال يضحك، بعمق. وهنا بدأت سيانيت تدرك الارتعاش المتردد في المنطقة المحيطة، يقترب حتى تشعر به في طبقات الأرض أسفلها. تعبس، وتشرد، وتنتبه،

وتتساءل إن كانت تلك البقعة الساخنة مرة أخرى، ثم تدرك متأخرًا أن تلك ليست ارتعاشة، بل اهتزازًا ذا إيقاع ما، ومع الوقت تكتشف أنه متناغم مع زفير ألابستر خلال ضحكه.

وبينما تحدق إليه مصعوقة، يتصاعد ضحكه حتى صار يضرب ركبته بإحدى يديه، لا يزال يضحك لأن ما يريده هو تدمير كل شيء تقع عليه العين. ولو كان ابنه نصف الميت قادرًا على إثارة بركان خارق، فلا يمكنها تخيل ما الذي قد يفعله أبوه عازمًا، أو حتى بلا قصد، لو فقد تحكمه ولو للحظة. تتكور قبضتا ساين فوق ركبتيها. تجلس مكانها بينما تطعن أظافرها راحتي يدها، حتى تمالك نفسه أخيرًا. يستغرق هذا منه وقتًا، وحتى عندما توقفت الضحكة ظل يضع وجهه في كفيه من حين إلى حين ويهز كتفيه مع ضحكات قصيرة. أو لعله يبكي، لا تعلم بالضبط، ولا تهتم أيضًا.

أخيرًا يرفع رأسه ويأخذ نفسًا عميقًا، ويتبعه بآخر. يقول في النهاية: «آسف»، انتهى الضحك لكنه عاد مبتهجًا، «لماذا لا نتحدث عن شيء آخر؟».

«أين وصيك بحق الصدأ؟»، ترتخي قبضتاها، «أنت مجنون ككيس مليء بالقطط».

يقهقه، «تأكدت من تحيّد خطرها منذ عدة سنوات».

تومئ، «قتلتها».

«لا، هل أبدو غبيًا؟»، تحول من القهقهة إلى الامتعاض في لمح البصر. ساين تخشاه بشدة ولم تعد تتحرج من الاعتراف

بذلك. لكنه يرى ذلك، ويتغير شيء ما في سلوكه. يأخذ نفسًا عميقًا آخر ثم يهدأ. «تبًّا. أنا... أنا آسف».

لا تقول شيئًا، فيبتسم قليلًا، بحزن، وكأنه لا يتوقع منها ذلك. ثم ينهض ويتجه إلى كيس النوم. تراقبه يتمدد، يولي ظهره للنيران، ثم تراقبه حتى يهدأ تنفسه، وعندها فقط تسترخي.

ثم تفزع مرة أخرى عندما يتحدث بنعومة شديدة.

يقول: «أنت محقة، لقد جننت منذ سنوات، ولو بقيت معي فترة طويلة، ورأيت وفهمت ما يكفي من واقع الأمور، ستجنين أيضًا»، يسمح بخروج تنهيدة طويلة، «لو قتلتني، ستسدين إلى العالم معروفًا». وبعدها لا يقول شيئًا آخر.

تتفكر ساين في آخر كلماته لوقت أطول مما ينبغي.

ثم تتكور بقدر استطاعتها فوق حجارة الساحة الصلبة، ملتفة ببطانية وتريح رأسها على سرج يصلح لأن يكون وسادة تعذيب مثالية. لا تنفك الأحصنة تتململ، مثلما كانت طوال الليل، لأنها تشم رائحة الموت في المكان. لكنها في النهاية تنام، مثلما تنام ساين أيضًا، وتتمنى لو ينام مثلهم ألابستر.

خلفهما، فوق الطريق العالي الذي كانا يقطعانه، تنجرف المسلة التورمالينية وتتوارى عن الأنظار خلف جبل، تتابع طريقها بلا هوادة.

***

شتاء، ربيع، صيف، خريف، والموت خامسهم، وسيدهم المخيف.

مثل أركتيكي

فاصلة

كسر في النمط، عقدة في الخيط. هناك أشياء كثيرة يجدر بك ملاحظتها. أشياء غائبة، وغيابها بارز.

لاحظي مثلًا أن أحدًا في السكون لا يذكر الجُزر. هذا لا يرجع إلى عدم وجود جُزر أو لأنها غير مسكونة، بل العكس هو الصحيح. إنما السبب أن الجزر غالبًا ما تقع بالقرب من الصدوع أو فوق البقع الساخنة، ما يعني أنها أشياء زائلة في السياق الكوكبي. ثورة بركان تخلقها وموجة تسونامي تمحوها. لكن البشر أيضًا أشياء زائلة في السياق الكوكبي، وعدد الأشياء التي لا يلاحظونها فلكي، حرفيًّا.

والناس في السكون أيضًا لا يتحدثون عن أية قارات أخرى، مع أن الاسترابة في وجود قارات أخرى أمر معقول. لم يسافر أحد حول العالم كي يرى أن ليست هناك قارات؛ إن في ركوب البحر، حتى بحذاء الساحل، مخاطرة كبيرة بالفعل، مع موجات التسونامي التي ترتفع مئات الأقدام، فما بالك بالموجات الأسطورية في قلب المحيط، التي تبلغ الجبال طولًا، والتي يقال إن تموجاتها تبلغ حتى أطراف المحيط الهائل العميق؟ إنهم ببساطة يأخذون ذاك الجزء من قول الحجر الموروث عن حضارة أكثر شجاعة، الذي يقول إن لا شيء هناك إلا السكون، كحقيقة مسلَّم بها. وبالمثل لا أحد يتحدث عن الأجسام السماوية، مع أن السماء تزخر بها مثلما في أي مكان آخر في الكون. هذا يرجع في الأكثر إلى أن أغلب انتباه الناس موجه نحو الأرض لا السماء. إنهم يلاحظون ما هو موجود: الشمس

والنجوم، ومذنب أو نجم ساقط من وقت إلى آخر. لكنهم لا يلاحظون ما هو مفقود.

لكن كيف لهم أن يفعلوا؟ من ذا الذي يفتقد ما لم يتخيله حتى من قبل على الإطلاق قط؟ هذا ليس من طبيعة البشر. إنه لمن حسن الحظ إذن أن في هذا العالم ناسًا أكثر من البشر.

٩

سيانيت، في قلب العدو

يبلغان آليا بعد أسبوع، تحت سماء منتصف اليوم الزرقاء اللامعة، نقية لا تشوبها إلا شائبة واحدة: مسلة بنفسجية ومَّاضة تحلق على مسافة من الساحل.

آليا كومونة كبيرة مقارنة بكومونات الساحل. بالطبع لا تكاد حتى تقترب من يومينِس، لكن حجمها محترم، مدينة ملائمة. أغلب أحيائها ومتاجرها ومقاطعاتها الصناعية محشورة معًا في ميناء طبيعية تشبه وعاء منحدر الجوانب، تشكلت من فوهة بركان قديم انهار أحد جوانبها، وتحيط بها من كل ناحية مستعمرة لا تُقطع في يوم واحد. سيانيت وألابستر توقفا لما بلغا أول تكتل مبانٍ ومزارع رأوه، وسألا، وعرفا -بعدما تجاهلوا العيون المحدقة التي أثارت حفيظتها الأزياء السوداء- أن هناك عدة خانات عمًّا قريب. يتجاوزان أول مكان كان في وسعهما دخوله، بسبب شاب من أحد المزارع قرر أن يتتبعهما عدة أميال، شادًّا لجام حصانه ليحافظ على مسافة حسبها حدود نطاق قدراتهما. كان وحده، ولم يقل شيئًا، لكن كم يسهل تحول شاب وحيد إلى عصبة شباب، لذا تابعا الحركة أملًا في انتصار ضجره على بغضه، وفي النهاية أدار فعلًا حصانه وعاد من حيث جاء.

الخان الثاني ليس بلطف الأول، لكنه ليس سيئًا أيضًا: مبنى جصي قديم يشبه الصندوق، شهد عدة مواسم لكنه صامد

ومُعتنًى به جيدًا. زرع أحدهم أجمات الورد في كل أركانه وترك اللبلاب يتسلق جدرانه، ما يعني حتمية انهياره في الموسم القادم، لكن هذه ليست مشكلة سيانيت. استئجار غرفة مشتركة وإسطبل للأحصنة لليلة واحدة كلفهما عرقي لؤلؤ إمبراطوريين، سرقة صريحة إلى حد جعل سيانيت تضحك على المالكة قبل أن تتمالك نفسها (فحدقت إليهما المرأة). لحسن الحظ يتفهم المرتكز أن الأوروچينيين في الخارج قد يحتاجون إلى رشوة المواطنين كي يتلقوا معاملة جيدة. تلقى ألابستر وسيانيت تمويلًا سخيًّا، وخطابًا ائتمانيًّا يسمح لهما بسحب المزيد من العملة لو احتاجا. لذا دفعا السعر المطلوب، ورؤية لون الأموال الأبيض اللطيف جعلت فجأة سواد أزيائهما مقبولًا، على الأقل لبعض الوقت.

كان حصان ألابستر يعرج منذ الانطلاقة إلى المحطة، لذا تعين عليهما قبل أن يستقرا في الغرفة أن يذهبا إلى تاجر خيول ويقايضاه بآخر صحيح. حصلا في مقابله على فرس صغيرة نشيطة نظرت إلى ألابستر شذرًا ما إن رأته، ما جعل سيانيت لا تتمالك نفسها من الضحك مرة أخرى. كان يومًا طيبًا، وبعد ليلة مريحة على أسرَّة حقيقية، تابعا المسير.

بوابة آليا الرئيسية هائلة، بل إنها أكثر ضخامة وزخرفة من بوابات يومينِس. غير أنها معدنية، ليست من الصخر كما ينبغي، ما يجعلها تبدو لا أكثر من محاكاة مبهرجة، وهي كذلك. لا تستطيع ساين فهم كيف يفترض بتلك الأشياء اللعينة أن تحمي أي شيء، حتى وهي ترتفع خمسين قدمًا، ومن

صفائح الكروم الصلب المزخرف. عندما يحل الموسم، مع أول مطر حمضي ينزل سيتآكل الرتاج، وهزة واحدة من الدرجة السادسة ستتكفل بثني الألواح وخلخلة الإحكام المرصوصة به، ما سيجعل غلق البوابة بعدها مستحيلًا. كل شيء في تلك البوابة يصرخ بأن هذه الكومونة حديثة العهد بالثراء وتفتقر إلى القوالين التي تحتاج طائفة القيادة منهم النصح.

يبدو أن طاقم عمل البوابة لا يزيد عن حفنة أشدّاء يرتدون الأزياء الخضراء الرسمية الجميلة لميليشا الكومونة. أغلبهم يجلس يقرأ الكتب أو يلعب الورق أو يفعل أي شيء عدا التركيز في حركة المرور عبر البوابة. تجاهد ساين كي لا تلوي شفتها تقززًا من هذا الإهمال. أمثالهم في يومينِس مسلحون، ويحرسون البوابة حراسة جلية، ويسجلون على الأقل كل وارد على المدينة. أحد الأشدّاء ينتبه لهم عندما لاحظ زيهم، لكنه يلوح لهم بالدخول مع تلكؤ نظره على أصابع ألابستر المليئة بالخواتم، ولا ينظر إلى أيدي ساين، ما يعكر مزاجها وهما يجتازان أخيرًا شوارع المدينة المتشابكة المرصوفة بالحجر، يريدان قصر المحافظ.

آليا هي المدينة الكبيرة الوحيدة في الربع كله. لا تستطيع ساين تذكر حتى أسماء كومونات الربع الثلاث الأخرى، أو ماذا كان اسم هذا البلد قبل أن يصبح اسميًا جزءًا من السانزا. إن بعض البلاد القديمة استعادت أسماءها بعدما ارتخت قبضة السانزا، لكن نظام الأرباع يعمل بكفاءة، لذا لا يشكل ذلك فارقًا. تعرف ساين أن هذا إقليم يعتمد على الزراعة والصيد

بالكامل، مثل أي إقليم ساحلي ناءٍ. ومع ذلك فإن قصر المحافظ جميل جمالًا مذهلًا، مترع بالتفاصيل الفنية المعمارية اليومينِسية، في الأفاريز وفي النوافذ الزجاجية و، يا سلام! في البلكونة الوحيدة بغرض الزينة التي تشرف على ساحة أمامية شاسعة. أي بقول آخر، مترع بزخارف بلا أي لزوم على الإطلاق، وغالبًا يحتاجون إصلاحها بعد كل هزة بسيطة. وهل فعلًا كانوا مضطرين إلى دهان المبنى كله بهذا الأصفر الفاقع؟ يبدو مثل ثمرة فاكهة مستطيلة عملاقة.

يتركان حصانيهما عند مدخل القصر لأحد عمال الإسطبل، وينحنيان في الساحة الأمامية كي يغسل لهما أياديهما بالصابون خادم من المقاومين، وهي عادة محلية بغرض تقليل احتمالات نقل الأمراض لقيادة الكومونة. بعد ذلك تأتي إلى الساحة امرأة فارعة الطول، سوداء بقدر ألابستر تقريبًا، وترتدي تنويعًا أبيض من زي المليشيا المحلية، وتشير إليهم باقتضاب أن يتبعاها. تقودهما عبر القصر إلى صالون صغير، حيث تغلق الباب ثم تتجه لتجلس خلف مكتب الغرفة. تقول على سبيل التحية: «استغرقتما كثيرًا»، وهي تنظر إلى شيء ما على مكتبها وتشير إليهما بحركة آمرة أن يجلسا. يتخذان مجلسيهما على الناحية المقابلة من المكتب، ألابستر عاقدًا ساقيه وضامًّا أصابعه معًا وراسمًا على محياه تعبيرًا يتعذر سبره. «توقعنا وصولكما منذ أسبوع. هل تريدان الذهاب إلى المرفأ الآن أم يمكنكما فعلها من هنا؟».

تفتح ساين فمها لتجيب بأنها تفضل الذهاب إلى المرفأ، بما

إنها لم تهزّ عائقًا مرجانيًا من قبل، وتفضل أن تكون قريبة كي تحسن فهمه. لكن قبل أن تبدأ في الكلام يقول ألابستر: «أنا آسف، من أنت؟».

فم سيانيت ينغلق بإحكام وتبدأ تحدق إليه. إنه يبتسم بتهذيب، لكن ثمة حدة مضمرة في الابتسامة تثير انتباه سيانيت على الفور. المرأة أيضًا تحملق إليه بأعين تنضح بالإهانة.

تقول ببطء كما لو أنها تكلم طفلًا: «اسمي أسايل قيادية آليا».

يرد: «ألابستر»، ويلمس صدره ويومئ، «وزميلتي هنا سيانيت. لكن اعذريني، لم أكن أسأل عن اسمك. قيل لنا إن محافظ الربع رجل».

وهنا تفهم سيانيت وتقرر مجاراته. إنها لا تفهم لماذا قرر أن يفعل ذلك، بيد أن لا سبيل في الواقع إلى فهم سبب أي شيء يفعله. لا تستوعب المرأة قصده، يلتوي فكها بوضوح. «أنا معاونة المحافظ».

أغلب الأرباع لديها محافظ ونائب محافظ وحاجب. ربما هذه الكومونة التي تحاول جاهدة أن تتجاوز الاستوائيين تحتاج إلى طبقات بيروقراطية أكثر. تسأل سيانيت: «كم عدد معاوني المحافظ هنا؟»، فيصدر ألابستر صوتًا: «توت».

«علينا أن نتحلى بالأدب يا ساين». لا يزال يبتسم، لكنه ساخط بشدة، تستطيع تمييز هذا من كشفه عن كل هذه

الأسنان. «نحن في النهاية لسنا إلا أوروچينيين، أما هي فتنتمي إلى أحد أكثر طوائف الاستخدام تبجيلًا في السكون. نحن هنا فقط لاستخدام قوة أعظم مما يسع إدراكها الإحاطة به كي ننقذ اقتصاد إقليمها من الانهيار، بينما هي...»، يهزّ إصبعه مشيرًا إلى المرأة، من دون أن يحاول مداراة سخريته، «بيروقراطية ثانوية متحذلقة. لكن أنا واثق بأنها بيروقراطية ثانوية متحذلقة مهمة جدًّا».

بشرة المرأة الداكنة تحميها من أن يفضح شحوبها شعورها، لكن تخشب جلستها واتساع منخريها قاما بالواجب. تنقل ناظرها بين ألابستر وسيانيت ثم تعود لتستقر عليه وحده، ما تفهمته سيانيت تمامًا: لا أحد يفوق مرشدها في الإزعاج. تشعر بفخر منحرف مباغت.

ترد في النهاية على سؤال سيانيت وهي تقذف وجه ألابستر المبتسم بسهام نظرتها: «هناك ستة معاونين للمحافظ. وحقيقة أني معاونة المحافظ ليست ذات شأن هنا، السيد المحافظ رجل مشغول، وهذه مسألة ثانوية، لذا لا يتطلب التعامل معها أكثر من *بيروقراطي ثانوي*. تمام؟».

«ليست مسألة ثانوية». لم يعد ألابستر يبتسم، وإن كان لا يزال مرتخيًا وأصابعه تربت بعضها على بعض. يبدو كمن يفكر في أن يغضب، وإن كانت سيانيت متأكدة من أنه بالفعل هناك. «أستطيع سسبنة العائق المرجاني من هنا. إن مرفأكم بلا فائدة تقريبًا. أغلب الظن أنكم كنتم تخسرون المراكب التجارية الثقيلة لصالح كومونات ساحلية أخرى لعشرة أعوام على

الأقل، وربما أكثر. لقد وافقتم على دفع كم هائل إلى المرتكز -أعلم أنه هائل لأنهم أرسلوني أنا- أملًا في أن تنظيف مرفئكم سيعيد إليكم تجارتكم المفقودة، وإلا لن يكون في وسعكم دفع ديونكم قبل أن تأتي التسونامي التالية لتمحيكم من الوجود. إذن نحن، كلانا»، يشير بإيجاز إلى ساين قبل أن يعيد أصابعه بعضها إلى بعض، «نحن مستقبلكم الصدئ كله».

المرأة ساكنة تمامًا. لا تستطيع سيانيت قراءة تعبيرها، لكن جسدها متيبس، وتتراجع إلى الخلف قليلًا. خوفًا؟ ربما. على الأرجح نتيجة لأسهم ألابستر اللفظية التي أصابت بكل تأكيد لحمها الطري.

ويتابع: «ولهذا، أقل ما يمكنكم فعله هو حسن الضيافة، ثم تقديمنا إلى الرجل الذي جعلنا نسافر مئات الأميال لحل مشكلتكم البسيطة. هكذا تكون الكياسة. هكذا تكون معاملة المسؤولين المرموقين. ألا توافقين؟».

رغمًا عنها، تود ساين أن تهلل.

تتمكن المرأة في النهاية، بهشاشة ملموسة، من أن تقول: «حسنًا، سأعمل على نقل... طلبك... إلى المحافظ»، ثم تبتسم، في أسنانها لمعة تهديد بيضاء، «وسأعمل على نقل عدم رضاك من بروتوكولنا المعتاد لاستقبال الضيوف».

يقول ألابستر: «لو كانت هذه طريقتكم العادية في معاملة الضيوف»، يوزع على المكان نظراته بغطرسة تامة لا يستطيع أن يبديها إلا من قضى حياته كلها في يومينِس، «فأعتقد

أنك يجب عليك توصيل عدم رضاي بكل تأكيد. أيصح أن تستقبلونا على الشغل مباشرة هكذا؟ دونما حتى كوب أمان ينعشنا بعد رحلتنا الطويلة؟».

«قيل لي إنكما قضيتما الليلة في المقاطعة الخارجية».

«نعم، خفف هذا من التعب قليلًا، لكن الإقامة كانت أيضًا... أقل من الممتاز». تفكر ساين في أن هذا ليس من الإنصاف، فالخان كان دافئًا والأسرَّة مريحة، وصاحبة الخان أمست شديدة التهذيب ما إن تلقت المال. لكنه لن يوقفه شيء. «متى كانت آخر مرة سافرت فيها خمس مئة ميل يا معاونة المحافظ؟ أؤكد لك أنك ستحتاجين بعدها إلى أكثر من يوم لاستعادة قوتك».

اتسع منخراها على أقصاهما، لكنها مع ذلك قيادية، لا شك في أن عائلتها دربتها بعناية على الانحناء مع الريح. «خالص اعتذاري، لم أفكر في ذلك».

«بلى، لم تفكري». ينهض ألابستر بغتة، تجفل أسايل إلى الخلف وكأنه يهاجمها مع أنه حافظ على حركته سلسة وغير مهددة. تنهض ساين بدورها -متأخرة، لأن ألابستر فاجأها- لكن أسايل لا تلقي لها بالًا. يقول ألابستر متجاهلًا اضطراب المرأة الواضح: «سنقضي الليلة في النزل الذي مررنا به في طريقنا إلى هنا، على بعد شارعين تقريبًا، ذلك الذي يوجد أمامه كيركوزا حجري؟ لا أستطيع تذكر اسمه».

تقول المرأة بما يكاد يكون رقة: «آخر الموسم».

«نعم، شيء كهذا، هل أرسل الفاتورة إلى هنا؟».

صارت أسايل تتنفس بصعوبة ويداها تتكوران في قبضتين فوق المكتب. تستغرب ساين هذا، فالإقامة في نزل طلب معقول، حتى لو كان باهظ الثمن... آه! هذه هي المشكلة، أليس كذلك؟ ليس في سلطة معاونة المحافظ تلك أن تدفع لقاء إقامتهما. لو لم يعجب هذا رؤساءها سيستقطعونه من راتبها.

لكن أسايل قيادية آليا لا تتخلى عن سلوكها المهذب وتصرخ فيهما كما حسبتها ساين ستفعل، وإنما قالت: «بالطبع»، بل وحتى تمكنت من الابتسام، ما جعل ساين تكاد تُعجب بها. «تعاليا إذا سمحتما غدًا في نفس الوقت، وسأعطيكما تعليمات إضافية».

هكذا يغادران، ويقطعان الشارع يريدان النزل الفاخر الذي دبر لهما ألابستر الإقامة فيه.

بينما هما واقفان حذاء نافذة غرفتهما -يتشاركان الغرفة مرة أخرى، ويراعيان ألا يطلبا من الطعام أغلاه كي لا يوصمان بالتبذير- تتمعن سيانيت في هيئة ألابستر، وتحاول فهم لماذا يشع بالغضب هكذا، مثل فرن.

تقول: «برافو. لكن هل كان ذلك ضروريًا؟ كنت لأفضل إتمام العمل والشروع في الرجوع متى أمكنني ذلك».

يبتسم ألابستر، مع أن عضلات فكه تشتد أكثر من مرة. «حسبت أنك ستحبين المعاملة وكأنك إنسانة على سبيل

التغيير».

«بلى، لكن هذا لن يفرق. لن يتغير شعورهم تجاهنا حتى لو استغللت سلطتك».

«صحيح، لا يهمني شعورهم، لن يحبونا أبدًا، لكن ما يفرق هو ما يفعلون».

هذا كل ما يهمه. تتنهد سيانيت وتقرص قنطرة أنفها بإبهامها وسبابتها استجلابًا للصبر. «سيشتكون». ولما كانت سيانيت المكلفة فعليًا بالمهمة، فستكون هي الملامة.

«ليشتكوا». يلتفت عن النافذة ويتجه إلى الحمام، «نادني عندما يصل الطعام، سأنقع نفسي حتى أصبح كبرقوقة».

تتساءل سيانيت ما المغزى من كراهية رجل مجنون؟ فهو لن يلاحظ على أية حال.

يأتي الخدم حاملين صينية تعجّ بطعام محلي متواضع لكن مشبع. السمك رخيص في الكومونات الساحلية، لذا تدلل ساين نفسها بطلب تيمير فيليه، ما يعد رفاهية بالغة في يومينِس. إنهم لا يقدمونه في مطاعم المرتكز إلا كل حين وحين. يخرج ألابستر من الحمام ملتفًا في منشفة، ويبدو فعلًا مجعدًا مثل برقوقة مجففة، وعندها تلاحظ ساين لأول مرة كم جعلته أسابيع السفر المنقضية أنحف من سِلك. صار عضلات وعظامًا. ومع ذلك لم يطلب للأكل أكثر من حساء. صحيح أنه إناء ضخم من حساء المأكولات البحرية، مضافًا إليه الكريمة ونوع ما من مرق البنجر، إلا أنه يحتاج بالتأكيد إلى ما هو

أكثر.

كانت سيانيت قد طلبت بالإضافة إلى وجبتها الرئيسية طبقًا جانبيًّا من اليام والنحل المكرمل. وضعته في صحيفته.

حملق إليه ألابستر، ثم إليها، وبعد لحظة رقَّ وجهه. «هكذا إذن، تفضلين الرجل الذي يكسو عظامه لحم أكثر».

إنه يمزح، كلاهما يعلم أنها لن تستمتع معه حتى لو بدا لها أجمل. «صحيح، أي شخص سيفعل».

يتنهد، ثم يبدأ يأكل اليام طائعًا. لا يبدو جائعًا، بل كمن يؤدي مهمة بحسم. يقول: «لم أعد أشعر».

«نعم؟».

يهزّ كتفيه، ما تراه عجزًا عن التعبير عن مقصده لا حيرة. «أي شيء تقريبًا، الجوع والوجع مثلًا، وعندما أكون في الأرض...»، يتجهم. هذه هي المشكلة الحقيقية، ليست عجزه عن التعبير، بل حقيقة أن الكلمات لا تفي بالاحتياج. تومئ كي تريه أنها فهمت. لعل أحدهم يومًا يخترع لغة للأوروچينيين. ربما وجدت لغة مماثلة في الماضي، ثم ضاعت في غياهب النسيان. «عندما أكون في الأرض، لا أسسبن إلا الأرض. لا أشعر بـ...ـــهذا»، ويشير إلى الغرفة حولهما، وإلى جسده، وإليها. «وأقضي وقتًا طويلًا في الأرض، لا مناص لي من ذلك، ولكن عندما أعود... أشعر كما لو أن جزءًا من الأرض عاد معي...»، ثم يشرد. لكنها تظن أنها تفهم. «هذا على ما يبدو شيء يحدث بعد الخاتم السابع أو

الثامن. وضع لي المرتكز نظامًا غذائيًا صارمًا، لكنني لا ألتزم به كثيرًا».

ساين تومئ، فهذا واضح. تضيف كعكتها الحلوة من حشيش البحر إلى صحفته أيضًا، يتنهد مجددًا، ثم يأكل كل ما أمامه.

يأويان إلى الفراش. تحلم ساين لاحقًا في تلك الليلة بأنها تقع إلى أعلى في عمود من الضوء المتلألئ، يتموج وينكسر حولها وكأنه ماء عكر. على قمة العمود شيء يتذبذب، يظهر ويختفي، وكأنه غير حقيقي، غير موجود.

تستيقظ فزعة، ليست متأكدة عندما تشعر فجأة أن ثمة خطبًا ما، لكنها متيقنة من أنها في حاجة إلى فعل شيء حياله. تعتدل جالسة، تمسح وجهها بضبابية، ولم يكن إلا بعد زوال بقايا الحلم من عقلها أن أدركت ذلك الإحساس المتلكئ الهائم الذي يهيمن على المكان حولها بالهلاك.

تنظر إلى ألابستر مرتبكة، فتجده لا يزال مستيقظًا بجوارها، متخشبًا على نحو غريب، ويحدق بعينين جاحظتين. يصدر صوتًا كما لو أنه يغرغر أو يحاول أن يغطّ ويفشل. ما هذا بحق الصدأ؟ إنه لا ينظر نحوها، لا يتحرك، فقط يتابع إصدار هذا الصوت السخيف.

وفي الآن نفسه أوروچينيته تحضر، وتحضر، وتحضر، حتى صارت تشعر بكل ما بداخل جمجمتها يؤلمها. تلمس ذراعه فتجده متعرقًا متيبسًا. تفهم أخيرًا أنه عاجز عن الحركة.

«بستر؟»، تنحني عليه، تنظر إلى عينيه، لا تردان النظر

إليها. مع ذلك تستطيع أن تسسبن بوضوح أن ثمة شيئًا ما بداخله صاحٍ ويتفاعل. قوته تتصاعد بينما تبدو عضلاته عاجزة عن المواكبة، ومع كل شهيق مغرغر جديد تشعر أنها تعلو وتشتد أكثر، تكاد تنفجر في أية لحظة. يا للصدأ المتقشر المحروق. إنه عاجز عن الحركة، ويهلع.

«ألابستر!»، لا ينبغي أبدًا أبدًا أن يهلع الأوروچيني، لا سيما لو كان ذا عشرة خواتم. لا يستطيع أن يجيبها، بالطبع، وهي تناديه لتجعله يعرف أنها هنا، وأنها تساعد، عسى أن يهدئه هذا. لعل هذه نوبة صرع. ترمي سيانيت الأغطية عنها وتتدحرج على ركبتها، وتضع أصابعها في فمه محاولةً شدّ لسانه. تجد فمه مليئًا باللعاب، إنه يغرق في لعابه اللعين. هذا يدفعها إلى قلبه على جانبه وإمالة رأسه حتى يسيل منه اللعاب. صوت تنفسه الواضح هو مكافأتهما الفورية على ذلك، لكنه مع ذلك تنفس ضحل، ويستغرق الكثير في كل شهيق. إنه يعاني، وأيًّا كان ما أصابه فهو يشلّ رئتيه مثلما يفعل مع بقيته.

ترتج الغرفة ارتجاجًا قليلًا، وتسمع بعض صيحات الجزع تتصاعد. بيد أن الصيحات سرعان ما تخمد، لأن أحدًا لم يقلق كثيرًا. لم يسسبن أحد هزة وشيكة، ولعلهم يعزونها إلى رياح قوية تضرب المبنى... حتى الآن.

«خراء، خراء، خراء»، سيانيت تقرفص حتى تصبح في مجال نظره. «باستر، يا بن آكل لحم البشر الغبي... أمسك نفسك. أنا سأساعدك، لكني لن أقدر على ذلك لو قتلتنا جميعًا».

لا يبدو على وجهه الاستجابة، ولا يتغير تنفسه، لكن الإحساس المتلكئ بالهلاك يقل فورًا. جيد، أفضل، والآن... «أحتاج إلى البحث عن طبيب...».

الهزة التي تضرب المبنى تشتد هذه المرة، تسمع سيانيت الأطباق تصلصل وتقعقع على صواني مخلفات الطعام. هذه إذن طريقته في قول لا. «لا أستطيع مساعدتك! لا أعرف ماذا بك! ستموت لو...».

ينتفض جسده كله. لم تفهم إن كان فعل ذلك عمدًا أم أنه تشنج من نوع ما، لكنها تدرك أنه كان تحذيرًا عندما يحدث ذلك الشيء مجددًا: قوته تقبض على قوتها مثل ملزمة. تجزّ على أسنانها وتنتظره أن يفعل بها أيًّا كان ما يود فعله... لكن شيئًا لا يحدث. إنها في قبضته، وتشعر به يفعل شيئًا ما، يتخبط، وكأنه يبحث ولا يجد.

«ماذا؟»، تنظر سيانيت إلى وجهه المرتخي، «عن ماذا تبحث؟».

لا استجابة. لكنه يبحث عن شيء ما بوضوح، ولا يستطيع إيجاده من دون أن يتحرك.

وهذا لا معنى له. إن الأوروچينيين لا يحتاجون إلى عيون كي يفعلوا ما يفعلون. حتى الرضع في مهودهم في وسعهم فعل ما يفعلون. لكن، لكن... تحاول أن تفكر. من قبل، عندما حدث ذلك على الطريق العالي، استدار قبلها نحو مصدر الخطر. تتخيل المشهد في عقلها، تحاول أن تفهم ما الذي فعله وكيف

فعله. لا، هذا ليس صحيحًا، كانت محطة الوصل أقرب نوعًا إلى الشمال الغربي، أما هو فكان يحدق إلى الغرب الصريح. تقفز وتهرع إلى النافذة، تهز رأسها استنكارًا لحماقتها حتى وهي تفعلها، تفتح النافذة وتنظر منها. لا ترى شيئًا عدا الشوارع المنحدرة وأبنية المدينة الجصية الهادئة في هذا الوقت المتأخر. النشاط الوحيد في الخارج هو أناس يحمِّلون سفينة في الناحية التي تراها من المرفأ، والمحيط خلفهم. السماء ترقعها الغيوم، ولا يبدو أن بزوغ الفجر قريب. تشعر بالحماقة، ثم...

ينقبض شيء ما في عقلها. تسمع ألابستر في الخلف يصدر صوتًا خشنًا، وتشعر بارتجاف في قوته. ثمة ما أثار انتباهه. متى؟ عندما نظرت إلى السماء. تنظر إلى السماء من جديد في حيرة.

هناك، *هناك*. تكاد تشعر بسعادته. ثم تحيط بها قوته تمامًا، ولا تعود ترى بعينها.

هذا يشبه الحلم الذي راودها. إنها تقع إلى فوق، وبشكل ما لا تجد في هذا غرابة. كل ما حولها، أي المكان الذي تقع عبره، ملون ولمّاع، كما الماء، عدا أنه ليس أزرق ولا شفافًا، بل بنفسجيًا شاحبًا مثل جمشت رديء مختلط بالكوارتز العكر. تطوح أطرافها، ولوهلة تحسب أنها تغرق. لكنها تدرك ما حولها بالسِسَبينا لا بالرئة ولا باللمس، لا يمكنها إذن أن تطوح أطرافها لأن لا هذا ماء ولا هي هنا حقًّا، ولا يمكنها أن تموت لأنها، بشكل ما، مع ألابستر.

يمضي متعمدًا حيثما هي تتخبط، يسحبها معه إلى أعلى، يقعان أسرع، ويبحث عن شيء ما. تكاد تسمع صفير الحركة، وتشعر بالضغط يزيد والحرارة تقل تدريجيًّا على بشرتها الخارجية.

شيء يشتبك، شيء غيره ينفتح. كل هذا يتجاوزها، يتجاوز قدرتها على استيعابه بالكامل. شيء ينصبّ عبر شيء، بسخونة واحتكاك. شيء بداخلها يسترخي، يشتد، يحترق.

ثم تصبح في مكان آخر، تنجرف وسط أشياء شديدة البرودة، وثمة شيء فوقهم، بينهم:

تلوث

هذه ليست فكرتها.

ثم يذهب كل شيء، ترتد عائدة إلى نفسها، إلى عالم الصورة والصوت والسمع والتذوق والشم والسسبنة؛ السسبنة الحقيقية، كما ينبغي أن تكون السسبنة، وليس بتلك الطريقة الصدئة التي فعلها بها ألابستر أيًّا كانت... وألابستر يتقيأ على السرير.

تتراجع ساين إلى الوراء متقززة، ثم تتذكر أنه مشلول، ينبغي ألا يكون قادرًا على الحركة إطلاقًا، ناهيك عن التقيؤ. لكنه مع ذلك يفعلها، ودفع نفسه خارج السرير نوعًا كي يحسن التهوع. لقد انتهى الشلل على ما يبدو.

لم يتقيأ كثيرًا، بل قدر ملعقة صغيرة أو اثنتين من شيء أبيض ذي هيئة ملساء. لقد أكلا منذ ساعتين، لا ينبغي أن

يكون هناك أي شيء على الإطلاق في قناته الهضمية العلوية. لكنها تتذكر:

تلوث

وتدرك أخيرًا ما الذي خرج منه، ثم تدرك متأخرًا كيف فعلها.

عندما يعتدل في النهاية، ويبصق عدة مرات على سبيل التأكيد، ينقلب على ظهره في السرير مجددًا، يتنفس بشدة، أو لعله يستمتع بإحساس القدرة على التنفس جيدًا كما يحب.

سيانيت تهمس: «ما الذي فعلته فورًا بحق صدأ الأرض الحارق؟».

يضحك قليلًا، يفتح عينيه كي يقلبهما تجاهها. تستطيع تمييز أنها من تلك الضحكات التي يضحكها عندما يريد أن يعبر عن شيء غير المزاح. عن البؤس هذه المرة، أو ربما الاستسلام المنهك. إنه في مرارة دائمة، تعبيره عن المرارة ليس إلا مسألة إبداء درجتها.

يقول: «ر... ركزي»، بين أنفاسه المتلاحقة، «للتحكم مستويات».

هذا أول دروس الأوروچينية. في وسع أي رضيع تحريك جبل، هذه غريزة. لكن لا يستطيع إلا أوروچيني تدرب في المرتكز أن يحرك عمدًا وتحديدًا صخرة بعينها. ولا يستطيع، على ما يبدو، إلا ذو عشرة خواتم أن يحرك مادة متناهية الصغر تطفو وتتحرك بين فجوات دمائه وأعصابه.

ينبغي أن هذا من المستحيل. ينبغي عليها ألا تصدق أنه فعل أي من هذا. لكنها ساعدته في فعلها، لذا لا يسعها إلا أن تصدق المستحيل.

يا شر الأرض.

التحكم. تتنفس سيانيت بعمق للتحكم في أعصابها. ثم تنهض وتجلب كوب ماء وتأتي به. لا يزال واهنًا، يتعين عليها مساعدته كي يعتدل ويرتشف من الكوب. يبصق أول ما يتجرع أيضًا إلى الأرض عند قدميها. تحدق في هذا، ثم تحضر وسادة وتضعها تحت ظهره، وتساعده على الاتكاء، ثم تشدّ الجزء غير المتسخ من البطانية فوق قدميه وحجره. بعدما تنتهي من ذلك تحرك المقعد بالعرض إلى جوار السرير. إنه كبير، ووثير بما يكفي لقضاء الليلة. لقد تعبت من الاعتناء بسوائل جسده.

بعدما استعاد ألابستر حسن تنفسه وقليلًا من قوته -فهي ليست عديمة التقدير- تقول بخفوت شديد: «أخبرني ما الذي فعلته بحق الصدأ».

لا يبدو متفاجئًا من السؤال، ولا يتحرك من حيث استقر على الوسائد، تتدلى رأسه إلى الخلف قليلًا. «نجوت».

«ما فعلته على الطريق العالي، وهنا. *اشرح لي*».

«لا أعلم إن كنت... أستطيع، أو إن كان ينبغي أن أفعل».

تحافظ على أعصابها، يمنعها خوفها من أن تفقدها. «ما الذي تعنيه بإن كان ينبغي؟».

يستنشق نفسًا طويلًا بطيئًا عميقًا، من الواضح أنه يستمتع به. «لا زلت لم تبلغي... التحكم المناسب بعد، ليس بما يكفي، ومن غير هذا ستموتين لو حاولت فعل ما فعلته. لكن إن أخبرتك كيف فعلتها...»، يأخذ نفسًا عميقًا آخر ويخرجه، «قد لا تقدرين على منع نفسك من المحاولة».

التحكم في الأشياء متناهية الصغر. هذا يبدو مثل مزحة. يجب أن يكون مزحة. «لا أحد يقدر على هذا النوع من التحكم، ليس حتى ذوي العشرة خواتم». لقد سمعت عنهم القصص، في وسعهم فعل الأعاجيب، لا المستحيلات.

«رُوِّضَ المروضون»، يتنفس، وتدرك أنه يغالب النوم. إنه متعب من القتال لإنقاذ حياته، أو ربما فعل المعجزات أصعب مما يبدو عليه. «الممسكون بعنان الأرض الجبار صاروا في الأغلال مقيدين».

إنه يقتبس من شيء ما. «ما هذا؟».

«قول الصخر».

«هراء، هذا ليس في أيٍّ من الألواح الثلاثة».

«اللوح الخامس».

هراؤه لا ينتهي، وها هو النوم يجرفه. إنها ستقتله بحق الأرض.

«رد على سؤالي الصدئ يا ألابستر»، لا شيء سوى الصمت، عليه لعنة الأرض، «ما الذي فعلته بي؟».

يزفر زفرة طويلة ثقيلة، فتظن أنه راح في النوم، لكنه يقول: «جرٌّ متوازٍ. عندما يسحب العربة حيوان واحد لا يطول به الوقت قبل أن ينهك، وعندما تضعين حيوانين أحدهما وراء الآخر، يتعب من في المقدمة أولًا. لكن إن شددتهما متجاورين، وزامنت بينهما، وقللت الاحتكاك بين حركتيهما، يجرّان العربة أبعد مما يستطيع كلاهما على حدة»، يتنهد مجددًا، «أو على الأقل تلك هي النظرية».

«ماذا يجعلك هذا؟ لجام؟».

إنها تمزح، لكنه يومئ.

لجام، هذا أسوأ، لقد كان يعاملها وكأنها حيوان، يرغمها على العمل معه كي لا يحرقه الإنهاك. «كيف تـ...»، ثم ترفض كلمة كيف، التي تفترض إمكانية لا يجب أن تكون. «إن الأوروچينيين لا يمكنهم العمل معًا. يلغي نطاق قدرة أحدهم الآخر، الأقوى يطغى». هذا درس تعلمه كلاهما في بوتقات الحصى.

«طيب»، يقترب من النوم حتى تتداخل حروف كلماته، «إذن هذا لم يحدث».

يغشاها الغضب حتى يعميها للحظة، يصبح العالم أبيض أمامها. لا ينبغي أن يصل الأوروچينيون إلى هذه الدرجة من الغضب، لذا تفرغها في كلمات. «كفاك خراءً! إياك أن تفعل هذا بي مرة أخرى...»، لكن كيف لها أن تمنعه؟ «وإلا سأقتلك، أتسمعني؟ هذا ليس من حقك».

«أنت أنقذت حياتي»، قوله أقرب إلى همهمة، لكنها تسمعه، ويطعن هذا غضبها في ظهره، «شكرًا».

لأن من ذا الذي يلوم غريقًا على التشبث بغيره لينقذ نفسه؟

أو لينقذ آلاف الأروح؟

أو لينقذ ابنه؟

وها قد راح في النوم الآن، جالسًا، إلى جوار بركة قيئه الصغيرة، والتي هي بالطبع على ناحيتها من الفراش. ترفع ساين ساقيها في تقزز لتتكور على المقعد الوثير في محاولة لاستحضار الراحة.

ولم يخطر لها إلا بعدما استقرت ما حدث، أصل ما حدث، وليس فقط الجزء الذي فعل فيه ألابستر المستحيل.

كانت تُكلَف أحيانًا بواجبات المطبخ عندما كانت لا تزال حصاةً، ومن حين إلى حين كانت تفتح مرطبان فاكهة أو خضراوات فتجده فاسدًا. المرطبانات المتضررة، مثل التي تشققت أو فُتحت من قبل قليلًا، كانت كريهة الرائحة حتى إن الطباخين يضطرون إلى فتح النوافذ وتكليف الحصى بالتهوية لطرد العفونة. لكن الأخطر كانت تلك التي تبدو عادية، وعندما تُفتح لا تفوح بالفساد. إنذار الخطر الوحيد كان الانبعاج المحدود في غطائها المعدني.

رئيس الطباخين، وهو مقاوم أشيب، قال عنها بينما يريهم مرطبانًا يشتبه به كي يعرفوا ما الذي عليهم الحذر منه: «يقتلك أسرع من لدغة ثعبان. إنه سُم خام، يجعل عضلاتك

تنشدّ وتنشلّ، لن يمكنك حتى أن تتنفس. وهو شديد الفعالية، أستطيع قتل كل من في المرتكز بمرطبان واحد»، ويضحك عندها، وكأنها فكرة ظريفة.

بضع قطرات من هذا العفن في إناء الحساء تكفي لقتل روچا في منتصف العمر وزيادة. أيمكن أن تكون حادثة؟ لا يستخدم أي طباخ محترم شيئًا من مرطبان غطاؤه منبعج، لكن لعل نُزُل آخر الموسم يعين طباخين غير محترمين. لقد طلبت سيانيت الطعام بنفسها، قالته للطفل الذي صعد ليرى إن كانا يحتاجان إلى أي شيء. هل حددت لمن كان كل طبق؟ تحاول أن تتذكر ما قالته. «أنا سآخذ السمك واليام». إذن لم يكن من العسير تخمين أن الحساء لألابستر.

لو كان في النزل من يكره الروچات بما يكفي لمحاولة قتلهم، لماذا لم يستهدفهما معًا إذن؟ يسهل وضع قليل من عصير الخضار السام في الأكل كله، وليس أكل ألابستر وحده. لعلهم فعلوا ذلك، ولم يؤثر فيها السم بعد. لكنها تشعر بخير حال.

تقول لنفسها *هذا جنون اضطهاد*.

غير أن كراهية الآخرين لها ليست وليدة الخيال، فهي في النهاية روچا.

تتقلب ساين في المقعد شاعرة بالإحباط، وتلف ذراعيها حول ركبتيها أملًا في استدعاء النوم. لكنها لعبة خاسرة، عقلها مفعم بالأسئلة، وجسدها اعتاد نومة الخلاء بلا شيء أسفلها

أكثر من كيس نوم، حتى انتهى بها الحال جالسة لبقية الليل، تنظر من النافذة إلى عالم يفقد معناه أكثر بمرور كل لحظة، وتتساءل ما الذي يفترض بها أن تفعل معه بحق الصدأ.

لكنها في الصباح، عندما تتدلى من النافذة كي تستنشق الهواء المعبق بالندى في محاولة عقيمة لاستدعاء اليقظة، تنظر بالصدفة إلى الأعلى. هناك، تحوم شظية جمشت هائلة تومض في ضوء الفجر. إنها ليست إلا مسلة، مسلة تذكر بصعوبة رؤيتها في اليوم السابق وهما في طريقهما إلى آليا. جميلة هي المسلات دائمًا، لكنه كجمال نجوم الليل، قلما يسترعي انتباهها بينما تجري الحياة في مجراها الطبيعي.

بيد أنها هذه المرة تسترعي انتباهها، لأنها اليوم أقرب بكثير مما كانت بالأمس.

***

ضع كمرة مرنة في قلب البنيان. ثقْ في الخشب، ثقْ في الحجر، أما الحديد فيصدأ.

اللوح الثالث - «البنيان»– البيت الأول

١٠

أنت تمشين مع وحش

تفكرين في أنك ربما في حاجة إلى أن تكوني شخصًا آخر.

لست متأكدة من بالضبط. شخصياتك السابقة كانت إما أقوى وأبرد، وإما أدفأ وأوهن. كلا النموذجين أنسب لتجاوز الفوضى التي تمرين بها الآن أكثر. أما أنت فباردة وواهنة، وهذا لا يساعد أحدًا.

لم لا تصبحين شخصًا جديدًا تمامًا. لقد فعلت هذا من قبل، ووجدته سهلًا سهولة مفاجئة. اسمًا جديدًا، هدفًا جديدًا، وتشدين أكمام وبناطيل هذه الجديدة حتى تلائمك بالكامل. ما إن تمر أيام حتى تشعري أنك لم تكوني غيرها قط.

لكن أم ناسّون هي أنت الحالية فقط. هذا ما عطلك حتى الآن، وهذا ما سيكون في النهاية العامل الحاسم. عندما ينتهي كل هذا، عندما يموت جيجا ويصبح في وسعك أخيرًا أن تبكي ولدك... لو أن ناسّون لا تزال حية، ستحتاج إلى الأم التي عرفتها طوال عمرها.

لذا يتحتم عليك أن تظلي إيسّون، وسيكون على إيسّون التعامل بالشظايا المتبقية من ذاتها التي تركها جيجا خلفه. سيكون عليك تجميعهم معًا مثل أحجية مفككة بأية طريقة، وحيثما لا تلائم الشظايا الفجوات عليك سدّها بقوة الإرادة، وتجاهل أصوات الطحن والتكسير النتيجة. ستنجين طالما لم

ينكسر شيء مهم، أليس كذلك؟ ليس لديك خيار آخر، ليس وإحدى ولديك يحتمل أن تكون حية.

***

تستيقظين على صوت معركة.

لقد خيمت أنت والولد عند بيت طريق لقضاء الليلة، بين عدة مئات من الناس خطرت لهم كما يبدو نفس الفكرة. لا أحد ينام في البيت نفسه -الذي هو في الواقع ليس أكثر من كوخ حجري الجدران بلا نافذة، يحتوي مضخة بئر- لأنه باتفاق غير منطوق يعدّ مساحة محايدة. وبالمثل، لم يبادر أي من الأشخاص في مئات المخيمات المصفوفة حول البيت بالتفاعل مع غيره، لأنهم باتفاق آخر غير منطوق مذعورين جميعًا بما يكفي للطعن أولًا والكلام لاحقًا. تغير العالم تغيرًا سريعًا، وجذريًا. صحيح أن قول الصخر حاول أن يهيئ الجميع للأحداث المماثلة، لكن يظل الرعب الساحق للموسم صدمة هائلة لا يمكن لأحد أن يتكيف معها بسهولة. فقد كان كل شيء، حتى أسبوع مضى، عاديًا.

أنت وهوّا نزلتما هنا وأقمتما نارًا لقضاء الليلة في مساحة عارية من الحشائش. لم يكن لديك خيار سوى مناوبة المراقبة مع الطفل، رغم خوفك من أن النوم سيغلبه. من الخطر أن تنزعي إلى اللامبالاة في وجود كل هؤلاء الناس. ولما كانت معك مخلاة هروب ولست إلا امرأة تسافر مع طفل فقط، فاللصوص هم المشكلة الأرجح. النار أيضًا خطر، خاصة مع وجود كل هؤلاء الناس الذين لا يعرفون رأس عود الثقاب

من عقبه ويقضون ليلتهم بين الحشائش. لكنك منهكة، ولم يمضِ أكثر من أسبوع على انتهاء حياتك اليسيرة المتوقعة، ستحتاجين إلى بعض الوقت كي تعودي إلى ظروف السفر. هكذا تأمرين الولد أن يوقظك ما إن تحترق كتلة الخث، هذا كفيل بمنحك أربع أو خمس ساعات.

لكن لم يكن إلا بعد ساعات كثيرة، وقد أوشك الفجر على البزوغ، أن بدأ الناس يصرخون في الناحية البعيدة من المخيم المرتجل. ارتفعت الصيحات في ناحيتك أيضًا لما بدأ الناس حولك ينتبهون. تجاهدين للخروج من فراشك القابل للطي والنهوض على قدميك. لا تعرفين من الذي يصرخ بالضبط، ولماذا، لكن هذا لا يهم. تقبضين على مخلاتك بيد وعلى الطفل بالأخرى، وتستعدين للركض.

يتملص منك قبل أن تفعلي، ويقبض على صرته الصغيرة، ثم يمسك بيدك مرة أخرى. عيناه بياض الثلج واسعتان جدًّا في العتمة.

ثم تركضون -أنت والولد وكل من حولك- صوب السهول وعكس اتجاه الطريق، لأن مِن هناك جاءت أول الصرخات، ولأن اللصوص أو الأغيار أو المليشيات أو أيًّا مَن سبب المشكلة سيستخدم الطريق على الأرجح ليغادر بعدما ينتهي من أيٍّ كان ما يفعله. بالنسبة إليك، كل من حولك في نور مطلع الفجر الخافت ليسوا أكثر من ظلال نصف حقيقية تركض بالتوازي. يبقى الولد والمخلاة والأرض تحت أقدامك كل ما يوجد في هذا العالم لبعض الوقت.

وبعد وقت طويل تتداعى قوتك، وتجاهدين حتى تقفي.

يسأل هوّا: «ماذا كان ذلك؟». لا يلهث على الإطلاق. يا لمرونة الأطفال. أنت بالطبع لم تركضي كل تلك المسافة، فأنت مترهلة وتفتقرين إلى القدرة على ذلك. المهم كان الاستمرار في الحركة، ولو بالمشي عندما يستعصي على تنفسك الركض.

تردين: «لم أرَ». لا يهم في الواقع ماذا كان هناك. تفركين شدًّا عضليًّا في جانبك. تشعرين بالجفاف، تخرجين القربة كي تشربي. لكنك تعبسين عندما تجدينها شبه خاوية. بالطبع، لم تستغلي الفرصة لملئها عندما كنت في بيت الطريق، إذ نويت ملأها عندما يحل الصباح.

يقول الولد: «أنا أيضًا لم أرَ»، يلتفت إلى الوراء لاويًا عنقه وكأنه ينبغي أن يقدر على ذلك، كل شيء كان هادئًا، ثم...، يهز كتفيه.

تنظرين إليه. «رحت في النوم، أليس كذلك؟». لقد رأيت النار قبل أن تهربي، كانت قد أصبحت جمرات خامدة. كان ينبغي عليه إيقاظك قبل عدة ساعات.

«لا».

تنظرين إليه على ذلك النحو الذي لطالما روَّع طفليك والعشرات غيرهم من أبناء الآخرين. يتراجع ويبدو عليه الارتباك. «لم أنم».

«لماذا لم توقظني بعدما احترق الخث بالكامل؟».

«أنت كنت في حاجة إلى النوم، وأنا لا».

اللعنة. هذا يعني أنه سيرغب في النوم لاحقًا. الأرض يأكل الأطفال متخشبي الرؤوس.

يقترب هوّا منك، يبدو قلقًا. «هل يؤلمك جانبك؟ هل أنت مصابة؟».

«مجرد وخزة، ستذهب في النهاية». تنظرين حولك مع أن الرؤية تتعذر بعد حوالي عشرين قدمًا. لا أثر لوجود آخرين في الأرجاء، ولا يمكنك سماع صوتًا حولك سوى الحفيف الواهن لسقوط الرماد على الأرض. يفترض أن يكون بقية المخيمين حول بيت الطريق قريبين من هنا، لكنك تشعرين بأنك وحيدة تمامًا، باستثناء وجود هوّا. «علينا أن نعود إلى بيت الطريق».

«من أجل أشيائك؟».

«نعم، وللمياه». تضيقين عينك نظرًا ناحية بيت الطريق، بلا فائدة لما كان المشهد أمامك ينتهي عمّا قريب إلى ضباب رمادي. لست متأكدة أن بيت الطريق التالي سيكون صالحًا للاستخدام. ربما احتله من هم في طور التحول إلى أمراء حرب، أو دمرته غوغاء هلعة، أو قد يكون ببساطة متضررًا.

«يمكنك أن ترجعي...»، تلتفتين إلى الولد الجالس على العشب، والذي، لدهشتك، يحمل شيئًا في فمه. لم يكن معه أي طعام من قبل! يربط خرق صرته ليحكم غلقها ويزدرد بسرعة قبل أن يتابع الحديث، «... إلى الجدول الذي جعلتني أستحم فيه من قبل».

هذا احتمال متاح. لقد عاد الجدول إلى تحت الأرض بعد مسافة ليست بعيدة من حيث استخدمته، ومسافة يوم مشي واحد من هنا. لكنه يوم واحد إلى الوراء، و...

ولا شيء. العودة إلى الجدول هي أامن الاختيارات. ترددك في العودة غباء وخطأ.

لكن ناسّون في مكان ما في الأمام.

تسألين بخفوت: «ما الذي يفعله لها؟ لا بد من أنه عرف حقيقتها بعد كل هذا الوقت».

يراقبك الولد ساكنًا. لو أنه قلق عليك، فهو لا يدع هذا يظهر على وجهه.

عمومًا، أنت على وشك إعطائه مزيدًا من أسباب القلق. «سنعود إلى بيت الطريق، لقد ضيعنا وقتًا طويلًا. على الأرجح أخذ اللصوص أو قطاع الطرق أو أيٌّ من هم ما يريدون وذهبوا».

إلا لو كان ما أرادوه هو بيت الطريق نفسه. العديد من كومونات السكون القديمة بدأت كمصدر ماء سيطرت عليه أقوى جماعة في المنطقة، وحافظوا عليه من الوافدين حتى انتهى الموسم. في ذلك أمل كبير للأغيار في مثل تلك الأوقات، أي الأمل في تأسيس كومونة خاصة بهم في ظل عدم ترحيب الآخرين بهم. بيد أن قليلة هي جماعات الأغيار المنظمة بما يكفي والاجتماعية بما يكفي والقوية بما يكفي لفعلها بنجاح.

وقليلة هي جماعات الأغيار التي تضطر إلى منافسة أوروچينية تحتاج إلى المياه أكثر منها.

تقولين: «لو أرادوا أن يحتفظوا بها...»، وتعنين ما تقولين، حتى لو كان هذا أمرًا قليل الشأن، وكل ما تريدين هو الماء، لكن في هذه الأوقات كل عائق صغير يلوح هائلًا كالجبال، والأوروچينيون يأكلون الجبال على الإفطار، «...عليهم أن يتركوا لي بعضها».

الولد، الذي ظننته قد يركض هاربًا بعد سماع ما قلت، ينهض على قدميه. لقد ابتعت له ملابس مناسبة من آخر كومونة مررتما بها كما ابتعت بعض الخث. وصار الآن لديه حذاء مشي جيد متين مع جوارب جيدة، وغيارا ملابس كاملان، ومعطف يشبه إلى حد كبير معطفك. تشابه ملابسكما، على غرابة هيئتها، توحي بأنكما معًا. هذا النوع من الأمور يرسل إيحاءات غير منطوقة بالتنظيم والتركيز المشترك وعضوية الجماعة. هذا ليس كثيرًا، لكن كل رادع يساعد مهما كان بسيطًا. *ويا لنا من رفقة منيعة، امرأة مجنونة وطفل لقيط.*

تقولين: «هيا»، وتشرعين في المشي، ويتبعك.

يسود الصمت بينما تقتربين من البيت. تعرفين أنك تقتربين من العلامات بين الحشائش: هنا هجر أحدهم مخيمه، لا يزال الدخان يتصاعد من بقايا النار، وهنا مخلاة هروب ممزقة يقود إليها أثر من المتاع الذي شُدَّ ووقع إبان الهروب. ثمة دائرة عارية من الحشائش بها بقايا نيران وسرير قابل للطي مهجور،

لعله سريرك. تلتقطينه وتطوينه وتحشرينه في أحزمة مخلاتك، ستربطينه كما ينبغي لاحقًا. ثم بعد ذلك، أقرب مما حسبت، ها هو بيت الطريق نفسه.

تحسبين في البدء أن لا أحد هنا. لا تسمعين شيئًا سوى وقع أقدامك وأنفاسك. لا يصدر عن الولد صوت على الأغلب، لكن تجدين وقع خطواته ثقيلًا ثقلًا غريبًا على الأسفلت ما إن تعودا إلى الطريق. تنظرين إليه، ويبدو أنه لاحظ ما هنالك. يتوقف، ينظر باهتمام إلى قدميك وأنت تمشين، يراقب كيف تنتقلين من الكعب إلى الأصابع، المشي بتقشير الأقدام من فوق الأرض برفق ثم إرسائها مرة أخرى لا بغرسها مرة واحدة. ثم يبدأ يفعل المثل، ولو لم تكوني مضطرة إلى الانتباه الكامل لمحيطك -لو لم تكوني مشتتة بدقات قلبك المتسارعة- كنتِ لتضحكي على نظرة المفاجأة على وجهه الصغير لما أمست خطواته على الأرض بلا صوت. يكاد يكون لطيفًا.

لكن هذا يحدث وأنت تلجين البيت، عندما تدركين أنكما لستما وحدكما.

أول ما تلاحظينه هو المضخة والأسمنت الذي يغلفها. هكذا هو باختصار البيت برمته: مأوى للمضخة. ثم ترين امرأة، تدندن مع نفسها بينما ترفع قربة ضخمة من تحت الصنبور وتثبت مكانها أخرى خاوية وأضخم منها. تتحرك بسرعة حول الإطار الأسمنتي لتشغيل ميكانيزم المضخة، ولا تراك إلا بعدما تبدأ في تحريك الرافعة مجددًا. ثم تتجمد، وتحدقان أحدكما إلى الآخر.

إنها من الأغيار. لا يمكن أن يكون شخص فقد بيته حديثًا بهذه القذارة (جزء من عقلك يرد عليك: باستثناء الولد، لكن هناك فارقًا بين قذارة الكوارث وقذارة عدم الاستحمام). شعرها متلبد، ليس على نحو نظيف ممشط ومضفر مثل شعرك، لكن من الإهمال التام، إذ يتدلى من رأسها في كتل متعفنة غير متساوية. بشرتها مغطاة بوسخ الأرض؛ الأوساخ فيها عميقة، جزء لا يتجزأ منها. ثمة شيء من الحديد في هذا الوسخ، وقد صدئ من رطوبة جسمها، فصبغ نمط مسامها بالأحمر. بعض ملابسها جديدة -يسهل تخمين من أين حصلت عليها، نظرًا إلى كل ما تركه الهاربون من متاع خلفهم حول البيت- والصرة تحت قدميها هي واحدة من ثلاثٍ كل منها زاخرة بالمستلزمات، تتدلى منها القربة التي ملأتها. لكن رائحة جسدها عالية وقوية حتى إنك تتمنين أنها تأخذ كل تلك المياه كي تغتسل.

تطرف عيناها إليك وإلى هوّا، تقيمكما بسرعة وعمق، ثم بعد لحظة تهز كتفيها قليلًا وتتابع الضخ، فتملأ القربة الضخمة بضربتين، ثم تأخذ القربة وتغلقها، وتعلقها مرة أخرى في الصرة تحت قدميها، ثم تنتزع الصرر الثلاث -ببراعة تبهرك- وتلقيها على ظهرها. «تفضلي».

لقد رأيت أغيارًا من قبل بالطبع، مثلما رآهم الجميع. كانوا يعيشون في المدن التي ترغب في عمالة أرخص من الأشدّاء -وحيث نقابات الأشدّاء ضعيفة- في أحياء عشوائية ويتسولون في الشوارع. أما فيما عدا ذلك فهم يعيشون في المساحات

بين الكومونات، في الغابات وحواف الصحاري وما إلى ذلك، حيث يعيشون على صيد الطرائد وبناء المخيمات من الفتات. ومن يعافون ذلك العناء يغيرون على حقول وصوامع غلال وضواحي الكومونات البعيدة، ومن يحبون القتال منهم يغيرون على الكومونات ضعيفة الحماية ويقطعون الطريق في الأرباع الأدنى. لا يمانع محافظو الأرباع حدوث القليل من هذا، فهو يبقي عيون الجميع مفتوحة، ويُذكِّر مثيري القلاقل بالمصير الذي قد يؤولون إليه. لكن إن زادت السرقات أو الهجمات العنيفة، تُرسل المليشيات للقضاء على الأغيار.

لكن أيًّا من هذا لم يعد مهمًّا الآن. تقولين: «لا نريد المشاكل، جئنا لأجل الماء، مثلك بالضبط».

المرأة، التي كانت تنظر بفضول إلى هوّا، ترد نظرتها إليك. «لست أنا من قد يثير المشاكل»، وتغلق قربة أخرى كانت تملؤها بتروٍّ ملحوظ. «لكني لا زلت أحتاج إلى ملء قِرَب أخرى»، وتطوح ذقنها صوب حمولتك والقربة التي تتدلى منها، «لن تستغرق تلك وقتًا».

قِرَبها ضخمة بحق، وعلى الأرجح ثقيلة كجذوع الشجر. «هل تنتظرين قدوم أحد؟».

«لا»، تبتسم المرأة، كاشفة عن أسنان سليمة. لو أنها الآن من الأغيار، فهي لم تكن كذلك طوال عمرها، فهذه اللثة لم تشهد الكثير من سوء التغذية. «هل ستقتلينني؟».

عليك أن تعترفي بأنك لم تتوقعي منها ذلك.

يقول هوّا: «لا بد أن لها مكانًا قريبًا». يسعدك رؤية أنه واقف عند الباب ينظر إلى الخارج، لا يزال يراقب. ولد ذكي.

تقول المرأة بابتهاج: «نعم»، غير منزعجة من أنهما كشفا سرها المفضوح، «هل ستتبعانني؟».

تقولين بحسم: «لا، لسنا مهتمين بك. دعينا وشأننا وسندعك وشأنك».

«اطمئنا من ناحيتي».

تفكين قربتك وتقتربين من المضخة. ترتبكين، يفترض بالمضخة أن يشغلها شخص بينما يحمل شخص آخر الوعاء الذي يود ملأه.

تضع المرأة يدها على المضخة في عرض صامت للمساعدة. تومئين، فتضخ لك. تشربين أولًا، ثم يسود صمت مُوتَّر بينما تمتلئ القربة، شدة الأعصاب تدفعك إلى كسره. «لقد خاطرت كثيرًا بمجيئك إلى هنا. سيعود الجميع قريبًا على الأرجح».

«سيعود القليل لا الجميع، وليس قريبًا. وأنت أيضًا خاطرت نفس المخاطرة».

«صحيح».

تومئ المرأة تجاه كومة القرب الممتلئة، فترين متأخرًا أن... ما هذا؟ على فوهة أحد القرب ثمة أداة ما من العصي وأوراق الشجر الملتفة وقطعة سلك معقوف، ويصدر عنها طقطقة خافتة بينما تحدقين بها. «على أية حال أنا أقوم بتجربة».

«ماذا؟».

تهزّ كتفيها وتنظر إليك، وحينها تدركين أن لو كانت هذه المرأة أحد الأغيار العاديين فأنت إذن من الراكدين.

تقول: «تلك الهزة الشمالية كانت على الأقل من الدرجة التاسعة، بل وهذا فقط ما شعرنا به على السطح، فقد كانت عميقة أيضًا». تتوقف بغتة، تنحي رأسها بعيدًا عنك وتعبس، وكأنها سمعت شيئًا أربكها، مع أن لا شيء هناك غير الحائط، «لم أرَ قط هزة مثلها، لها نمط موجي غريب»، ثم تعيد تركيزها إليك، «لعلها اخترقت أيضًا العديد من طبقات المياه الجوفية. ستصلح نفسها مع الوقت طبعًا، لكن إلى أن يحدث ذلك لا أحد يعلم إلى أي حد قد تتلوث المياه. أعني... هذه منطقة مناسبة لبناء مدينة، صح؟ مسطحة وليست قريبة من أي خط هزات، ما يعني أن كانت هنا على الأرجح مدينة في وقت ما. هل لديك فكرة عن نوع المخلفات التي تتركها المدن خلفها عندما تموت؟».

تحدقين إليها، وهوّا كذلك. ثم يتوقف الشيء الذي في القربة عن الطقطقة، فتنحني المرأة وتحرره منها. كانت تتدلى منه شريحة من شيء ما في الماء (لحاء شجر؟).

تقول: «أمان»، ثم تدرك متأخرًا نظرتك المتسائلة، فتتجهم قليلًا وترفع الشريحة الصغيرة. «إنها مصنوعة من نفس النبات الذي يصنع منه الأمان. أتعرفينه؟ مشروب الترحيب؟ لكني عالجتها ببعض الإضافات، كي تكتشف أيضًا ما لا يلتقطه الأمان العادي».

تندفعين: «لا شيء...»، ثم تعودين إلى الصمت بعدم ارتياح بعدما تركز معك، لكن لم يعد لديك مناص من المتابعة. «أقصد... أن لا شيء لا يلتقطه الأمان قد يؤذي الناس». ذلك هو السبب الوحيد الذي يجعل الناس تشربه، فطعمه مثل الحمير المغلية.

الآن تبدو المرأة منزعجة. «هذا غير صحيح، أين تعلمت هذا بحق الصدأ؟»، هذا شيء كنت تدّرسينه في مدرسة تيريمو، لكن قبل أن تقولي هذا تنفجر: «لا يعمل الأمان كما ينبغي لو كان في محلول بارد، يعلم الجميع هذا. يجب أن يكون بدرجة حرارة الغرفة أو فاتر. وكذلك لا يلتقط الأشياء التي ستقتلك في عدة شهور بدلًا من عدة دقائق. ما فائدة أن تنجي اليوم، ثم يقع جلدك عنك في العام التالي؟».

تندفعين: «أنت جيومستية». لكن هذا مستحيل. لقد قابلت جيومستيين من قبل، وهم كل ما يحسبه الناس في الأوروچينيين عندما يحسنون الظن: غامضون، لا يُسبر لهم غور، حملة معرفة لا ينبغي أن يعرفها فان، مثيرون للقلق. لا أحد لديه كل هذا القدر من العلم الذي لا ينتفع به بهذا العمق مثل الجيومستيون.

«بالطبع لا»، تشدّ المرأة عودها وتكاد تنفجر غيظًا، «أنا أذكى من أنصت إلى أولئك الحمقى في الجامعة، أنا لست غبية».

تحملقين إليها مجددًا بحيرة بالغة. تفيض قربتك فتبحثين

عن غطائها. تتوقف المرأة عن الضخ ثم تدسّ أداتها اللحائية في أحد جيوب تنانيرها الضخمة، وتبدأ في فض أحد صررها الصغيرة تحت قدميها. حركاتها نشيطة وفعالة. تنتزع قربة بنفس حجم قربتك وتلقيها جانبًا، ثم تفرغ محتويات الصرة الصغيرة وتلقيها جانبًا أيضًا. عيناك تثبت على الصرة والقربة. كم سيكون الطريق أيسر لو صار الولد يحمل أغراضه بنفسه.

تقول المرأة: «مدي يدك إلى ما تريدين»، ومع أنها لا تنظر إليك، تدركين أنها وضعتهما جانبًا من أجلك، «أنا لن أظل هنا، ولا يفترض بك أن تظلي أيضًا».

تنحنين وتلتقطين القربة والصرة الصغيرة الخاوية. تساعدك المرأة مرة أخرى على ملء قربتك الجديدة، ثم تتابع الخوض في أغراضها. وبينما تربطين القربة والفراش القابل للطي الذي التقطته قبل قليل، وتنقلين بعض الأشياء من مخلاتك إلى الصرة الصغيرة ليحملها الولد، تقولين: «أتعلمين ما الذي حدث؟ من فعل ماذا؟»، وتشيرين إشارة مبهمة صوب الجهة التي جاء منها الصراخ الذي أيقظك.

تقول المرأة: «أشك أنه كان «من»». تلقي جانبًا عبوات طعام فسد، وقطعة لباس داخلي لطفل لعله كبير كفاية لهوّا، وكتب. من ذا الذي يضع كتبًا في مخلاة هروب؟ غير أن المرأة تلقي نظرة على عنوان أحدهم قبل أن تلقيه جانبًا. «لا يستجيب الناس بسرعة كالطبيعة للتغيرات المماثلة».

تعلقين القربة الثانية في مخلاتك، مؤقتًا، فأنت تعلمين أن ليس من الصواب جعل هوّا يحمل وزنًا أكثر من اللازم،

إنه مجرد طفل، بل وطفل متأخر النمو. تأخذين من كومة المخلفات التي تنمو إلى جوار المرأة أيضًا اللباس الداخلي عندما تدركين أنها لا تريده، ولا يبدو عليها الاهتمام.

تسألين: «ماذا تقصدين؟ أنه كان هجوم حيواني؟».

«أرأيت الجثة؟».

«لم أعلم أن ثمة جثة. صرخ الناس وركضوا، ففعلنا مثلهم».

تتنهد المرأة. «هذا لا يفتقر إلى الحكمة، لكنه يضيع عليك... الفرص». وكما لو أنها توضح مقصدها تطوح جانبًا صرة أخرى أفرغتها فورًا، وتنهض، تحمل على كتفيها الصرتين المتبقيتين. إحداهما تبدو أقدم وأريح من الأخرى: إنها مخلاتها. تستخدم حبلًا لربط القرب الثقيلة معًا، بشكل يعلقهم لصق ظهرها مستقرين على المنحنى غير الصغير لمؤخرتها، عوضًا عن التدلي بحرية مثلما تتدلى القرب عادة. تحدق إليكِ بغتة. «لا تتبعيني».

«تلك لم تكن نيتي». أمست الصرة الصغيرة جاهزة لمنحها لهوًا. تعلقين مخلاتك على ظهرك، وتتأكدين أن كل شيء محكم ومريح.

«أنا أعني ما أقول»، تنحني إلى الأمام قليلًا، وجهها أقرب للحيوانية من فرط شراسته، «أنت لا تعرفين إلى أين أنا عائدة، فلعلي أعيش في معسكر مغلق مع خمسين صدئ مثلي، ولعلنا نسن أسناننا وعندنا كتب وصفات لطبخ «الحمقى الممتلئين»».

«طيب طيب»، تتراجعين خطوة إلى الوراء، ويبدو أن هذا يهدئها. تتحول من الشراسة إلى الارتخاء وتتابع تهيئة حمولتها في أريح وضع. أنت أيضًا حصلت على ما تريدين، وحان وقت ذهابك من هنا. يبدو الولد سعيدًا بحمولته الجديدة عندما تعطينه إياها، فتساعدينه على حملها كما ينبغي. تمر بك امرأة الأغيار وهي ذاهبة، فيراودك أثر من ذاتك القديمة يجعلك تقولين: «شكرًا».

ترد مبتهجة: «عفوًا»، وتتجه صوب الباب، ثم تتوقف بغتة. تحدق إلى شيء ما، والنظرة على محياها تجعل الشعيرات على ظهر عنقك تنتصب. تتجهين إلى الباب بسرعة أيضًا، لترين ما ترى.

إنه كيركوزا، أحد تلك الكائنات الفروية طويلة الجسد، التي يستأنسها الناس بدلًا من الكلاب، عندما كانت الكلاب باهظة الثمن على الكل عدا الاستوائيين فاحشي الثراء. يشبه الكيركوزا ثعلب الماء أكثر من الكلبيات، ويمكن تدريبه، وتكلفته هينة إذ إنه لا يأكل سوى أوراق الشجيرات القصيرة والحشرات التي تنمو على جسده. بل وإنه ألطف حتى من الجرو في صغره... لكن هذا الكيركوزا ليس لطيفًا. إنه ضخم وصحيح البنية، لا يقل عن خمسين كيلوجرامًا، وأملس الفرو والبشرة. لا بد من أحدهم كان يحبه جدًّا، فلا يزال الطوق الجلدي الأنيق على رقبته. إنه يزمجر، وبينما ينسل من العشب إلى الطريق، ترين الآثار الحمراء على الفرو حول خطمه وكفوفه المخلبية الالتفافية.

تلك للآسف مشكلة الكيركوزا، وسبب بخس ثمنهم الشديد. إنهم يأكلون أوراق الشجر حتى يتذوقوا ما يكفي من الرماد الذي يحفز غريزة خاملة في أعماقهم في الظروف العادية، فيتغيرون. كل شيء يتغير في الموسم.

تهمسين: «خراء».

تتنفس امرأة الأغيار من بين أسنانها، وأنت تتوترين، تشعرين بوعيك ينسل بخفة إلى الأرض (تستعيدينه على غير عادتك. ليس أمام الآخرين، ليس ولا يزال أمامك خيارات أخرى). كان قد تحرك نحو حافة الأسفلت، حيث كان على الأرجح ينوي عبوره إلى المرج صوب صف الأشجار البعيدة. لكن ليس بعيدًا عن الطريق، في الناحية التي صرخ منها الناس من قبل، ترين العشب يتحرك بعنف، وتسمعين الجلبة المكتومة لكيركوزات آخرين يأكلون. كم عددهم؟ لا يمكنك حصرهم.

أما هذا فقد كان مستأنسًا من قبل. لعله يتذكر سيده السابق الذي كان يحبه، لعله يتردد عندما يهاجم رفاقه، فيفشل في الحصول على ما يزيد عن مذاق اللحم، الذي سيكون غذاءه الدائم حتى ينتهي الموسم. سيتضور جوعًا لو لم يتخلص من سلوكه المتحضر. يتراجع ويتقدم على الأسفلت، يبدو كما لو أنه يكلم نفسه متحيرًا، لكنه لا يغادر. لقد حاصرك أنت وهوّا وامرأة الأغيار بينما لا يزال يصارع ضميره. يا له من مسكين.

تثبتين قدميك وتهمسين إلى هوّا، وإلى المرأة لو كانت مستعدة للإنصات: «لا تتحركا».

لكن قبل أن تجدي شيئًا آمنًا تقترنين به، تكتل صخري يمكنك زحزحته أو مصدر ماء في وسعك إثارته، ما سيعطيك ذريعة لانتزاع الدفء من الهواء والحياة من هذا السنجاب الضخم، يلمحك هوّا ويتقدم إلى الأمام.

«قلت إن...»، لكنك عندما تشدّينه بكتفه لإعادته إلى الخلف لا يتزحزح، تنزلق يدك على جلد معطفه كما لو أنك تحاولين تحريك صخرة ترتدي معطفًا، وما تحت المعطف لا يتحرك قيد أنملة.

يموت اعتراضك داخل فمك بينما يتابع الولد التقدم. تدركين أنه ليس مجرد طفل لا يسمع الكلام، بل في وقفته عزيمة هائلة. لست حتى متأكدة إن كان قد لاحظ محاولتك لإيقافه.

ثم أمسى يواجه الكيركوزا الذي على بعد أقدام قليلة منه. يتوقف الكيركوزا عن الطواف، يقف متأهبًا وكأنه.. ثانية، ماذا؟ ليس وكأنه على وشك الهجوم، بل يخفض رأسه ويهز ذيله السميك بتوتر، في وضع دفاعي.

يتجه ظهر الولد إليك فلا ترين وجهه، لكن فجأة هيئته الضئيلة البريئة تبدو أقل ضآلة وبراءة. يرفع يدًا ويمدها نحو الكيركوزا، وكأنه يعرض عليه شمها، وكأنه لا يزال مستأنسًا.

والكيركوزا يهجم.

إنه سريع. تعلمين أن تلك الحيوانات سريعة في جميع الأحوال، لكنك ترين عضلاته ترتجف ثم في اللحظة التالية بات أقرب بخمسة أقدام، فمه مفتوح، وأسنانه مقفولة حول

ذراع الولد حتى منتصف ساعده. يا للأرض، ليس في وسعك النظر إلى هذا، لا تقدرين على مشاهدة طفل يموت أمامك مثل أوتشي، كيف تسمحين بحدوث كليهما؟ إنك أسوأ شخص في العالم كله.

لكن ربما لو ركزت تستطيعين تثليج الحيوان لا الولد. تخفضين ناظرك كي تركزي، بينما تشهق امرأة الأغيار ويتناثر دم الولد على الأسفلت. مراقبة هوّا يتمزق ستصعبها عليك، لكن ما يهم هو إنقاذ حياته حتى لو خسر ذراعًا. ثم...

يخيم الصمت.

ترفعين عينك.

توقف الكيركوزا عن الحركة. لا يزال حيث كان، أسنانه محكمة حول ذراع هوّا، وعيناه مشتعلة بـ... بما هو أقرب إلى الرعب منه للتوحش. بل إنه يرتجف قليلًا. تسمعينه يصدر أوهن الأصوات التي تموت في مهدها، ليس أكثر من صرير أجوف.

عندما يبدأ فرو الكيركوزا يتحرك (ماذا؟) تعبسين، تضيقين عينيك لكن الرؤية يسيرة بالفعل، فأنت قريبة من الوحش. كل شعرة في فرو الكيركوزا ترتجف في اتجاه مختلف في نفس الوقت، ثم يومض (ماذا؟)، ويتيبس. تدركين على حين غرة أن عضلاته ليست وحدها المتيبسة، بل والجلد الذي يغلفها أيضًا. وليس فقط متيبسًا... بل صلبًا.

ثم تلاحظين الآتي: أمسى الكيركوزا كله صلبًا.

ماذا!

لا تفهمين ما الذي ترينه، فتواصلين التحديق، تستوعبين بالتدريج. صارت عيناه زجاجية، ومخالبه بلورية، وأسنانه فتائل مغرة. حيثما كان في جسده حركة صار سكونًا، صارت عضلاته صلبة كالصخور، وهذا ليس مجازًا. فروه آخر جزء في جسده يتحول، يتلوى وكأنه بصيلات تتحول إلى شيء آخر.

أنت وامرأة الأغيار تحدقان.

يا للهول.

هذا كل ما تفكرين فيه، ليس لديك ما هو أفضل: يا للهول.

وإن كان يكفي لتحريكك على الأقل. تتقدمين حتى يصبح في وسعك رؤية المشهد كله من زاوية أفضل، لكن لا شيء في الواقع يتغير. لا يزال الفتى يبدو بخير، حتى مع أن ذراعه في منتصف الطريق إلى حلق هذا الشيء. ولا يزال الكيركوزا ميتًا. جميلًا وميتًا.

ينظر إليك، وتدركين فورًا تعاسته العميقة، وكأنه يشعر بأقصى العار. لماذا؟ لقد أنقذ حياتكم، حتى لو كانت طريقته... لا تعرفين في الواقع ماذا كانت.

تسألينه: «هل أنت من فعل هذا؟».

يخفض عينيه. «لم أكن أنوي أن أريك هذا... على الأقل الآن».

طيب، هذا شيء... ستفكرين فيه لاحقًا. «ما الذي

فعلته؟».

يحكم إغلاق فمه.

وانظروا من قرر أن يقطب جبينه الآن! لكن لعل الآن ليس الوقت المناسب لهذه المحادثة، لما كانت ذراعه لا تزال عالقة بين أسنان الوحش الزجاجية. اخترقت الأسنان جلده، وثمة دماء تتدفق وتقطر على الفك -الذي لم يعد كذلك- السفلي. «ذراعك. دعني...»، تنظرين حولك، «دعني أبحث عن شيء أحررك به».

يبدو هوّا وكأنه يتذكر ذراعه الآن فقط. ينظر إليك مرة أخرى، متألمًا من أنك لا زلت ترينه، ويتنهد يأسًا. ثم يحرك ذراعه قبل أن تحذريه أن أي حركة إضافية قد تعمِّق من جروحه.

تتهشم رأس الكيركوزا. تقع الكتل الضخمة من الصخر الثقيل على الأرض بصوت مكتوم، يتناثر الغبار المتألق. تنزف ذراع الولد أكثر، لكنه أمسى حرًّا. يحرك أصابعه قليلًا، أصابعه بخير. يخفض ذراعه إلى جانبه.

يثيرك جرحه، تتجهين إلى ذراعه لأن هذا شيء يمكنك استيعابه والتعامل معه. لكنه يسحبه بعيدًا بسرعة، يغطي آثاره بيده الأخرى. «هوّا، دعني...».

يقول برفق: «أنا بخير، لكن علينا أن نذهب».

لا يزال بقية الكيركوزات قريبين، مشغولين بنهش أحمق مسكين ما وسط الحشائش. لن تلهيهم الوجبة عنكم إلى الأبد. والأسوأ أنها مسألة وقت فقط قبل أن يقرر اليائسون

التحلي بالشجاعة والعودة إلى بيت الطريق من جديد، أملًا في أن الشر الذي اعتراه قد ذهب.

تفكرين في أن *الشر لا يزال هنا*، وأنت تنظرين إلى فك الكيركوزا السفلي المكسور. يمكنك رؤية بعض الأورام القديمة في آخر لسانه وقد صارت الآن بلورات لامعة. تلتفتين إلى هوّا الذي يحتضن ذراعه الدامية ويبدو بائسًا.

وهذا البؤس هو ما يزيح الخوف في داخلك أخيرًا ويستبدل به أشياء مألوفة. هل فعل ذلك لأنه لم يعلم أنك قادرة على الدفاع عن نفسك؟ أم لسبب آخر يتعذر عليك إدراكه؟ لا فارق في جميع الأحوال، ليس لديك أدنى فكرة عمَّا تفعلينه مع وحش قادر على تحويل كائنات الحياة إلى تماثيل، لكنك تعرفين ماذا تفعلين مع طفل حزين.

ولديك خبرة طويلة في التعامل مع أطفال هم في الواقع وحوش متخفية.

لذا تقدمين إليه يدك. يبدو هوّا متفاجئًا، يحدق إليها، ثم إليك، وترين في نظرته شيئًا إنسانيًّا بالكامل، وامتنانًا لتقبلك في هذه اللحظة. ما يشعرك بدورك بإنسانية أكثر، على نحو بديع.

يأخذ يدك. قبضته لم تضعف رغم الجراح، هكذا تشدينه معك بينما تدورين نحو الجنوب، وتشرعين في السير من جديد. امرأة الأغيار تتبعكما دونما كلمة، أو ربما تذهب في نفس الاتجاه، أو لعلها تعتقد أن في الكثرة قوة. لا يقول أيكم

أي شيء، لأن لا شيء هنالك يقال.

خلفكم، في السهول، تتابع الكيركوزات الأكل.

***

اتقوا ثلاثة: الارتكاز على صخرة سائبة، والغريب القوي، والصمت المباغت.

اللوح الأول - «عن النجاة» - البيت الثالث

١١

دامايا، في نظام المرتكز

للحياة في المرتكز نظام.

الاستيقاظ في الفجر. ولمَّا كانت دامايا تستيقظ فجرًا في المزرعة، سهل عليها ذلك. لكن بقية الحصى -وهذا ما هي الآن، حصاة عديمة الأهمية، جاهزة للتشذيب كي تتحول إلى شيء مفيد- يستيقظون عندما يدخل أحد المدربين العنبر ويدق جرسًا عاليًا علوًّا مؤلمًا، ما يجعلهم جميعًا يقفزون، حتى لو كانوا مستيقظين بالفعل. الكل يتأوه، حتى دامايا، وهي تحب ذلك، فهذا يجعلها تشعر جزءًا من كل.

يستيقظون ويعدّون أسرَّتهم، يطوون الأغطية بصرامة عسكرية، ثم يتهافتون على الاستحمام. وأماكن الاستحمام بيضاء ذات إضاءة كهربية تلمع على البلاط، وتفوح بروائح المنظفات العشبية، إذ يستجلب المرتكز عمال نظافة من الأشدّاء والأغيار من يومينِس والعشوائيات. لهذا ولأسباب أخرى أحبت الاستحمام. إنها لم يسنح لها استخدام المياه الساخنة كل يوم بهذا القدر، تهطل عليها بكميات ضخمة من ثقوب بالسقف مثل مطر جميل. تحاول ألا تبدي سعادتها، لأن بعض الحصى الآخرين استوائيون، وسيضحكون عليها؛ *الفلاحة أول مرة ترى الدش وتعرف النظافة السهلة*. وإن كانت في الواقع كذلك.

بعدها يتجه الحصى لغسل أسنانهم، ثم يعودون إلى عنابرهم

لتغيير ملابسهم والاعتناء بأنفسهم. زيهم الرسمي بنطال من قماش رمادي قاسٍ مع سترة ذات أشرطة سوداء، أولادًا كانوا أو بنات. الأطفال ذوو الشعور الطويلة المضفرة أو الخفيفة بما يكفي للتمشيط والشدّ إلى الوراء يجب عليهم فعل ذلك، وذوو الشعور العشوائية أو القصيرة أو رماد البراكين عليهم تشذيبها بأناقة. ثم يقف الحصى أمام أسرَّتهم، ينتظرون قدوم المدربين ومرورهم على الصفوف للتفتيش والتأكد من نظافة الحصى. يفحص المدربون أيضًا الأسرَّة، للتأكد من أن أحدًا لم يتبول في سريره أو يهمل في طي الجوانب. الحصى قليلو النظافة يُرسلون للاستحمام من جديد، لكن في حمام بارد هذه المرة، مع مراقبة المدرب لهم للتأكد من إتقانهم (دامايا تراعي ألا تضطر إلى هذا أبدًا، لأنه لا يبدو لها شيئًا ممتعًا). والحصى الذين لم يحسنوا اللبس أو التمشيط أو إعداد السرير، يُرسلون للتأديب، حيث يتلقون أشكال عقاب تناسب مخالفاتهم. الشعر غير الممشط يُعاقب بقص شعر صاحبه قصيرًا جدًّا، وإن تكررت المخالفة يُحلق حتى الصلع. الأسنان غير المغسولة تُجازى بغسل الفم بالصابون. والملابس غير الملائمة تستحق خمس جلدات على الظهر أو المؤخرة، والسرير غير المتقن عشر جلدات. لا تخترق الجلدات البشرة -تدرب المدربون جيدًا على الضرب بما يكفي- لكنها تترك أثرًا يفترض به أن يؤلم تحت قماش الزي الرسمي القاسي.

يقول المدربون لو احتج أي حصاة على هذه المعاملة: «أنتم ممثلون لنا جميعًا. لو كنت وسخًا فكل الأوروچينيين وسخون. لو كنت كسولًا فكلنا كسالى. لذا أوجعك كي لا تؤذي

بقيتنا».

كانت دامايا لتحتج على هذا التعسف في الأحكام. إن أطفال المرتكز مختلفون كل الاختلاف: مختلفون في السن واللون والشكل. بعضهم يتحدث باللسان السانزي بمختلف اللهجات، لما كانوا قد نشؤوا في أنحاء مختلفة من العالم. لدى إحدى البنات أسنان حادة، لأن من تقاليد عرقها سنّ الأسنان، وهناك بنت نادرًا ما أكلت طعامًا بانتظام من قبل، وتفترس الآن وجباتها وكأنها لا تزال تتضور جوعًا (يجد المدربون طوال الوقت طعامًا مُخبأ في سريرها، وعندها يرغمونها على أكله كله أمام الجميع، حتى لو جعلها ذلك تتقيًأ). لا يتوقع المرء إن استخدم عقله توقع

تماثل وسط كل هذا التباين، ولا معنى بالنسبة إلى دامايا أن يُحكم عليها بسبب سلوك أطفال لا يشاركونها شيئًا عدا لعنة الأوروچينية.

لكن دامايا صارت تفهم أن العالم ليس عادلًا. إنهم أوروچينيون، ميسالميون هذا العالم، وُلدوا وحوشًا ملعونين. هذه الحياة ضرورية ليظلوا آمنين. ولو أنها على أية حال التزمت بفعل ما يفترض بها فعله، لن يحدث لها شيء غير متوقع. فراشها ممتاز على الدوام، أسنانها بيضاء ونظيفة. وعندما تبدأ تنسى المهم، تنظر إلى يدها اليمنى، التي تنبح بالألم من حين إلى حين في الأيام الباردة، مع أن عظامها شفيت خلال بضعة أسابيع. تتذكر الوجع، والدرس الذي تعلمته.

بعد التفتيش يحين موعد الإفطار؛ أي ثمرة فاكهة وقطعة سجق على الطريقة السانزية، يوزع عليهم في بهو العنبر ويأكلونه في طريقهم. يمشون في مجموعات قصيرة لحضور دروسهم في قاعات المرتكز التي يسميها الحصى الأكبر سنًّا بوتقات، وإن كان لا يجب عليهم تسميتها بذلك (هناك العديد من الأشياء التي يقولها الحصى بعضهم لبعض ولا يمكنهم قولها للكبار. يعرف الكبار هذا لكنهم يتظاهرون بعدم المعرفة. العالم غير عادل، وأحيانًا بلا معنى).

يقضون أول ساعات اليوم في البوتقة الأولى ذات السقف، بصحبة ألواح الكتابة، ويلقي عليهم أحد مدربي المرتكز محاضرة. أحيانًا ما تكون هناك اختبارات شفهية، حيث تلقى الأسئلة المعدة مسبقًا على الحصى واحدًا تلو الآخر حتى يخطئ أحدهم، وعلى الحصاة المخطئة تنظيف ألواح الكتابة. هكذا يتعلمون العمل بهدوء تحت الضغط.

«ماذا كان اسم أول إمبراطور لسانزا القديمة؟».

«هزة في إرتا نتج منها موجات ضغط في الساعة ٦:٣٥ وسبع ثوانٍ، وموجات اهتزازية في الساعة ٦:٣٧ وسبع وعشرين ثانية. احسب زمن التأخير». تزداد الأسئلة تعقيدًا للحصى الأكبر سنًّا، إذ تكون عن اللوغاريتمات والدوال.

«يقول قول الحجر: «ابحث عن مركز الدائرة». ما المغالطة في هذه العبارة؟».

يباغت هذا السؤال دامايا ذات يوم، فتقف كي تجيب:

«توضح هذه العبارة أن في وسع المرء تقدير موقع أوروچيني باستخدام خريطة. وهي عبارة خاطئة، أو أبسط من اللازم، لأن نطاق استهلاك الأوروچيني ليس دائريًّا، بل حلقيًّا. لا يفهم كثير من الناس أن مجال التأثير قد يمتد إلى تحت أو إلى فوق أيضًا، ويمكن أيضًا أن يشكله الأوروچيني الماهر أشكالًا ثلاثية الأبعاد».

يومئ المدرب ماركسَيت موافقًا، ما يشعرها بالفخر. تحب أن تكون محقة. يتابع ماركسيت: «وبما إن قول الصخر كان ليصعب حفظه لو امتلأ بأقوال مثل «ابحث عن المقلوب المرتكزي لنطاق القدرة المخروطي»، تُستخدم المراكز والدوائر للتبسيط. تُضحى بالدقة لأجل الشاعرية».

هذا يجعل الفصل يضحك مع أنه ليس بمضحك، لكن شدة الأعصاب تكون على آخرها في أيام الاختبارات.

بعد المحاضرات يحين موعد الغداء في الساحة المفتوحة المخصصة لهذه الغاية. للساحة سقف من الشرائح القماشية المعالَجة بالزيت مثبتة على قضبان، كي يمكن مده في الأيام الممطرة. قلما تشهد يومينِس مطرًا لبعدها الكبير عن الساحل. هكذا يجلس الحصى عادةً إلى الموائد على مصاطب طويلة تحت سماء زرقاء مشرقة، ويتبادلون الضحك والركل والألقاب. الطعام هنا كثير ليعوض الإفطار الخفيف، ومتنوع ولذيذ وغني، وإن كان أغلبه يأتي من أماكن بعيدة ولا تعرف دامايا اسمه (لكنها تأكل نصيبها كل مرة. علمتها موه العزيزة ألا تضيع الطعام أبدًا).

وهذا وقت دامايا المفضل من اليوم، مع أنها من الحصى الذين يجلسون وحدهم إلى مائدة خاوية. لاحظت أن هناك كثيرًا من الأطفال على هذا النحو، أكثر بكثير من أن تتجاهلهم باعتبارهم من الفاشلين في صنع الصداقات. يتسمون بتلك الهيئة التي سرعان ما ميزتها؛ يتحركون خفية، وفيهم تردد، ويرتسم حول أعينهم وفي خطوط ذقونهم التوتر. تظهر على بعضهم آثار حيواتهم القديمة بوضوح، هناك مثلًا ذلك الفتى رمادي الشعر من الساحل الغربي الذي يفتقر إلى ذراعه من فوق المرفق، وإن كان بارعًا كفاية لتسيير أموره من دونها. وهناك تلك الفتاة السانزية الأكبر بخمسة أعوام تقريبًا، التي يعجّ أحد جانبي وجهها بندوب ملتوية من حروق قديمة. ثم هناك تلك الحصاة الجديدة، أجدد حتى من دامايا، التي يلف معصم يدها اليسرى رباط جلدي خاص مثل قفاز بلا أصابع. تعرف دامايا هذا الرباط، لأنها ارتدت مثله عندما كانت يدها تتعافى، خلال أسابيعها الأولى في المرتكز.

لا يتبادلون النظر كثيرًا، هي وكل من يفضلون صحبة أنفسهم.

بعد الغداء يخرج الحصى إلى حديقة الخاتم في صفوف طويلة صامتة، تحت إشراف المدربين كيلا يتحدثوا مع الأوروچينيين الكبار أو يحدقوا إليهم بوضوح. دامايا تحدق إليهم طبعًا، لأن هذا ما يفترض بهم فعله. إن رؤيتهم لما ينتظرهم ما إن يبدؤوا في استحقاق الخواتم لأمر هام. الحديقة أعجوبة، وكذلك الأوروچينيون. أوروچينيون كبار وشيوخ

من كل نوع، كلهم حسنو الهيئة وأصحاء الجسد، وواثقون بأنفسهم، ما يجعلهم أجمل. يتبخترون في أزيائهم الموحدة السوداء ونعالهم اللامعة، وأصابعهم ذات الخواتم تنقر وتلمع عندما يلوحون بها بحرية، أو يقلبون صفحات الكتب التي يقرؤونها خيارًا لا اضطرارًا، أو يمشطون خصلات شعر أحبتهم الشاردة إلى خلف آذانهم.

ترى دامايا فيهم شيئًا لا تفهمه في البداية، لكنها ترغبه بكل جوارحها إلى حدّ يفاجئها ويثير أعصابها. ومع مرور تلك الأسابيع الأولى وتحولها إلى شهور، وتعودها على ذلك الروتين، تبدأ تستوعب أن الذي تراه في كبار الأوروچينيين هو التحكم. لن تثلج أوروچينية ذات خواتم الساحة لأن ولدًا ما دفعها. لن يطرف لأي من المحترفين ذوي الأزياء السوداء أولئك جفن، لا من هزة أرضية ولا من رفض عائلي. لقد عرفوا أنفسهم وتقبلوا ما يعنيه ذلك ولم يعودوا يخشون شيئًا، لا الراكدون ولا أنفسهم، ولا حتى الأرض العجوز.

كي تبلغ دامايا هذه الغاية، عليها تحمل كسر بعض العظام، أو قضاء بعض الأعوام في مكان لا يحبها فيه احد أو حتى يهتم بأمرها. ثمن زهيد.

ولهذا تنغمس بالكامل بعد الظهيرة في التدريب على الأوروچينية التطبيقية. في بوتقات التدريب، الكامنة في أضيق حلقة من مجمع المرتكز، تقف دامايا في صف مع غيرها من الحصى المساويين لها في مستوى الخبرة. تتعلم هناك تحت أعين المدربين المراقبة كيف تتخيل وتتنفس، وكيف تمدّ وعيها

إلى الأرض بإرادتها، وليس كرد فعل غير مقصود على تحركاته أو نتيجة لثورتها. وتتعلم التحكم في ثوراتها، وكل مشاعرها التي قد تحثّ قدراتها على الاستجابة لمخاطر وهمية. ليس لدى الحصى في تلك المرحلة تحكم دقيق، لذا لا يسمح لأي منهم بتحريك أي شيء. يستطيع المدرب بطريقة ما استشعار أن أحدهم على وشك أن يفعل، ولأن المدربين كلهم حملة خواتم يستطيعون اختراق أي نطاق قدرة ناشئ على نحو لا تزال دامايا عاجزة عن فهمه، والرد بصفعة خاطفة لاسعة من الهواء البارد على سبيل التحذير. هذه تذكرة بجدية الدروس، وتعطي بعض المصداقية للإشاعة التي يهمس بها الحصى الأكبر سنًّا في الظلام بعد انطفاء الأنوار. *لو كثرت أخطاؤك في الفصل، المدربون سيثلجونك.*

سنوات طويلة ستمر قبل أن تعي دامايا أن عندما يقتل المدربون طالبًا ضالًّا، فذلك ليس عقابًا، وإنما رحمة.

بعد التطبيقية يحين وقت العشاء وساعة حرة، وهو الوقت الذي يسنح لهم فيه فعل ما يريدون، ينالون هذه الساعة إكرامًا لسنهم الصغيرة. عادة ما يلقي الوافدون الجدد في تلك الساعة بأنفسهم في الفراش مبكرًا، وقد أنهكهم مجهود تعلم التحكم بعضلات غير مرئية وغير طوعية. أما الأطفال الأكبر سنًّا فلديهم سعة وطاقة أكبر، فيتبادلون الضحك واللعب حول مهاجع العنبر لبعض الوقت، قبل أن يطفئ المدربون الأنوار. وفي اليوم التالي، تتكرر الدورة.

هكذا مر عليها ستة أشهر.

***

يقترب من دامايا حصاة أكبر سنًّا ساعة الغداء. فتى طويل واستوائي، وإن كان لا يبدو سانزيًّا كل السانزية. لشعره ملمس رماد براكيني، لكن لونه أشقر مثل سكان الأصقاع النائية. أكتافه عريضة وعضلاته نامية كما الأشدّاء، ما يقلقها على الفور. لا تزال ترى زاب في كل مكان.

لكن الفتى يبتسم، ولا يبدو في سلوكه أي خبث بينما يقف إلى جوار المائدة التي تسكنها وحدها. «أيمكنني الجلوس؟».

تهز كتفيها، لا تريده أن يجلس لكن فضولها يغلبها. يضع صحيفته ويجلس. يقول: «أنا أركيتى».

تجيب: «هذا ليس اسمك»، فتهتز ابتسامته قليلًا.

يقول بجدية أكثر: «هذا هو الاسم الذي منحني إياه أبواي، وهو الاسم الذي أنوي الاحتفاظ به حتى يجدوا طريقة لانتزاعه مني، وهو شيء لن يحدث لأنه، كما تعرفين، اسم. لكن لو تفضلين، في وسعك مناداتي باسمي الرسمي: مشيش».

أفضل أنواع الزبرجد، ذلك الذي يُستخدم حصريًّا تقريبًا في الفن. يناسبه الاسم، إنه فتى وسيم رغم أصوله الأركتيكية أو الأنتاركتيكية الواضحة (لا تهتم بهذا، لكن الاستوائيين يهتمون)، وهذا يجعله خطيرًا كما هم دومًا الفتية الضخام الوسيمون. تقرر أن تدعوه مشيش لهذا السبب. «ماذا تريد؟».

«على رسلك، لا عجب أنك لست الأكثر شعبية». يشرع مشيش يأكل، مريحًا مرفقيه على المائدة بينما يمضغ (لكنه

ينظر ليتأكد من عدم وجود مدربين هنا قد يوبخونه على ذلك قبل أن يفعل). «أنت تعرفين بالطبع كيف يجب أن تمضي الأمور، أليس كذلك؟ الولد الوسيم المشهور يبدي فجأة اهتمامًا بالبنت الريفية العادية. يكرهها الجميع لذلك، لكنها تبدأ تثق بنفسها. ثم يخونها الولد ويندم على ذلك. هذا مربع، لكنها «تجد نفسها» بعد ذلك وتدرك أنها لا تحتاج إليه، وربما تحدث أشياء أخرى»، ويحرك أصابعه في الهواء، «وفجأة تتحول إلى أجمل فتاة ممكنة لأنها صارت تحب نفسها. لكن كل هذا لن يحدث لو لم تتلعثمي وتحمر وجنتاك وتتظاهرين بأني لا أعجبك». يعتريها الارتباك من سَلَطَة الكلمات هذه، وتنزعج كثيرًا حتى تقول: «أنت لا تعجبني».

«أي»، ويتظاهر بأنه طُعن في قلبه. هزله يجعل دامايا ترتخي قليلًا، رغمًا عنها. فيبتسم بدوره. «آها، هكذا أفضل. ماذا بك؟ ألا تقرأين الكتب؟ ألم يكن عندكم قوالون في الحفرة الأوسطية التي جئت منها؟».

إنها لا تقرأ الكتب لأنها لا تحسن القراءة بعد. علمها والداها ما يكفي فقط لتسيير أمورها، وقد كلفها المدربون بحمية قراءة أسبوعية لتحسين مهاراتها في تلك المنطقة. لكنها لن تعترف بهذا. «كان عندنا قوالون طبعًا، علمونا قول الحجر وعلمونا كيف نستعد للـ...».

«آخ، قصدت قوالين حقيقيين»، يهز الفتى رأسه، «لم يكن يسمع لقوالينك هؤلاء إلا معلمو المدرسة والجيومستيون المضجرون. أما هوى الجميع فعلًا فكان مع القوالين

الشعبيين، أتعرفينهم؟ الذين يؤدون في المسارح والحانات؟ قصصهم لا تعلم أي دروس، بل هي فقط للمتعة».

داميا لم تسمع بمثل هؤلاء قط، لكن لعلهم بدعة استوائية لم تبلغ الشمال الأوسط. «لكن القوالين يحكون قول الحجر، ذلك هو الهدف الرئيسي من وجودهم. ما دام أولئك الناس لا يفعلون ذلك، لماذا لا يُسمون أنفسهم شيئًا آخر؟».

«ربما»، يهز كتفيه ويمد يده فيسرق قطعة جبن من طبقها، وهي مضطربة تمامًا بموضوع القوالين الشعبيين هذا حد أنها لا تعترض. «كان القوالون الحقيقيون يشتكون منهم للقيادة اليومينِسية، لكن هذا كل ما أعرفه عن الأمر، فقد جاءوا بي إلى هنا منذ عامين ولم أسمع عنهم شيئًا من وقتها»، يتنهد، «بصراحة أتمنى ألا يزول القوالون الشعبيون، فأنا أحبهم، حتى لو كانت بعض قصصهم ساذجة ومتوقعة. قصصهم طبعًا تحدث في مدارس حقيقية، لا في أماكن كهذه». ينكمش ركنا شفتيه بينما ينظر حوله بإحباط واهن.

مع أن داميا تعرف جيدًا ما يقصد، تسأله لأنها تود معرفة ما سيقول. «أماكن كهذه؟».

تعود عيناه لتستقرا فوق عينيها، ويكشف عن أسنانه بابتسامة لا شك في أنها تثير في الناس الافتتان أكثر من التوجس، يقول: «أوه، كما تعرفين، أعني أماكن جميلة بديعة ممتازة مليئة بالحب والنور».

تضحك داميا، ثم توقف نفسها، ثم لا تفهم لماذا فعلت

ذلك.

«نعم»، يتابع الفتى الأكل بتلذذ، «أنا أيضًا احتجت إلى بعض الوقت حتى ضحكت عندما جئت هنا».

يعجبها، قليلًا، بعد هذا التصريح.

تدرك بعد بعض الوقت أنه لا يريد شيئًا. بل هو فقط يثير أحاديث خفيفة ويأكل أكلها، ولا تمانع ذلك لما كانت على وشك الانتهاء في جميع الأحوال. لا يبدو أنه يمانع مناداتها له بمشيش. ما زالت لا تثق به، لكنه يبدو كمن يبحث فقط عمن يتحدث معه، وهو شيء تتفهمه.

في النهاية ينهض، ويشكرها على «هذه المحادثة المتألقة»، والتي كانت أحادية الجانب بالكامل تقريبًا، ثم يذهب لينضم إلى أصدقائه. وتخرج الأمر من دماغها لبقية اليوم.

لولا أن شيئًا ما، في اليوم التالي، يتغير.

وقت الاستحمام في الصباح التالي، يصطدم بها أحدهم بقوة أوقعت منها منشفتها. عندما التفتت حولها، لم يكن أي من الأولاد أو البنات الذين يشاركونها الاستحمام ينظر نحوها أو يعتذر. تعزو ما حدث إلى حادثة.

لكنها عندما تنتهي من الاستحمام تجد أن حذاءها قد سُرق. كان الحذاء مع ملابسها التي جهزتها قبل الاستحمام ووضعتها على الفراش لتسرع من عملية ارتداء الملابس. تفعل هذا كل صباح، لكن حذاءها الآن ضاع.

تبحث عن الحذاء بدقة، تحاول أن تتأكد من أنها لم تنسه في مكان ما، مع أنها تعرف يقينًا أنها لم تنسه. وعندما تنظر حولها إلى بقية الحصى، الذين يتحاشون النظر إليها تحاشيًا بينما ينادي المدربون أن وقت التفتيش قد حان، وتجد أن لا يسعها شيء سوى خوض التفتيش بزيها المحكم وقدميها العاريتين، تعلم ما الذي يحدث.

لا تجتاز التفتيش وتُعاقب بالفرك بالفرشاة، ما يجعل كعبيها يلسعانها بقية اليوم داخل الحذاء الجديد الذي تلقته.

وتلك لم تكن إلا البداية.

عند العشاء في ذلك المساء، وضع أحدهم في عصيرها شيئًا ما. يُكلف الحصى سيئو السلوك على موائد الطعام بمهام المطبخ، ما يعني قدرتهم على الوصول إلى طعام الجميع. تتجاهل ذلك ولا تفكر في طعم العصير الغريب، حتى يتعذر عليها التركيز ويؤلمها رأسها. تظل لا تفهم ما الذي يحدث حتى وهي تتعثر وتترنح إبان عودتها إلى العنبر. يوقفها أحد المدربين مرتابًا في افتقارها إلى التوازن، ويتشمم أنفاسها. يسألها: «كم شربتِ؟».

داما يا تعبس، متحيرة في البداية، لأنها لم تشرب إلا عصيرًا بالحجم العادي. سبب تأخر فهمها هو أنها ثملة، لقد وضع أحدهم خمرًا في عصيرها.

لا يفترض بالأوروچينيين أن يشربوا الخمر أبدًا. القدرة على تحريك الجبال زائد السكر تساوي كارثة تنتظر الوقوع.

المدرب الذي أوقف دامايا هو جالينا، أحد ذوي الخواتم الأربعة القائمين على تدريبات الأوروچينية المسائية. إنه عديم الرحمة في البوتقة، لكنه لسبب ما يشفق عليها الآن. يأخذها من الصف ويعيدها إلى عنبرها الذي كان لحسن الحظ قريبًا. يضع دامايا على أريكة ويأمرها بالنوم.

في الصباح، بينما دامايا تشرب الماء وتجفل من المذاق المريع في فمها، يجلس جالينا إلى جوارها ويقول: «عليك أن تتعاملي مع هذا الآن. لو أمسكك أحد المشرفين على هذا الشكل...»، يهز رأسه. إنها مخالفة هائلة حتى أن ليس لها عقاب معين. سيكون عقابها مريعًا، هذا كل ما يحتاج كلاهما إلى معرفته.

السبب الذي دعا بقية الحصى إلى التنمر عليها لا يهم، كل ما يهم الآن هو أنهم يفعلون، وهذه ليست مقالب آمنة. إنهم يحاولون التسبب في تثليجها. جالينا محق، على دامايا أن تتعامل مع ذلك، الآن.

تقرر أنها في حاجة إلى حليف.

لاحظت من قبل بنتًا أخرى بين المنعزلين. لاحظها الجميع. بها خطب ما. أوروچينتها مضطربة، مكبوتة، مثل خنجر مستعد لطعن الأرض. والتدريب جعلها أسوأ، لأنه جعل الخنجر أحدّ. لا يفترض بهذا أن يحدث. اسمها سيلو، ولم تستحق أو تنل بعد اسمًا أوروچينيًا. لكن بقية الحصى يسمونها الشرخ، يحسبون هذا مضحكًا، وعلق بها الاسم. بل إنها صارت ترد على من يناديها به، لما كانت على ما يبدو

غير قادرة على منعهم من استخدامه.

الكل يقول إنها لن تفلح، ما يجعلها ممتازة.

تراود دامايا الشرخ أثناء الإفطار في الصباح التالي (لم تعد تشرب إلا الماء الذي تأتي به بنفسها من صنبور قريب. لا يزال عليها تناول الطعام المقدم إليها، لكنها تفحصه بعناية قبل أن تضعه في فمها). تقول: «أهلًا»، وهي تضع صحيفتها على المائدة.

ترمقها الشرخ بالنظرات. «هل ساءت أمورك إلى حد أنك تحتاجينني؟ أنا؟».

تلك الصراحة المباشرة علامة جيدة. تقول دامايا «نعم»، وتجلس طالما لم تمانع الشرخ بوضوح. «إنهم يلعبون بك أيضًا، أليس كذلك؟». دامايا لا تعرف بالضبط ما الذي يفعلونه بها، لكنهم بلا شك يفعلون. ثمة نظام للحياة في المرتكز.

تتنهد الشرخ. هذا يجعل المكان يرتجف ارتجافًا بسيطًا، أو هكذا تشعر دامايا للحظة. دامايا تتماسك كيلا يبدو عليها التأثر، فالشراكة السليمة لا تبدأ بإبداء الخوف. ترى الشرخ ذلك وترتخي، قليلًا. الإحساس بالكارثة الوشيكة يتراجع.

تقول الشرخ بخفوت: «نعم». تدرك دامايا فجأة أن الشرخ غاضبة، وإن كانت تبقي نظرتها إلى طبقها. يبدو هذا من قبضتها المشدودة على شوكتها، ومن التعبير الخاوي تمامًا على وجهها. تتساءل دامايا عندها: هل تحكم الشرخ هو

المشكلة فعلًا؟ أو أن معذبيها ببساطة بذلوا أقصى ما عندهم لجعلها تنشرخ فعلًا؟ «ما الذي تريدين فعله؟».

توضح دامايا خطتها، وبعدما تجفل الشرخ في البداية، تدرك أنها جادة. يتابعان الأكل في صمت بينما تفكر الشرخ فيما سمعت. تقول في النهاية: «أنا معك».

الخطة في الواقع بسيطة. هما في حاجة إلى إيجاد رأس الأفعى، وأفضل وسيلة لهذا هي وضع طعم. قررتا البدء بمشيش، لأنه متورط بكل تأكيد. لم تبدأ مشاكل دامايا إلا بعد اقترابه الودود ظاهريًّا. انتظرتا حتى صار في الاستحمام ذات صباح يمزح مع أصدقائه، وعادت عندها دامايا إلى سريرها. سألت عاليًا: «أين حذائي؟».

ينظر بقية الحصى حولهم، وبعضهم يتأوه، جاهز لتصديق أن قريحة المتنمرين فقيرة حتى أنهم كرروا نفس الخدعة مرتين. لكن جاسبر، الذي لم يكن أقدم من دامايا في المرتكز إلا بعدة أشهر، يكفهر. يقول: «لم يأخذ أحد حذاءك هذه المرة، إنه في صندوقك».

«كيف تعرف ذلك؟ هل *أنت* من أخذه؟». تتحرك دامايا لتواجهه، فينتفض ويلاقيها في منتصف الغرفة، بكتفين متراجعتين من الإحساس بالمهانة.

«أنا لم آخذ خراءك، لو ضاع فأنت من أضاعه».

«أنا لا أضيع شيئًا»، تكزه في صدره بإصبعها. إنه شمال أوسطي مثلها، لكنه نحيل وشاحب، لعله قريب من الأركتيكا.

يحمر وجهه عندما يغضب، يسخر منه الآخرون لهذا، لكن ليس كثيرًا، لأنه يضايق غيره بصوت أعلى (الأوروپينية السليمة إعادة توجيه، لا كبح). «لو أنك لم تأخذه، فأنت تعلم من أخذهم». تكزِه مجددًا، فيطيح بيدها بعيدًا.

«لا تلمسيني أيتها الخنزيرة الغبية الصغيرة، وإلا سأكسر إصبعك الصدئ».

«ماذا يحدث؟».

يقفز الجميع ويخرسون ويلتفتون. الواقف في المدخل جاهز لبدء التفتيش المسائي هو كارنيليان، أحد المشرفين الكبار القلائل بين المدربين. إنه رجل كبير، ملتحٍ ومُسن وشديد، وذو ستة خواتم، ويخشاه الجميع. لذا هرع الحصى جميعًا إلى أسرتهم ووقفوا انتباهًا. شعرت دامايا رغمًا عنها ببعض الخوف، ذلك حتى لمحت نظرة الشرخ وإيماءتها الصغيرة. كان هذا التمويه كافيًا.

«قلت ماذا يحدث؟»، يخطو كارنيليان داخل الغرفة ما إن صار الحصى في أماكنهم. يولي تركيزه إلى جاسبر الذي لا يزال أحمر كتفاحة، وإن كان توريده صار خوفًا على الأرجح لا غضبًا. «هل هناك مشكلة؟».

يحدق جاسبر إلى دامايا. «ليست مشكلتي يا سيدي».

عندما يلتفت كارنيليان صوبها، يجدها مستعدة. «سرق أحدهم حذائي يا سيدي».

«ثانيًا؟». هذه علامة جيدة. كارنيليان في المرة السابقة

وبخها على إضاعتها لحذائها واختراع الأعذار. «ألديك دليل على أن جاسبر هو من سرق؟».

ذلك هو الجزء الصعب، لم تكن ماهرة في الكذب قط. «أعلم أنه كان ولدًا. اختفى الحذاء أثناء الاستحمام، وكانت البنات جميعًا معي هناك. لقد أحصيتهن».

كارنيليان يتنهد. «لو اتضح أنك تلومين غيرك على غلطتك...».

قالت صهباء من الساحل الشرقي: «إنها تفعل ذلك طوال الوقت».

قال ولد يبدو وكأنه من نفس الكومونة، ما لم يكن قريبًا مباشرًا للصهباء: «إنها مليئة بالغلطات». يضحك نصف الحصى سرًّا.

تتحدث دامايا فوق ضحكهم: «فتش صناديق الأولاد». هذا شيء لم تفعله في المرة السابقة، لأنها لم تعلم يقينًا أين الحذاء، لكنها هذه المرة تعلم. «لم يُتَح للسارق وقت يكفي للتخلص منه، لا بد أنه هنا، انظر في صناديقهم».

قال ولد استوائي ضئيل يبدو وكأنه خرج من الحضانة بالأمس فقط: «هذا ظلم».

يقول كارنيليان: «لا، ليس ظلمًا»، ثم يقطب حاجبيه وهو ينظر إليها، «تأكدي من كلامك قبل أن تطلبي مني اقتحام خصوصية زملائك المتدربين. لو اتضح أنك مخطئة، فلن نتساهل معك هذه المرة».

لا تزال تتذكر لسعة القدم المفروكة بالفرشاة. «أفهم يا سيدي».

كارنيليان يتنهد، ثم يلتفت ناحية الصبيان من العنبر. «افتحوا صناديقكم جميعًا، لننتهِ من هذا».

يتعالى التذمر بينما يفتحون صناديقهم، وتنهال التحديقات الساخطة على دامايا التي تعلم أنها تزيد الطين على نفسها بلة. باتوا جميعًا يكرهونها الآن، ولا بأس بهذا، طالما سيكرهونها في جميع الأحوال، من الأفضل أن يكون هناك سبب. لكن لعل هذا يتغير ما إن تنجح لعبتها.

يفتح مشيش صندوقه مع البقية متنهدًا بعمق، وها هو حذاؤها فوق ملابسه المطوية. عندما ترى دامايا التعبير على وجه يتحول من الانزعاج إلى الارتباك إلى الذعر التام، تشعر بالسوء. إنها لا تحب أن تؤذي الآخرين. لكنها تراقبه عن كثب، وفي اللحظة التي يتحول فيها ذعره إلى سخط هائل يطوح نظره عبر الغرفة ويحدق إلى أحدهم. تتبع نظرته بتوتر، واستعداد...

...فترى أنه ينظر إلى جاسبر. نعم، هذا ما توقعته. إنه الفاعل إذن.

أما جاسبر فيشحب تمامًا. يهزّ رأسه وكأنما يحاول نفض نظرة مشيش المتهمة عنه، بلا جدوى.

عندما يرى المدرب كارنيليان ذلك يلتوي فكه وهو ينظر إلى دامايا مجددًا، يكاد يكون غاضبًا منها. لكن لماذا؟ عليه أن

يفهم أنها كانت مضطرة إلى فعل هذا.

يقول: «أرى ذلك»، وكأنه كان يرد على أفكارها. ثم يركز مع مشيش: «هل لديك ما تدافع به عن نفسك؟».

مشيش لا يحاجُّ ببراءته، ترى في انكماش كتفيه واهتزاز قبضتيه إدراكه أن لا جدوى من هذا. لكنه لن يقع وحده. يقول ورأسه منخفض: «جاسبر هو من أخذ حذاءها المرة السابقة».

«لم أفعل!». يتراجع جاسبر بعنف عن سريره وصف التفتيش في منتصف الغرفة، جسده يرتجف بالكامل، حتى عيناه ترتجفان، ويبدو على حافة البكاء. «إنه يكذب، يحاول أن يلقي ذنبه على غيره...»، لكن عندما يلتفت كارنيليان إلى جاسبر، يجفل جاسبر ثم يتجمد. كلماته التالية تخرج منه أشبه بالبصاق: «هذه من باعتهم من أجلي، قايضتهم مع أحد أغيار النظافة مقابل الخمر».

وأشار إلى الشرخ.

دامايا تشهق، الصدمة تغمرها بالكامل. الشرخ؟

الشرخ.

تكور الشرخ قبضتيها: «يا بن الكانيبالي الصدئ العاهر! لقد تركت ذلك المنحرف العجوز يتحسسك مقابل الخمر والخطاب، لقد عرفت جيدًا أنه لن يعطيهما لنا مقابل مجرد حذاء...».

«كان خطابًا من أمي!»، صار يبكي بوضوح، «لم أرده أن

يفعل بي هذا... لكني لم أستطع... إنهم لا يسمحون لي بالكتابة لها...».

«بل أعجبك هذا»، ضحكت الشرخ ساخرة، «أخبرتك أني سأقول لو أنك قلت شيئًا، ألم أفعل؟ لقد رأيتك، أنت تأوهت كالمستمتع، مثل مستولدة صغيرة، عدا أن للمستولدات معايير، أما...».

هذا خطأ، كل هذا خطأ. الكل يحدق إلى الكل، في الشرخ التي تصرخ، وفي دامايا، وفي جاسبر الذي ينتحب، وفي كارنيليان. امتلأت الغرفة بالشهقات والهمهمات. وعاد ذلك الشعور مرة أخرى: تلك الارتجافة المكبوتة المشحونة، أوروچينية الشرخ تكشف عن نفسها، وكل من في الغرفة يرتجفون معها. أو لعلهم يرتجفون من الكلمات وما تعنيه، لأن هذه أشياء لا يفترض بالحصى أن يعرفوها، ولا يفعلونها. لا بأس من التورط في بعض المشاكل، إنهم أطفال والأطفال يرتكبون الأخطاء. لكن التورط في مشاكل كهذه، لا.

«لا!»، جاسبر يصرخ بالكلمة في الشرخ، «قلت لك أن تكتمي السر!»، بات نحيبه عاليًا. فمه يتحرك لكن لا يخرج منه شيء مفهوم، لا شيء سوى أنين منخفض يائس، أو لعله استمرار لكلمة (لا). يصعب تمييز ما يقول لأن الجميع يثيرون الصخب، منهم من يصرخ في الشرخ همسًا أن تخرس، ومنهم من يبكي مع جاسبر، ومنهم من يضحك بتوتر من دموع جاسبر، وبعضهم يتهامسون مع بعض للتأكد مما سمعوه لكنهم غير قادرين على تصديقه...

«كفى». يخرس كل من في العنبر بعد أمر كارنيليان، إلا من شهيق جاسبر الخافت. وبعد لحظة يلتوي فك كارنيليان. «أنت وأنت وأنتِ»، مشيرًا إلى مشيش وجاسبر والشرخ، «تعالوا معي».

يخرج من الغرفة. تتبادل الحصوات الثلاثة النظر، ومن العجيب أن أحدهم لم يشتعل من فرط الكراهية التي تحملها نظراتهم. ثم يلعن مشيش ويمشي متبعًا كارنيليان، وجاسبر يمسح وجهه بساعده ويتبع مشيش، رأسه متدلٍّ وقبضتاه محكمتان. الشرخ تنظر في أرجاء الغرفة متحدية، حتى تلاقي عيناها دامايا، فتجفل.

تبادلها دامايا التحديق، لأن كونها مصعوقة يمنعها من تحاشي النظر، ولأنها غاضبة جدًّا من نفسها. هذا ما يأتي من الثقة بالآخرين. الشرخ لم تكن صديقتها، لم تكن حتى شخصًا يعجبها، لكنها حسبت أنهما في وسعهما مساعدة بعضهما بعضًا على الأقل. الآن وقد وجدت رأس الأفعى التي كانت تحاول أكلها، وجدتها في منتصف مريء أفعى أخرى تمامًا. والنتيجة النهائية شيء ألعن من أن تنظر إليه، ناهيك عن القضاء عليه.

«أنت بدلًا مني». قالتها الشرخ بهدوء في قلب الصمت المخيم على العنبر. لم تقل دامايا شيئًا، لم تطلب تفسيرًا، لكن الشرخ مع ذلك تقدم التفسير، الآن وأمام الجميع. لم ينبس أحد ببنت شفة، لم يتنفس حتى بصوت مسموع. «تلك كانت الفكرة. أنا كنت على بُعد هفوة واحدة أخرى من النهاية، أما

أنت، المواطنة الصغيرة الممتازة، فشيء آخر. الأولى في كل الامتحانات، تحكم ممتاز في التطبيقية، كل شيء في مكانه. لن يفعل بك المدربون شيئًا يذكر، ليس بعد. هكذا، وبينما يحاولون اكتشاف ما خطب التلميذة المثالية، سينسون ترقبهم لي بأن أفجر جبلًا، أو دفعهم لي كي أفعل... على الأقل لبعض الوقت». تتلاشى ابتسامتها وتنظر بعيدًا، «هذه كانت الفكرة».

لا تتمكن دامايا من قول شيء، لا تستطيع حتى التفكير. لذا، وبعد وهلة، تهزّ الشرخ رأسها وتتنهد، وتمضي خلف الآخرين وراء كارنيليان.

الغرفة جامدة، لا أحد ينظر إلى أحد.

ثم يأتي صخب من ناحية الباب عندما تدخل مدربتان وتبدأان في تفتيش سرير الشرخ وصندوقها. يراقب الحصى بينما ترفع امرأة منهما الحاشية والأخرى تنحني تحتها، ثم بعد صوت بعض التفتيش تظهر المدربة مجددًا بقارورة كبيرة بُنية نصف ممتلئة. تفتح القارورة وتتشمم محتوياتها، وتعبس، وتومئ إلى المرأة الأخرى، ثم تغادران.

عندما يبهت صدى خطواتهما، تتجه دامايا صوب صندوق مشيش وتستعيد حذاءها. تغلق غطاءه، يتردد صوت الغلق عاليًا في الصمت. لا أحد يتحرك قبل أن تعود إلى فراشها وترتدي حذاءها.

وكأنما كانت حركتها إشارة. تتردد بعدها عدة تنهدات، ويبدأ

البعض في الحركة بدورهم، يجهزون الكتب للدرس التالي، ويتوجهون إلى المائدة الجانبية لأخذ إفطارهم ثم يتحركون تجاه البوتقة الأولى. تتجه دامايا إلى المائدة الجانبية بدورها، فتنظر إليها بنت أخرى، ثم تنحي نظرها بسرعة. تغمغم: «آسفة. أنا من دفعك في الاستحمام».

تنظر دامايا إليها وترى الخوف المتلكئ يغضن البشرة حول عينيها.

تقول بنعومة: «لا بأس، لا تقلقي بهذا الشأن».

لا يضايق أحد من الحصى دامايا بعد ذلك. بعد أيام يعود مشيش بيد مكسورة وعين ممسوسة، ولا يوجه إلى دامايا كلمة بعد ذلك. جاسبر لا يعود، لكن كارنيليان يخبرهم بأنه أُرسل إلى المرتكز الفرعي في أركتيكا، بعدما أصبح مرتكز يومينِس مكانًا محملًا بالذكريات السيئة بالنسبة إليه. لعلهم كانوا يقصدون من هذا العطف عليه، لكن دامايا تعرف أن المنفى منفى مهما كان شكله.

لكن كان يمكن أن تسوء الأمور أكثر.

أما الشرخ، فلم يرها أو يذكرها أحد مجددًا.

***

موسم الفطر (٦٠٢ إمبراطوري): سلسلة من ثورات المحيط خلال الرياح الشرقية الاستوائية الموسمية رفعت من مستوى الرطوبة في الإقليم وحجبت أشعة الشمس لستة أشهر. مع أن هذا كان موسم منخفض الحدة، أدى إلى انتشار عدوى

الفطر من المناطق الاستوائية إلى الشمال أوسطية والجنوب أوسطية، لتقضي في طريقها على محصول الميروق بالكامل (أمسى الآن منقرضًا). المجاعة النتيجة متضمنة في السجلات الجيوميستية، وأدت إلى استمرار الموسم أربعة سنوات (سنتان حتى تراجع وباء الفطر وسنتان حتى تعافت الزراعة وشبكات توزيع الطعام). كل الكومونات المتأثرة تقريبًا تمكنت من الاعتماد على مخازنها الخاصة، ما أثبت كفاءة الإصلاحات الإمبراطورية والتخطيط للمواسم. بعد ذلك انضمت كثير من كومونات الشمال الأوسط والجنوب الأوسط طواعية إلى الإمبراطورية، ليبدأ بعدها العصر الذهبي.

مواسم السانزا

١٢

سيانيت تجد لعبة جديدة

«زميلي لا يزال مريضًا»، تقولها سيانيت إلى أسايل قيادية آليا الجالسة في مواجهتها عبر المكتب، «ويعتذر بشدة لعدم قدرته على المساعدة. سأنظف أنا العائق من مينائكم».

تقول أسايل: «يؤسفني مرض مشرفك»، مع ابتسامة صغيرة تكاد تجعل الشعر على مؤخرة عنق ساين ينتصب. تكاد فقط، لأنها علمت ما سيكون وتجهزت له. لكنه يظل يحفظها.

تتابع أسايل بهيئة مفرطة القلق: «لكن يتوجب عليَّ السؤال، هل ستكونين... كافية؟». تقفز نظرتها نزولًا إلى أصابع ساين، حيث اعتنت ساين كل الاعتناء بوضع خواتمها على الأصابع الأربع التي قد يلمحها المراقب العابر قبل غيرهم. يداها مطويتان على نحو يداري إبهامها مؤقتًا، عسى أن يجعل ذلك أسايل تتساءل إن كان هناك خاتم خامس. لكن عندما تتقابل أعينهما مجددًا، لا ترى ساين إلا الشك. لم تنبهر من أربعة خواتم ولا خمسة.

ولهذا لن تقبل أبدًا أبدًا مهمة مع ذي عشرة خواتم مجددًا. وكأن لها أن تختار. لكنها تشعر أفضل عندما تفكر في ذلك على أية حال. ترغم سيانيت نفسها على الابتسام، مع أنها لا تملك موهبة ألابستر في التهذيب المبالغ فيه. تعلم أن ابتساماتها تفضح سخطها. تقول: «في مهمتي السابقة، كنت مسؤولة عن إزالة ثلاثة مبانٍ في مربع من خمسة مبانٍ.

وكان ذلك في يوم مزدحم في وسط مدينة ديبارس، منطقة يسكنها آلاف غير بعيدة عن الجامعة السابعة». تفك ساقيها وتعقدهما مجددًا. لقد أثار الجيومستيون جنونها في تلك المهمة، لم يتوقفوا عن طلب ضمانات أنها لن تخلق هزة أعلى من ٥.٠ درجة. لأن الأجهزة حساسة والمعايرات دقيقة وما إلى ذلك. «استغرقت خمس دقائق، ولم يقع أي من الهشيم خارج منطقة الإزالة. كان ذلك قبل حتى حصولي على خاتمي الأخير». وسعد الجيومستيون عندما حافظت على الهزة في نطاق الدرجة الرابعة.

تقول أسايل: «تسعدني معرفة أنك فائقة المهارة». ثم تتوقف قليلًا، فتستعد ساين. «لكن مع عدم قدرة زميلك على المشاركة، لا أرى سببًا يدفع آليا إلى تحمل مقابل خدمات أوريجينيين».

تقول ساين: «هذا بينكم وبين المرتكز»، إنها لا تهتم فعلًا، «أفترض أنهم سيحتجون، لأن ألابستر مرشدي في هذه الرحلة، ويشرف على عملي حتى لو لم يفعله بنفسه».

«لكن لو أنه ليس هنا...».

«لا يهم»، تثير غيظها، لكنها تقرر أن تشرح، «إنه يرتدي عشرة خواتم. في وسعه مراقبة ما أفعله والتدخل لو تتطلب الأمر من غرفة النزل. بل إنه قادر على ذلك وهو غائب عن الوعي. علاوة على ذلك فقد كان يخمد الهزات طوال الأيام السابقة في المنطقة خلال سفرنا، هذه خدمة يقدمها بمحبة إلى الموصلين، أو بالأحرى إلى كومونتكم، بما إنكم بعيدون جدًا

عن نطاق محطات التوصيل». يضيق تعبير أسايل ويتجهم، ربما استجابة لما عدته إهانة، وتفرد ساين يديها. «أهم شيء يميزه عني، هو أنني من تحتاج إلى رؤية ما تفعله».

«أرى ذلك». يبدو صوت أسايل في غاية الارتباك، كما يفترض بها. تعلم ساين أن وظيفة أي أوروچيني مرتكزي أن يهدئ من مخاوف الراكدين، وساين هنا فاقمت مخاوف أسايل. لكن ثمة ارتياب كريه متعاظم في داخلها إزاء من في آليا قد يرغب في قتل ألابستر، لذا لعل من المفيد إثناء أسايل -أو أيًّا كان من تعرفه أسايل- عن هذه الخطة. ليس لدى هذه البيروقراطية الثانوية المتحذلقة أدنى فكرة عن كم اقتربت مدينتها الصغيرة من أن تسوى بسطح الأرض في الليلة الماضية.

تقرر سيانيت في الصمت المزعج الذي ساد أن الوقت قد حان لتلقي أسئلتها الخاصة، وربما تثير في الخراء زوبعة، لترى ما قد يخرج منه. «أرى أن المحافظ لم يتمكن من الحضور اليوم».

«صحيح»، يخلو وجه أسايل من التعبيرات مثل لاعبة محترفة، فقط ابتسامة مهذبة وعيون خاوية، «لقد أوصلت طلب زميلك، لكن لسوء الحظ لم يتمكن المحافظ من إيجاد وقت في جدوله».

«شيء مؤسف»، وعندها، لأن سيانيت بدأت تدرك لماذا كان ألابستر بهذا الاستفزاز في هذا الشأن، عقدت يديها. «لسوء الحظ هذا لم يكن طلبًا. هل عندكم تلغراف هنا؟ أود

إرسال برقية إلى المرتكز، كي يعرفوا أننا سنتأخر». تضيق عينا أسايل، لأنهم بالطبع عندهم تلغراف، ولأن مقصد سيانيت بالطبع كان وكزة أخرى. «ستتأخرون؟».

«بالطبع»، ترفع ساين حاجبيها. تعلم أنها ليست ماهرة في ادعاء البراءة، لكنها على الأقل تحاول. «كم تظنين سيستغرق المحافظ قبل أن يقابلنا؟ المرتكز يجب أن يعرفوا». وتنهض وكأنها ستغادر.

تميل أسايل رأسها، لكن سيانيت تستطيع رؤية التوتر في كتفيها. «حسبتك أعقل من زميلك. لكن ها أنت تخرجين من دون أن تنظفي المرفأ في نوبة غضب».

«هذه ليست نوبة غضب»، الآن ثارت حفيظة ساين فعلًا، الآن تفهم. تنظر من فوق إلى أسايل التي تجلس متغطرسة آمنة على مقعدها الضخم خلف مكتبها الضخم، وتجاهد أيما جهاد كي تمنع قبضتيها من التكور، وعضلات فكها لا تنفك تتحرك. «هل كنت ستتحملين مثل تلك المعاملة لو كنت مكاننا؟».

«بالطبع»، تعتدل أسايل، تباغتها ردة الفعل الطبيعية. «ليس لدى *المحافظ* وقت لـ. . .».

«لا، لن تتحملي. لأنك لو كنت في مكاني، كنتِ ستصبحين ممثلة لمؤسسة قوية ومستقلة، لا خادم متواضع من آخر الدنيا. كنت ستتوقعين تلقي معاملة تليق بخبيرة ماهرة تلقنت حرفتها منذ طفولتها، تليق بمن كانت تراكم صنعة مهمة وصعبة،

وجاءت لتؤدي مهمة ستغير مصير كومونتتكم».

أسايل تحدق إليها. سيانيت تتوقف، تأخذ نفسًا عميقًا. عليها أن تظل مهذبة، وأن تحمل تهذيبها مثل سكين سبجية مشحوذة. على غضبها أن يكون باردًا وهادئًا، وإلا رأوا افتقارها إلى التحكم بالنفس علامة على وحشيتها. ما إن خمدت النار في عينيها، حتى تقدمت إلى الأمام.

«ومع ذلك لم تمدي يدك إلينا للمصافحة يا أسايل القيادية. لم تنظري إلى أعيننا عندما التقينا أول مرة. ولا زلتِ لم تقدمي إلينا قدح الأمان الذي اقترحه ألابستر بالأمس. هل هذا ما ستفعلينه مع جيوميست مفوض من الجامعة السابعة؟ مع مهندس كبير جاء لإصلاح هيدروليكي الكومونة؟ مع ممثل نقابة أشدّاء الكومونة؟».

تجفل أسايل بالفعل عندما تدرك أخيرًا فداحة التشبيهات. تنتظر سيانيت ساكنة، كي تسمح للصمت أن يستجمع ثقله. أخيرًا تقول أسايل: «أرى ذلك».

«ربما ترين». تتابع الانتظار، وتتنهد أسايل.

«ماذا تريدين؟ اعتذارًا؟ إذن أنا أعتذر. لكن عليك أن تتذكري أن أغلب الناس العاديين لم يروا قط أوروچيني، ناهيك عن التعامل معه، و...»، تمد يديها، «أليس من المفهوم أننا قد نكون... غير مرتاحين؟».

«عدم الارتياح مفهوم، قلة الذوق لا». الصدأ على هذا، هذه المرأة لا تستحق مجهود الشرح. تقرر ساين أن توفر مجهودها

لشخص يستحق. «وهذا اعتذار خرائي، «أنا آسفة لأنك غير طبيعية حدّ أنني غير قادرة على معاملتك كبشر»».

أسايل تنفجر: «أنت روچا»، ثم تجد في نفسها الجرأة كي تبدو متفاجئة من نفسها.

سيانيت ترغم نفسها على الابتسام. «جميل، على الأقل قيل هذا بصراحة». تهز رأسها وتلتفت صوب الباب. «سأعود غدًا، لعلكم بحلول الغد تتمكنوا من تفقد جدول المحافظ».

تقول أسايل: «أنتما ملزمان بعقد»، صوتها يشتد حدّ الارتجاف، «وعليكما أن تؤديا الخدمة التي دفعنا ثمنها لمؤسستكما».

«وسنفعل»، تبلغ سيانيت الباب وتتوقف ويدها فوق مقبضه، تهز كتفيها، «لكن العقد لا يحدد متى ينبغي علينا تنفيذ المهمة منذ وصولنا». إنها تناور، لا علم لها بفحوى العقد، لكنها تراهن أن أسايل أيضًا لا تعلم، لا تبدو رتبة معاونة المحافظ ذات شأن كافٍ للاطلاع على مثل هذه الأمور. «بالمناسبة، شكرًا على الإقامة في آخر الموسم، الأسرَّة رائعة والطعام لذيذ».

هذا بالطبع يقوم بالواجب. تنهض أسايل بدورها. «انتظري هنا، سأذهب وأتحدث مع المحافظ».

تبتسم ساين بلطف، وتجلس لتنتظر. تغادر أسايل الغرفة وتظل غائبة طويلًا، حتى أن ساين بدأت تنعس. تفيق عندما ينفتح الباب، وتدخل منه امرأة ساحلية أخرى، مسنة ومهيبة،

بصحبة أسايل المرتسم على وجهها سيماء الموبّخين. المحافظ رجل. تتنهد سيانيت داخليًا، وتحضر نفسها لجولة أخرى من التهذيب المسلح.

تقول المرأة: «سيانيت أوروچينية»، ورغم السخط المتصاعد في سيانيت، تُعجب بثقل حضورها. قولها اسم «أوروچينية» بعد اسمها الأول غير ضروري بالطبع، لكنه إضافة لطيفة على سبيل الرقي المطلوب بشدة. هكذا تتنهد ساين، وتتقدم المرأة على الفور وتقدم إليها يدًا لتصافحها. يدها باردة وجافة وأقسى مما توقعت ساين؛ بلا نتوءات خشنة، وإنما هي فقط أيدٍ قامت بنصيبها من الأعمال اليومية. «اسمي هيرسميث قيادية آليا، أنا نائبة المحافظ. المحافظ مشغول جدًّا صدقًا اليوم، لكنني استقطعت وقتًا كافيًا من جدولي، وأتمنى أن يكون ترحيبي كافيًا... خاصة وأنه يأتي مع اعتذار عن المعاملة السيئة التي تلقيتها حتى الآن. أؤكد لك أن أسايل سوف تُلام على سلوكها، كي تتذكر أن القيادية الجيدة يجب أن تعامل الآخرين -كل الآخرين- باحترام».

ربما ما تفعله المرأة لا يزيد على لعبة سياسية، أو ربما تكذب بشأن كونها نائبة المحافظ. لعل أسايل جاءت بخادمة وأحسنت تزيينها لتمثل هذا الدور. لكنه مع ذلك يظل مجهودًا بُذل في المساومة، وساين ستتقبله.

تقول بامتنان صادق: «شكرًا لك، سأبلغ اعتذارك لزميلي ألابستر».

«ممتاز. ليتك تبلغينه أيضًا أن آليا ستتكفل بنفقاتكما،

بحسب عقدنا المبرم، حتى ثلاثة أيام قبل وثلاثة أيام بعد تنظيف المرفأ». وثمة حدة في ابتسامتها الآن، تعلم سيانيت أنها تستحقها على الأرجح. هذه المرأة كما يبدو قرأت العقد فعلًا.

لكن لا يهم. «أشكرك على التوضيح».

«هل هناك أي شيء تحتاجينه؟ أسايل سوف تسعد لو أخذتك في جولة عبر المدينة مثلًا».

تبًّا، تعجبها هذه المرأة فعلًا. تكبح ساين رغبتها في الابتسام وتلقي ناظرة عابرة على أسايل، التي كانت قد تمكنت من ضبط نفسها الآن، وجعلت تنظر بخواء إلى سيانيت. شعرت ساين بإغراء فعل ما كان ألابستر سيفعله، وقبول عرض هيرسميث الضمني بإذلال أسايل. لكنها منهكة، وقد كانت تلك الرحلة برمتها لعينة، والأفضل أن تنتهي منها سريعًا وتعود إلى البيت في المرتكز.

تقول: «لا داعي»، هل اختلج وجه أسايل قليلًا بارتياح مكبوت؟ «أنا بصراحة أود إلقاء نظرة على المرفأ إن أمكن، كي أستطيع تقييم المشكلة».

«طبعًا، لكن هل تحبين تناول شيء منعش قبل كذلك؟ قدح أمان على الأقل؟».

لا تستطيع سيانيت كبح نفسها الآن، تختلج شفتاها. «في الواقع يجدر بي القول إني لا أحب الأمان».

«لا أحد يحبه»، ولا يمكن عدم إدراك صدق الابتسامة على

وجه هيرسميث، «أي شيء آخر إذن قبل أن نذهب؟».

والآن حان دور ساين في المفاجأة. «أنت قادمة معنا؟».

تعبير وجه هيرسميث يقترب من التهكم. «أليس مصير كومونتنا يعتمد عليك في النهاية؟ هذا أقل واجب».

هذه امرأة مذهلة. «إذن هيا بنا إذا سمحتِ يا هيرسميث قيادية». تشير سيانيت نحو الباب، ويتجهن جميعًا إلى الخارج.

***

هذا المرفأ ليس صحيحًا.

يقفن على ممشى من نوع ما بطول الفتحة النصف دائرية الغربية للمرفأ. يمكن من هنا رؤية أغلب آليا، تمتد على منحدرات الفوهة البركانية التي تحيط بالواجهة البحرية. المدينة هادئة وبديعة. إنه يوم جميل، مشمس ودافئ، والسماء عميقة ونقية حتى أن سيانيت تفكر في أن تأمُّل النجوم من هنا ليلًا سيكون مذهلًا. مع ذلك، إن ما لا تراه، أي ما هو تحت الماء بطول قاع المرفأ، هو ما يجعل جلدها يتغضن.

تقول: «هذه ليست شعابًا مرجانية».

تلتفت هيرسميث وأسايل إليها بتعبيرات حائرة. تقول هيرسميث: «المعذرة؟».

تتحرك سيانيت مبتعدة عنهما في اتجاه الحاجز وتمدّ يديها. إنها لا تحتاج إلى هذه الحركة، لكنها تريد أن تعرفهما أنها

تفعل شيئًا. إن أوروچينو المرتكز يطمئنون العملاء دائمًا بأنهم مدركون ويفهمون الوضع، حتى عندما لا يكون لدى العملاء أدنى فكرة عمَّا يحدث. ساين تفكر: «إن الطبقة السطحية لقاع المرفأ مرجانية». إنها لم تسسبن مرجانًا من قبل، لكنه ذو شعور لا يختلف عما توقعته: طبقات من الحياة المتأججة المتلوية التي يمكنها أن تستمد منها لو احتاجت وقودًا لأوروچينيتها، وقلب من الموت العتيق المتكلس. لكن كومة المرجان تغلف بروزًا ضخمًا محدودبًا فوق قاع المرفأ، ومع أنه يبدو طبيعيًا -فقد قرأت أن وجود طيات كهذه في أماكن التقاء الأرض بالبحر أمر معتاد- سيانيت قادرة على تمييز أنه ليس كذلك.

فهو مثلًا مستقيم تمامًا، وشديد الضخامة، إذ يمتد على اتساع المرفأ. لكن الأهم من كل ذلك أنه غير موجود.

إنها لا تستطيع الشعور بالصخرة التي يفترض وجودها تحت طبقات الطين والرمل. يفترض أن تشعر بها ما دامت ترفع أرضية القاع إلى أعلى بهذا الشكل. تستطيع الإحساس بالماء فوق العائق، والصخر المشوه بفعل وزنه وضغطه تحته، وطبقات الأرض حوله، أما العائق نفسه فلا. لعل هنالك حفرة كبيرة خاوية في قاع المرفأ... تشكلت حولها أرضيته.

سيانيت تعبس. أصابعها مفرودة وتختلج، تتتبع تدفق وانحناءات السِسونا. الملمس الزلق للصخر الشستي والرمل والمواد الحية، الضغط البارد للفرش الصخري. وتتذكر بينما تفعل أن عليها التعليق على ما تجده. «ثمة شيء تحت

الشعاب المرجانية، مدفون في قاع المحيط، ليس بعيدًا. إن الصخر أسفله مضغوط، لا شك أنه ثقيل...». لكن لماذا لا تستطيع أن تشعر به؟ كيف لا تستطيع تمييز العائق إلا من خلال تأثيره في كل ما يحيط به؟ «هذا غريب».

«هل هذا يهم؟»، هذه أسايل، لعلها تحاول أن تبدو ذكية ومحترفة كي تعود إلى حظوة هيرسميث. «كل ما نحتاج إليه هو تدمير العائق المرجاني».

«نعم، لكن المرجان فوقه». تبحث عن المرجان فتجده حول كل أطراف المرفأ، وتتكون لديها نظرية. «حقيقة أن هذا هو المكان الوحيد في الجانب العميق من المرفأ الذي تسده الشعاب المرجانية، ترجع لأن الشعاب تنمو فوق هذا الشيء، حيث تبرز أرضية المحيط. الشعاب تفضل المياه الضحلة، وعلى السطح البارز للشيء تجد كثيرًا من المياه التي سخنتها الشمس».

«يا صدأ الأرض. أيعني هذا أن الشعاب ستنمو من جديد؟»، هذا أحد الذين جاءوا في معية أسايل وهيرسميث. إنهم مجموعة موظفين لو صح تخمين سيانيت، التي لا تنفك تنسى وجودهم إلا عندما يتكلمون، «الهدف الأساسي هو تنظيف قاع المرفأ للأبد».

سيانيت تزفر وترخي سسبينتها، تفتح عينيها كي يعرفوا أنها انتهت. تلتفت إليهم وتقول: «صحيح، في النهاية. انظروا، هذا ما نتعامل معه هنا. هذا مرفؤكم»، تكور كفها اليسرى وكأنه دائرة شبه مغلقة. مرفأ آليا أقل انتظامًا من هذا بالطبع

لكنهم يفهمونها، تراهم يقتربون أكثر ليروا عرضها التقديمي. تضع إبهام يدها اليمنى عبر الجزء المفتوح من الدائرة فيكاد يغلقها. «هنا حيث يوجد ذلك الشيء. يبرز أكثر قليلًا عند إحدى نهايتيه...»، تهزّ طرف إبهامها، «لأن ثمة ارتفاعًا طبيعيًّا في طبقات الأرض هناك، وهناك تكوَّن أكبر تجمع للشعاب المرجانية. أما عند النهاية الأخرى للشيء، المياه أعمق وأبرد». تهز على نحو غريب يدها كي تشير إلى عقب إبهامها، «وعندها القناة المفتوحة التي تستخدمونها في الحركة الملاحية. لو ظلت شعابكم المرجانية لا تحب المياه الباردة المظلمة، أو لم تظهر أخرى مختلفة تحبها، فلن تنسد تلك الناحية أبدًا».

لكن حتى وهي تقول ذلك، يخطر لها أن المرجان يبني بعضه فوق بعض. الكائنات الجديدة تنمو فوق عظام أسلافها، وبمرور الوقت هذا سوف يرفع حتى الجزء البارد من المرفأ إلى منطقة ملائمة للنمو. في التوقيت المناسب تتجهم أسايل وتقول: «عدا أن هذه القناة كانت تنسدّ بدورها عبر السنوات، ببطء لكن بثبات. عندنا سجلات تعود إلى بضعة عقود مضت توضح أنه كانت هناك سعة لاستيعاب القوارب حتى منتصف المرفأ، وهذا ليس الحال الآن».

يا نار الأعماق. عندما تعود ساين إلى المرتكز، ستخبرهم أن يضيفوا بنية الصخور البحرية إلى مناهج الحصى، من السخف أن هذا ليس شيئًا يتعلمونه بالفعل. «لو أن كومونتكم قائمة منذ عدة مواسم ولم تواجه هذه المشكلة إلا الآن، فهذا

المرجان كما هو واضح ليس من النوع سريع النمو».

تقول هيرسميث بابتسامة محرجة: «آليا عمرها موسمان فقط». هذا في حد ذاته إنجاز هائل. كثير من الكومونات لا تنجو من موسم واحد في الشمال الأوسط والأركتيكا، وكومونات الساحلي أهشّ وأضعف. لكن هيرسميث طبعًا تحسب أنها تتحدث إلى يومينِسية بالولادة والاستيلاد.

تحاول سيانيت تذكر ما لم تَنَمْ خلال شرحه في فصول التاريخ بالمدرسة. موسم الاختناق هو أحدث المواسم، كان قبل مئة سنة وبضع سنين، وكان موسمًا متوسطًا مقارنة بغيره، أكثر ضحاياه كانوا من الأنتاركتكيين القريبين من بركان أكوك الذي انفجر. أكان الموسم الذي قبله موسم الحمض أم الغليان؟ لطالما خلطت هذا بذاك. سواء كان هذا أو ذاك، فقد كان قبل الاختناق بثلاث مئة عام، وقد كان سيئًا. صحيح، لم تنجُ أي كومونات ساحلية بعده، لذا من الطبيعي أن تكون آليا قد ولدت بعده ببضعة عقود، بعدما سكنت البحار وتراجعت وتركت الساحل قابلًا للمعيشة من جديد.

تقول سيانيت، مفكرة بصوت مسموع: «إذن سدّ المرجان مرفأكم على مدى حوالي أربع مئة سنة. ربما نتيجة لارتباك حدث خلال الاختناق؟». كيف تنجو الشعاب المرجانية من موسم خامس؟ لا تعلم كيف، إنها تحتاج بلا شك إلى الدفء والنور كي تستمر. لعلها إذن ماتت خلال هذا الموسم. «طيب، لنقل إذن أنها كبرت إلى درجة الإعاقة خلال القرن المنصرم».

تقول امرأة أخرى تبدو مذعورة: «يا نار الأرض! أتعنين أننا

قد نضطر إلى فعل هذا مجددًا بعد مئة عام؟».

تقول هيرسميث: «ديننا للمرتكز سيدوم أكثر من مئة عام»، تتنهد، والنظرة التي ترمي بها سيانيت ليست ساخطة، بل يائسة. «رؤساؤك يتلقون كثيرًا مقابل خدماتهم للآسف».

تقاوم سيانيت الرغبة في هز كتفيها. هذه حقيقة.

يتبادلون النظر فيما بينهم، ثم ينظرون إليها، وتدرك ساين من هذا أنهم سيطلبون منها فعل شيئًا غبيًا.

تقول استباقًا وهي ترفع يديها: «هذه فكرة سيئة جدًا. أنا لم أحرك شيئًا تحت المياه من قبل، ولهذا يوجد معي مشرف»، مشرف بلا أدنى فائدة، «والأهم من ذلك *أني لا أعلم كنه هذا الشيء*. قد يكون ثقب غاز أو جيب بترول سيسمم مياهكم لأعوام». تعرفين أنه ليس هذا ولا ذاك، لأن أيهما لن يكون مستقيمًا استقامة تامة ولا كثيفًا كهذا الشيء، ولأنك قادرة على سسبنة الغاز والبترول. «ربما يكون من بقايا إحدى الحضارات الميتة الغبية، التي كانت تزرع في موانئها القنابل». كان هذا عبقريًا، صاروا يحدقون إليها الآن برعب. تحاول مرة أخرى.

تقول: «قوموا بدراسة، استجلبوا بعض الجيومستيين لدراسة قاع البحر، وربما بعض المهندسين الذين يعرفون شيئًا بخصوص...»، تحرك يدها، تخمن كما اتفق، «تيارات المحيط. ادرسوا السلبيات والإيجابيات، وعندها فقط استدعوا شخصًا مثلي»، تتمنى ألا يكون هذا الشخص هي

بالذات، «يجب أن تكون الأوروچينية ملاذكم الأخير لا الأول».

هذا أفضل، إنهم منصتون. اثنان من الذين لا تعرفهم أخذوا يتهامسون، وهيرسميث ارتسمت على وجهها نظرة التفكير، وأسايل بدت ساخطة، لكن هذا لا يعني شيئًا سيئًا بالضرورة، أسايل ليست شديدة الذكاء.

تقول هيرسميث في النهاية وقد بدت محبطة حتى أن سيانيتت آسف لحالها: «أخشى أننا مضطرين إلى هذا. لا نستطيع تحمل تكاليف عقد آخر مع المرتكز، وأنا لست متأكدة أننا قادرون على تحمل تكاليف دراسة، تكلفة الجامعة السابعة والهيئة الهندسية تساوي ما يتقاضاه المرتكز لقاء خدماته تقريبًا. لكن الأهم أننا لن نستطيع تحمل كلفة انسداد المرفأ أكثر من هذا، نحن مثلما خمنتما نخسر بالفعل عملاءنا لصالح موانئ ساحلية أخرى قادرة على استقبال سفن النقل الثقيلة. لو فقدنا قابلية الوصول بالكامل، فلا يوجد سبب لاستمرار هذه الكومونة في الوجود».

تبدأ ساين: «أنا مقدرة فعلًا...»، لكن عندها يصيح عليها أحد الرجال المتهامسين في الخلفية: «أنت أيضًا عميلة للمرتكز، لقد تعاقدنا معكم على تلك الخدمة».

لعله ليس موظفًا. «أعرف ذلك، وسأفعلها الآن لو تريد»، تعرف الآن بعدما سببتها أن الشعاب المرجانية ليست مشكلة على الإطلاق. تستطيع إزالتها غالبًا من دون حتى أن تهتز القوارب الراسية كثيرًا. «سيكون مرفؤكم قابلًا للاستخدام غدًا لو أزلت المرجان الآن...».

تقول أسايل: «لكننا تعاقدنا معكم لتنظيف المرفأ إلى الأبد، وليس لإصلاحه مؤقتًا. لو اتضح أن المشكلة أكبر مما حسبتِ، فذلك ليس عذرًا لعدم القيام بعملك»، تضيق عيناها، «إلا لو كان هناك سبب لترددك في تحريك العائق».

تقاوم ساين الرغبة في نبز أسايل بعدة ألقاب. «لقد شرحت أسبابي يا قيادية. لو كنت أنوي غشّكم ما كنت لأخبركم عن العائق شيئًا، بل كنت لأنظف الشعاب المرجانية فورًا وأترك لكم أمر اكتشاف الحقيقة بالطريقة الصعبة عندما تنمو مجددًا».

هذا يؤثر في بعضهم نوعًا، تستطيع رؤية ذلك. تتراجع نظرات الرجلان المستريبة، وحتى أسايل تشد ظهرها باضطراب، فيما يبدو تذبذبًا عن موقفها المتهم. هيرسميث أيضًا تومئ وتلتفت إلى الآخرين.

تقول أخيرًا: «أظن أننا سنحتاج إلى مناقشة كل الخيارات مع المحافظ».

تقول إحدى النساء الأخريات بتجهم: «مع احترامي الكامل أيتها القيادية هيرسميث، أنا لا أرى أي خيار آخر. إما أن ننظف المرفأ مؤقتًا أو أبدًا. وفي كلتا الحالتين سندفع إلى المرتكز القدر نفسه».

تقول سيانيت: «أو لا تفعلون شيئًا». يحدقون إليها جميعًا شذرًا، فتتنهد. مجرد ذكرها لهذا ينمّ عن حماقة، والأرض يعلم ما الذي سيفعله بها كبار المرتكز لو أحبطت تلك المهمة.

لكنها في الواقع لا تستطيع منع نفسها. إن هؤلاء الناس يواجهون الانهيار الاقتصادي الكامل لمجتمعهم. ليس الوقت موسمًا، لذا يمكنهم الانتقال إلى مكان آخر، أو البدء من جديد. أو يمكنهم أن يتفككوا، فتحاول كل عائلة من الكومونة إيجاد مكان في مجتمع آخر...

...وهذا شيء قد ينجح، إلا مع الفقراء أو الضعفاء أو كبار السن، أو من كان لهم أقارب اتضح أنهم أوروچينيون، من قد يقبل إيواء هؤلاء؟ وماذا لو كانت الكومونة التي قد يحاولوا الانضمام إليها لديها ما يكفي من طوائف استخدامهم بالفعل؟ أو...

الصدأ على هذا.

تتابع سيانيت رغم كل شيء: «لو عدت أنا وزميلي الآن، سيكون هذا خرقًا للعقد، فيصبح من حقكم المطالبة بما دفعتم، باستثناء تكلفة سفرنا وإقامتنا المحلية»، تنظر إلى أسايل وترى عضلات فكها ترتجف، «سيظل مرفؤكم قابلًا للاستخدام على الأقل لعدة سنوات قادمة. استغلوا هذا الوقت والمال الذي وفرتموه، إما في دراسة ما الذي يحدث واكتشاف ماذا يكمن بالأسفل... أو لنقل كومونتكم إلى مكان أفضل».

تقول أسايل مذعورة: «هذا ليس خيارًا مطروحًا، هذا بيتنا».

لا يسع ساين إلا التفكير في اللحاف عطن الرائحة.

تقول برفق لأسايل: «البيت هو الناس، البيت هو ما تأخذه معك، لا ما تتركه خلفك».

هيرسميث تتنهد. «هذا شاعري جدًّا يا سيانيت أوروچينية. لكن أسايل محقة. الانتقال يعني ضياع هوية كومونتنا، واحتمال تفتت جماعتنا. وسيعني أيضًا خسارة كل ما استثمرناه في هذا المكان»، وتشير إلى ما حولها، وسيانيت تفهم ما تعنيه. قد يسهل انتقال الناس، لكن لا البنيان ولا البنية التحتية. هذه ثروة، والثروة تعني النجاة حتى في غير وقت الموسم. «ولا شيء يضمن أننا لن نواجه ما هو أسوأ في مكان آخر. أقدّر صراحتك، لكن... البركان الذي نعرفه أفضل من الذي نجهله».

سيانيت تتنهد، لقد تعبت. «ماذا تريدون مني إذن؟».

«أليس واضحًا؟».

هو كذلك وشر الأرض، واضح جدًّا.

تسأل أسايل: «أيمكنك فعلها؟». ولعلها لم تقصد بقولها التحدي، لعلها مضطربة فقط، لأن ما كانت ساين تتحدث عنه في النهاية هو مصير الكومونة التي نشأت أسايل فيها وتدربت على إرشادها وحمايتها. وطبعًا، لأنها ولدت لطائفة القياديين، فهي لا تعلم عن كومونتها إلا سعتها وترحيبها، ولا تملك أي سبب للنظر إلى مجتمعها بقلة ثقة أو كراهية أو خوف.

ساين لا تتعمد احتقارها، لكنها في مزاج سيئ، ومتعبة لأنها لم تنم جيدًا بالأمس لانشغالها بإنقاذ ألابستر من السم، وسؤال أسايل يفترض التقليل منها. هذا كثير عليها، خاصة في تلك الرحلة الطويلة المريعة.

تنفجر سيانيت: «نعم»، تلتفت وتمد يديها، «يجدر بكم الابتعاد لعشرة أقدام على الأقل».

تتصاعد الشهقات وهمهمات الفزع من الحضور، وتشعر بهم يتراجعون حثيثًا على خريطة وعيها الممتد، وقد صاروا بالنسبة إليها نقاطًا براقة ساخنة متقلقلة تحاول الهرب من مدى وصولها. لكنهم لا يزالون فيه، بل وكومونتهم كلها في الواقع، كتل من الحياة المتحركة حولها، كم يسهل عليها اقتناصها واستهلاكها واستخدامها. لكنهم لا يحتاجون إلى معرفة هذا، إنها في النهاية محترفة.

ثم تطعن نصل قدراتها في الأرض بعمق وحدّة، كي يصبح نطاق قدرتها المتولد مُركزًا وعاليًا لا واسعًا وقاتلًا. ثم تبدأ في جسّ طبقات الأرض القريبة بحثًا عن صدع نشيط قريب، أو ربما بقايا متلكئة من حرارة البركان المنقرض الذي تشكلت من فوهته آليا. إن الشيء في قاع المرفأ ثقيل، وتحتاج إلى ما هو أكثر من الطاقة المحيطة لتحريكه.

لكن شيئًا غريبًا جدًّا -ومألوفًا جدًّا- يحدث بينما تبحث، وعيها يتزحزح.

فجأة لم تعد في الأرض، ثمة ما يجذبها بعيدًا، يشدّها إلى فوق، وإلى تحت، وإلى الداخل. ولمح البصر ضاعت، صارت تتطوح في فضاء أسود بارد ضيق، والطاقة التي تتدفق بداخلها ليست حرارة أو حركة أو جهدًا، بل شيئًا آخر تمامًا.

شيء يشبه ما شعرت به أمسِ عندما هيمن ألابستر على

أوروچينتها، لكنه ليس ألابستر.

ساين لا تزال متحكمة على نحو ما. لكنها لا تستطيع إيقاف ما يحدث، لو حاولت إفلات التحكم، سيثلج كمّ الطاقة الذي امتصتها نصف الكومونة ويثير هزة ستجعل المرفأ نسيًا منسيًا. لكنها تستطيع أن تستخدم فيضان الطاقة الغامر هذا، في وسعها توجيهه مثلًا إلى القاع الصخري تحت ذلك الشيء الذي لا تراه، وبذا تدفعه إلى أعلى. قد يفتقر هذا إلى الدقة والكفاءة، لكنه يقضي الغرض الصدئ، وإنها لتشعر بهذا الخواء الهائل يرتفع بالفعل. لو أن ألابستر يراقبها من غرفته، فلا بد من أنه فخور.

لكن من أين تأتي تلك الطاقة؟ كيف لي أن. . .

تدرك متأخرًا وبشيء من الرعب أن ثمة تسريبًا مفاجئًا لطاقة وضع تتحرك المياه استجابة له كما الصخور، عدا أنها أسرع بكثير. وهي أيضًا قادرة على الاستجابة بأسرع مما كان في وسعها في أي وقت مضى، فهي مفعمة بالقوة التي تكاد تنسكب من مسامها، وكم أن هذا شعور ونار الأرض رائع إلى حد لا يصدق. إيقاف تلك الموجة العاتية التي تتشكل وتكاد تغمر المرفأ أسهل من لعب الأطفال عليها. ها هي تبدد قوة الموجة بيسر، تعيد بعضها إلى البحر وتستخدم البقية في إخماد المياه، بينما يتحرر ذلك الشيء في قاع المحيط من الرواسب التي تثقله -والشعاب المرجانية، التي تنزلق من فوقه بيسر وتتهشم- ويبدأ يرتفع.

لكن.

لكن.

لا يسلك هذا الشيء السلوك الذي تريده منه. كانت قد نوت أن تركنه في جانب المرفأ، بهذا لو نمت عليه الشعاب المرجانية مرة أخرى فلن تسدّ القناة، لكنه بدلًا من ذلك...

يا شر الأرض! يا للصدأ الملعون! بدلًا من ذلك...

يتحرك من تلقاء نفسه. لا تستطيع منعه، وعندما تحاول منعه تتسرب كل قوتها، تُمتص منها مثلما حُثت فيها وبنفس السرعة.

ترجع ساين إلى العالم، تشهق وهي تنحني على الحاجز الخشبي للممشى. لم تمضِ إلا ثوانٍ معدودة. كبرياؤها لن يسمح لها بالوقوع على ركبتيها، لكن الحاجز في الواقع هو كل ما يساعدها على البقاء واقفة. ثم تدرك أن أحدًا لن يلاحظ وهنها، لأن الألواح تحت قدميها والحاجز الذي تتشبث به كلها تتخبط تخبطًا يُنذر بالشؤم.

تبدأ صافرة إنذار الهزات في عويل يصمّ الآذان من برج خلفها. يركض الناس على الأرصفة تحت الممشى وفي الشوارع حوله. كانت لتستطيع سماع صرخاتهم لولا الصافرة على الأرجح. ترفع ساين رأسها بمشقة فترى أسايل وهيرسميث ومن صحبهم يهرعون مبتعدين عن الممشى ومتجنبين كل المباني، والذعر يعتري وجوههم. وطبعًا تركوا سيانيت خلفهم.

لكن هذا ليس ما أعاد ساين من استغراقها في نفسها، بل رذاذ مياه البحر المباغت الذي هبّ عليها من فوق الأرصفة

مثل مطر، تبعه ظل خيم على كل تلك الناحية من المرفأ. التفتت.

هناك، ترتفع من المياه ببطء بينما تنفض عن نفسها ما بقي من قشرتها الأرضية، وتبدأ تطنّ وتلفّ، مسلة.

تختلف تلك المسلة عن التي رأتها ساين أمسِ. تلك كانت بنفسجية، وتظن أنها لا تزال على بعد عدة أميال قبالة الساحل، عدا أنها لا تنظر ناحيتها كي تتأكد من وجودها، فتلك التي أمامها تهيمن على جلّ مجال نظرها، جلّ تفكيرها، لأنها بالغة الضخامة، حتى أنها لم تخرج بالكامل من المياه بعد. إنها عمود أحمر داكن كالعقيق، سداسية الأوجه مدببة الرأس بلا انتظام. صلبة تمامًا، ولا تلمع ولا تومض على ذلك النحو نصف الخيالي الذي تبدو عليه أغلب المسلات. عدد من السفن الصغيرة المصطفَّة ظَهرًا لظهرٍ لن تكفي لتغطية عرضها، وطولها طبعًا عظيم، إذ لا تزال تسدّ المرفأ كله تقريبًا وهي تستمر في الارتفاع والدوران. لعل طولها من الرأس إلى القاعدة يبلغ ميلًا.

لكن ثمة خطب ما بها، كلما ارتفعت أكثر انكشف أكثر. في منتصفها تقريبًا شروخ ضخمة تشذّ عن جمالها البلوري الرائق، شروخ قبيحة وذات صبغة سوداء، وكأنها تلوث من قاع المحيط تسرب إليها عبر القرون التي قضتها مضطجعة في الأسفل. تنتشر الخطوط العنكبوتية المسننة عبر البنية البلورية في نمط مشع. تستطيع سيانيت الشعور بالمسلة تطن وتتلعثم من هنا، تكافح طاقات لا يمكن استيعابها للخروج من

تلك الشقوق.

وتستطيع أن ترى في مركز الشروخ انسدادًا ما، شيئًا صغيرًا. تضيق سيانيت عينيها، تنحني على الحاجز وتلوي رقبتها كي تتبع تلك البقعة الصغيرة. ثم تدور المسلة أكثر قليلًا وكأنها تبغي مواجهتها، ويتجمد الدم في عروقها مرة واحدة حين تدرك ما الذي تراه.

إنه شخص. ثمة شخص داخل الشيء، عالق مثل حشرة في كهرمانة، أطرافه ممدودة وجامدة، شعره أشعث وصلب. لا تستطيع تمييز وجهه جيدًا، لكن مخيلتها تكمل صورته بعينين جاحظتين وفم فاغر، يصرخ.

وهنا بدأت تدرك أنها قادرة على تمييز بقع غريبة على بشرة هذا الشيء، أقرب إلى كدمة سوداء في وسط الأحمر المحيط. لمعت الشمس فأدركت أن شعره رائق، أو على الأقل شفاف كفاية ليضيع في الخلفية العقيقية. وثمة أمر يتعلق بما تراه، أمر تعرفه لأنها كانت للحظة جزءًا من المسلة التي كانت مصدر الطاقة، أمر لا ترغب في التفكير فيه مطولًا لأنها وشر الأرض لا تستطيع التعامل معه. لكن العلم به كامن في عقلها، يستحيل إنكاره مهما رغبت في ذلك. عندما يضطر العقل المنطقي إلى مواجهة هذه الاستحالة مجددًا، لن يجد خيارًا غير التكيف معه.

لذا، تتقبل أن ما تراه هو مسلة مشروخة استقرت في قاع مرفأ آليا لا يعلم بها أحد لوقت لا يعرفه إلا الأرض، وتتقبل أن الشيء العالق في قلبها، والذي بشكل ما تمكن من كسر تلك

المسلة الهائلة المذهلة العتيقة... آكل صخور.

آكل صخور ميت.

***

يفكر الأب الأرض دهورًا، لكنه لا ينسى، ولا ينام.

اللوح الثاني - «الحقيقة الناقصة» - البيت الثاني

١٣

أنت، على الأثر

هكذا أنت في الأساس، كائن وضيع مثير للشفقة. ذلك حجر أساس حياتك. الأب الأرض محق في احتقاره لك، لكن لا تخجلي. حتى لو كنتِ وحشًا، فأنت وحش رائع.

***

امرأة الأغيار اسمها تونكي. ذلك هو الاسم الوحيد الذي تقوله، بلا اسم استخدام ولا اسم كومونة. أنت متأكدة يقينًا أنها رغم احتجاجها جيوميستية، وهي تعترف بذلك -بطريقة ما- عندما تسألينها لماذا تتبعك. تقول وهي تومئ بذقنها إلى هوّا: «إنه مثير للاهتمام إلى أبعد حدّ. أساتذتي القدامى في الجامعة كانوا ليرسلوا القتلة لاصطيادي لو لم أحاول دراسته. وإن كانوا لو فعلوا فلن تكون أول مرة»، وتضحك بصهيل وتكشف عن أسنانها البيضاء الكبيرة مثل حصان، «كنت لأرغب في عينة من دمائه أيضًا، لكن لا فائدة من هذا بلا معدات مناسبة، لذا سأكتفي بالملاحظة».

(هنا يبدو هوّا منزعجًا، ويجاهد كي يحافظ عليك بينه وبين تونكي خلال المشي).

أنت متأكدة من أن الجامعة التي أشارت إليها هي الجامعة السابعة في ديبارس، أشهر مراكز التعليم للجيوميستيين والقوالين في السكون كلها، وتقع في ثاني أكبر المدن

الاستوائية. ولو أن تونكي تدربت بالفعل في هذا المكان الراقي، لا في أية مدرسة كبار إقليمية متواضعة، أو تحت أقدام أي شيخ محلي مدعٍ، فهي قد وقعت من أعلى عليين إلى أسفل سافلين بلا شك. لكن تهذيبك يمنعك من قول ذلك.

لا تعيش تونكي في معسكر كانيباليين رغم تهديداتها الخلّاقة. تكتشفين ذلك حين تقودك إلى بيتها ذلك المساء. تعيش في كهف داخل حويصلة؛ والحويصلة هي البقايا المتحجرة القديمة لفقاعة من الحمم، وهذه الحويصلة كبيرة مثل تل صغير، وقد أمست الآن واديًا صغيرًا منعزلًا في جيب غابة. تتخلل الأشجار أعمدة ملتوية تلتمع بالزجاج الأسود، وتوجد العديد من الكهوف الصغيرة هنا وهناك، حيث تكونت فقاقيع صغيرة لصق الفقاعة الأكبر. تحذرك تونكي أن بعض جوانب الحويصلة البعيدة تأوي قطط الغابات وغيرها من الحيوانات. أغلبها حيوانات آمنة في العادة، لكن كل شيء يتغير في الموسم. لذا تتبعين تونكي بحذر.

كهف تونكي مترع بالأدوات والكتب والمهملات التي استنقذتها من القمامة، إلى جوار أشياء ذات فائدة حقيقية مثل المصابيح وطعام الأحراز. يفوح الكهف برائحة الراتنج المنبعثة من النار التي أشعلتها فيه سابقًا، لكنه بسرعة يعبق بعفونة تونكي ما إن ولجته وتحركت فيه. تعزمين على أن تتحملينها، غير أن هوّا لا يبدو عليه أنه لاحظها أو يهتم بها، تحسدينه على رواقيته. يتضح لحسن الحظ أن تونكي جلبت فعلًا كل هذا الماء معها لتستحم. تفعلها أمامك، تتعرى بلا

خجل وتقرفص في حوض خشبي، وتحك جسدها. تتفاجئين قليلًا حين تلاحظين شيئًا لا ينبغي وجوده في مكان ما وسط كل هذا، لكن، لا بأس، فليس من المرجح أن هناك كومونة ستجعل منها مستولدة على أية حال. تختتم بشطف ملابسها وشعرها بمحلول أخضر شائب تدعي أنه مضاد للفطريات (تحتفظين بشكوكك لنفسك).

تتحسن رائحة المكان على أي حال كثيرًا عندما تنتهي، هكذا تقضين ليلة لطيفة ودافئة على نحو ملحوظ في فراشك القابل للطي -لديها فراش احتياطي، لكنك لا تخاطرين خوفًا من القمل- بل وحتى تسمحي لهوّا بالتكور لصقًا لك، وإن كان من ناحية ظهرك كي لا تدعي مجالًا للعناق. وهو لا يحاول.

تتابعين في اليوم التالي الارتحال جنوبًا، مع تونكي جيومستية الأغيار وهوّا الـ.. . أيًّا كان ما هو. أنت الآن شبه متأكدة أنه ليس بشرًا. لا يزعجك ذلك، فرسميًّا أنت أيضًا لست بشرًا (طبقًا للإقرار الثاني لمجلس القول اليومينِسي «إعلان حقوق المبتلين بالأوروچينية» قبل ألف عام وبضعة أعوام). لكن ما يزعجك أنه لا يتحدث في ذلك. تسألينه عما فعله بالكيركوزا فيرفض الإجابة، تسألينه لماذا لا يجيب، فينظر إليك ببؤس ويقول: «لأنك لن تحبيني».

السفر مع هذين يكاد يشعرك بأنك طبيعية، والطريق على أي حال يستحوذ على أغلب اهتمامك. يزداد هطل الرماد كثافة على مدى اليومين التاليين، حتى تخرجي أخيرًا أقنعة التنفس من مخلاتك -معك أربعة لحسن الحظ، لحزن القلب-

وتوزعينهم. الرماد الآن كتل، لم يصبح بعد ضباب الموت الهائم الذي يحذر منه قول الصخر، لكن الحذر واجب. فعل أناس آخرون المثل أيضًا، ترينهم بأقنعتهم عندما يتجسدون من الرمادي المحيط، لا يكاد يمكن تمييز وجوههم وشعرهم عن رمادية المشهد، تمر أعينهم عليكم ولا تتوقف. الكل تحت الأقنعة محجوب على حد سواء، وهذا جيد. لا يلقي أحد بالًا لهوّا أو تونكي، ليس بعد الآن. يسعدك الانصهار في الجموع.

مع نهاية الأسبوع تبدأ الحشود المسافرة على الطريق تتناقص إلى عقد صغيرة وأحيانًا نقاط. كل من له كومونة هرع عائدًا إليها، والجموع المتناقصة تعني أن أغلبهم يجد لنفسه مستقرًا في مكان ما. لم يعد على الطريق الآن إلا أولئك المسافرون أبعد من المعتاد، أو من ليس لهم بيت يعودون إليه، مثل أولئك الاستوائيين خاويي العيون الذين رأيتهم، يعاني أغلبهم من حروق وإصابات الأنقاض المتداعية. إن الاستوائيين مشكلة لا تزال تختمر، لأن على الطريق كثير منهم، حتى لو كان أكثر المصابين منهم سيموتون من الجراح الملوثة (تمرين كل يوم على واحد أو اثنين على الأقل يجلسون على حافة الطريق، شاحبين أو ملتهبين، متكومين أو مرتجفين، ينتظرون النهاية)، يظل هناك كثير من الأصحاء بما يكفي قد صاروا أغيارًا. وتلك مشكلة.

تتحدثين مع جماعة منهم في بيت الطريق التالي: خمس نساء من أعمار شاسعة التفاوت وشاب صغير يبدو مترددًا. تلاحظين أن هذه المجموعة قد تخلت عن كل قطع الملابس الجميلة

عديمة الفائدة التي اعتاد أهل المدن الاستوائية اعتبارها موضة رائجة. لا بد أنهم في إحدى محطات رحلتهم قد قايضوا أو سرقوا ملابس متينة وعدة سفر مناسبة. لكن يظل كل منهم يبدي إحدى بقايا عادات حياته القديمة: أكبر النساء ترتدي وشاحًا على رأسها من الساتان الأزرق المزخرف، وأصغرهن تبدي أكمامًا رقيقة تبرز من أسفل ردائها القماشي الأثقل والأكثر عملية، والشاب يرتدي حول وسطه حزامًا ناعمًا قرنفليًّا بلا غرض سوى التزين بحسب ما ترين.

عدا أنه ليس في الوقع تزينًا. تلاحظين كيف ينظرون إليك بينما تقتربين: مسح شامل لمعصميك ورقبتك وكاحليك، ثم تجهم عندما وجدوك ناقصة. للملابس غير العملية فائدة عملية جدًّا واحدة: إنها علامة انتماء إلى قبيلة في طور التكوين. قبيلة أنت لست منها.

لا مشكلة، حتى الآن.

تسألينهم ما الذي حدث في الشمال. أنت تعرفين، لكن الوعي بحدث جيولوجي ومعرفة ما الذي يعنيه هذا الحدث بالمعنى البشري أمران مختلفان تمامًا. يخبرونك، بعدما ترفعين كلتا يديك وتبدين أنك لست خطرًا (ظاهريًّا).

تقول إحدى النساء الأصغر: «كنت عائدة من حفلة إلى البيت»، لا تُعرّف نفسها، لكنها يجب أن تكون -إن لم تكن بالفعل- مستولدة. إنها المرأة السانزية كما ينبغي أن تكون: طويلة وقوية وبرنزية، وصحيحة الجسد إلى حد مهين، مع ملامح لطيفة متسقة وأفخاذ عريضة، ويتوج ذلك كله كومة

من شعر رماد البراكين الرمادي ينسدل كما الفرو على كتفيها. تشير برأسها إلى الشاب الذي يخفض رأسه احتجاجًا. جميل مثلها، وعلى الأرجح مستولد أيضًا، وإن كان أميل إلى النحافة. لن تدوم نحافته كثيرًا على أي حال ما ظل في صحبة وخدمة خمس نساء. «كان يمثل في قاعة الارتجال بشارع شمشنا. كنا في ألبايد. الموسيقى كانت رائعة و...».

وتنجرف في الحديث، وللحظة ترينها تنفصل عن المكان. أنت تعرفين أن ألبايد (كانت) كومونة مدينة متوسطة الحجم، مشهورة بمشهدها الثقافي. ثم ترتد عائدة، لأنها فتاة سانزية طيبة، والسانزيون لا يسمحون لأنفسهم بالشرود في أحلام اليقظة.

تتابع: «رأينا ما يشبه الـ... انشطار، ناحية الشمال، أقصد على طول الأفق. رأينا هذا الـ... الوهج الأحمر في لحظة ما، ثم انتشر شرقًا وغربًا. لم أستطع تحديد مدى بعده عنًا بالضبط، لكننا رأينا انعكاسه في الغيوم المتدلية فوقه». تنجرف مجددًا، لكن في ذكرى مريعة هذه المرة، فيتصلب وجهها وتغضب. هذا مقبول اجتماعيًا أكثر من النوستالجيا. «انتشر بسرعة. وقفنا مكاننا في الشارع نراقب الوهج ينتشر، من دون أن نعرف ما الذي نراه ونسسبنه، وعندها بدأ الأرض يهتز، ثم حجبت غيمة ما الوهج الأحمر، وأدركنا أنه قادم نحونا».

تعرفين أنها لم تكن غيمة حممية، وإلا ما كانت لتكون هنا تتحدث معك. إذن كانت مجرد عاصفة رمادية. ألبايد تبعد

عن يومينِس بمسافة غير قليلة جنوبًا، لم يبلغهم مما أصاب الكومونات الشمالية إلا الثمالة. وهذا جيد، لأن هذه الثمالة وحدها كادت أن تدمر تيريمو الأبعد في الجنوب بكثير. ألبايد كان يجب أن تكون غبارًا تذروه الرياح.

تخمنين أن هذه الفتاة ربما أنقذها أوروچيني. نعم، هناك محطة توصيل قريبة من ألبايد، أو كانت هناك.

قالت وكأنها تؤكد تخمينك: «لم ينهر شيء، لكن الرماد الذي تبع ذلك... صار التنفس ضربًا من المستحيل. دخل الرماد في أفواه الناس، في رئاتهم، ونشف كما الأسمنت. ربطت قميصي حول وجهي، كان مصنوعًا من نفس خامة الأقنعة، وهذا ما أنقذني، أنقذنا». تنظرين إلى الشاب، وتدركين من لون القصاصة حول معصمه أنها جزء مما كان زي المرأة. «كنا في المساء بعد يوم جميل، لم تتح لأحد فرصة الوصول لمخلاة هروبه».

يخيم الصمت، وهذه المرة يسمح له الجميع بالاستمرار وينجرفون معها لبعض الوقت. الذكرى سيئة إلى هذا الحدّ. تتذكرين أيضًا أن كثيرًا من الاستوائيين لا يملكون حتى مخلاة هروب. لقد ظلت أكبر المدن آمنة لقرون طويلة بفضل محطات التوصيل.

تختتم المرأة حديثها بتنهيدة: «ثم ركضنا. ولم نتوقف من حينها».

تشكرينهم على المعلومات، وتغادرين قبل أن تتاح لهم فرصة

سؤالك بدورهم.

تسمعين مع مرور الأيام قصصًا أخرى مشابهة، وتلاحظين أن لا أحد من الاستوائيين الذين تقابلينهم من يومينِس أو من أية كومونة على نفس دائرة العرض تقريبًا. ألبايد هي أقصى شمال النجاة.

عدا أن ذلك لا يهم، أنت لست متجهة شمالًا، ومهما كان ما حدث وما يعنيه مؤلمًا لك، فأنت لن تنجرفي فيه أكثر من اللازم، إن رأسك مزدحم بما يكفيه من الذكريات القبيحة.

هكذا تتابعين مع رفقتك السفر، عبر الأيام الرمادية والليالي القاتمة، وكل ما يهمك هو إبقاء قِرب المياه وجوارب الطعام ممتلئة، واستبدال أحذيتكم كلما كادت تبلي. كل ذلك سهل، حتى الآن، لأن الناس لا يزالون يأملون في أن يكون هذا موسمًا وجيزًا، سنة بلا صيف، أو سنتان، أو ثلاث. هكذا هي أغلب المواسم، والكومونات التي تظل مستعدة للمقايضة خلال تلك الأزمنة تتربح من غيرهم من محدودي القدرة على التخطيط، وتخرج عادةً من الموسم أغنى بكثير. تعلمين جيدًا أن هذا الموسم سيكون أطول بكثير جدًّا من خطط الجميع، لكن هذا لا يمنعك من استغلال وهمهم.

تتوقفون من وقت إلى آخر عند كومونات أخرى تمرّون بها على الطريق، بعضها ضخمة مترامية الأطراف ذات أسوار جرانيتية تلوح فوق الرؤوس، وبعضها لا يحميها إلا سياج سلكي وعصي مدببة وبعض الأشدّاء فقيرو التسليح. تزداد الأسعار غرابة؛ كومونة تتقاضى المال، وتنفق كل ما معها منه

تقريبًا في شراء فراش قابل للطي لهوّا، وكومونة ترفض المال كل الرفض، لكنها تأخذ الأدوات المفيدة، وأنت معك إحدى مطارق جيجا القديمة لتكسير الصخور في قاع حقيبتك. تبتاع لك المطرقة مخزون أسبوعين من خبز الرماد وثلاث مرطبانات من معجون الجوز الحلو.

تشاركين الطعام مع ثلاثتكم، لأن هذا مهم. قول الصخر لا ينفك يحذر من التقتير بين أفراد الجماعة، وأنتم الآن جماعة، سواء اعترفتِ بهذا أو لا. يقوم هوّا بدوره، ويظل مستيقظًا أغلب الليل مراقبًا، ولا ينام كثيرًا (ولا يأكل شيئًا. لكنك تحاولين ألا تلاحظي ذلك، بالضبط مثلما تحاولين ألا تفكري في تحويله للكيركوزا إلى حجر). تونكي لا تحب دخول الكومونات، حتى وهي ترتدي ملابس نظيفة ورائحتها ليست أسوأ من رائحة الناس العادية وتبدو كبقية النازحين لا الأغيار. لذا تتولين أنت هذا الدور. لكنها مع ذلك تساعد حيثما استطاعت. عندما بلي حذاؤك ورفضت الكومونة التالية كل ما قدمتِه، تفاجئك تونكي بتقديمها بوصلة. إن البوصلات أدوات لا تقدر بثمن، خاصة عندما تختفي السماء وراء الغيوم وتنعدم الرؤية وسط الرماد. يفترض أن تحصلي على عشرة أحذية لقاءها على الأقل، لكن امرأة الكومونة المسؤولة عن المقايضة تعرف أن لها اليد العليا عليك، لذا لا تحصلين إلا على اثنين، واحد لك وواحد لهوّا، لما كان حذاؤه أيضًا يوشك أن يبلى. وتونكي، التي يتدلى حذاؤها الاحتياطي من صرتها، لا تلتفت إلى شكواك من هذا التسعير لاحقًا. تقول: «ثمة طرق أخرى لمعرفة الطريق»، ثم تحملق إليك على نحو يربكك.

لا تظنين أنها تعلم بأنك روجا، لكن لا شيء أكيد مع هذه المرأة.

تتتابع الأميال. يتشعب الطريق كثيرًا، لأن هناك كثيرًا من الكومونات الكبيرة في تلك الناحية من الجنوب الأوسط، ولأن الطريق الإمبراطوري يقطع طرق الكومونات ومسارات الأبقار والأنهار والطرق المعدنية القديمة التي كانت تُستخدم في المواصلات بشكل أو بآخر في بعض الحضارات الميتة العتيقة. تلك التقاطعات هي سبب وجود الطرق الإمبراطورية حيث هي موجودة، لأن الطرق كانت دائمًا شرايين حياة السانزا القديمة. لكن هذا لسوء الحظ يعني أن الضياع أكثر الاحتمالات رجوحًا لو أنك لا تعلم إلى أين أنت ذاهب، أو ليس معك بوصلة أو خريطة، أو علامة طريق تقول *الآباء القتلة من هذا الاتجاه*.

هذا الفتى هو منقذك. أنت مستعدة لتصديق أنه قادر بشكل ما على الشعور بناسّون، لأنه صار لبعض الوقت أفضل من بوصلة، يشير بدقة إلى الاتجاه الذي عليكم خوضه كلما بلغتم تقاطعًا. تمشون أكثر الوقت على الطريق الإمبراطوري، وذلك هو طريق يومينِس/كيتيكر. لكن كيتكر في أعماق الأنتاركتيكا، وتتمنين في أعماقك ألا تضطرون إلى قطع كل تلك المسافة. عند نقطة ما يأخذكم هوّا عبر طريق كومونة يربط بين مقطعين من الطريق الإمبراطوري، فيوفر وقتًا كثيرًا على الأرجح، خاصة لو كان جيجا قد التزم بالطرق الرئيسية طوال الوقت (هذا الطريق المختصر يثير القلق، لأن الكومونة

الذي بنته مترعة بالأشدّاء المسلحين على أكمل وجه، الذين يصرخون ويطلقون الأسهم التحذيرية عندما يرونكم، ولا يفتحون بواباتهم للمقايضة. تشعرين بنظراتهم على ظهوركم حتى بعدما تجاوزتموهم بكثير). لكن عندما يتعرج الطريق عن الجنوب الصريح، لا يعود هوّا كامل اليقين. وعندما تسألينه يقول إنه يعلم الاتجاه الذي تسافر عليه ناسّون، لكنه لا يستطيع إدراك أي طريق بعينه قطعه جيجا معها. لا يملك إلا الإشارة نحو الطريق الأرجح لهذا الاتجاه.

وحتى ذلك بات يشقّ عليه بمرور الأسابيع. تقفين معه على أحد التقاطعات لخمس دقائق كاملين يمضغ فيهم شفته، حتى تسأليه في النهاية ما المشكلة.

يقول باضطراب: «ثمة العديد منكم في مكان واحد الآن»، وتغيرين الموضوع فورًا لأن لو تونكي لا تزال تجهل حقيقتك، فستعرفها بعد محادثة شبيهة.

لكنْ، عديد منكم؟ أي من الناس؟ لا، لا معنى لهذا. من الروچات؟ معًا؟ هذا لا معنى له أكثر. لقد مات المرتكز مع يوميِنِس. هناك مرتكزأن تابعان، في الأركتيكا، في الشمال البعيد، بعد خط استواء القارة الذي أمسى يستحيل عبوره، وفي الأنتاركتيكا، ويبعد لك مسيرة عدة شهور. أي أوروچينيين لا يزالون على الطريق هم في الأغلب أناس مثلها، يخبئون حقيقتهم ويحاولون النجاة مثل البقية. لا مغزى من اجتماعهم معًا، ذلك سيزيد من فرصة فضحهم. يختار هوّا طريقًا على التقاطع وتتبعانه، لكن التجهم على وجهه يخبرك بأنه يخمن لا

أكثر.

«اقتربنا...»، أخيرًا يقولها هوّا ذات ليلة وأنت تأكلين خبز الرماد ومعجون الجوز وتتمنين طعامًا أفضل. بدأت تشتهين الخضراوات الطازجة، غير أنه سيندر وجودها عما قريب إن لم تكن قد اختفت بالفعل، لذا تحاولين تجاهل رغبتك. تونكي غائبة في مكان ما، لعلها تحلق. لقد نفد مخزونها من شراب بيوميستي ما كانت تختلس الشرب منه بعيدًا عن ناظرك، مع أنك لا تأبهين، وبسبب افتقارها له صارت تنبت لها لحية خفيفة كل بضعة أيام، وجعلها ذلك نزقة.

يتابع هوّا: «... من المكان الذي يجتمع فيه الأوروچينيون. لا أستطيع إيجاد أي شيء بعدهم. إنهم مثل... أضواء صغيرة. يسهل رؤية واحد وحده، مثل ناسّون، لكن حين يجتمعون يصبحون نورًا واحدًا وهاجًا. أعتقد أنها مرت من خلاله أو قريبًا منه، لا أستطيع أن...»، طفق يتلمس الكلمات المناسبة، لكن بعض الأشياء لا كلمات لها، «لا أقدر على... آه..».

تقترحين: «سسبنة؟».

يعبس، «لا، ليس هذا ما أفعله».

تقررين ألا تسأليه عما يفعله.

«لا أستطيع أن... أن *أعرف* أي شيء آخر. يمنعني الضوء الباهر من التركيز في أي نور صغير».

«كم عدد الـ...»، تتجاهلين نطق الكلمة تحسبًا لعودة

تونكي فجأة، «...هناك؟».

«لا أعرف بالضبط، أكثر من واحد، أقل من مدينة. لكن يتجه إليهم المزيد».

يثير هذا قلقك. لا يمكن أن يكونوا جميعًا يطاردن أزواجهم القتلة وبناتهم المختطفات. «لماذا؟ كيف لهم أن يعرفوا أنهم ذاهبون إلى هناك؟».

«لا أعلم».

طيب، شكرًا على المساعدة.

كل ما تعرفينه يقينًا أن جيجا متجه جنوبًا. لكن «جنوبًا» تشمل كثيرًا، أكثر من ثلث القارة، آلاف الكومونات، وعشرات آلاف الأميال المربعة. إلى أين هو ذاهب؟ لا علم لك. ماذا لو اتضح أنه متجه شرقًا؟ غربًا؟ أو توقف بالكامل؟

تراودك فكرة. «هل يمكن أنهما توقفا هناك؟ جيجا وناسّون؟ في ذاك المكان؟».

«لا علم لي. لقد ذهبا في هذا الطريق، لم يضيعا مني قبل وصولهما هناك».

هكذا تنتظرين عودة تونكي، وتخبرينها إلى أين أنتما ذاهبتين. لا تخبريها بالسبب، وهي لا تسأل. ولا تخبريها ما الذي أنتما متجهتين إليه أيضًا، لأنك في الواقع لا تعلمين بالضبط. لعل أحدهم يحاول بناء مرتكز جديد، لعل ثمة مذكرة بذلك. من الجيد بغض النظر عن كل ذلك أن تصبح لكما

وجهة محددة مرة أخرى.

تتجاهلين الشعور بالتوتر، وتنطلقان على الطريق الذي سافرت عليه ناسّون، أو هكذا تأملين.

***

بحسب فائدتهم يتوزعون: السادة والخدم، والمهرة والولادون، والحكماء والمحاربون، وبعض الأشدة لحمايتهم أجمعين.

- اللوح الأول - «عن النجاة» - البيت التاسع

١٤

سيانيت تكسر لعبتها

«ابقيا حيث أنتما، وانتظرا التعليمات».

هذا ما قالته برقية يومينِس.

قدمتها سيانيت إلى ألابستر دون أن تنبس بحرف، لمحها فضحك. «يا عيني يا عيني. أنت إما فزت بخاتم جديد وإما بحكم إعدام يا سيانيت الأوروﭽينية. سنعرف عندما نعود».

إنهما في غرفتهما بنزل نهاية العالم. تنهض سيانيت، مضطربة ومنزعجة، وتذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا. هذه غرفة أصغر من السابقة، لما كان عقدهم مع آليا قد تم ولم تعد الكومونة تتحمل كلفة إقامتهما. ألابستر مرتخٍ تمامًا، مساحة إيجابية عالية طويلة العظام في مواجهة بياض السرير السلبي، في ضوء المساء الخافت. لا تملك منع نفسها من التفكير في المسلة العقيقية عندما تنظر إليه: إنه مثلها حيث لا يجب أن يكون، مثلها لا يبدو حقيقيًّا تمامًا، مثلها مثير للإحباط. لا تفهم كيف له ألا ينزعج. «ما الذي يعنوه بـ«ابقيا حيث أنتما»؟ ما هذا الخراء؟ لم لا يسمحون لنا بالرجوع؟».

يمصمص شفتيه. «ما هذا الكلام البذيء؟ ما الذي حدث للفتاة المهذبة التي قابلتها في المرتكز؟».

«حدث أنها قابلتك. أجب على سؤالي».

«لعلهم يعطوننا إجازة». يتثاءب ألابستر ويتدلى من فوق

السرير ليلتقط ثمرة فاكهة من الحقيبة على الرف. لهما أسبوع يشتريان الطعام لأنفسهما. على الأقل صار يأكل دون أن يذكره أحد، يبدو أن الملل مفيد له. «ما الفرق بين تضييع وقتنا هنا أو على الطريق العائد إلى يومينِس يا ساين؟ على الأقل نحن هنا مرتاحان. عودي إلى الفراش».

تكشف له عن أسنانها. «لا».

يتنهد. «لتستريحي، لقد قمنا بواجبنا هذه الليلة. يا نار الأرض! أتريدينني أن أغادر لبعض الوقت كي ترتاحي؟ هل سيحسِّن هذا من مزاجك؟».

في الواقع نعم، لكنها لن تعترف له بهذا. بيد أنها تعود إلى الفراش أخيرًا، لأن ليس هناك شيء آخر تفعله. يعطيها شريحة برتقال فتتقبلها، لأنها فاكهتها المفضلة وسعرها هنا رخيص. ثمة كثير مما يقال عن الحياة في كومونة ساحلية، فكرت في هذا كثيرًا منذ جاءا هنا. طقس معتدل وطعام جيد وحياة زهيدة التكاليف، ويمكنك مقابلة مسافرين من كل إقليم يفدون على الميناء للسفر والتجارة. والمحيط، يا له من شيء بديع خلاب. وقفت ذات مرة في النافذة تتأمله لساعات. لولا نزوع الكومونات الساحلية للزوال من وجه الأرض كل بضع سنوات... آه.

تقول: «أنا فعلًا لا أفهم»، تشعر أنها تكررها للعشرة آلاف مرة مثلًا، لا بد من أن بستر قد ضجر من شكواها. لكن ليس عندها شيء آخر لتفعله، لذا عليه أن يتحملها. «هل هذا عقاب ما؟ هل كان عليَّ ألا أجد هذا الشيء الصدئ العملاق

المختفي في أعماق مرفأ خلال وظيفة تنظيف شعاب مرجانية روتينية؟»، ترمي يديها في الهواء، «من كان ليتوقع ذلك؟».

يقول ألابستر: «غالبًا يريدونك موجودة عندما يصل الجيوميستيون، لعلّ يكون هناك للمرتكز مصلحة ما».

قال ذلك من قبل، وتعلم أن هذا لا يخلو من صحة. إن الجيومستيين يتهافتون بالفعل على المدينة، بل وكذلك الأركيوميستيون والقوالون والبيومستيون، وعدد من الأطباء المهتمين بتأثير المسلة القريبة على سكان آليا. وبالطبع جاء أيضًا المشعوذون والنصابون: قوالو الحديد والمنجمون وغيرهم من ممارسي العلوم الزائفة. جاء باختصار كل من تدرب على حرفة أو له هواية، من شتى كومونات الربع والأرباع القريبة. إنها وألابستر قد حصلا على تلك الغرفة في النزل فقط لأنهما من اكتشف هذا الشيء، ولأنهما حصلا عليها مبكرًا، لولا هذا وذاك لما تمكنا من إيجاد غرفة في أي نزل أو خان في المدينة، إذ امتلأت كلها عن آخرها.

لم يأبه أحد من قبل بالمسلات اللعينة، لكن أيضًا لم يرَ أحد من قبل مسلة تحوم عن قرب إلى هذه الدرجة، واضحة ومحشية بآكل صخور ميت، فوق مدينة عامرة بالسكان.

لكن فيما يتجاوز مقابلتها لسماع روايتها عن رفعها للمسلة -صارت تجفل كلما سمعت أحدهم يعرفها بغريب يدَّعي أنه *أحمق-ما مبتكر مكان-ما*- لا يريد الجيومستيون منها شيئًا. وهذا شيء جيد، خاصة وهي غير مصرح لها بالتفاوض نيابة عن المرتكز. ربما ألابستر مصرح له، لكنها لا تريده أن يساوم

أي شخص على خدماتها. إنها لا تظنه قد يورطها في فعل شيء لا تريده، إنه ليس وغدًا كامل الوغدية، لكن هذا مبدؤها بشكل عام.

والأسوأ من ذلك، أنها لا تصدق ألابستر في الواقع. لا مغزى من سياسة نبذها هنا. يجب أن يرغب المرتكز في وجودها في المنطقة الاستوائية، حيث سيمكن أن يقابلها باحثو الجامعة السابعة الإمبراطورية، وحيث سيكون في وسع كبار المرتكز التحكم في كم سيدفع الجيوميستيون لقاء مقابلتها. بل سيرغبون في استجوابها بأنفسهم، وفهم القوى الغريبة التي واجهتها ثلاث مرات بشكل أفضل، والتي باتت تعلم أنها بشكل ما مصدرها المسلات.

(وسيود الأوصياء أيضًا أن يتحدثوا معها. لأولئك أسرارهم الخاصة. وأكثر ما يقلقها أنهم لم يبدوا أي اهتمام).

حذرها ألابستر من الحديث عن هذا الجزء. قال لها في اليوم التالي للحادثة «لا داعي إلى أن يعرف أحد أنك قادرة على الاتصال بالمسلات». كان لا يزال ضعيفًا بعد التسمم، بالكاد يقدر على الخروج من الفراش. اتضح أنه كان مستنزف أوروجينيًّا تمامًا وقتما رفعت هي المسلة، على الرغم من تبجحها لأسايل بشأن قدرته على العمل عن بعد. بيد أنه مع ضعفه، أمسك يدها وشدّها إليه شدًّا ليجعلها تنصت. «أخبريهم بأنك فقط حركتِ الأرض تحتها فقفزت من تلقاء نفسها، مثل فلينة تحت الماء. حتى زملاؤنا سيصدقون ذلك، إنها مجرد أثر من حضارة ميتة ليس له معنى. لن يسألك أحد

عنها لو لم تعطهم سببًا للسؤال. لذا لا تتكلمي عنها، ولا حتى معي».

ما يجعلها بالطبع تود أن تتحدث عنها أكثر. لكن المرة التي حاولت فيها الحديث بعدما شفي بستر، حدق إليها ولم ينطق، حتى فهمت ما يرمي إليه وذهبت لتفعل شيئًا آخر.

وذلك يغضبها فوق كل ما عداه.

تقول أخيرًا وهي تنهض على قدميها: «سأذهب للتمشية».

يقول ألابستر: «حسنًا»، ويمد أطرافه وينهض، تسمع مفاصله تطرقع، «سأذهب معك».

«لم أطلب الصحبة».

«أعلم»، يبتسم لها تلك الابتسامة ذات الحواف الحادة التي بدأت تكرهها، «لكن لو تنوين الخروج وحدك مساءً في كومونة حاول فيها أحدهم أن يقتل أحدنا، فلا مفر لك من الصحبة».

هنا تبهت سيانيت، «أوه!». لكن هذا هو الموضوع الثاني الذي لا يمكنهما أن يتحدثا فيه، ليس لأن ألابستر منع الكلام فيه أيضًا، بل لأن أحدًا منهما لا يعرف أكثر مما يؤهله للتخمين. تود سيانيت تصديق أن أبسط التفسيرات هو الأرجح: أحد الطباخين في المطبخ كان غير مؤهل. لكن ألابستر أشار إلى ثغرة في هذا المنطق: لم يمرض أحد في النزل غيره، ولا في المدينة كلها. تفكر سيانيت أن ربما هناك تفسيرًا بسيطًا آخر، مثل أن أسايل طلبت من العاملين في المطبخ تلويث

طعام ألابستر وحده. هذا من الأشياء التي يفعلها القياديون الغاضبون، على الأقل في الحكايات المتناقلة عنهم، والتي تزخر بالسم والتآمر والشر غير المباشر. تفضل ساين قصص المقاومين الذين يتغلبون على ظروف مستحيلة، أو المستولدين الذين يمنعون الهلاك من خلال زيجات سياسية حاذقة أو استيلاد إستراتيجي، أو الأشداء الذين يواجهون المشاكل بالعنف الصادق الأصيل.

ألابستر، كما هو دومًا، يفكر على ما يبدو في أن هناك المزيد مما يكمن وراء وروده على حافة الهلاك. وسيانيت لا تريد الاعتراف بأنه قد يكون محقًّا.

تقول: «حسنًا إذن»، وترتدي ملابسها.

إنها أمسية لطيفة. تشرع الشمس في الغروب بينما يمشيان على جادة منحدرة صوب المرفأ. يمتد ظلاهما أمامهما طويلًا، ومباني آليا، الجصية غالبًا ذات اللون الرملي الشاحب، تزدهر مؤقتًا بدرجات ألوان الجواهر العميقة الحمراء والبنفسجية والذهبية. الجادة تتقاطع مع شارع جانبي متعرج ينتهي عند خليج صغير قبالة الناحية المزدحمة من الميناء. عندما يتوقفان لتأمل المشهد، تستطيع ساين أن ترى مجموعة من شباب الكومونة يلعبون ويضحكون على طول شاطئ أسود الرمل. كلهم نحاف وبنيو البشرة وصحيحو الجسد، وسعداء بوضوح. تجد ساين نفسها تتأمل فيهم، وتتساءل هل هذا هو ما يعنيه أن تنشأ نشأة طبيعية.

ثم تنبض المسلة -الجلية لكل ناظر عند نهاية الجادة التي

يقفان عليها، إذ تحوم فوق الماء بعشرة أقدام أو خمسة عشر- نبضة أخرى من نبضاتها المنخفضة التي ما انفكت تبثها منذ أن رفعتها سيانيت، وتجعلها النبضة تنسى الصغار.

يقول ألابستر بهدوء شديد: «ثمة شيء خاطئ في هذا الشيء».

تنظر إليه سيانيت، منزعجة، وعلى وشك قول *نعم؟ الآن تريد أن تتكلم عنها؟* ثم تدرك أنه لم يكن ينظر إليها. كان يحك الأرض بإحدى قدميه ويداه في جيبيه، يبدو كما لو أنه... تكاد ساين تضحك، يبدو للحظة كما لو أنه شاب خجول على وشك اقتراح اقتراح شقي على رفيقته. بغض النظر عن حقائق أنه ليس شابًا ولا خجولًا، وأن لا فارق إن كانت جميلة أو كان شقيًا لأنهما معًا بعضهما بالفعل، أي مراقب عارض لهما لن يدرك أنه يركز انتباهه في المسلة.

ما يجعل سيانيت على الفور تدرك أن *لا أحد غيرهما يسسببن نبضاتها*. إنها ليست نبضات بالمعنى المعروف، ليست وجيزة ولا ثابتة الإيقاع، بل أقرب إلى خفقة مؤقتة تسسببنها من حين إلى حين، عشوائية ومشؤومة، مثل وجع أسنان. لكن لو سسبن بقية أهل الكومونة هذا ولو مرة واحدة، فلن يلعبوا ولن يضحكوا ولن يعرفوا للراحة الهانئة في نهاية يوم طويل ذهبي مثل هذا طريقًا. بل كانوا جميعًا سيأتون إلى هنا ليراقبوا هذا الشيء الهائل المحلق الذي بدأت سيانيت تميل إلى إضافة نعت «الخطير» بعده في ذهنها.

ساين تحذو حذو بستر وتلتقط ذراعه، وتعانقه عن قرب

وكأنها تحبه فعلًا. تحافظ على صوتها خفيضًا، حتى وهي لا تدري عمن يحاولان مداراة حديثهما. لا يزال هنالك ناس في شوارع المدينة بينما يخفّ ازدحام يوم العمل، لكن لا يوجد أحد قريب، أو من يلقي لهما بالًا. «أنا مثل الآخرين، أنتظرها أن تعلو».

لأنها معلقة قريبًا جدًّا جدًّا من الأرض، أو للدقة من سطح الماء. كل مسلة أخرى رأتها ساين من قبل -بما فيها المسلة الجمشتية التي أنقذت حياة ألابستر، والتي لا تزال تهيم على بعد عدة أميال من الساحل- تطفو في أدنى طبقات السحب أو فوقها.

«إن بها ميلًا أيضًا في أحد جانبيها، وكأن حتى هذا الارتفاع المحدود يشقّ عليها».

ماذا؟ ولا تقدر على منع نفسها من رفع عينها إليها، غير أن بستر يعتصر ذراعها على الفور كي تنزل عينها مرة أخرى. لكن تلك النظرة الوجيزة كانت كافية لتتأكد مما قال: المسلة مائلة بالفعل، ميلًا بسيطًا، نهايتها العلوية تميل قليلًا نحو الجنوب. لا بد أنها تتأرجح، ببطء شديد، خلال دورانها. انحرافها واهن جدًّا، حتى أنها لم تكن لتلحظها أبدًا لولا وقوفهما في شارع تحيط به المباني مستقيمة الحوائط. والآن وقد رأتها لا تستطيع رؤية سواها.

تقترح: «لنمضِ من هذا الطريق». لقد توقفا هنا طويلًا. يوافق ألابستر، وينزلان الشارع الجانبي نحو الخليج بخطوات تبدو غير مكترثة.

«لهذا السبب يبقوننا هنا».

لا تلقي ساين له بالًا عندما يقول هذا. رغمًا عنها يشتت انتباهها جمال الغروب، وشوارع الكومونة الطويلة الراقية، ويمر بهما اثنان غيرهما على الرصيف، وتومئ إليهما أطولهما، حتى مع أن ساين وبستر يرتديان زيهما الأسود الرسمي. تلك الإيماءة البسيطة غريبة، ولطيفة. إن يومينِس أعظم منجزات البشر، ذروة البراعة والهندسة، وحتى لو دامت هذه الكومونة الساحلية التافهة الصغيرة عشرة مواسم، فلن تقترب حتى من مضاهاتها. لكن في يومينِس، لن يمنّ أحد على روچا بإيماءة أبدًا، مهما كان اليوم حلوًا.

ثم تطعن كلمات ألابستر الأخيرة تأملاتها. «ماذا؟».

يحافظ على خطواته هينة توازي خطواتها، رغم مشيته الطبيعية الطويلة. «لا يمكننا أن نتحدث في الغرفة، بل ومن الخطر حتى التحدث هنا في الخارج. لكنك أردت أن تعرفي سر أمرهم لنا بالبقاء هنا، فهذا هو السبب. المسلة تنهار».

هذا على الأقل واضح، لكن... «ما علاقة هذا بنا؟».

«أنت التي رفعتها».

تنفجر قبل أن تتمكن من التحكم في انفعالاتها. «بل رفعت نفسها، أنا فقط حركت الخراء الذي كان يعيقها، ولعل هذا ما أيقظها». أما حقيقة أن عقلها يصر على أنها *كانت نائمة* من قبل فهي شيء لا تنوي مساءلته أكثر من اللازم.

«وهذا أقصى تحكم في مسلة بلغه أي شخص على مدى ثلاثة آلاف عام من التاريخ الإمبراطوري»، يهز بستر كتفيه، «أنا لو كنت التافه خماسي الخواتم المتحذلق الذي يقرأ برقية عن ما حدث، هذا ما كنت لأفكر فيه، وكان ردي سيكون محاولة التحكم في الشخص الذي تحكم في هذه»، وترنو عيناه إلى المسلة، «لكن تافهي المرتكز المتحذلقين ليسوا ما يجب أن نخشاه».

لا تعلم ساين ما الذي يرمي إليه بحق الصدأ. لا تنكر أن لكلماته صدى حقيقيًا، يسهل عليها تخيل شخص مثل فلدسبار يفعل كما قال. لكن لماذا؟ لطمأنة السكان المحليين بوجود أوروچيني ذي عشرة خواتم بينهم؟ لا أحد يعلم بوجود بستر هنا إلا حفنة موظفين مشغولين غالبًا بذلك الفيض من الجيومستيين والسياح. كي يمكن التصرف في حال قامت المسلة فجأة بـ... فعل شيء ما؟ لا معنى لهذا. ومن أيضًا يفترض بها أن تقلق منهم؟ إلا...

تتجهم.

«أنت قلت من قبل شيئًا»، شيئًا عن... الاتصال بالمسلات؟ ما الذي يعنيه هذا؟ «و... وفعلت شيئًا تلك الليلة». ترميه بنظرة مضطربة، لكنه لا يحدق إليها هذه المرة، بل ينظر إلى الخليج وكأن المشهد خلب لبه، غير أن عينيه حادتان وجادتان. إنه يعلم ما الذي تقصده. تتردد للحظة ثم تقول: «أنت تستطيع فعل شيء ما بهذه الأشياء، أليس كذلك؟»، يا للأرض، كم هي حمقاء، «أنت قادر على التحكم فيها! هل يعلم المرتكز

بذلك؟».

«لا، ولا أنت أيضًا تعرفين شيئًا». عيناه القاتمتان تواجهان عينيها للحظة، ثم تنزل عنها.

«ما الذي يجعلك كتـ...»، لكنه ليس حتى كتومًا، فهو يتحدث إليها، لكن وكأنه يستريب في أن ثمة من يتنصت عليهما بشكل ما. «لا أحد يستطيع سماعنا في الغرفة»، وتومئ مشيرة إلى حفنة أطفال يركضون عبرهم، يصطدم أحدهم بألابستر ويعتذر. الشارع ضيق. يعتذر؟ فعلًا؟

«لا سبيل لك للتأكد من ذلك. عمود ارتكاز المبنى الرئيسي كله من الجرانيت، ألم تلاحظيه؟ ويبدو أن الأساس كذلك. ولو أنه يستقر مباشرة على السرير الصخري...»، يرتسم على وجهه تعبير مؤقت مربك، ثم يعود إلى التعبير الخاوي.

«ما علاقة هذا بـ...»، ثم تفهم. أوه، *أوه*. لكن... لا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. «أتقول إن هناك من قد يسمعنا عبر الحوائط؟ عبر الصخر نفسه؟»، لم تسمع قط بأي شيء مشابه. لكنه منطقي، لأن هكذا تعمل الأوروچينية في المقام الأول؛ عندما ترتكز ساين في الأرض، لا يصبح بوسعها فقط سسبنة الصخرة الذي ارتبط وعيها بها، بل كل ما يلمسها أيضًا. حتى لو لم تكن قادرة على إدراك كنه الشيء نفسه، مثلما صار مع المسلة. لكن أن تشعر بالذبذبات التكتونية شيء، وأن تشعر بالصوت شيء آخر، لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. لم تسمع قط بروچا يتمتع بهذا القدر من الرهافة.

ينظر إليها مباشرة لوقت أطول، «أنا أستطيع»، وعندما تحملق إليه يتنهد، «كان هذا في وسعي دائمًا، وأنت أيضًا قادرة غالبًا، لكنك لا تستطيعين تمييزه بعد، ليس بالنسبة إليك أكثر من ذبذبات واهنة. لم أبدأ في تمييز الأنماط بين الذبذبات إلا عندما اقتربت من الخاتم الثامن أو التاسع. التفاصيل هي كل شيء».

تهزّ رأسها، «لكنك الوحيد الذي وصل إلى الخاتم العاشر».

«أغلب أبنائي يحتمل أن يصلوا إلى الخاتم العاشر».

تجفل سيانيت، تتذكر فجأة الطفل الميت في محطة التوصيل بالقرب من ميهي. المرتكز يتحكم في كل الموصلين، ماذا لو كان لديهم القدرة على إجبار أحد أولئك الأطفال المساكين المحطمين على التنصت، والإدلاء بما يسمعه مثل مستقبل تلغراف حي؟ هل هذا ما يخشاه؟ هل المرتكز مثل عنكبوت، يكمن في قلب يومينِس ويستخدم شبكة التوصيل للتنصت على كل محادثة في السكون؟

لكن يشتتها عن هذه التخمينات شيء يكِز مؤخرة عقلها، شيء قاله ألابستر. تأثيره الملعون عليها يجعلها تُسائل كل شيء نشأت عليه. قال *أغلب أبنائي يحتمل أن يصلوا إلى الخاتم العاشر*، لكن لا يوجد ذوو عشرة خواتم في الفولكروم غيره. يقولون أن لا يُرسل من أطفال الروجا إلى محطات التوصيل إلا من لا يستطيعون التحكم في أنفسهم، أليس كذلك؟

أوه.

لا.

تقرر ألا تصرح بهذا التجلي المباغت.

يربت على يدها، ربما استمرارًا للتمثيل، وربما يحاول فعلًا تهدئتها. إنه بالطبع يعلم ما الذي يفعلونه بأبنائه، أكثر منها غالبًا.

ثم يكرر: «القلق الحقيقي ليس من كبار المرتكز».

من غيرهم إذن؟

من قد يقصد غيرهم؟ إن كبار المرتكز في فوضى، هذا معروف. تبقي ساين عينها مفتوحة على سياساتهم لأنها ذات يوم ستكون منهم، ومن المهم ان تفهم من يمتلك القوة ومن يبدو فقط كذلك. هنالك على الأقل عشر فصائل مختلفة بالإضافة إلى المحتالين المعتادين؛ هناك المتسلقون، والمثاليون، ومن لا يمانعون طعن أمهاتهم بسكين سبجية لإحراز أي تقدم. لكن يخطر لساين مرة واحدة من الذي يفوق كل أولئك مكانة.

الأوصياء؛ لأن أحدًا لن يثق بحفنة من الروچات الأوساخ لإدارة شؤونهم الخاصة ثقة تامة. ليس أكثر مما وثقت شمشنا بميسالم. لا أحد في المرتكز يتحدث عن سياسات الأوصياء، غالبًا لأن لا أحد في المرتكز يفهمهم. يحتفظ الأوصياء بمشورتهم لأنفسهم، ويرفضون التدخل في أمورهم. يرفضون بعنف.

وتتساءل سيانيت لمرة ليست الأولى: من يشرف على الأوصياء؟

بينما تتفكر ساين في هذا يبلغان الخليج، ويتوقفان عند الممشى ذي الحاجز. تنتهي الجادة هنا، ويختفي حصاها تحت شاطئ رملي ينتهي بدوره تحت الممشى الخشبي المرتفع. ثمة شاطئ رملي غير بعيد يختلف عن الذي رأياه من قبل. يجري الأطفال ذهابًا وإيابًا على ألواح الممشى ويتصايحون عاليًا، ومن خلفهم ترى ساين مجموعة من السيدات الكبار يخضن في مياه المرفأ ويتضاحكن. تلاحظ رجلًا عاري الجذع يجلس على الحاجز، يبعد عدة أقدام من حيث يقفان. تلاحظه لعريه ولأنه يحدق إليهما، تجذب الصفة الأولى انتباهها للحظة -ثم تحيد بنظرها تهذبًا- لأن ألابستر ليس تحفة للناظرين ولأنها مضى عليها وقت طويل منذ أن قضت وقتًا ممتعًا. أما الثانية فتتجاهلها عادة، لأن تحديق الأغراب أمر يحدث لها في يومينِس طوال الوقت.

لكن.

إنها تقف عند الحافة مع بستر، مسترخية، ومرتاحة راحة لم تشعر بمثلها منذ زمن، وتنصت إلى لعب الأطفال. يصعب على عقلها متابعة الأمور الملغزة التي يناقشانها. سياسات يومينِس تبدو بعيدة كل البعد عن هنا، مبهمة وبلا أهمية ولا يمكن لمسها، مثل مسلة.

لكن.

لكنها تلاحظ أخيرًا أن بستر قد تصلب بجوارها، ومع أن وجهه التفت نحو الشاطئ والأطفال، فإنها تدرك أنه لا يلقي لهم بالًا. وهنا تتذكر أن أهل آليا لا يحدقون، ليس حتى في زوجين من ذوي الملابس السوداء يتمشيان ذات مساء. كل من قابلتهم في هذه الكومونة باستثناء أسايل أحسن أخلاقًا من فعل شيء مماثل.

لذا تنظر مجددًا إلى الرجل على الحاجز. يبتسم لها، وهذا لطيف نوعًا. إنه أكبر منها، بعشرة سنوات مثلًا، وجسده بديع. عريض المنكبين، ذو عضلات أكتاف ممتازة، تحت بشرة لا يشوبها شائبة، ومستدق الخصر.

يرتدي بنطالًا خمريًّا، وتلاحظ قميصًا معلقًا على الحاجز بجواره، ما يبدو ظاهريًّا أنه خلعه لينقع جسده في ضوء الشمس، والقميص أيضًا خمري. ولا تشعر إلا متأخرًا بذلك الطنين الغريب المألوف في مؤخرة سِسَبيننتها، الذي ينذر بوجود وصي.

يسألها ألابستر: «وصيك؟».

«كنت أتمنى أن يكون وصيك».

«لا»، ثم يتظاهر كما لو أنه يتقدم ويضع يديه على الحاجز، ويحني رأسه كما لو أنه يريحها على كتفه، «لا تدعيه يلمسك ببشرته العارية».

تلك كانت همسة أدركتها بالكاد. ثم ينتصب ألابستر ويستدير إلى الشاب. «أتفكر في شيء أيها الوصي؟».

يضحك الوصي بخفة ويقفز نزولًا عن الحاجز. إنه ساحلي بدرجة أو بأخرى، بني البشرة ومجعد الشعر وشاحب قليلًا، لكنه فيما عدا ذلك لا يختلف عن أهل آليا. لكن، لا، يبدو منهم سطحيًّا، غير أنه به سمة ما لا يمكن وصفها، وجدتها ساين في كل وصي دفعها حظها التعيس إلى مقابلته. لا أحد في يومينِس قد يرى وصيًّا فيحسبه أوروچينيًّا، ولا حتى راكدًا. بهم شيء ما مختلف، ويدركه الجميع.

يقول الوصي: «في الواقع نعم، يا ألابستر ذو العشرة خواتم وسيانيت ذات الأربعة خواتم». مجرد قوله هذا يجعل سيانيت تجزّ على أسنانها. لو ستُنادى بشيء غير اسمها المباشر فهي تفضل مسمى أوروچينية مباشرة. يعرف الأوصياء طبعًا الفارق بين الأربعة خواتم والعشرة. «أنا إدكي وصيّ وارانت. أرى أنكما كنتما مشغولين».

يقول ألابستر: «كما انبغى علينا أن نكون»، ولا تملك سيانيت إلا أن تنظر إليه بذهول. إنه متوتر إلى درجة لم ترَه عليها من قبل، أوتار رقبته مشدودة، يداه مفرودتان إلى جواره و... *مستعدتان*؟ مستعدتان لماذا؟ لا تعلم حتى لِمَ خطرت لها كلمة مستعدتان. «كنا نقوم بمهمة كلفنا بها المرتكز، مثلما لا بد أنك تعرف».

«آه، طبعًا، أحسنتما». يلقي إدكي عينه وكأنه لا يهتم بالحادثة النابضة المائلة، التي هي المسلة. لكن سيانيت تراقب وجهه، وترى أن ابتسامته قد اختفت تمامًا وكأنها لم تكن موجودة قط. لا يمكن أن تكون هذه إشارة طيبة. «لكن

ليتك قنعت بالقيام بالمهمة التي كلفت بها *فقط*. يا لك من كائن عنيد يا ألابستر».

سيانيت تشتعل غيظًا، حتى هنا تُعامل بفوقية. «أنا من قام بالمهمة أيها الوصي. هل ثمة مشكلة في شغلي؟».

يلتفت الوصي وينظر إليها متفاجئًا، وهنا تدرك سيانيت أنها أخطأت خطأً كبيرًا، لأن ابتسامته لم ترجع. «أنت؟ فعلًا؟».

يصدر ألابستر هسيسًا و... يا شر الأرض! تشعر به يطعن طبقات الأرض بوعيه، لأنه يبلغ عمقًا لا يُصدق. مدى قوته يجعل جسدها كله يرتجف وليس فقط سِسَبيينتها. لا تستطيع أن تتبعه، فهو يتجاوز نطاقها في لمح البصر، ويخترق بيسر شديد طبقة الحمم مع أنها على عمق أميال. وتحكمه بطاقة الأرض النقية تلك كلها كامل. مذهل. في وسعه أن يحرك جبلًا بهذا التحكم بمنتهى اليسر.

لكن *لماذا*؟

الوصي يبتسم فجأة. «الوصية ليشت ترسل إليك تحياتها يا ألابستر».

وبينما لا تزال سيانيت تحاول هضم ما قيل، وحقيقة أن ألابستر على وشك *مقاتلة وصي*، ألابستر يتصلب بالكامل.

«هل وجدتها؟».

«بالطبع، يجب أن نتحدث عمّا فعلته بها، قريبًا».

فجأة، صارت هناك سكين سبجية سوداء في يده، لا تعلم

سيانيت متى سحبها ولا من أين. نصلها أبيض عريض لكنه قصير إلى حدٍّ أحمق، لعله لا يزيد عن البوصتين طولًا، بالكاد يكفي لأن يُطلق عليها اسم السكين.

ما الذي سيفعله بهذه بحق الصدأ؟ يقص أظافرنا؟

وما الذي يجعله يرفع سلاحًا على أوروچينيين إمبراطوريين في المقام الأول؟ تقول: «أيها الوصي، لعل هناك سوء فهـ...».

يفعل الوصي شيئًا، فترمش سيانيت، لكن المشهد لم يتغير: لا تزال هي وألابستر يواجهان إدكي على ممشى مترع بالظلال وضوء الغروب الدامي، والأطفال والنساء يلعبون خلفهم. لكن ثمة ما تغير، ولا تدركه سيانيت إلا بعدما صدر عن ألابستر صوت مختنق، ودفعها فألقاها أرضًا على بعد عدة أقدام.

كيف لرجل نحيل مثله أن تتأتى له قوة تكفي لرميها هكذا؟ لن تعرف أبدًا. تصطدم بألواح الممشى بشدة طردت الهواء من صدرها، وعبر ضباب نظرها رأت الأطفال الذين كانوا يلعبون، قد توقفوا عن اللعب وأخذوا يراقبون، وأحدهم يضحك. تكافح كي تنهض ساخطة كل السخط، وقد بدأ فمها بالفعل يلعن ألابستر حتى أعماق الأرض.

لكن ألابستر أيضًا صار على الأرض، على بعد قدم أو اثنين فقط، ممددًا على معدته وعيناه مثبتتان عليها، و... ويصدر صوتًا غريبًا. لا يكاد يرقى إلى أن يكون صوتًا؛ ثغره فاهر على أقصاه، لكن الصوت الخارج منه أقرب إلى صرير لعبة أطفال،

أو صوت كير قوال الحديد. ويرتعش ارتعاشًا، وكأنه لا يقدر على أية حركة تفوق الارتعاش، ما لا تجد له معنى، إذ لا تجد فيه خطبًا. لا تعرف سيانيت ماذا هنالك، حتى تدرك متأخرًا...

... أنه يصرخ.

«ما الذي جعلك تظن أني سأصوب عليها؟»، يحدق إدكي إلى ألابستر، وترتجف سيانيت عندما تجد تعبير وجهه سعيدًا ومبتهجًا، حتى وألابستر يرتعش بلا حول ولا قوة... والسكين التي كان يحملها إدكي من قبل مغروزة في تجويف كتفه. تحدق إليه ساين بذهول من أنها لم تلاحظها إلا الآن، فهي أوضح ما تكون أمام رداء بستر الأسود. «كنت وستظل أحمق يا ألابستر».

وها هو إدكي الآن يحمل سكينًا سبجية أخرى، طويلة ونحيلة جدًّا هذه المرة؛ خنجر مألوف إلى حد مرعب.

«لماذا...؟»، لا تستطيع أن تفكر. يداها تؤلمانها وهي تخربش ألواح الممشى زحفًا إلى الوراء، تسعى إلى النهوض والهروب في نفس الوقت. تتوجه غريزيًّا إلى الأرض أسفلها، وهنا تدرك أخيرًا ما الذي فعله الوصي. لا شيء هنا يمكنها استخدامه. لا تستطيع أن تسسبن الأرض بينما يتجاوز الأقدام القليلة بين يديها وخلفها، لا شيء هنا إلا الرمل والغبار المالح وديدان الأرض. وتشعر بوجع ذوي رنين في سسبينتها كلما حاولت التوجه إلى الأب، يشبه ذلك الذي تشعر به عندما يصطدم مرفقها فتفقد الشعور بذراعها حتى أطراف أصابعها، وكأن الجزء المسؤول عن ذلك في مخها نام. ثمة تنميل،

ستعود إلى العمل لاحقًا، لكن الآن لا شيء هناك.

لقد سمعت الحصى من قبل بعد انطفاء الأنوار ليلًا يتهامسون عن هذا. الأوصياء غريبون جدًا، لكن ما يجعلهم أوصياء أنهم قادرون، بشكل ما، على إيقاف الأوروچينية بمجرد إرادتهم. وبعضهم بشكل ما أغرب من البقية؛ متخصصون في الغرابة. هؤلاء لا يُكلفون بالوصاية على أية أوروچينيين ولا يُسمح لهم بالاقتراب من الأطفال غير المدربين، لأن مجرد اقترابهم خطير. لا يفعل هؤلاء الأوصياء شيئًا إلا تتبع الأوروچينيين المارقين، وعندما يجدونهم... لم ترغب سيانيت أبدًا في فهم ما الذي يفعلونه بهم بالتحديد، حتى الآن، لكن يبدو أنها على وشك أن تعرف. يا نار الأعماق، إن اتصالها بالأرض مشلول مثل شيخ صدئ عقله. أهكذا هم الراكدون؟ أهذا ما يشعرون به؟ كانت تحسدهم طوال حياتهم، حتى تلك اللحظة.

لكن، بينما يقترب إدكي منها شاهرًا خنجره، ترى عينيه تضيقان، ثغره يتجهم، ما يجعلها تفكر فيما تشعر به عندما ينتابها صداع سيئ. يجعلها هذا تقول «هل... هل أنت، إممم، بخير؟»، ليس لديها أدنى فكرة لمَ سألته هذا.

يطوح إدكي رأسه جانبًا ردًا عليها وتعود ابتسامته إلى وجهه، رقيقة ومتفاجئة. «يا لك من طيبة، أنا بخير يا صغيرة، بخير تمامًا». لكنه يظل يقترب منها.

تزحف إلى الخلف من جديد، تحاول مرة أخرى استحضار قدرتها، وتفشل، ثلاث مرات. وحتى لو نجحت... إنه وصي.

طاعته واجبة. موتها واجب لو كانت تلك مشيئته.

هذا لا يصح.

تقول: «أرجوك»، يائسة، مذعورة، «أرجوك، لم نفعل شيئًا خاطئًا، أنا لا أفهم، أنا لا . . .».

يقول بعطف كامل: «لست في حاجة إلى الفهم، بل تحتاجين إلى شيء واحد فقط»، ويندفع تجاهها، موجهًا خنجره إلى صدرها.

لاحقًا، ستفهم تسلسل الأحداث.

لاحقًا، ستدرك أن كل ما حدث كان لمحَ البصر. أما الآن، فكل شيء بطيء. مرور الوقت بات بلا معنى. لا تعي إلا سكينه السبجية، ضخمة وحادة، يلمع نصلها في ضوء الغسق الباهت، يقترب منها رويدًا رويدًا، برفق يستفز رعبها النابع من إحساسها بالواجب.

هذا لا يصح، ولم يكن قط.

إنها واعية فقط بالخشب المترب تحت أصابعها، والقليل جدًّا من الحركة والدفء عديمي النفع اللذين في وسعها سسبنتهم. لا يكفيان حتى لتحريك حصاة.

وهي واعية بألابستر، إنه يرتجف، بل هو يتشنج. إنه غير متحكم في جسده، كيف لم تدرك هذا من قبل؟ ثمة شيء ما في هذه السكين السبجية المغروسة في كتفه تحجب عنه كل قواه. النظرة على وجهه تصرخ بالعجز والوجع.

ثم تعي أنها غاضبة، ناقمة، اللعنة على الواجب. ما الذي يفعله هذا الوصي؟ ما الذي يفعله كل الوصاة؟ هذا لا يصح.

ثم...

ثم...

ثم...

تعي بالمسلة.

(ألابستر يزداد ارتجافًا، فمه يزداد اتساعًا، عيناه مثبتتان على عينيها رغم عجزه عن التحكم في بقية جسده. ترنّ في عقلها الذكرى المتطايرة لتحذيره، وإن كانت عاجزة عن تذكرها كلمة بكلمة).

السكين في منتصف الطريق إلى قلبها، وهذا شيء تعيه كل الوعي الممكن.

نحن آلهة مكبلة، وهذا لا يصح.

هكذا تتوجه مجددًا، ليس إلى الأسفل، بل إلى فوق، ليس مباشرة، بل إلى الجانب...

لا، ترتسم الكلمة على شفا ألابستر رغم ارتجافه.

...وتسحبها المسلة إلى نورها الدموي الومّاض المضطرب. إنها تسقط إلى أعلى، إنها تُسحب إلى أعلى، وإلى الداخل. صارت خارج نطاق السيطرة بالكامل، يا أبانا الأرض، كان ألابستر محقًّا، هذه القوة كثيرة عليها...

... وتصرخ، لأنها نسيت أن هذه المسلة مكسورة. تتألم وهي تُسحل في المنطقة المشروخة، وكأنما يشطرها كل شرخ شطرًا ويهشمها تهشيمًا ويمزقها إربًا، حتى...

حتى تتوقف، متكورة من شدة الألم وتطفو وسط الحمار الدموي المشروخ.

هذا ليس حقيقيًا، لا يمكن أن يكون حقيقيًا. تشعر بنفسها ممددة على الألواح الخشبية وآخر أشعة الشمس على بشرتها، ولا تشعر بسكين الوصي، أو على الأقل ليس بعد. لكنها هنا أيضًا، وترى، مع أن السِّسَبينا ليست عينًا والرؤية كلها في مخيلتها:

آكل الصخر في قلب المسلة يطفو أمامها.

تلك أول مرة تكون فيها قريبة من آكل صخر. تقول الكتب كلها أن آكلي الصخر ليسوا ذكورًا ولا إناثًا، لكن هذا يشبه شابًّا رشيقًا صُنع من رخام أسود أبيض العروق، يرتدي رويًا ناعمًا قزحيًّا، أطرافه رخامية مصقولة، مفرودة وكأنه تجمد في منتصف وقوعه. تنتشر الشقوق من على بشرته وما تبدو وكأنها ملابسه، إلى داخله، وعبره.

تتساءل *هل أنت بخير؟* ولا تملك أدنى فكرة لما خطر لها ذلك، مع أنها أيضًا تتشقق بالكامل. صار جلده متصدعًا على نحو مريع، وتود ساين أن تكتم نفسها كيلا يتضرر أكثر. لكن هذا غير عقلاني، لأنه ليس هنا وهذا كله ليس حقيقيًا، وإنما هي في الشارع على شفا الموت، وآكل الصخر مضى على

موته عصور سحيقة.

يغلق آكل الصخر فمه ويفتح عينيه، ويخفض رأسه كي ينظر إليها، يقول: «أنا بخير، شكرًا على سؤالك».

ثم

تتهشم

المسلة.

١٥

أنت، بين أصدقاء

تصلين إلى «المكان الذي يجتمع فيه الأوروچينيون»، ويتضح أنه ليس كما توقعت أبدًا. فهو أولًا مهجور، وثانيًا لا يمكن اعتباره كومونة.

ليس بأي معنى من معاني الكلمة. الطريق يتسع أكثر كلما اقتربت ويستوي بالأرض، حتى يختفي تمامًا بالقرب من منتصف المدينة. كومونات كثيرة تنحو ذلك النحو، أي تزيل الطريق كي تشجع المسافرين على التجارة، لكن هذه الكومونات أيضًا توفر مكانًا للتجارة، وأنت لا ترين هنا ما يبدو كواجهة متجر أو سوق أو حتى نزل. بل والأسوأ من ذلك أنها ليس لها سور. لا كومة حجارة ولا سياج سلكي ولا حتى عصي مسننة مغروسة في الأرض حول محيط المدينة. لا شيء يفصل هذا المكان عن الأراضي المحيطة، وهي أراضٍ تحفها الغابات وتغطيها الشجيرات الهزيلة، أي خير غطاء للمهاجمين.

لكن علاوة على هجر المدينة الظاهري وافتقارها إلى الأسوار، ثمة أسباب أخرى للاستغراب، أسباب كثيرة، تلاحظينها أنت ورفقتك وأنتم تتفقدون المكان. منها مثلًا أن لا توجد حقول كافية. إن أي كومونة يفترض بها أن تأوي عدة مئات من الأشخاص، مثلما يفترض من هذه، يجب أن تحتوي على ما يزيد عن هذا الفدان (العاري) من أعواد الشويا الهزيلة

الذي لمحته في طريقك. وكان يجب أن يكون بها مرعى أكبر من رقعة العشب الجاف الضئيلة تلك، التي وجدتِها بالقرب من وسط المدينة. ولا ترين أية بيوت أحراز أيضًا، لا مرتفعة عن الأرض ولا غير ذلك. طيب، لعلهم يخبئون بيوت أحرازهم، هكذا تفعل كومونات كثيرة. ثم تلاحظين أن هناك اختلافًا شاسع بين طرازات المباني كلها: فذلك طويل ونحيل كما المدن الكبرى، وهذا عريض ومستوٍ بالأرض مثلما في الأماكن دافئة المناخ، وهاك ثالث ذو قبة مغطاة بالتربة العشبية نصفه داخل الأرض مثل بيتك القديم في تيريمو. إن لاختيار أغلب الكومونات لطراز بعينه والتزامها به سبب: الاتساق يرسل رسالة مرئية، يحذر المهاجمين المحتملين بأن أعضاء هذه الكومونة متساوون ومتحدون في هدف واحد، وهو رغبتهم في الدفاع عن أنفسهم. أما رسالة هذه الكومونة المرئية فهي... الارتباك، أو ربما الإهمال. إنها شيء خارج قدرتك على التفسير، شيء يوترك أكثر من لو كانت الكومونة تعجّ بالعدوانيين.

تسيرين أنت ورفقتك، بحذر، ببطء، عبر شوارع المدينة الخاوية. تونكي لا تحاول حتى التظاهر بالاطمئنان. تحمل في يديها سكينين سبجيتين بنصال سود مشهرة. لا تعلمين أين كانت تخفيهما كل ذلك الوقت، وإن كانت قادرة على إخفاء جيش كامل في مثل تلك التنورة. يبدو هوّا مطمئنًا، لكن من ذا الذي يعرف بما قد يشعر هوّا؟ لقد بدا هادئًا أيضًا عندما حول الكيركوزا إلى تمثال.

لا تخرجي سكينك. فلو صدق أن في هذا المكن تجمع للروچات، فلن ينقذك حال أزعجهم وجودك إلا سلاح واحد.

تقولين لهوّا: «هل أنت متأكد أن هذا هو المكان السليم؟».

يومئ بيقين حاسم. ما يعني أن ثمة عديدًا من الناس هنا، لكنهم مختبئون. لماذا يختبئون؟ وكيف تمكنوا من رؤيتكم تقتربون رغم هطل الرماد؟

تغمغم تونكي: «غالبًا لم يمضِ على ذهابهم الكثير»، وتنظر إلى حديقة ميتة قريبة من أحد البيوت، انتزع المسافرون أو السكان السابقون أي شيء قابلًا للأكل من سيقانها الجافة، «تبدو البيوت في حال جيد، وتلك الحديقة كانت سليمة قبل شهرين».

تفاجئك لوهلة حقيقة أنك صار لك شهران على الطريق. شهران منذ أوتشي. وأقل منهما منذ بدأ هطل الرماد.

ثم يعود تركيزك بسرعة إلى هنا والآن، لأن بعدما توقفتم في منتصف المدينة ولبثتم هناك لبعض الوقت، انفتح باب أحد المباني القريبة وخرجت إلى شرفته ثلاث نساء.

أول ما يسترعي انتباهك هو القوس المستعرض في يد إحداهم، ويظل لدقيقة كل ما ترين، مثلما مع تلك المرأة في آخر يوم لك في تيريمو. لكنك لا تثلجينها لحظيًا، فالقوس لم يكن مصوبًا نحوك، بل سندته المرأة فقط إلى إحدى ذراعيها. ورغم النظرة التحذيرية على وجهها التي تفصح عن أنها لا تمانع استخدامه، تعتقدين أنها لن تفعل بلا استفزاز. بشرتها

تكاد تكون بيضاء بياض هوّا، وإن كان شعرها لحسن الحظ أصفر وعيناها بنيتان لطيفتان. جسدها ضئيل، صغيرة العظام تفتقر إلى لحم ونحيلة الأفخاذ، على نحو كان ليحثّ الاستوائي العادي على التهكم البذيء من استيلادها البائس. إنها أنتاركتيكية على الأرجح، من كومونة أفقر من أن تطعم أبناءها كما ينبغي. وهي أبعد ما تكون عن وطنها.

ثانية من تجذب انتباهك هي المرأة المجاورة لها، وهي على الأرجح أكثر امرأة مهيبة رأيتها في حياتك. لا علاقة لهذا بهيئتها، فشكلها سانزي معتاد: الشعر الرمادي الهائش المعتاد ولون البشرة البني العميق المعتاد والحجم والبنية القوية الواضحة المعتادان. عيناها سوداوان سوادًا صادمًا، ليس صادمًا لأن سواد العيون نادر الوجود، بل لأنها تضع مظللًا للجفون رماديًّا ثقيلًا وكحلًا قاتمًا لتبرزهما أكثر. تتزين والعالم ينتهي! يتردد شعورك إزاء ذلك بين التعجب والغيظ.

وتشهر هاتان العينان السوداوان كما الأسلحة، تتلقى نظرات كل منكم على نصلها للحظة، قبل أن تشرع في استكشاف بقية متاعكم ولباسكم. إنها ليست بالطول الذي يحبه السانزيون في نسائهم -أقصر منك- لكنها ترتدي معطفًا فرويًّا كثًّا يتدلى حتى كاحليها، فيجعلها تبدو مثل دب ضئيل أنيق. ثمة شيء ما في وجهها لا يسعك تحديده بالضبط يجعلك تجفلين قليلًا. تبتسم ابتسامة تكشف عن كل أسنانها، نظرتها لا ترتجف، لا هي بالمرحبة ولا بالمضطربة. تدركين أخيرًا أنه ذلك الثبات، تفهمينه لأنك رأيته من قبل بضع مرات؛

إنها الثقة بالنفس. يشيع ذلك النوع من القبول الكامل غير المتزعزع للنفس بين الراكدين، لكنك لم تتوقعي رؤيته هنا.

لأنها روچا بالطبع. تعرفين أمثالك حين تسسبنينهم. وهي أيضًا تعرفك.

تضع المرأة يديها على فخذيها وتقول: «حسنًا. كم عدد رفقتكم؟ ثلاثة؟ أظنكم لا تودون الافتراق بعضكم عن بعض».

تحدقين إليها لبعض الوقت، وتقولين أخيرًا: «أهلًا، يا...».

تقول أخيرًا: «إيكّا، أنا إيكّاروچا كاستريما. أهلًا بكم. وأنت؟».

تقولين بلا تفكير: «*روچا؟*». أنت تستخدمين تلك الكلمة طوال الوقت، لكن سماعها بهذا الشكل، كاسم استخدام، يبرز فحشها. أن تسمي نفسك روچا يشبه أن تسمي نفسك كومة خراء. إنها صفعة على الوجه، تعبير عن... عن ماذا؟ لا تعرفين بالضبط.

تقول تونكي: «آه، أعلم أن هذا ليس من أسماء الاستخدام السبعة الشائعة»، صوتها ساخر، تفكرين في أنها إما تحاول أن تمزح وإما أن تداري عصبيتها، «أو حتى من الخمسة غير المحبوبة».

«لنقل إنه اسم جديد»، تتقافز نظرة إيكّا بين رفيقيك، تقيمهما، ثم تعود إليك، «إذن أصدقاؤك يعرفون حقيقتك».

تنظرين مرتبكة إلى تونكي، وتونكي تحدق إلى إيكّا مثلما

تحدق إلى هوّا عندما لا يكون مختبئًا وراءك، أي وكأن إيكّا لغز جديد بديع ربما تودّ أن تحصل على عينة دم منه. تقابل تونكي نظرتك للحظة من غير أدنى دهشة أو خوف، فتدركين أن إيكّا محقة، إنها تعرف حقيقتك منذ وقت غير قليل.

تتفكر تونكي وهي تتأمل إيكّا: «اتخاذ روچا اسمًا للاستخدام له تداعيات غير قليلة. وكاستريما؟ هذه ليست كومونة مسجلة في السجل الإمبراطوري الرسمي لكومونات الجنوب الأوسط، أعترف أن ثمة احتمالًا أني نسيت، فتلك القائمة تضم مئات الكومونات. لكني أعتقد أني لم أنسَ، فذاكرتي ممتازة. كومونتكم جديدة؟».

تحني إيكّا رأسها، على سبيل التأكيد من ناحية، وعلى سبيل الإقرار الساخر بانبهار تونكي من أخرى. «هذه النسخة من كاستريما كانت موجودة فعليًّا لها حوالي خمسين عامًا. إنها في الواقع ليست كومونة، بل هي رسميًّا مركز تجاري على طريقي يومينِس -ميسميرا ويومينِس-كيتيكر. عملنا مزدهر أكثر من الآخرين لأن هناك مناجم قريبة».

تتوقف للحظة، تحدق إلى هوّا، وللحظة تقطب ملامحها. تنظرين إلى هوّا بدورك، حائرة، لأن مع أنه بطبيعة الحال غريب الهيئة، أنت لا تعلمين ما الذي فعله ليستحق هذا التوتر من شخص غريب. وهنا تدركين أن هوّا قد جمد في مكانه تمامًا، وأن وجهه الصغير قد تحول من بشاشته العادية إلى توتر وغضب وما يشبه الشراسة الوحشية. إنه يحدق إلى إيكّا وكأنه يريد قتلها.

لا، ليس في إيكّا، تتبعين نظرته إلى الثالثة في صحبتهما، تلك التي تأخرت قليلًا خلف رفيقتيها، ولم تلقِ لها أنت بالًا لأن إيكّا خلابة للعيون. إنهما امرأة طويلة نحيلة و. . . ثم تتوقفين وتعبسين، لأنك فجأة صرت غير قادرة على التمييز. الأجزاء الأنثوية موجودة بلا شك، شعرها أنتاركتيكي ضامر وأحمر اللون قاتمه، وطويل يسر الناظرين، يؤطر ملامح محددة بإتقان. إنها بلا شك تود أن تُقرأ كامرأة، مع أنها لا ترتدي سوى عباءة طويلة فضفاضة عديمة الأكمام، تبدو أخفّ بكثير من أن تناسب برودة الطقس المتزايدة.

لكن بشرتها. . . تحدقين إليها، هذه فظاظة، ليست أفضل طريقة للتعرف على أولئك الناس، لكنك لا تستطيعين منع نفسك. بشرتها. . . لن يكفي وصفها بالنعومة، بل هي. . . براقة بشكل ما، وكأنها مصقولة. إما هي تتمتع بأفضل بشرة رأيتها في حياتك، أو. . . أو أن هذه ليست بشرة.

تبتسم ذات الشعر الأحمر، وتتأكدين حينما ترين أسنانها، وترتجفين حتى النخاع.

يهسّ هوّا مثل قط ردًّا على تلك الابتسامة، وعندما يفعل ذلك ترين بوضوح أخيرًا ولأول مرة أسنانه. إنه لم يأكل أبدًا أمامك، ولم يكشف عنها عندما يبتسم. أسنانه بيضاء في حين أن أسنانها شفافة، لكن بياضها لا يزيد عن طلاء على سبيل التمويه، ولا تختلف كثيرًا عن شكل أسنان حمراء الشعر، التي ليست مربعة بل متعددة الأوجه، ماسية.

تغمغم تونكي: «يا شر الأرض»، وبهذا تتحدث نيابة عن

كليكما.

تنظر إيكّا بحدة إلى رفيقتها. «لا».

ترنو عينا حمراء الشعر إلى إيكّا. لا يتحرك من جسدها أي شيء آخر، بل تظل بقيتها جامدة تمامًا، مثل *تمثال*. «يمكنني فعلها من دون إصابتك أنت ورفاقك بأي أذى». حتى فمها لا يتحرك، ويبدو الصوت مجوفًا تجويفًا غريبًا، وكأنه نابع من مكان ما في صدرها.

تضع إيكّا يديها على فخذيها. «لا أريد منك فعل أي شيء. هذا مكاني، وأنت وافقت على الالتزام بقواعدي. لذا تراجعي».

تتزحزح الشقراء. لا ترفع قوسها المستعرض، لكنك تعتقدين أنها على أهبة للاستعداد لذلك، كما لو أن لفعلها أية قيمة. لا تتحرك حمراء الشعر للحظة، ثم تغلق فمها لتداري على أسنانها الماسية المربعة. وعندما تفعل ذلك تدركين عدة أشياء في نفس الوقت: الأول أنها لم تكن تبتسم في الواقع، بل كان ذلك تهديدًا باستخدام القوة، مثلما يشدّ الكيركوزا أطرافه إلى الخلف كي يبرز مخالبه. والشيء الثاني أنها تبدو أقل إرعابًا بفم مغلق وبهذا التعبير الرائق. والإدراك الثالث أن هوّا كان يفعل نفس الشيء، لكنه استرخى وأغلق فمه مع تراجع المرأة حمراء الشعر إلى الخلف.

إيكّا تزفر. تركز معك من جديد.

تقول: «أعتقد أن من الأفضل أن تدخلوا معي».

تقول لك تونكي بلطف: «لا أعتقد أن هذه أفضل فكرة في العالم».

تقول الشقراء وهي ترمق إيكّا: «ولا أنا. هل أنت متأكدة يا بيك؟».

تهز إيكّا كتفيها، وإن كنت تعرفين أنها ليست قريبة حتى من اللامبالاة التي تبديها. «وهل كنت متأكدة من شيء أبدًا؟ لكنها تبدو لي فكرة جيدة، على الأقل الآن».

لست متأكدة إن كنت تشاركينها الرأي. لكنك لا يهمك الكومونات غريبة الأطوار ولا الكائنات الأسطورية ولا المفاجآت السيئة، لقد جئت إلى هنا لسبب واحد.

تسألين: «هل مرّ من هنا رجل وطفلة؟ أب وابنته؟ الرجل في مثل سني تقريبًا، والطفلة عندها ثمانية أعوام...»مر شهران، كدت تنسين، «تسعة أعوام، و...»، ترتبكين، تتلعثمين، «وتشـ.. تشبهني».

إيكّا ترمش، وتدركين أنك فاجئتها، صدقًا. من الجلي أنها استعدت لأسئلة مختلفة تمامًا. تقول: «لا»، و...

...وتفلت من قلبك نبضة.

تؤلمك هذه الـ«لا» البسيطة، تصيبك مثل فأس، ونظرة الحيرة الصادقة على وجه إيكّا هي الملح على الجرح. هذا يعني أنها لا تكذب. تجفلين وتتراجعين من الصدمة، من موت آمالك. يخطر لك وسط الضباب الذي يغشى ذهنك أنك كنت تتوقعين شيئًا ما منذ أخبرك هوّا عن هذا المكان. كنت

قد بدأت تحسبين أنك ستجدينهما هنا، وسيكون لك ابنة مرة أخرى، وتعودين أمًّا. والآن عرفت خطأك.

«إيسـ.. إيسّون؟»، تمسك يدان بساعديك. يدان من؟ تونكي؟ يداها خشنتان من شظف الحياة، تشعرين بحكّ البشرة الجافة على جلد معطفك. «إيسّون؟ أوه، يا للصدأ، لا...».

ها قد عرفت خطأك. كيف جرؤت على توقع أي شيء آخر؟ لستِ إلا روچا وسخة صدئة الروح، لستِ إلا عميلة خراب لشر الأرض، لست إلا مجرد خطأ في ممارسات الاستيلاد، لست إلا أداة في غير موضعها. لم يكن عليك أن تنجبي الأطفال في المقام الأول، ولا كان يجب عليك توقع الاحتفاظ بهم ما دمتِ قد أنجبت، ولماذا تشدّ تونكي ذراعيك؟

لأنك رفعت يديك أمام وجهك، و... أوه، وأجهشتِ بالبكاء.

كان يجب أن تخبري جيجا، قبل أن تتزوجيه، قبل أن تنامي معه، قبل حتى أن تنظري إليه وتفكري *لم لا*؟ وهي فكرة لم يكن التفكير فيها من حقك. ولو كان نزوعه إلى قتل الروچات قد كشف عن نفسه حينها، كان لينصب عليك لا على أوتشي. أنت من تستحقين الموت في النهاية، بعد العشرة آلاف نسمة سكان الكومونتين.

ولعلك أيضًا تصرخين قليلًا.

لا يجب عليك أن تصرخي، بل كان يجب أن تكوني ميتة. ليتك مت قبل أطفالك، ليتك مت عندما ولدت، ولم تعيشي حتى تحملي فيهم.

ليتك...

ليتك...

يجتاحك شيء ما.

شيء ذو شعور يشبه قليلًا موجة القوة التي جاءت من الشمال وأنت غيرت طريقها في ذلك اليوم الذي تغير فيه العالم. أو لعله مثل ما شعرت به عندما مشيت إلى داخل بيتك بعد يوم مرهق، لتجدي ابنك ممدًّدًا على الأرض. نسمة من الاحتمالات غير المتحققة، لمسة من شيء غير ملموس لكنه ذو معنى، جاءت وذهبت، غيابها صاعق كما كان وجودها في البدء.

ترمشين وتنزلين يديك. عيناك غائمتان وتؤلمانك، راحتا يديك مبتلتان. نزلت إيكّا عن الشرفة وتقف أمامك، لا تبعد إلا بضعة أقدام. لم تلمسك، لكنك تتطلعين إليها كما لو أنها فعلت، وقد فهمت أنها فعلت... شيئًا ما. شيء لا تفهمينه، ضرب من الأوروچينية بلا شك، لكن على نحو لم تعرفيه من قبل قط.

تقول: «هل أنت بخير؟». لا أثر للتعاطف على وجهها، لكن صوتها مع ذلك ألطف من ذي قبل، لكن لعل ذلك لأنها صارت أقرب.

تزدردين لعابك، حلقك يؤلمك. تقولين: «لا» (هذه الكلمة اللعينة مجددًا. تكادين تضحكين، لكنك تزدردين مرة أخرى فتذهب الرغبة في الضحك) «لا، لكني... أستطيع أن أتمالك

نفسي».

تومئ إيكّا ببطء، «أرى ذلك». المرأة الشقراء خلفها يبدو عليها الشك في إمكانية ذلك.

ثم، وبتنهيدة ثقيلة، تلتفت إلى تونكي وهوّا، وقد بدا هوّا هادئًا هدوءًا مخادعًا وطبيعيًا، طبيعيًا بمقاييس هوّا طبعًا.

تقول: «طيب، حسنًا. الوضع كالتالي: لكم أن تبقوا ولكم أن تذهبوا. لو اخترتم البقاء سآخذكم إلى الكومونة، لكن فلتعلموا من الآن: كاستريما فريدة من نوعها، نحن ندير أمورنا بشكل مختلف هنا. لو اتضح أن هذا الموسم قصير، سيأتي السانزيون ويرموننا في بحيرة الحمم، لكني لا أعتقد أنه سيكون قصيرًا».

تنظر إليك بمؤخِر عينها، ليس طلبًا للتأكيد، فالتأكيد ليست كلمة مناسبة لوصف الأمر، خاصة وأن ليس هناك أدنى شك. أي روچا يعرف ذلك مثلما يعرف اسمه.

توافقينها: «لن يكون موسمًا قصيرًا». صوتك أجش لكنك تتعافين، «سيدوم لعقود». ترفع إيكّا أحد حاجبيها. نعم، إنها محقة، أنت تحاولين تهوين الأمر على رفيقيك، وهما لا يحتاجان إلى التهوين، بل إلى الحقيقة، «لقرون».

بل إن حتى ذلك نوع من التهوين، أنت تعلمين يقينًا أنه سيدوم على الأقل ألف سنة، وربما بضعة آلاف.

تعبس تونكي قليلًا. «عمومًا كل شيء يشير إلى تشوه هائل في طبقات الأرض، أو لعله مجرد اضطراب في توازن

القشرة الأرضية على مستوى شبكة الصفائح القارية كلها. كم الأوروچينية المطلوبة لاستيعاب كل تلك الطاقة... فاحش. هل أنتم متأكدون؟».

تحدقين إليها، وقد نسيت لوعتك مؤقتًا. وكذا تفعل إيكّا والشقراء. تقطب تونكي وجهها غيظًا، وترمقك أنت بالتحديد. «يا للصدأ، هلا توقفت عن التظاهر بالدهشة؟ لم يعد هناك مجال للأسرار. أنت تعرفين من أنا وأنا أعرف من أنت، ما الداعي إلى متابعة التظاهر؟».

تهزّين رأسك، مع أنك لا تجيبين في الواقع على سؤالها، وتقررين الرد على السؤال الآخر. تقولين: «أنا متأكدة، لقرون، وربما أكثر».

تونكي تجفل. «لا تملك أية كومونة أحرازًا تكفي للبقاء كل هذا الوقت، ولا حتى يومينِس».

لا شك في أن بيوت أحراز يومينِس الأسطورية قد أمست كلها بحيرة حمم في مكان ما. جزء منك يؤسفه ضياع كل ذلك الطعام، وجزء آخر يشعر أن *هكذا تكون نهاية الجنس البشري أسرع وأرحم*.

عندما تومئين، تغرق تونكي في صمت مريع. إيكّا تنقّل نظرها بينك وبين تونكي، ويبدو أنها تقرر تغيير الموضوع.

تقول: «لدينا هنا اثنان وعشرون أوروچينيًّا»، تُذهلين، «وأتوقع أننا سنزيد بمرور الوقت. هل عندكما مشكلة في ذلك؟»، تنظر إلى تونكي بالتحديد.

تغيير الموضوع جاء بمثابة إلهاء ممتاز للجميع. تسأل تونكي فورًا:

«كيف؟ كيف تجذبينهم؟».

«لا عليك من هذا، فلتجيبي على السؤال».

تودين أن تقولي لإيكّا ألا تتعب نفسها بالسؤال. ترد تونكي من فورها: «لا مشكلة عندي إطلاقًا»، ويفاجئك أن لعابها لم يسِل علنًا. تستحق جائزة أحسن تلقي لخبر نهاية البشرية الحتمية.

«حسنًا»، تلتفت إيكّا إلى هوّا: «وأنت، عندنا بعض من بني جنسك أيضًا».

يرد هوّا بهدوء شديد: «أكثر مما تحسبين».

تتلقى إيكّا قوله بثبات ملحوظ. «نعم، صحيح. سمعت ما قلنا، ولو أردت البقاء فعليك اتباع القواعد. لا قتال ولا...»، وتحرك أصابعها وتعري أسنانها، ويفاجئك كم أن هذا مفهوم، «وستفعل ما أقول، فهمت؟».

يهزّ رأسه قليلًا، تلمع عيناه ببريق متوعد. تصعقك رؤية هذا كما صعقتك أسنانه الماسية. كنت قد بدأت تعتقدين أنه كائن لطيف لكنه شاذ نوعًا، غير أنك الآن لم تعودي متأكدة مما تحسبينه. «أنا لا آخذ أوامر منك».

لدهشتك البالغة، إيكّا تنحني وتجعل وجهها أمام وجهه.

تقول: «دعني أعيد صياغة كلامي. يمكنك أن تتابع ما كنت

تبدو علنًا أنك تفعله، أي تتابع محاولة مداراة طبيعة جنسكم المفضوحة، وإلا سأخبر الجميع بحقيقة نواياكم أنتم جميعًا».

وهوّا... يجفل. عيناه -وفقط عيناه- تقفز نحو المرأة التي ليست امرأة على الشرفة، وتستجيب إليه بابتسامة جديدة، عدا أنها لا تكشف عن أسنانها هذه المرة، وفي ابتسامتها مسحة حزن. لا علم لك بمعنى أي من هذا، لكن يبدو أن هوّا ينكمش قليلًا.

يقول لإيكّا بالتزام رسمي غريب: «حسنًا، أنا موافق على شروطك».

إيكّا تومئ وتنتصب، وتدع نظرتها تتلكأ عليه للحظة قبل أن تلتفت عنه.

تقول لك: «ما كنت سأقوله أمامكم قبل... قبل لحظات، هو أننا استقبلنا بعض الأشخاص»، تقول ذلك من فوق كتفها بينما تستدير وتصعد الدرجات القليلة المؤدية إلى المنزل. «لم نستقبل رجالًا يسافرون مع بنات على ما أظن، لكننا استقبلنا آخرين يبحثون عن مأوى، بمن فيهم بعض المسافرين من ربع سيباك. استقبلناهم لما حسبنا وجودهم ستكون له فائدة».

هذا ما تفعله أية كومونة ذكية في الأوقات المماثلة، أي طرد عديمي النفع واستقبال ذوي المهارة والفائدة. الكومونات ذات القيادة القوية تفعل ذلك طوال الوقت، بمنهجية وبلا رحمة، وبدرجة من الإنسانية الباردة. أما الكومونات الأقل كفاءة فتفعل ذلك بنفس القسوة لكن بفوضى أكثر، مثلما تخلصت

تيريمو منك.

جيجا ليس إلا كسّارًا، مفيدًا، لكن الكسّارين ليسوا شديدي الندرة. لكن ناسّون مثلك ومثل إيكّا، ولسبب ما يبدو أن أهل هذه الكومونة يريدون الأوروڇينيين.

تقولين: «أود مقابلة هؤلاء الناس». ثمة احتمال ضئيل جدًّا أن جيجا أو ناسّون هنا متنكرون، أو لعل شخصًا آخر قابلهم على الطريق، أو أن... فرصة ضئيلة جدًّا.

لكنك ستأخذينها على أية حال، إنها ابنتك. ستفعلين أي شيء لتجدينها.

«حسنًا إذن»، تلتفت إيكّا وتشير إليكم، «هيا بنا، ودعوني أريكم بعض الأعاجيب». وكأنها لم تفعل بالفعل. لكنك تتحركين وتتبعينها، لأن لا للألغاز ولا الأساطير أية قيمة أمام أهون شرارة أمل.

***

الجسد يهون، يحتاج الزعيم إلى ما هو أكثر كي يدوم.

اللوح الثالث – «البنيان» – البيت الثاني

١٦

ساين في الجزيرة الخفية

تستيقظ سيانيت على برد يعصف بأحد جانبي جسدها. الجانب الأيسر، فخذًا وكتفًا وأغلب الظهر. مصدر البرد رياح حادة تهبّ عبر شعرها وتضرب مؤخر جمجمتها ضربًا شبه مؤلم، ما يعني أن شعرها قد تحرر من الكعكة الرسمية لأوروچينيو المرتكز. وهناك أيضًا مذاق ترابي في فمها، مع أن لسانها جاف.

تحاول أن تتحرك فيسري فيها وجع خفيف، وجع غريب؛ ليس موضعيًّا، ليس خفاقًا ولا حادًّا أو محددًا بأي شكل، بل هو كما لو أن جسدها كله صار كدمة واحدة كبيرة. يفلت منها أنين بينما تأمر يدها بالبحث عن أرض تحتها، وتدفع الأرض دفعًا حتى تشعر بأنها عادت المتحكمة في نفسها مرة أخرى. عدا أنها لا تتمكن في الواقع من النهوض، بل أقصى ما تقدر عليه هو فتح عينيها.

يتهشم تحت يدها وأمامها صخر فضي، لعله مونزونيت أو أحد أنواع الشست. لا تستطيع أبدًا تذكر أنواع الصخور تحت البركانية، لأن معلم الجيوميستيا في المرتكز كان مضجرًا حتى الموت. وعلى بعد عدة أقدام منها تتخلل نوع الصخر هذا أيًّا كان أوراق برسيم وعشب هزيل من نوع ما (تركيزها في البيومستيا كان أسوأ من الجيوميستيا). تتطوح النباتات مع الرياح دون توقف، لكن بلا عنف، إذ كان جسدها يقيه من شدة

الريح.

تفكر: *اللعنة على ذلك*. وتدفعها فظاظتها العقلية المفاجئة إلى الاستيقاظ الكامل.

تعتدل جالسة؛ يؤلمها ذلك ويشقّ عليها لكنها تفعله. تسمح لها جلستها برؤية أنها كانت ممددة على منحدر صخري بسيط الانحدار، محاط بمزيد من العشب. يحيط بكل ذلك امتداد لا ينقطع من السماء قليلة الغيوم. ثمة رائحة محيط، لكنها تختلف عن التي اعتادت عليها في الأسابيع المنقضية. إنها أقل ملوحة وأكثر تخلخلًا، الهواء أكثر جفافًا. ترى من موقع الشمس أنها في أواخر الصباح، والبرد يشعرها بأنها في أواخر الشتاء.

لكن يفترض أن الوقت آخر المساء. وآليا استوائية، لذا يفترض بالطقس الاعتدال. والمنحدر الذي كانت ممددة عليه يفترض أن يكون دافئًا رمليًا. أين هي بحق الصدأ اللعين؟

طيب، في وسعها معرفة الإجابة. تسسبن الصخرة التي هي عليها فتجدها أعلى من مستوى البحر، قريبة نسبيًا من حافة الصفيحة الكبرى، وهي إحدى الصفيحتين التكتونيتين اللتين تتكون منهما السكون، والصفيحة الصغرى في الشمال البعيد. لقد سسبنت هذه الحافة من قبل، إنها إذن ليست بعيدة عن آليا.

لكنها ليست في آليا، بل هي في الواقع ليست في القارة برمتها.

تحاول سيانيت غريزيًا أن تفعل ما يزيد عن مجرد السسبنة، وتتجه إلى حافة الصفيحة مثلما فعلت من قبل عدة مرات...

... ولا يحدث شيء.

تجلس مكانها للحظة، تشعر ببرد أكثر مما يمكن عزوه إلى الريح.

لكنها ليست وحدها. ألابستر يتمدد متكورًا بالقرب منها، أطرافه الطويلة مطوية كما الجنين، إما فاقد للوعي أو ميت. لا، جانب جسده يرتفع ويهبط ببطء. طيب، هذا جيد.

خلفه، على رأس المنحدر، يقف شخص نحيل طويل يكتسي بروب أبيض فضفاض.

تتجمد ساين من الحيرة للحظة. تسأل بصوت مبحوح: «مرحبًا».

الشخص، أو المرأة كما بدأت ساين في التخمين، لا تلتفت. تنظر بعيدًا، نحو شيء فوق المرتفع لا تراه ساين. «مرحبًا».

على الأقل هذه بداية. تجبر ساين نفسها على الهدوء، وإن شقّ عليها هذا وهي عاجزة عن التوجه إلى الأرض طلبًا للطمأنينة والقوة. تقرع نفسها: ليس هناك ما يدعو إلى القلق، أيًا من كانت هذه المرأة، فلو أرادت إيذاءنا لكانت فعلت بسهولة قبل الآن. «أين نحن؟».

«على جزيرة، تبعد عن الساحل الشرقي نحو مئة ميل».

«جزيرة؟». هذا مرعب، الجزر فخاخ مميتة. لا يوجد مكان

أسوأ للحياة إلا فوق خط صدع أو في فوهة بركان خامد لكن ليس ميتًا. بيد أنها محقة، الآن بدأ الآن يتناهى إلى مسامع سيانيت تهشم الأمواج على الصخور من مكان ما تحت المنحدر. لو أنهم لا يبعدون أكثر من مئة ميل عن حافة الكبرى، فهذا يجعلهما أدنى ما يكون من خط صدع تحت مائي، أو ببساطة فوقه مباشرة. لهذا لا يعيش الناس على الجزر بحق الأرض، فقد يغرقهم تسونامي في أية لحظة.

تنهض على قدميها، وقد صارت فجأة عازمة على استكشاف مدى سوء الحال. ساقاها متيبستان من النوم على الصخر، لكنها تمشي متعثرة حول ألابستر، حتى تبلغ رأس المنحدر وتقف إلى جوار المرأة، وترى:

يمتد المحيط على اتساع البصر، شاسع لا يقطعه قاطع. ينتهي المنحدر بحدة بعد عدة أقدام من حيث تقف، ويتحول إلى حافة مسننة ترتفع عن البحر بضع مئات الأقدام. وعندما تدنو من الحافة وتنظر إلى أسفل، تجد الزبد يفور حول صخور كالسكاكين. الوقوع من هنا هلاك. تتراجع بسرعة إلى الوراء.

تهمس ذعرًا: «كيف جئنا إلى هنا؟».

«أنا جلبتكما».

«أيها الـ...»، تلتفت سيانيت إلى المرأة، وقد بدأ غضبها يتراكم إلى صدمة، ثم يتداعى، تاركًا الصدمة تصول وتجول بلا رادع.

اصنع تمثالًا لامرأة: ليست طويلة، الشعر في كعكة بسيطة،

الملامح أنيقة، الوقفة رشيقة. دع البشرة والملابس بلون العاج الدافئ القديم، لكن أضف لمسات قاتمة إلى قزحيتي العين والشعر، لمسات سوداء في كلتا الحالتين، ولمسات عند أطراف الأصابع بلون باهت ذي تدرج صدئ، أقرب إلى تراب الأرض، أقرب إلى الدم.

إنها آكلة صخر.

تهمس سيانيت: «يا شر الأرض»، والمرأة لا ترد.

يأتي من خلفهما أنين يعيق سيانيت عن قول المزيد (لكن ماذا عساها أن تقول؟). تزيح بصرها من فوق آكلة الصخر وتركز على ألابستر، الذي يتقلب، ويبدو جليًّا أنه ليس أفضل حالًا من سيانيت. ثم تتجاهله للحظة بعدما يخطر لها أخيرًا ما تقوله.

تسأل: «لماذا جلبتنا إلى هنا؟».

«حمايةً له».

بالضبط كما يقول القوالون. لا يتحرك فم آكلة الصخر وهي تتكلم، ولا عيناها، حتى تكاد تكون تمثالًا كاملًا كما تبدو. ثم يعود إليها عقلها، وتدرك ما الذي قالته تلك الكائنة. «حمايةً... *له*؟». ولا ترد آكلة الصخر مرة أخرى.

يتوجع ألابستر مرة أخرى، فتذهب إليه سيانيت أخيرًا، وتساعده على الجلوس حينما بدأ يجاهد كي يفعل. ينشد قميصه عند كتفه فيصرخ، فتتذكر متأخرًا السكين التي قذفها الوصيّ بها. لم تعد موجودة، لكن الجرح السطحي ملتصق

بقماش قميصه بالدماء الجافة. يلعن عندما يفتح عينيه: «ديكيزشيسكسأنريلابمت». إنها تلك اللغة الغريبة التي سمعتها منه من قبل.

تصيح: «تحدث السانزية»، وإن كانت في الواقع غير منزعجة منه، بل تحافظ على نظرها ثابتًا على آكلة الصخر، التي ظلت ثابتة في مكانها ثبوتًا.

يقول: «... خراء زفت صدئ»، ويمسك الجزء المصاب، «وجع شديد».

تزيح سيانيت يده، «لا تفعل، قد تفتح الجرح من جديد». فهما يبعدان عن الحضارة مئات الأميال، يفصلهما عنها ماء يمتد باتساع النظر في كل اتجاه، وتحت رحمة كائن يُعدّ بني جنسه التعريف العملي للغموض، وللهلاك أيضًا. «لسنا وحدنا».

يستيقظ ألابستر بالكامل ويحدق إلى سيانيت، ثم ينظر إلى ما خلفها، فتتسع عيناه قليلًا حينما يرى آكلة الصخر. يصيح: «يا للخراء. ماذا فعلتِ هذه المرة؟».

وبشكل ما، لم تتفاجأ سيانيت كل المفاجأة عندما تكتشف أن ألابستر يعرف آكلة الصخر.

تقول آكلة الصخر: «أنقذت حياتك».

«ماذا؟».

ترفع آكلة الصخر ذراعها، بحركة ثابتة تتجاوز الرشاقة إلى

ما هو غير الطبيعي. لا يتحرك أي جزء آخر منها. إنها تشير. تلتفت سيانيت لتتبع إشارتها وترى الأفق الغربي. لكن هذا الأفق ليس مثل البقية، مكسورًا. الخط المستوي الذي تلتقي فيه السماء بالبحر تقطعه بثرة في المنتصف، نقطة متوهجة باللون الأحمر ينبعث منها الدخان.

تقول آكلة الصخر: «آليا».

***

يتضح أن في الجزيرة قرية. ليست الجزيرة أكثر من تلال منحدرة وأعشاب فوق صخرة مصمتة. لا شجر هناك ولا تربة سطحية. مكان لا فائدة ترتجى من الحياة عليه. ومع ذلك، يجدان على الناحية الأخرى من الجزيرة، حيث حواف التلال أقل حدة، خليجًا نصف دائري آخر يشبه الذي في آليا (يشبه الذي كان في آليا). لكن التشابه ينتهي هنا، لأن هذا المرفأ أصغر بكثير، والقرية منحوتة مباشرة في وجه الجرف الصخري المنحدر.

يصعب تمييزها في البداية. ساين تظن أولًا أنها ترى أفواه كهوف مشرعة متناثرة بعشوائية في الجرف الصخري. ثم تدرك أن أفواه الكهوف كلها ذات أشكال منتظمة متناسقة حتى لو تباينت أحجامها: قاع كل فتحة وجانباها خطوط مستقيمة، تتقوس بنعومة حتى تلتقي في الأعلى. وهناك من نحت حول كل فتحة واجهة مبنى؛ أعمدة راقية، أبوابًا مستطيلة مشطوفة الأركان، زخارف بديعة لزهور ملتوية وحيوانات قافزة. لقد رأت من قبل ما هو أغرب. ليس كثيرًا

بالطبع، لكن الحياة في يومينِس، في ظل النجمة السوداء والقصر الإمبراطوري الذي يتوجها، وفي المرتكز بأسواره السبجية، تحصن المرء من عجائب الفن والمعمار.

يقول لها ألابستر بينما يهبطان درجًا ذا درابزين وجداه، ويبدو أنه ينزل إلى القرية: «ليس لها اسم». يتحدث عن آكلة الصخر التي تركتهما على رأس السلم (تحيد ساين بنظرها عنها لوهلة، وعندما تعود إليها لا تجدها. أكد لها ألابستر أنها لا تزال قريبة. كيف له أن يعرف؟ لكن ساين ليست متأكدة أنها تريد معرفة الإجابة).

«أنا أدعوها أنتيموني، لغلبة اللون الأبيض عليها كما رأيت. إنه معدن لا حجر، لأنها ليست روچا، ولأن اسم ألابستر محجوز بالفعل».

يا للطف. «وهي... ترد على ذلك الاسم؟».

«نعم»، وينظر إلى سيانيت، وهو فعل غير حصيف نظرًا إلى انحدار الدرجات الشديد. حتى مع وجود الدرابزين، يظل هناك احتمال كبير أن ينزلق أي شخص ينزل هذا الدرج ويقع ميتًا ميتة شنيعة على السطح الصخري. «إنها لا تمانع، وأعتقد أنها كانت ستعترض لو كان الاسم يضايقها».

«لماذا جلبتنا إلى هنا؟». لتنقذهما؟ طيب، إنهما يريان آليا فعلًا مشتعلة عبر المياه. لكن جنس أنتيموني يتجاهل عادة البشر، إلا لو ضايقهم البشر.

يهز ألابستر رأسه، ويركز على قدميه من جديد. «لا يوجد

«لماذا» في أي شيء يفعلونه، ولو كان هناك سبب فلن يهتموا بإخبارنا إياه أبدًا. أنا بصراحة توقفت عن السؤال، فهو إضاعة للنفس. تأتيني أنتيموني لها حوالي... خمس سنوات؟ غالبًا عندما أكون وحدي»، يصدر صوت رقيق منهك، «حتى حسبت أني أتخيلها».

«ولا تخبرك بأي شيء؟».

«تقول إنها هنا لأجلي. لست متأكدًا إن كان قولها هذا داعمًا، أي مثلما تعرفين «أنا هنا لأجلك يا بستر، سأظل أحبك إلى الأبد، بغض النظر عن أني تمثال حي يبدو مثل امرأة جميلة، سأحمي ظهرك»، أو غرضها من ذلك أسوأ. لكن ما الفارق ما دامت قد أنقذت حياتينا؟».

تفكر ساين أن لا فارق. «وأين هي الآن؟».

«ذهبت».

تقاوم سيانيت الرغبة في ركله على السلم.

«إلى الـ...»، إنها تتذكر ما الذي قرأته في الكتب، لكن يظل التصريح به يبدو ضربًا من العبث، «إلى الأرض؟».

«أظن ذلك. إنهم يتحركون عبر الصخور وكأنها هواء. لقد رأيتهم يفعلونها من قبل»، يتوقف على أحد بسطات السلم المتعددة، فتكاد سيانيت تصطدم بظهره، «أنت تعرفين أنها جاءت بنا إلى هنا بهذه الطريقة، صح؟».

هذا شيء كانت ساين تحاول تفادي التفكير فيه. إن مجرد

فكرة أن يلمسها آكل صخر مخيفة، فما بالك بأن يسحبها واحد أميالًا عبر الصخر المصمت ومياه المحيط؟ لا تستطيع منع نفسها من الارتجاف. إن آكلي الصخر أشياء منافية للمنطق مثل الأوروچينية أو آثار الحضارات الميتة، أو أي شيء لا يمكن قياسه أو توقعه على نحو متماسك. لكن الأوروچينية يمكن فهمها (نوعًا) والتحكم فيها (بمشقة)، وآثار الحضارات الميتة يمكن على الأقل تجنبها إلى أن ترتفع من المحيط الصدئ أمام عينيك، أما آكلو الصخر فيفعلون ما يشاؤون. قول الصخر يزخر بالتحذير من هذه الكائنات، لا يجب أن يحاول أحد التعرض لهم.

تجعل هذه الأفكار ساين نفسها تتوقف، ويتابع ألابستر النزول طابقًا آخر قبل أن يدرك أنها لا تتبعه. عندما يلتفت إليها بنظرة منزعجة، تقول: «آكل الصخر... الذي كان في المسلة؟».

يقول: «لا، ليست هي من كان في المسلة»، بذلك الصبر الذي يدخره المرء للمبتلين بالغباء لكنهم لا يستحقون أن يُقال لهم ذلك مباشرة لأنهم يمرون بأوقات صعبة، «قلت لك إنني أعرفها منذ فترة».

«هذا لم يكن قصدي»، *يا أحمق*، «آكل الصخر الذي كان في المسلة نظر إليّ، قبل أن... قبل ما صار. لقد تحرك، لم يكن ميتًا».

يحملق إليها ألابستر. «متى رأيت ذلك؟».

«أنا...»، تلوح بيديها عجزًا، «كان هذا... عندما كنت...

أعتقد أني رأيته»، أو ربما كان هلوسة، شيء يشبه جريان حياة المرء أمام عينه ساعة الموت مثلًا، ربما بتأثير من سكين الوصي؟ بدا لها حقيقيًا تمامًا.

يتأملها ألابستر للحظة طالت، ويظل على وجهه ذلك التعبير الذي بدأت تربطه بالاستنكار. «إن ما فعلتِه كان حريًا به قتلك، وما أنت حية إلا بالحظ الغبي السعيد. لا يفاجئني إذن أن... أنك رأيت أشياء».

سيانيت تومئ، دونما اعتراض على تقييمه. لقد شعرت بقوة المسلة في تلك اللحظات. كانت ستقتلها بلا شك لو كانت المسلة كاملة. غير أن ما تشعر به الآن بعد ما حدث هو الـ... احتراق، نوع من التخدير. ألهذا لم تعد قادرة على الأوروچينية؟ أم أن ذلك من نتيجة متلكئة لما فعله الوصي؟

تسأله بإحباط: «ما الذي حدث هناك؟». ثمة الكثير مما لا تستطيع فهم مغزاه على الإطلاق. ما الذي جعل أحدهم يحاول قتل ألابستر؟ ولماذا جاء وصي لإتمام المهمة؟ وما علاقة كل هذا بالمسلة؟ ولماذا صارا هنا، على تلك الجزيرة/فخ الموت في منتصف البحر الصدئ؟ «ما الذي يحدث الآن؟ أكلك الأرض يا بستر، إنك تعرف أكثر مما تصرح به».

يرتسم عليه تعبير متألم، لكنه يتنهد في النهاية ويعقد ذراعيه. «لا أعرف شيئًا. أيًّا كان ما تحسبينه، فأنا فعلًا ليست لديَّ كل الإجابات، ولا عندي أية فكرة عما تظنين أني أفعل».

لأنه يعلم الكثير مما لا تعلمه هي، ولأنه عشري الخواتم.

إنه قادر على فعل أشياء لا يسعها تخيلها، ولا حتى وصفها، وجزء منها يعتقد أنه يستطيع أيضًا فهم أشياء لن تقدر هي على فهمها. «أنت تعرف شيئًا عن هذا الوصي».

«نعم»، والآن يبدو عليه الغضب، وإن كان ليس منها، «لقد صادفت مثله من قبل. لكني لا أعلم سبب وجوده هناك، ولا يسعني إلا التخمين».

«تخمينك أفضل من عدمه».

يبدو حانقًا. «حسنًا، إليك تخميني: عرف أحدهم، أو بعضهم، بشأن المسلة المكسورة في مرفأ آليا. وعرفوا أيضًا أن أوروچيني ذو عشرة خواتم سيلاحظ على الأرجح هذا الشيء ما إن يسسبن المكان هناك. ولمَّا كانت المسلة لم تحتج إلى ما يزيد على سببنة ذات أربعة خواتم كي تنشط، فمن المنطقي أن هذا أو هؤلاء لا علم لهم بمدى حساسيتها أو خطورتها، وإلا ما كنا لنصل إلى آليا على قيد الحياة».

سيانيت تتجهم، وتضع يدها على الدرابزين لتتمسك به أمام هبة ريح شرسة مفاجئة ضربت الجرف الصخري. «بعضهم؟».

«مجموعات أو فصائل، يخوضون صراعًا لا علم لنا به، وتورطنا فيه بالصدفة الغبية لا أكثر».

«فصائل من الأوصياء؟».

يضحك متهكمًا. «أتحسبين هذا مستحيلًا؟ هل يتفق كل الروچات على نفس الغايات يا ساين؟ وهل يتفق الراكدون؟ بل حتى آكلة الصخر على الأرجح يتشاجرون بعضهم مع بعض».

والأرض وحده يعلم كيف يفعلون. «وأحد تلك الـ. . . هممم، الفصائل أرسلت هذا الوصي ليقتلنا»، لا، ليس بعدما أخبرت سيانيت الوصي بأنها من نشَّط المسلة، «ليقتلني».

يومئ ألابستر بتجهم. «وأظنه من وضع لي السم أيضًا، وقد حسبني من سينشط المسلة. لا يحب الأوصياء معاقبتنا حيث قد يشهد ذلك الراكدون، لتجنب أي تعاطف شعبي قد نكتسبه جراء ذلك. هجومه لنا العلني كان خياره الأخير»، يهزّ كتفيه، ويقطب حاجبيه كما لو أنه يفكر فيما سيقوله تاليًا، «أظن أننا محظوظون لأنه لم يحاول أن يسممك بدلًا مني، كان السم سينجح حتى عليَّ، فالشلل أيًّا كان نوعه يؤثر في السِّسَبينا أيضًا، وكأنت لأعجز كل العجز لولا . . .».

لو لم يتمكن من استدعاء قوة المسلة الجمشتية، مستخدمًا سِسَبينة سيانيت لفعل ما لم يقدر هو عليه. الآن، بعدما صارت سيانيت أقدر على فهم ما فعله تلك الليلة، تجده بشكل ما أسوأ. تحني رأسها تجاهه: «لا أحد يعرف ما الذي تستطيع أن تفعله، أليس كذلك؟».

يتنهد ألابستر قليلًا ويحيد ببصره. «أنا حتى لا أعرف ما أستطيع فعله يا ساين. بعد مرحلة معينة تعين عليَّ أن أتجاوز ما تعلمته في المرتكز. احتجت إلى أن أدرب نفسي بنفسي. يتراءى لي أحيانًا أنني فقط لو استطعت التفكير بشكل مختلف، لو استطعت التخلص بما يكفي مما علموه لي ومحاولة تجريب شيء مختلف، لعلي. . .»، ثم يشرد، ويضيق من أفكاره، «لا أعلم، حقًّا لا أعلم. لكنني أعتقد أنني من

مصلحتي ألا أعلم، وإلا لقتلني الأوصياء منذ زمن بعيد».

نصف كلامه لغو، لكنها تتنهد تنهيدة الفاهمين. «إذن من ذا الذي يقدر على إرسال وصي قاتل كي...» يتصيد ذا عشرة خواتم، ويرعب ذات أربعة.

ينفجر بمرارة: «كل الأوصياء قتلة. وإن كنت لا أعلم من لديه السلطة الكافية لأمرهم بشيء»، يهز ألابستر كتفيه، «تقول الشائعات إن الإمبراطور هو من يشرف على الأوصياء، أي يُفترض أنهم آخر السلطات التي لا تزال بين يديه. أو لعلها كذبة، وربما العائلات القيادية في يومينِس هم من يتحكمون فيهم مثلما يتحكمون في كل ما عداهم. أم أن المرتكز نفسه يتحكم فيهم؟ لا علم لي».

تقول سيانيت: «سمعت أنهم من يتحكمون في أنفسهم». ولعلها ليست إلا ثرثرة حصى.

«ربما. إن الأوصياء يقتلون الراكدين كما يقتلون الروچات عندما يتعلق الأمر بالحفاظ على أسرارهم، أو لو وقف راكد في طريقهم. لو أن ثمة تراتبية للأوصياء، فلن يعرف عنها إلا الأوصياء. أما فيما يخص كيف يفعلون ما يفعلونه...»، يأخذ نفسًا عميقًا، «يحدث هذا بعملية جراحية من نوع ما. كلهم أبناء روچات لكن لم يرثوا الأوروچينية، لأن في سِسَبينة هؤلاء شيء ما يجعل نجاح العملية معهم أفضل من غيرهم. تتضمن العملية زرع شيء في المخ، والأرض وحده يعلم كيف تعلموا ذلك أو متى بدؤوا يفعلونها، لكنها ما تمنحهم القدرة على إيقاف الأوروچينية، وقدرات أخرى غيرها، أسوأ».

سيانيت تجفل، وتتذكر صوت تمزق الأوتار. كف يدها تصرخ ألمًا.

تقول: «غير أنه لم يحاول قتلك». تنظر إلى كتفه، الذي لا يزال قماشه قاتمًا عمًّا عداه، وإن كان المشي على ما يبدو قد أرخى الدم المتجمد فلم يعد القماش ملتصقًا بالجرح. ثمة رطوبة حديثة في مكان الجرح، ما يعني أنه عاد ينزف، لكنه نزف خفيف لحسن الحظ. «تلك السكين...».

يومئ ألابستر مكفهرًا. «إنها لعبة الأوصياء الخاصة. تبدو سكينهم وكأنها من الزجاج البركاني العادي، لكنها ليست كذلك. إنها مثل الأوصياء أنفسهم، تعطل بشكل ما ذلك الشيء الذي يكمن في الأوروچيني ويجعله كذلك»، يرتجف، «لكني لم أجرب وجعها من قبل، وكأنها نار الأرض، ولا أعلم لماذا...»، يقول بسرعة مستبقًا السؤال في فم ساين المفتوح، «لا أعلم لماذا ضربني بها، فقد سبق أن ركّدنا نحن الاثنين قبلها، وكنت عاجزًا مثلك تمامًا».

وذاك أيضًا. تلعق سيانيت شفتيها. «أيمكنك أن... هل صرت راكدًا؟».

«نعم. يستمر المفعول لعدة أيام»، يبتسم عندما يرى نظرة الارتياح على وجهها، «أخبرتك أني صادفت أمثاله من قبل».

«لماذا قلت لي ألا أدعه يلمسني بجلده العاري؟».

يصمت ألابستر. تفكر سيانيت أولًا أنه يتمنع عليها مجددًا، ثم تنظر إلى تعبير وجهه والظلال المستشرية عليه. بعد لحظة،

يرمش. «كنت أعرف ذا عشرة خواتم آخر، عندما كنت شابًا، عندما كنت... كان مرشدي بشكل ما. مثل فلدسبار بالنسبة إليك».

«فلدسبار ليست... لا عليك».

ويتجاهلها لشروده في ذكرياته. «لا أعلم سبب ما حدث. ذات يوم، وبينما نمشي في حديقة الخاتم، نستمتع بالأمسية اللطيفة و...وعلى أية حال، يظهر هذا الوصي فجأة، عاري الجذع مثل من رأيناه. ومثله لم يقل شيئًا عن سبب مجيئه، بل هاجم مباشرة. لم أرَ بوضوح، حدث كل شيء بسرعة، مثلما في آليا»، يفرك بستر وجهه بيده، «قبض على رقبة هسيونايت كما لو أنه يخنقه، لكن ليس بقوة تكفي للخنق الفعلي. أراد الوصي فقط لمس الجلد بالجلد. ظل ذلك المنحرف اللعين قابضًا على هسيونايت مبتسمًا، وكأن ذلك أجمل شيء في العالم».

«ما الذي؟»، تكاد تكون لا ترغب أن تعرف، لكنها مع ذلك ترغب. «ما الذي يفعله جلد الوصي؟».

يلتوي فك ألابستر، عضلاته تتكور. «أظنه يحول أوروچينيتك إلى الداخل. لا أجد طريقة أفضل لشرح ذلك، لكن الشيء القادر على تحريك صفائح الأرض وإغلاق الصدوع وما نحو ذلك فينا، كل تلك القوى التي نولد بها... يعيد الوصاة توجيهها ضدنا».

«أنا لا أفـ...»، إن الأوروچينية لا تعمل على اللحم، ليس

مباشرة، ولو وُجهت ضده تـ. . . .

. . . أوه.

يصمت. ولا تحثّه سيانيت على المتابعة هذه المرة.

«طيب، على أية حال»، يهزّ ألابستر رأسه وينظر نحو القرية المنحوتة في الصخر. «هلا ذهبنا؟».

يصعب الحديث بعد تلك القصة. «بستر»، تشير إلى نفسها، إلى زيها الرسمي، الذي لا يخفي اتساخه حقيقة أنه معطف أوروچيني إمبراطوري أسود، «لا أنا ولا أنت قادران على تحريك حصاة واحدة الآن، وهؤلاء الناس لا يعرفوننا».

«أعلم، لكن كتفي تؤلمني، وأشعر بالعطش. هل ترين أية مياه جارية بالقرب منا؟».

لا، ولا طعام، ولا يمكن السباحة رجوعًا إلى أرض القارة، ليس عبر ذلك الامتداد الشاسع، هذا لو كانت سيانيت تعرف السباحة أصلًا، وهي لا تعرفها، وهذا لو لم تكن مياه المحيط تعجّ بالوحوش كما تقول الحكايات.

تقول: «حسنًا، طيب»، وتدفعه كي يقود الطريق، «دعني أتحدث أولًا، كي لا تتسبب في قتلنا»، أيها الصدئ المجنون.

يضحك ألابستر قليلًا وكأنه سمع تكملة قولها غير المنطوقة، لكنه لم يحتج، وتابع النزول أمامها.

تستوي الدرجات في النهاية وتنبسط في ممشى ناعم منحوت يجري ملتويًا في واجهة الجرف الصخرية، على

ارتفاع نحو مئة قدم فوق أعلى نقطة ماء. تظن ساين أن هذا الارتفاع يؤمن الكومونة من موجات التسونامي (لكنها بالطبع غير متأكدة، تظل كل تلك المياه جديدة عليها). ويكاد أيضًا يعوض عن عدم وجود سور حامٍ، وإن كان المحيط هنا يقوم بدور الحاجز الحائل بين هؤلاء القوم وأي شخص من خارج... كومونتهم، إن جاز تسميتها كومونة. ثمة نحو دستة قوارب مركونة في الأسفل، تتخبط برفق في الأرصفة التي تبدو وكأنها صنعت كما اتفق من أكوام الحصى والألواح، تبدو قبيحة وبدائية مقارنة بأرصفة وأبراج آليا الأنيقة، لكنها فعالة. والقوارب أيضًا غريبة الهيئة، على الأقل مقارنة بالقوارب التي رأتها. بعضها قوارب بسيطة أنيقة تبدو كما لو أنها نحتت مباشرة في جذوع الأشجار، ومقواة على جانبيها بما يشبه الدعامات. وبعضها أضخم وله أشرعة، لكن حتى تلك تبدو بتصميمات غريبة تمامًا عمّا اعتادت على رؤيته.

ثمة أشخاص عند القوارب، بعضهم يحمل السلال منها وإليها، وآخرون يعملون في تجهيز حبال الإبحار في أحدهم. لا ينظرون إلى أعلى، وسيانيت تقاوم الرغبة في مناداتهم. لكن هناك من رآها هي وألابستر على كل حال، وبدأ تجمهر محدود عند فم أحد الكهوف المقابلة (وقد أمست الفتحات ضخمة في أعينهما الآن، وقد صارت الرؤية عندما أصبحا في المستوى الأرضي واضحة).

تلعق سيانيت شفتيها وتأخذ نفسًا عميقًا عندما يقتربون منهما، لا يبدون عدوانيين. تخاطر بالبدء: «مرحبًا»، وتنتظر.

لا يحاول أحد قتلهما على الفور. بداية جيدة.

يبدو الأشخاص (العشرون تقريبًا) مشدوهين من رؤيتها وألابستر. أغلبهم أطفال من أعمار متباينة، والقليل من الشباب، وحفنة من الكبار، وكيركوزا في طوق يبدو من ذيله المتراقص ودودًا. لا شك في أن هؤلاء ساحل شرقيون، أكثرهم طويلو القامة مثل ألابستر، وإن كان قلة منهم ذوي بشرة أفتح قليلًا، ولمحت من بينهم على الأقل واحدًا بشعر رماد براكيني هائش يهفهف مع النسيم المستمر. لا يبدو عليهم الحذر، وهذه علامة جيدة، وإن كانت ساين يراودها انطباع أنهم غير معتادين على الزوار المفاجئين.

ثم يتقدم من بين الكبار شخص له هالة القادة، أو ربما فقط أحد أفراد القيادة. ويقول شيئًا يتعذر فهمه.

تحدق سيانيت إليه، ولا تستطيع تمييز لغته مع أنها مألوفة بشكل ما. ثم -أوه، طبعًا- ألابستر ينتفض ويقول شيئًا بنفس اللسان، وينفجر الجميع فورًا في الضحك، عدا سيانيت.

تحدق إليه: «الترجمة؟».

قال: «قلت لهم إنك خفت أن أتسبب في قتلنا لو تحدثت أولًا»، وفكرت للحظة في قتله هنا والآن.

هكذا تابع أهل تلك القرية الغريبة الحديث مع ألابستر، بينما لا تجد ساين شيئًا تفعله إلا الوقوف صامتة ومحاولة إخفاء إحباطها. يتوقف ألابستر ويترجم لها كلما استطاع، وإن كان يتجاوز بعض الأمور الغريبة التي يقولونها. إنهم يتحدثون

بسرعة شديدة، وتشعر أنه يلخص لها الحديث، يلخص الكثير. لكن في النهاية يتضح أن الكومونة تدعى ميوف، وأن الشخص الذي تقدمهم يدعى هارلاس، وهو قائدهم.

وأنهم أيضًا، قراصنة.

***

يفسر ألابستر: «زراعة الطعام هنا مستحيلة. إنهم يفعلون ما عليهم فعله كي يعيشوا».

هذا فيما بعد، بعدما دعاهم أهل ميوف إلى قاعاتهم المقببة، التي تتشكل منها كومونتهم. الكومونة كلها في جوف التل، وهو أمر منطقي عندما كانت الجزيرة كلها ليست أكثر من عمود صخري عالٍ. بعضها من مغارات طبيعية وبعضها نُحتت بأساليب غير معروفة. وكلها مذهلة الجمال، ذات أسقف مقببة رائعة، وقنوات مياه تجري حذاء حوائط متعددة، وما يكفي من أضواء المشاعل والمصابيح كي لا يتسبب كل ذلك في رُهاب الأماكن المغلقة. لا تحب ساين الوجود تحت صخرة معلقة فوق رأسها تنتظر الهزة القادمة لتسحقهم جميعًا، لكنها لو كانت مضطرة إلى أن تعلق في فخ مميت مثل هذا، فليكن على الأقل دافئًا مريحًا.

جهز لهما الميوفيون بيت ضيوف، أو بالأحرى بيتًا مهجورًا منذ بعض الوقت ولم يتداعَ كثيرًا. مُنحا طعامًا من أفران الكومونة، وإمكانية للوصول إلى أحواض استحمامها، وغياري ملابس من الزي المحلي. خُصص لهما شيء من الخصوصية،

وإن كانت منقوصة، فلم ينِ الأطفال يختلسون النظر إليهما من نافذتهما المنحوتة عديمة الستائر، ويضحكون ويركضون. يكاد ذلك يكون لطيفًا.

تجلس ساين على كومة من البطاطين المطوية التي تبدو مجهزة لغرض الجلوس، وتراقب ألابستر يلف قماشة نظيفة حول كتفه المصابة، قابضًا على طرفها بأسنانه للحظة كي يشدّ الضمادة بإحكام. كان في وسعه أن يطلب مساعدتها بالطبع، لكنه لم يفعل، ولم تعرضها هي.

يتابع خلال فعله: «إنهم لا يقايضون كثيرًا مع أهل القارة، إذ كل ما يمكنهم تقديمه هو السمك، وكومونات الساحل لديها ما يكفي من السمك. لذا تشنّ ميوف الغارات. يهاجمون المراكب على خطوط التجارة الرئيسية، أو يبتزون الكومونات مقابل حمايتهم من الهجمات... أي نعم، هجماتهم أنفسهم. لا تسأليني كيف يتم ذلك، هذا ما قاله لي القائد».

نظام حياة... هشّ. «ما الذي يفعلونه هنا؟»، تنظر ساين حولها إلى الحوائط والأسقف المنحوتة، «أعني... هذه جزيرة، صحيح أن هذه النقوش رائعة نوعًا ما، لكن فقط حتى تأتي التسونامي القادمة وتمحوها من الخريطة. ومثلما قلت، يستحيل عليهم زراعة أي شيء. هل لديهم حتى بيوت أحراز؟ ماذا سيحدث في الموسم؟».

يهزّ بستر كتفيه، على الأرجح ليريح ضمادته الجديدة: «سيموتون على الأرجح. سألتهم عن ذلك وضحكوا تهربًا من الإجابة. ألاحظت أن الجزيرة فوق بقعة ساخنة؟».

ساين ترمش. لم تلاحظ، لأن أوروچينتها مخدرة مثل إصبع أصابته مطرقة. وهو كذلك، لكن يبدو أن التخدير نسبي. «ما مدى عمقها؟».

«عميقة جدًا. لا أظنها ستنفجر في أي وقت قريب، أو أبدًا، لكنها لو انفجرت، فستصبح هذه فوهة بركان لا جزيرة»، ويعبس، «هذا بالطبع لو لم يأخذ الجزيرة تسونامي أولًا، خاصة مع قربها من حافة الصفيحة. ثمة طرق عديدة للموت في هذا المكان، لكنهم جميعًا يعرِّفون بها، بجدية، وهم بحسب ما أرى لا يهتمون. يقولون إنهم على الأقل سيموتون أحرارًا».

«أحرار من ماذا؟ من الحياة؟».

«من السانزا»، ويبتسم عندما يتدلى فم ساين منفتحًا، «بحسب هارلاس، فهذه الكومونة جزء من سلسلة كومونات جزيرية صغيرة بطول الأرخبيل -وتلك كلمة تعني مجموعة من الجزر، في حال لم تعرفيها- الذي يمتد حتى الأنتاركتيكا تقريبًا، خلقته البقعة الساخنة في الأسفل. بعض كومونات تلك السلسلة، بما فيها هذه الجزيرة، وُجدت منذ عشرة مواسم أو أكثر...».

«هراء!».

«... بل ولا يتذكرون حتى متى بُنيت ميوف، أقصد متى نُحتت، لذا ربما تكون أقدم من هذا أيضًا. لقد كانوا موجودين من قبل السانزا. وبحسب ما يعرفون، السانزا إما لا تعلم وإما لا تأبه بأنهم هنا. إذ لم تحاول ضمّهم قط». يهزّ رأسه.

«إن كومونات الساحل لا تتوقف عن اتهام بعضها بعضًا بإيواء القراصنة، ولم يبحر أي شخص عاقل إلى هذا الحد في المحيط. أعني... أظنهم يعلمون غالبًا عن وجود الجزر، لكنهم لم يحسبوا أن هناك أشخاصًا أغبياء بما يكفي ليعيشوا فيها».

ولا يجب أن يكون هناك. تهزّ ساين رأسها تعجبًا من جراءة هؤلاء القوم. ترتفع عندها رأس إحدى أطفال الكومونة عند النافذة تحدق إليهم. لا تتمكن ساين من كبح ابتسامتها، وتأخذ عين الطفلة في التكور مثل طبق ثم تنفجر ضحكًا، وهي تثرثر بشيء ما بلغتهم المتقطعة، ثم يجذبها أحد رفاقها بعيدًا. يا لها من طفلة شجاعة مجنونة.

ألابستر يضحك. «لقد قالت «الولية الشريرة ابتسمت»».

الفأرة الصدئة.

تقول بهزة رأس: «لا أستطيع تصديق أنهم مجانين بما يكفي للحياة هنا، لا أستطيع تصديق أن هذه الجزيرة لم تمزقها هزة أو تأكلها الحمم أو غرقت مئة مرة ومرة».

يتزحزح ألابستر قليلًا بنظرة حذرة، وتعرف ساين من هذا أن عليها الاستعداد لشيء ما. «نجاتهم ترجع جزئيًا إلى أنهم يعيشون على السمك وأعشاب البحر. إن المحيطات لا تموت خلال الموسم مثلما تموت الأراضي والمسطحات المائية الأصغر حجمًا. ما دام في وسعك الصيد فهناك طعام. لا أظن أن لديهم بيوت أحراز»، وينظر حوله متأملًا، «وإن كان في

وسعهم الحفاظ على استقرار المكان أمام الهزات والبراكين، فأظن هذا المكان في الواقع ممتاز للحياة».

«لكن كيف لهم أن. . .».

«بالروچات»، ينظر إليها ويبتسم، وتدرك أنه كان متلهفًا على إخبارها بذلك، «لقد تمكنوا من النجاة كل ذلك الوقت لأنهم لا يقتلون الروچات، بل يضعونهم في القيادة. وسعادتهم في الواقع بلقائنا غامرة».

***

آكلو الصخر خطأً صار جسدًا. خذ من خلقه العظة، ومن هديته فلتحذر.

اللوح الثاني - «الحقيقة الناقصة» - البيت الثاني

١٧

دامايا، في آخر ساعاتها

الأشياء تتغير. ثمة نظام للحياة في المرتكز، لكن العالم لا يقف مكانه أبدًا. تمر سنة.

بعد اختفاء الشرخ لم يتحدث مشيش إلى دامايا مرة أخرى. عندما يراها في ممر أو بعد التفتيش يشيح بنظره، ولو ضبطها تنظر إليه يرمقها شذرًا. لكنه لا يضبطها تنظر إليه كثيرًا، لأنها لا تنظر إليه كثيرًا. إنها لا تمانع كرهه لها، لم يكن إلا صديقًا محتملًا على أية حال. أمست الآن أذكى من أن ترغب في شيء مماثل، أو من أن تصدق أنها ستستحق في أي وقت شيئًا مماثلًا.

(لا وجود للأصدقاء. المرتكز ليس مدرسة. الحصاة ليسوا أطفالًا. الأوروچينيون ليسوا بشرًا. الأسلحة لا تحتاج إلى أصدقاء).

لكن هذا مع ذلك يشقّ عليها، لأنها تحسّ بالضجر من دون أصدقاء. لقد علمها المدربون القراءة مثلما لم يعلمها والداها. بيد أن هناك حدًّا أقصى للكم الذي تقرؤه قبل أن تبدأ الكلمات تنقلب وتتراقص أمام عينيها مثل الحصى ساعة الهزة، وليس في المكتبة عمومًا كثير من الكتب الممتعة (ولا تحتاج الأسلحة إلى المتعة أيضًا). لا يُسمح لها بممارسة الأوروچينية إلا خلال التطبيقية، ومع أنها في بعض الأحيان تتمدد في فراشها وتتخيل دروسها مرارًا وتكرارًا على سبيل التدريب

-فقوة الأوروچيني في النهاية تكمن في قدرته على التركيز- ثمة حد أقصى لما يسعها فعله أيضًا.

لذا، كي تشغل وقت الساعة الحرة، وأي ساعة أخرى لا يشغلها فيها شاغل ولا نوم، تتجول في المرتكز.

لا أحد يمنع الحصى من التجول. لا يحرس عنبر الحصى حارس خلال الساعة الحرة ولا بعدها، ولا يفرض المدربون حظر تجوال. يمكن أن تتحول الساعة الحرة إلى ليلة حرة، فقط لو كان الحصاة مستعدًّا لقضاء اليوم التالي يغالب النعاس. ولا يمنع الكبار أيضًا مغادرة الحصى من المبنى. لو قُبض على أي طفل يتسكع في حديقة الخاتم، الحصرية لذوي الخاتم، أو قريبًا من أحد البوابات المؤدية إلى خارج المرتكز، فسيعاقبه على ذلك كبار المرتكز أنفسهم. لكن أي شيء من دون ذلك سيكون عقابه معقولًا، محتملًا، بنفس مبدأ العقاب بقدر الجريمة العادي، وهذا كل شيء.

في النهاية لا أحد يُفصل من المرتكز. الأسلحة الفاسدة تُبعد عن الترسانة والأسلحة السليمة عليها أن تتحلى بالذكاء الكافي للاعتناء بنفسها.

ولذا تلتزم داماياً في تجوالها بالأماكن الأقل أهمية، وإن كان ذلك يتضمن استكشاف كثير، لأن مجمع مباني المرتكز هائل. بالإضافة إلى الحديقة ومساحات تدريب الأوروچينيين، ثمة مجمعات سكن الأوروچينيين ذوي الخواتم، ومكتبات ومسارح ومستشفى، وأماكن عمل الأوروچينيين الناضجين عندما لا يكونون مكلفين بمهمات خارج المرتكز. وتمتد أيضًا أميال من

الشوارع المرصوفة بالسبج والمساحات الخضراء التي لم تُزرع بورًا ولا جُهزت لموسم خامس محتمل، بل هي ببساطة جُعلت لتسر الناظرين. لذا قررت دامايا أن النظر إليها واجب.

عبر كل ذلك تمشي دامايا في آخر ساعات المساء، تتخيل أين وكيف ستعيش ما إن تنضم إلى صفوف ذوي الخواتم. أغلب الكبار في هذه المناطق يتجاهلونها، يمضون في شؤونهم أو يتحدثون فيما بينهم أو يغمغمون إلى أنفسهم وغير ذلك مما يفعله الكبار. يلاحظها بعضهم أحيانًا، لكنهم يكتفون بهز الأكتاف ومتابعة الطريق. فقد كانوا حصى أيضًا ذات يوم. لم يحدث سوى مرة واحدة أن أوقفتها امرأة وسألتها: «هل يفترض بك أن تكوني هنا؟»، فتومئ دامايا وتمشي بعيدًا عنها، ولا تتابعها المرأة.

المباني الإدارية تثير اهتمامها أكثر. تزور قاعات التدريب الكبرى التي يستخدمها ذوو الخواتم: قاعات ضخمة تشبه المدرجات المسرحية، بلا سقف، أرضيتها العارية نُقشت عليها حلقات من الفسيفساء على شكل دوائر متحدة المركز. أحيانًا ما تكون هناك كتل بازلتية متناثرة هنا وهناك، وأحيانًا ما تكون الأرضية وعرة والكتل البازلتية غير موجودة. تجد أحيانًا بعض الكبار في القاعات، يتدربون، يحركون القطع مثلما يحرك الأطفال لعبهم، يدفعونها في باطن الأرض ثم يرفعونها من جديد، باستخدام الإرادة وحدها، وينتج منهم دوائر مميتة من الهواء البارد. تتابعهم بانتعاش ورهبة وبجلّ تركيزها، مع أن هذا لا يفيدها كثيرًا. لا يزال أمامها كثير قبل أن تتمكن من

أي من تلك الأشياء.

أكثر ما يسحر دامايا فهو الرئيسي. المبنى الذي هو قلب
ع مباني المرتكز، مبنى سداسي الأضلاع ومقبب وأضخم
قية المباني ولو اجتمعت. شؤون المرتكز كلها تدار من
المبنى. هنا يجلس ذوو الخواتم خلف المكاتب ويتبادلون
اق ويدفعون الفواتير، لأنهم بالطبع مضطرون إلى فعل
لك بأنفسهم. لا يُسمح بأن يقال إن الأوروجينيين عديمو
ة يستهلكون موارد يومينِس، بل المرتكز مكتفٍ ذاتيًّا
ا وغير ذلك. الساعة الحرة تحين بعد انتهاء ساعات
ل الرسمية في المبنى، لذا لا يكون مزدحمًا مثلما هو
اليوم، لكن كلما دخلت دامايا المكان، تلاحظ أن مكاتب
ة لا تزال مضاءة بالشموع وأحيانًا بمصابيح كهربية.

صياء أيضًا لهم جناح في الرئيسي. لا تني دامايا ترى
ء الخمرية بين جموع الأزياء السوداء، وعندما تراهم تدور
لاتجاه المعاكس. ليس خوفًا. إنهم يرونها أيضًا، لكنهم
عجونها، لأنها لا تفعل ما أمرت بتجنبه. مثلما قال لها
من قبل: لا يحتاج المرء إلى الخوف من الوصي إلا في
يات معينة محددة. وإنما هي تتفاداهم لأنها كلما صارت
، تحسّ أكثر بذلك الإحساس الغريب عند وجود وصي.
. شعور ذو رنّة، خشن ولاذع بصورة ما، أقرب إلى
اع والتذوق منه إلى السسبنة. لا تفهمه، لكنها تلاحظ
يست الأوروجينية الوحيدة التي تترك للأوصياء مساحتهم.

ض الأجنحة في الرئيسي لم تعد مستخدمة، لأن المرتكز

أكبر مما يحتاج إلى أن يكون، أو هذا ما يقوله المدربون لداميا عندما تسألهم عنها. إن أحدًا لا يعلم كم كان عدد الأوروچينيين في العالم قبل بناء المرتكز، أو ربما تفاءل المؤسسون في تقديرهم لعدد الأوروچينيين الذين سينجون من الطفولة أكثر من اللازم. بغض النظر عن كل ذلك، ما إن دفعت داميا لأول مرة الباب مميز الهيئة الذي يبدو أن أحدًا لا يستخدمه، وولجت القاعات القاتمة الخاوية خلفه، حتى سُلب لبها من فورها.

تمنعها العتمة من رؤية ما يبعد عنها في الداخل. تتمكن من تمييز أثاث مهمل وسلال تخزين قريبة وما شابه ذلك، فتقرر ألا تشرع في الاستكشاف على الفور، إذ إن احتمال أن تؤذي نفسها لو فعلت كبير، وتعود عوضًا عن ذلك إلى عنبر الحصى. وعلى مدار الأيام القليلة التالية، تجهز نفسها. الاحتفاظ بأحد سكاكين قطع اللحم السبجية الصغيرة من صحاف الطعام أمر يسير، وثمة عديد من المصابيح الزيتية في العنبر في وسعها استعارة أحدها دون أن يأبه أحد. وتصطنع مخلاة من كيس وسادة اختلسته خلال القيام بواجب الغسيل -له حافة رثة وكان في كومة المهملات- وأخيرًا تشعر أنها جاهزة للانطلاق.

يمضي الاستكشاف ببطء في البداية. تظل تُعلم بالسكين الحوائط هنا وهناك كي لا تضيع، حتى تكتشف أن هذا الجزء من الرئيسي له نفس تقسيمة بقية المبنى: رواق مركزي يقطعه بئر سلم من حين إلى آخر وتحفه من الجانبين أبواب تقود إلى

غرف أو أجنحة غرف. والغرف هي أكثر ما تحب، مع أن أكثرها مضجر؛ غرف اجتماعات ومزيد من المكاتب، بعضها ضخم بما يكفي لتصبح قاعات محاضرات، وإن كان أكثرها يبدو مستخدمًا لتخزين الكتب أو الملابس القديمة.

ويا لها من كتب! بها كثير من الحكايات العابثة التي ليس في المكتبة منها إلا القليل، رومانسية ومغامرات وبعض من القول عديم المعنى. أحيانًا ما تقود الأبواب إلى أشياء مذهلة. تكتشف طابقًا كان يستخدم ذات يوم على ما يبدو مخدعًا سكنيًّا، ربما في سنة ازدهار ما فاق فيها عدد الأوروچينيين ما تتحمله المباني المخصصة للمعيشة. غير أن لسبب ما، يظهر أن سكانها قد هجروها فجأة تاركين متعلقاتهم خلفهم. تكتشف دامايا فساتين طويلة راقية في الخزانات، وقد أصابها عفن جاف، وألعاب للرضع، وجواهر لو رأتها أمها لسال لعابها عليها عامًا. جربت ارتداء بعضها وضحكت على نفسها عندما نظرت إلى المرآة المبقعة، ثم توقفت وقد فاجأها صوت ضحكتها.

وثمة أشياء أغرب. مثل غرفة مليئة بمقاعد مخملية مزخرفة -أكلتها العثة- مرصوصة في دائرة تواجه بعضها بعضًا، ولا تستطيع إيجاد لذلك سببًا. وغرفة أخرى لا تفهم محتواها إلا لاحقًا، بعدما أخذها استكشافها إلى مباني المرتكز المخصصة للبحث، فتدرك عندها أنها قد عثرت على معمل من نوع ما، مترع بالحاويات والأدوات التي عرفت في النهاية أنها تستخدم لتحليل الأوروچينية. لعل الجيوميستيين يعافون دراسة

الأوروچينية بأنفسهم، ويتركون للأوروچينيين هذا الأمر أيضًا؟ لا يسعها إلا التخمين.

وثمة أكثر، أكثر بما يعد فلا يحصى. صارت جولاتها أكثر ما تتطلع إليه في أي يوم بعد دروس التطبيقية. تتعرض للتوبيخ من حين إلى حين عندما تسرح في الأشياء التي وجدتها خلال الدروس، فتخطئ الإجابة على بعض الأسئلة، لكنها تراعي ألا تهمل كثيرًا كيلا يستجوبها المدربون عمًّا تفعل، وإن كانت تشك في أنهم لا يغيب عنهم استكشافها الليلي. بل إنها حتى رأت القليل منهم خلال تجولها، مسترخين، ويبدون مثل بشر عاديين على نحو غريب. لكن لا يزعجها أحدهم بشأن ذلك، ما يسرّها سرورًا جمًّا. إنه لمن اللطيف أن تشعر بأنها تشارك بعضهم الأسرار، حتى لو لم يكن ذلك حقيقيًّا في الواقع. ثمة نظام للحياة في المرتكز، لكن هذا نظامها الخاص، هي من تضع قواعده، ولا أحد يعيقه. من الرائع أن تحظى بما تخصّ به نفسها.

لكن، ذات يوم، كل شيء يتغير.

***

تنسل البنت الغريبة إلى صف الحصى بخفة شديدة حد أن دامايا تكاد ألا تلاحظها. إنهم يسيرون عبر حديقة الخاتم من جديد، عائدين إلى عنبر الحصى بعد درس التطبيقية، ودامايا منهكة لكن سعيدة بنفسها. لقد مدحها المدرب ماركسَيت على تثليج ما لا يزيد على قدمين حولها بينما تمد على التوازي نطاق تحكمها إلى عمق يبلغ المئة قدم تقريبًا. قال لها

عند نهاية الدرس: «أنت شبه جاهزة لامتحان أول خاتم». ولو أن ذلك صحيح، فقد تأخذ الامتحان قبل أغلب الحصى بسنة، وبذا تكون أول من يفعل في دفعتها.

وعندما كانت دامايا سارحة في أفكارها المتوهجة، وكان ذلك مساء يوم طويل، والكل منهك، والحديقة في أقل ازدحامها، والمدربون يتبادلون الحديث فيما بينهم، عندما كان كل ذلك لم يلاحظ أحد تلك البنت الغريبة تندسّ في الصف أمام دامايا بالضبط. وحتى دامايا كادت تغفلها، لأن البنت انتظرت بمهارة لحظة التفاف حول سياج، وبين خطوة وأخرى صارت جزءًا منهم، خطوتها بخطوتهم، وعينها صوب الأمام مثل البقية. لكن دامايا تعرف أنها لم تكن هنا قبل الآن.

للحظة، تُذهل دامايا. إنها لا تعرف كل الحصى جيدًا، لكنها تعرفهم شكلًا، وهذه البنت ليست منهم. من هي إذن؟ تتساءل إن كان عليها فعل أو قول شيء.

وعلى حين غرة تلتفت البنت وتلمح دامايا تحملق إليها، فتبتسم وتغمز إليها، فترد دامايا الغمزة. وعندما تنظر البنت أمامها مجددًا، تظل دامايا خلفها، وقد غلب ارتباكها وشايتها.

يتابعون قطع الحديقة ثم يتجهون إلى العنابر، وعندها يذهب المدربون تاركين الحصى لساعتهم الحرة قبل موعد النوم. ينفرط بقية الأطفال، البعض يذهب لجلب طعام من المائدة الجانبية، والمستجدين يجرون أنفسهم إلى السرير جرًّا، والقلة من ذوي الطاقة الغامرة ينغمسون في بعض الألعاب الخفيفة، يطاردون بعضهم حول أسرة العنبر. وعادةً ما يتجاهل الجميع

داميا وكل ما تفعله داميا.

وهكذا تلتفت داميا إلى الحصاة التي ليست بحصاة. «من أنت؟».

«أحقًا هذا ما تسألين؟»، وتبدو البنت حائرة صدقًا. إنها في نفس عمر داميا، طويلة ونحيلة وبشرتها أبهت من أغلب صغار السانزيين، وشعرها مجعد قاتم لا متيبس رمادي. ترتدي زي الحصى الرسمي، وتعقص شعرها بنفس الطريقة التي يعقصه بها بقية الحصى ذوو الشعر الثائر. لا يكسر وهم أنها منهم إلا حقيقة أنها غريبة تمامًا.

تتابع البنت بتعبير شبه مُهان: «أقصد أني أنا نفسي لا أهتم بمن أنا، لماذا تهتمين أنت؟ لو كنت مكانك لوددت معرفة ماذا أفعل هنا».

تحملق إليها داميا عاجزة عن النطق، وفي المقابل تنظر البنت حولها وتعبس قليلًا. «حسبت أن العديد سيلاحظون وجودي، فلستم كثيرين. كم عدد من في هذه الغرفة؟ ثلاثون؟ هذا أقل ممن في مدرستي، وأنا كنت لألاحظ أي شخص جديد يظهر فجأة في...».

«من *أنت؟*» تسألها داميا بحسم، بصوت يكاد يشبه الفحيح. وإن كانت تحافظ على صوتها، غريزيًّا، منخفضًا. وعلى سبيل التأكيد تقبض على ذراع البنت وتجذبها إلى ركن بعيد عن الطريق حيث تقل فرصة أن يلاحظها الآخرون. بيد أن الجميع قد تدربوا لسنوات على عدم التركيز مع داميا، فلا

يلاحظون. «أخبريني وإلا أخبرت المدربين».

تبتسم البنت: «أوه، هذا أفضل، أقرب بكثير إلى ما كنت أتوقعه. لكن يظل من الغريب أن أحدًا غيرك لم...»، ثم يتبدل تعبيرها إلى الحذر عندما تشهق داميا وتفتح فمها، استعدادًا كما يبدو للصياح. تهتف البنت بسرعة: «اسمي بينوف! بينوف! وأنتِ؟».

ولمّا كانت داميا قد اعتادت طوال حياتها قبل مجيئها إلى المرتكز على نمط معين من التهذيب، أجابت من دون تفكير: «داميا الشد...». لم تفكر منذ وقت طويل في اسم استخدامها، أو في حقيقة أنه لم يعد ينطبق عليها، حتى أنها تكاد تُصعق عندما تسمع نفسها تقوله. «داميا. ما الذي تفعلينه هنا؟ ومن أين أتيت؟ ولماذا...» وتشير بتوتر إلى البنت، إلى زيها وشعرها، إلى وجودها كله.

«صه! الآن تريدين إلقاء مليون سؤال؟»، تهز بينوف رأسها، «اسمعي، أنا لن أظل هنا، ولن أورطك في المشاكل، أنا فقط أحتاج إلى أن أعرف... هل رأيت أي شيء غريب هنا في أي مكان؟». تحملق إليها داميا مجددًا، فتعبس بينوف، «مكان له شكل ما، ضخم و... شيء يبدو مثل...»، تلوح بيدها بحركات معقدة، محاولة تمثيل ما تعنيه، لكن على نحو يفتقر إلى المعنى بالكامل.

عدا أنه، ليس بالكامل.

المرتكز دائري. تعلم داميا ذلك حتى وهي لا تحسّ به إلا

عندما تطوف مع بقية الحصى في حديقة الخاتم. يلوح مبنى النجمة السوداء غرب أراضي المرتكز، وترى شمالًا تكتل مبانٍ عاليًا بما يكفي لتطل عليهم المباني من فوق الأسوار السبجية (لطالما تساءلت ما الذي يفكر فيه سكانها عندما ينظرون إليها وإلى بقية جنسها من علياء نوافذهم وأسطحهم؟). لكن الأهم أن الرئيسي أيضًا دائري، تقريبًا. لقد تجولت دامايا في أروقته المظلمة حتى الآن كثيرًا، بلا شيء يرشدها إلا مصباح وأصابعها وسسبيننتها، تجولت بما يكفي لتدرك فورًا عندما ترى بينوف ترسم شكلًا سداسي الأضلاع بيديها ما الذي تعنيه تلك البنت الغريبة.

إن حوائط الرئيسي وأروقته ليست واسعة بما يكفي لشغل كل المساحة التي يحتلها المبنى. يغطي سقف المبنى مساحة في قلبه لا تمتد إليها مساحات العمل والمشي، لا بد من أن هناك قاعة هائلة في داخله. لعلها ساحة، أو مسرح، وإن كانت هناك مسارح أخرى في المرتكز. لقد وجدت دامايا الحوائط المحيطة بهذه المساحة، وتتبعتها، ولم تكن دائرية، بل تتشكل من أسطح وزوايا، ستة أسطح وزوايا. لكن لو كان هناك باب يؤدي إلى تلك الغرفة المركزية السداسية، فهو ليس في أي من الأجنحة غير المستخدمة، أو لم تجده فيها بعد.

تغمغم دامايا من دون تفكير: «الغرفة عديمة الأبواب». بذلك صارت تلقب تلك القاعة الخفية في رأسها، منذ اليوم الذي أدركت فيه أنها موجودة حتمًا. بينوف تشهق وتنحني نحوها.

«نعم، *نعم*. أهذا ما يُطلق عليها؟ في ذلك المبنى الكبير في مركز المرتكز؟ هذا ما اعتقدته أيضًا. نعم».

ترمش دامايا وتتجهم. «من *أنت*؟». البنت محقة، هذا ليس فعلًا ما تقصد قوله، لكنه يظل مع ذلك يغطي أبرز الأسئلة في وقت واحد.

بينوف تتجهم. تنظر حولها، وتفكر للحظة وتجزّ على أسنانها. تقول في النهاية: «بينوف قيادية يومينِس».

بالكاد يعني ذلك أي شيء لدامايا. لا أحد في المرتكز له اسم استخدام أو اسم كومونة. وأي من كان قياديًّا قبل أن يأخذه الوصاة لم يعد كذلك. إن الحصى المولودين هنا أو جيء بهم صغارًا بما يكفي مُنحوا أسماء روچات، وكل من عداهم ينبغي عليه اتخاذ اسم روچا ما إن يستحق أول خواتمه. هذا أقصى ما ينالون.

ثم تنفتح البديهة إلى ما كان مستغلقًا عليها بالكامل، وتدرك دامايا فجأة أن بينوف لا تبدي ولاءً في غير محله لنظام اجتماعي لم يعد ينطبق عليها، بل هو ينطبق عليها، لأن *بينوف ليست أوروچينية*.

بل وليست راكدة عادية، بل قيادية، قيادية يومينِسية، ما يجعلها ابنة لإحدى أقوى العائلات في السكون. وتلك الابنة تسللت إلى المرتكز وتدعي أنها أوروچينية.

إن ذلك مستحيل ومجنون حد أن ثغر دامايا يتدلى فاغرًا. ترى بينوف ذلك وتفهمه، وتقترب أكثر، وتخفت صوتها أكثر

عندما تقول: «قلت لك إني لن أورطك في المشاكل. سأذهب الآن وأجد تلك الغرفة، وكل ما أطلبه منك ألا تخبري أحدًا. لكنك أردت أن تعرفي لماذا أنا هنا؟ لهذا أنا هنا، في تلك الغرفة أنظر إليك».

تغلق دامايا ثغرها. «لماذا؟».

«لا أستطيع أن أخبرك»، وعندما تحملق إليها دامايا، تمسك بينوف بيديها، «هذا من أجل سلامتك، وسلامتي. هناك أشياء لا يجب أن يعرفها إلا القياديون، بل وأنا حتى لا يفترض بي أن أعرفها حتى الآن. لو عرف أحد بما قلته لك، فسوف...»، تتردد، «لا أعلم ما الذي قد يفعلونه بنا، لكني لا أود أن أعرف».

الشرخ. دامايا تومئ بعقل غائب. «سيقبضون عليك».

«غالبًا. لكن سأخبرهم عندها من أنا»، وتهز البنت كتفها، بسلاسة من لم يعرف الخوف الحقيقي طوال عمره قط، «لن يعرفوا لماذا أنا هنا. سيرسل أحدهم إلى والديَّ بأني في مشكلة، لكني أتورط في المشاكل طوال الوقت على أية حال. ولو استطعت إيجاد أجوبة على أسئلتي قبل ذلك فقد استحقت مغامرتي العناء. والآن، أين تلك الغرفة عديمة الأبواب؟».

تهزّ دامايا رأسها وقد رأت الفخ المنصوب على الفور. «سأتورط أنا في مشكلة لو ساعدتك». إنها ليست قيادية، بل هي ليست شخصًا، لن ينقذها أحد. «عليك أن تغادري الآن، بنفس الطريقة التي دخلت بها مهما كانت. لن أخبرهم عنك إن

ذهبت».

«كلا»، تبدو بينوف متعجرفة، «لقد عانيت الأمرين لأدخل هنا، وأنت على كل حال في مشكلة بالفعل، لأنك لم تنادي على المدربين فور أن أدركت أني لست حصاة. أنت الآن شريكة في الجريمة، صحيح؟».

دامايا ترتبك، وتنقبض معدتها حين تدرك أن البنت محقة. وتشتعل غيظًا كذلك، لأن بينوف تحاول أن تتلاعب بها، وكم تكره ذلك. «من الأفضل إذن أن أصيح الآن من أن أدعك تنطلقي ليقبضوا عليك لاحقًا». وتنهض تريد باب العنبر.

بينوف تشهق وتركض خلفها، وتقبض على ذراعها وتتحدث في همسات حادة. «لا تفعلي، أرجوك. انظري، معي أموال. ثلاثة شرائح ماس أحمر وألكسندريتة كاملة! أتريدين المال؟».

يتأجج غضب دامايا مع كل لحظة تمر. «ما الذي أفعله بالمال بحق الصدأ؟».

«سأمنحك الامتيازات إذن. المرة القادمة التي تغادرين فيها المرتكز، سوف...».

ترد دامايا عليها موبخة: «نحن لا نغادر»، وتنتزع ذراعها من قبضة بينوف. كيف تمكنت تلك الراكدة الحمقاء من الدخول؟ يقف حراس من مليشيا المدينة على كل الأبواب المؤدية إلى خارج المرتكز. لكن هؤلاء الحراس هنا لمنع الأوروچينيين من الخروج، لا لمنع الراكدين من الدخول... ولعل تلك البنت القيادية بأموالها وامتيازاتها وجرأتها وجدت طريقًا، حتى لو

حاول الحراس إيقافها. «نحن هنا لأن ذلك هو المكان الوحيد الذي نحتمي به من الناس أمثالك. *ذهبي*».

فجأة، صار على دامايا أن تنحي بصرها عن البنت، وأن تشدّ على قبضتيها وتستجمع تركيزها وتتنفس أنفاسًا عميقة متلاحقة. لأنها بلغ غضبها حد أن ذلك الجزء منها القادر على بدء الهزات بدأ يتوجه صوب الأرض. هذا فقدان مخزٍ للتحكم، وتتمنى ألا يلاحظه أي من المدربين، لأنها بعد ذلك لن تعود شبه جاهزة لخوض اختبار أول خاتم، ناهيك عن أنها قد ينتهي بها الحال إلى تثليج هذه البنت.

بينوف تميل نحوها وتقول بفضول مثير للجنون: «أوه! هل أنت غاضبة؟ هل تمارسين الأوروچينية؟ كيف هو شعورك بذلك؟».

افتقارها الغريب إلى الخوف وسخافة أسئلتها أذهلا دامايا حتى ذهب غضبها ومعه أوروچينيتها، وحلّ محلهما الذهول. هل كل الأطفال القيادية مثلها؟ كانت باليلا صغيرة إلى حد أن لم يكن فيها أي منهم، إذ تميل أبناء العائلات القيادية إلى الحياة في أماكن تستحق القيادة. ربما هكذا هم قياديو يومينِس. أو ربما هذه فقط بنت حمقاء.

تتسع ابتسامة بينوف وتتراقص وكأن صمت دامايا في حد ذاته إجابه. «لم تسنح لي من قبل مقابلة أوروچينية. رأيت طبعًا الكبار، ذوي الأزياء السوداء يتجولون هناك وهناك، لكني لم أقابل قط طفلة مثلي. أنت لست مخيفة مثلما يقول القوالون، لكن القوالين أغلب الوقت كاذبون».

تهز دامايا رأسها. «أنا لا أفهم أي شيء فيك».

ولدهشتها تجيب بينوف بجدية: «تتكلمين مثل أمي». تحيد بنظرها للحظة، ثم تزمّ شفتيها وتحدق إلى دامايا بعزم جلي. «هل ستساعدينني على إيجاد تلك الغرفة أم لا؟ لو لن تساعديني فعلى الأقل لا تشي بي».

دامايا، على الرغم من كل شيء، تتأثر؛ تتأثر بالبنت، تتأثر باحتمال إيجاد مدخل للغرفة عديمة الأبواب، وتتأثر بإحساس التأثر الجديد عليها. إنها لم تذهب للاستكشاف من قبل مع أحد، وتجد ذلك... مشوقًا. تتزحزح في مكانها بغير راحة، لكن جزءًا منها قرر بالفعل، أليس كذلك؟ «حسنًا. لكن مع أني استكشفت الرئيسي لأشهُرٍ، لم أجد مدخلًا لها من قبل».

«الرئيسي؟ أهذا اسم المبنى؟ وعمومًا كلامك لا يدهشني، لا يوجد على الأرجح مدخل سهل. أو ربما كان هناك لكنه مغلق الآن»، يغيب عن بينوف تحديق دامايا إليها وتحك ذقنها، «لكن عندي فكرة عن المكان الذي ينبغي البحث فيه، لقد رأيت بعض الرسومات الإنشائية القديمة.. وأظنه على كل حال في الناحية الجنوبية من المبنى، في الطابق الأرضي».

هذا للأسف ليس طابقًا غير مستخدم، لكنها مع ذلك تقول: «أعرف الطريق»، ويدفئ قلبها عندما ترى الإشراق على وجه بينوف.

تقود بينوف في الطريق الذي تسلكه عادةً، وتمشي مثلما تمشي عادةً، والغريب أنها تلاحِظ أنها تلاحَظ أكثر من

المعتاد، ثمة من يكررون النظر مرتين إليهما، لكن لعل ذلك يرجع إلى توترها هذه المرة. وعندما تلمح المدرب جالينا بالصدفة في طريقها عند النافورة -جالينا هو الذي قبض عليها ذات مرة ثملة، وأنقذ حياتها بعدم تبليغه عن ذلك- يبتسم لها، قبل أن يعيد انتباهه إلى رفيقه المثرثر. عندها تدرك دامايا أخيرًا سبب نظرات الناس؛ إنهم يعرفون بالحصاة الغريبة الصامتة التي تتجول طوال الوقت. لعلهم سمعوا عن دامايا الشائعات مثلًا أو غير ذلك، وهم في الواقع يعجبهم أنها جلبت أخيرًا شخص ما معها. يحسبونها صار لها صديقة. كانت دامايا لتضحك لو لم تكن الحقيقة غير مضحكة بالمرة.

تقول بينوف وهي تخطو على الممشى السبجي في أحد الحدائق: «غريب».

«ماذا؟».

«كنت أعتقد أن الجميع سيلاحظونني، لكن بدلًا من ذلك لا يكاد أحد يهتم، رغم أننا الأطفال الوحيدون هنا».

تهز دامايا كتفيها وتتابع المشي.

«ألا ترين أنه كان يجب أن يوقفنا أحدهم ويسألنا عما نفعل أو أي شيء مشابه؟ فربما نكون نفعل شيئًا مؤذيًا مثلًا».

تهز دامايا رأسها. «لو أصاب أحدَنا سوء ووجدنا أحدهم قبل أن ننزف حتى الموت، سيأخذوننا إلى المستشفى»، وعندها سيصبح في سجل دامايا حادثة قد تعيقها عن خوض امتحان الخاتم الأول. كل شيء تفعله الآن قد يتعارض مع ذلك.

تتنهد.

تقول بينوف: «جميل، لكن أليس من الأفضل منع الأطفال قبل أن يفعلوا ما قد يؤذيهم؟».

داميا تتوقف في منتصف الممشى وتلتفت إلى بينوف. تقول بانزعاج: «لسنا أطفالًا»، بينوف تجفل، «نحن حصى، أوروچينيون إمبراطوريون تحت التدريب. هذا ما تبدين عليه الآن، ولهذا يحسبك الجميع كذلك. ولا أحد يهتم إن أصاب أوروچيني أذى».

تحدق إليها بينوف. «أوه!».

«وأنت تتحدثين أكثر من اللازم أيضًا، وهذا ليس سلوك الحصى. نحن لا نسترخي إلا في العنابر، وفقط عندما يغيب المدربون. لو تريدين التظاهر بأنك منا، فلتتقني ذلك».

«حسنًا حسنًا!»، ترفع كلتا يديها وكأنها تسترضيها، «أنا آسفة، كل ما في الأمر...»، ثم تعبس عندما تحدق داميا إليها. «حسنًا، لا مزيد من الحديث».

تسكت، وتتابع داميا المشي.

تبلغان الرئيسي، وتدخلان مثلما تفعل داميا دومًا، عدا أنها هذه المرة تتجه يمينًا لا يسارًا، وتنزل بدلًا من أن تصعد. السقف أدنى في هذا الممر، والحوائط مزينة بلوحات جدارية بين حين وحين على نحو لم ترَ مثله من قبل، تستعرض مشاهد لطيفة ومريحة. ثم بعد فترة تبدأ تقلق، فهما تقتربان من جناح لم تستكشفه من قبل، ولا ترغب في أن تفعل: جناح الوصاة.

«أين بالضبط في جنوب المبنى؟».

«ماذا؟»، بينوف المشغولة بالنظر حولها -ما يجعلها تبرز أكثر من الثرثرة المطولة- تنظر إلى دامايا متفاجئة، «أوه... أظن... في مكان ما من الناحية الجنوبية»، وتتجهم من نظرة دامايا اللائمة، «أنا لا أعرف أين، بل أعرف فقط أن هناك بابًا، حتى لو لم يعد موجودًا الآن. ألا يمكنك أن...»، وتحرك أصابعها، «يفترض أن يستطيع الأوروچينيون فعل أشياء مشابهة».

«نفعل ماذا؟ نجد الأبواب؟ فقط لو كانت *على الأرض*». لكن حتى وهي تقول ذلك، تقطب حاجبيها، لأن... يمكنها نوعًا ما سسبنة أين تكون الأبواب، بالاستنباط. الحوائط الحمّالة ذات شعور يشبه الأساس الصخري، وإطارات الأبواب لها شعور الفجوات في الطبقات الأرضية، أي أماكن يقل فيها ضغط المبنى على الأرض. لو كان هناك باب في مكان ما بهذا الطابق لكنهم أخفوه، فهل سيزيلون إطاره أيضًا؟ ربما، لكن ألن يكون الشعور الناجم عن مكانه مختلفًا عن بقية الحوائط؟

وتبدأ تلفّ، وتحرك أصابعها مثلما تنزع لفعل ذلك عندما تمدّ نطاق تحكمها أبعد. توجد علامات تحت الأرض في بوتقات التطبيقية، كتل رخامية صغيرة نُقش على سطحها كلمات. تحتاج إلى درجة تحكم شديدة الرهافة ليس فقط كي تجد الكتل، بل لتعرف أيضًا الكلمات. ذلك يشبه تذوق صفحة كتاب وملاحظة الفارق الدقيق بين طعم الحبر وطعم الصفحة

الخاوية، واستخدامه للقراءة. لكن بما إنها كانت تفعل ذلك باستمرار تحت إشراف المدربين الدقيق، تدرك أن في وسعها استخدام هذا التمرين لتلك الغاية.

تسألها بينوف بتلهف: «هل تمارسين الأوروچينية؟».

«أجل، اخرسي وإلا ثلجتك دون قصد»، ولحسن الحظ بينوف تطيعها فعلًا، مع أن السسبنة ليست أوروچينية ولا تشكل خطر تثليج أي شخص، لكن دامايا تمتن للهدوء.

تتلمس حوائط المبنى. تحسّ بها وكأنها ظلال للقوة مقارنة بالجمود المريح للصخر، لكن لو تحلت بحساسية كافية فستتمكن من تتبعهم. تحسّ بهذا وذلك وذاك، على طول حوائط المبنى الداخلية، وها هو الجدار المحيط بالقاعة المخفية، وتتحسس حتى تجد... أين ينقطع. تأخذ نفسًا عميقًا وتفتح عينيها.

«ماذا فعلت؟»، يكاد لعاب بينوف يسيل.

دامايا تلتفت، تمضي بطول الحائط وتتابع حتى تصل إلى المكان السليم، وتقف، ثمة باب هنا. من الخطر فتح الأبواب في الأجنحة المشغولة، هذا غالبًا مكتب شخص ما. الردهة هادئة وخاوية، لكن دامايا ترى النور من تحت بعض الأبواب، ما يعني أن ثمة بعضًا لا يزالوا يعملون حتى الآن. تطرق الباب أولًا، وعندما لا يأتيها رد تتنفس بعمق وتحاول فتح المزلاج. إنه مقفل.

تقول بينوف: «انتظري»، وتنقب في جيوبها، وتخرج بعد

لحظة ما يشبه أداة كانت تستخدمها دامايا ذات يوم في مزرعة أهلها لالتقاط بقايا قشر المكسرات. «قرأت عن كيفية فعل ذلك، أتمنى أن هذا قفل بسيط». وتشرع تعبث بالأداة في المزلاج، ويرتسم على وجهها التركيز.

تنتظر دامايا قليلًا، وتستند إلى الحائط وتنصت بأذنيها وسسبينتها بحثًا عن أي صوت أو ذبذبة أقدام تقترب، أو (الأسوأ) رنة أي وصي قادم. إن الوقت قد صار بعد منتصف الليل، وحتى أكثر العاملين إخلاصًا إما خططوا للنوم في مكاتبهم وإما غادروا المبنى، لذا لا يزعجهم أحد طوال الوقت الطويل المؤلم الذي استغرقته بينوف في محاولة فهم كيف تستخدم أداتها.

تقول دامايا بعد ما بدا لها عصورًا طويلة: «هذا يكفي»، لو جاء أحدهم الآن وضبطهما، فلن تقدر دامايا على تفادي المشكلة. «عودي غدًا وسنحاول مجددًا...».

تقول بينوف: «لا أستطيع»، إنها تتعرق، ويداها ترتجفان، ما لا يساعدها كثيرًا، «لقد فررت من مربياتي هذه الليلة، لكني لن أستطيع تكرارها غدًا. كدت أفعلها في آخر محاولة، أمهليني دقيقة أخرى».

فتنتظر دامايا، وتزداد توترًا على توتر، حتى تسمع أخيرًا تكة وتشهق بينوف من المفاجأة. «هل نجحت؟ أعتقد أنني نجحت»، تحاول فتح الباب، ويتطوح منفتحًا، «يا ضراط الأرض الملتهب! لقد نجحت».

يتضح أن الغرفة خلف الباب بالفعل مكتب أحدهم: ثمة مكتب ومقعدان مرتفعا الظهر وأرفف كتب على الحائط. المكتب أكبر من أغلب المكاتب، والمقاعد مزخرفة، أيًّا من كان الذي يعمل هنا، فهو شخص مهم. تستغرب دامايا رؤية مكتب مستخدم بعد شهور طويلة من رؤية مكاتب مهجورة في الأجنحة القديمة. لا غبار هناك، والمصابيح لا تزال مضاءة، وإن كانت فتائلها توشك أن تضمحل. غريب جدًّا.

تنظر بينوف حولها وتتجهم؛ لا أثر لأي باب في المكتب. دامايا تمرق بجوارها، وتتجه إلى ما تبدو وكأنها خزانة. تفتحها فتجد مكانس ومماسح، وزيًّا رسميًّا أسود احتياطيًّا معلقًا على قضيب.

«أهذا كل شيء؟»، تسبّ بينوف بصوت مسموع.

«لا». إذ إن دامايا تسسبن أن طول هذا المكتب من الباب إلى الحائط أقصر بكثير من أن يلائم عرض المبنى. الخزانة ليست عميقة كفاية لتعوض الفارق.

تمد يدها بحذر عبر المكانس وتدفع الحائط. لا شيء، إنه من قرميد مصمت. طيب، لم تكن إلا فكرة.

«أوه، صحيح!». تزاحمها بينوف في تحسس الحائط داخل الخزانة، وتدفع الزي الاحتياطي عن طريقها. «إن في هذه المباني العتيقة دومًا أبوابًا خفية، تقود إلى بيوت الأحراز أو...».

«لا توجد بيوت أحراز في المرتكز». وترمش قبل أن تنهي

جملتها، لأنها لم تفكر في هذا من قبل. ماذا يفترض بهم أن يفعلوا خلال الموسم؟ إنها لا تظن أن أهل يومينِس مستعدون لمشاركة طعامهم مع حفنة أوروچينيين.

«آه، صح صح»، بينوف تعبس، «لكننا مع ذلك نظل في يومينِس، حتى لو كنا في المرتكز، وهناك دومًا...».

وهنا تتجمد، تتسع عيناها بينما تتحسس أطراف أصابعها قطعة قرميد مرتخية. تبتسم، وتدفعها من إحدى نهايتها حتى تبرز الأخرى إلى الخارج، فتجذبها منها إلى الخارج. تجد تحتها مزلاجًا مصنوعًا مما يبدو أنه حديد زهر.

«... هناك دومًا شيء يؤدي إلى تحت السطح»، وتتنفس بينوف.

دامايا تقترب، متسائلة، «افتحيه».

«الآن صرت مهتمة؟»، لكنها تلف يدها بالفعل حول المزلاج، وتسحبه.

حائط الخزانة كله يتحرك، كاشفًا عن فتحة خلفه يؤطرها القرميد. الظلام يحفّ النفق الذي تؤدي إليه الفتحة من أوله.

تحدق دامايا وبينوف إلى النفق، لا تجرؤ أيهما على اتخاذ الخطوة الأولى.

تهمس دامايا: «ماذا هناك؟».

تلعق دامايا شفتيها وتحدق إلى النفق المظلم. «لست متأكدة».

«لا تتغابي»، ثمة متعة آثمة في الحديث على هذا النحو، مثل الكبار ذوي الخواتم، «لقد جئت إلى هنا أملًا في إيجاد شيء ما».

«لنذهب ونرى أولًا...»، تحاول بينوف تجاوزها، دامايا تقبض على ذراعها. بينوف تقفز، ذراعها تؤلمها في قبضة دامايا، ترمقها بنظرة غضب وكأنها تشعر بالإهانة، دامايا لا تأبه.

«لا، أخبريني ما الذي تبحثين عنه، وإلا أغلقت الباب خلفك وصنعت هزة تحبسك بالداخل، ثم أذهب وأخبر الوصاة». هذا تهديد زائف، إن أغبى شيء في العالم هو ممارسة أوروچينية بلا تصريح تحت أنف الوصاة، ثم الذهاب وإخبارهم بأنها من فعلتها. لكن بينوف لا تعرف ذلك.

تحاول بينوف نفضها عنها. «قلت لك إن لا أحد سوى القياديين يعلم ذلك».

«أنت قيادية، غيري القوانين، أليس هذا ما يفترض بك فعله؟».

ترمش بينوف وتحدق إليها. تظل صامتة لوهلة طويلة، ثم تتنهد، وتفرك عينيها، ويرتخي التوتر من ذراعها. «حسنًا، طيب»، تتنفس بعمق، «ثمة شيء، أثر قديم، في قلب المرتكز».

«أي نوع من الآثار؟».

«لا أعرف، حقًّا لا أعرف»، ترفع بينوف ذراعيها بسرعة،

نافضة عنها دامايا خلال ذلك، لكن دامايا لم تعد تحاول التمسك بها. «كل ما أعرفه هو أن... ثمة شيء مفقود من التاريخ، هناك ثغرة، فجوة».

«في ماذا؟».

«في التاريخ». تحدق بينوف إلى دامايا وكأن يفترض بأن يكون لكلامها معنى، «مثل الأشياء التي يعلمها لك المعلمون؟ عن كيف نشأت يومينِس».

تهزّ دامايا رأسها. باستثناء سطر تتذكره بمشقة عن أن يومينِس كانت أول مدن إمبراطورية السانزا القديمة، لا تستطيع تذكر أنها سمعت أي شيء عن إنشائها. ربما يحظى القياديون بتعليم أفضل.

تقلب بينوف عينيها، لكنها تشرح. «كان هناك موسم. الموسم الذي سبق تأسيس الإمبراطورية كان موسم التِّيه، عندما تزحزح القطب الشمالي فجأة، وماتت المحاصيل حين تاهت الطيور والحشرات عن إيجادها وتلقيحها. بعدها سيطر أمراء الحرب على أغلب المناطق، وهذا ما يحدث عادةً بعد المواسم. لم يكن هناك ما يسترشد به الناس حينها سوى قول الحجر والشائعات والخرافات. وبسبب الشائعات لم يستقر أحد في ذلك الإقليم لزمن طويل»، وتشير إلى ما تحت قدميها، «كانت يومينِس مكانًا مثاليًا لبناء مدينة: طقس مثالي، وفي منتصف الصفيحة القرية، بها مياه لكنها أبعد ما تكون عن المحيط، وكل هذه الأشياء. لكن الناس ظلوا لعصور طويلة يخشون هذا المكان، لأن *كان هنا شيء ما*».

لم تسمع دامايا قط شيئًا مماثلًا. «ماذا؟».

تبدو بينوف منزعجة. «هذا ما أحاول العثور عليه! هذا ما ينقص التاريخ. يبدأ التاريخ الإمبراطوري بعد موسم التيه مباشرة. بدأ موسم الجنون بعدها بقليل، وعندها أميرة الحرب فريشي -أو الإمبراطورة فريشي، أول إمبراطورة- بدأت السانزا. أسست الإمبراطورية هنا، على هذا المكان الذي يهابه الجميع، وبنت مدينة حول الشيء الذي كانوا جميعًا يخشونه. هذا في الواقع ساعد في الحفاظ على أمن يومينِس في تلك السنوات الأولى. ولاحقًا، بعدما أمست الإمبراطورية أرسخ، في وقتٍ ما بين موسم الأسنان وموسم انقطاع الأنفاس، بُني المرتكز هنا، عمدًا، فوق هذا الشيء بالتحديد».

«لكن ما...»، دامايا تشرد، ثم تفهم أخيرًا، «والتواريخ لم تذكر ما الذي كانوا يخشونه».

«بالضبط، وأنا أظنه هناك»، وتشير بينوف إلى الباب المشرع.

دامايا تعبس. «لا يفترض إلا بالقياديين معرفة هذا؟».

«لا أعلم، ولهذا أنا هنا. هل ستأتين معي إذن أم لا؟».

وبدلًا من الإجابة، مشت دامايا متجاوزة بينوف إلى الممر المؤطر بالقرميد. تلعن بينوف وتهرول خلفها، وبذلك تلجانه معًا.

يؤدي النفق إلى فراغ ضخم مظلم. تتوقف دامايا ما إن تشعر

بسعة المكان حولها. العتمة مهيمنة تمامًا، لكنها قادرة على الإحساس بهيئة الأرض حولها. تمسك بينوف التي كانت مندفعة إلى الأمام بعزم لا يأبه بالظلام -الحمقاء- وتقول لها: «انتظري، الأرض مضغوط بالأمام». قالتها همسًا لأن هذا ما يفعله المرء في الظلام. يتردد صدى صوتها لكن بعد وقت. إنه فراغ شاسع واسع فعلًا.

«مضغوط...؟».

«نعم مضغوط»، تحاول دامايا أن تفسر قصدها، لكن تفسير الأمور للراكدين دومًا عسير. أي أوروچيني آخر كان سيفهم ببساطة. «مثل... مثلما لو كان هناك هنا شيء ثقيل جدًّا»، مثل جبل، «طبقات الأرض مشوهة، و... وهناك منخفض، حفرة هائلة. ستقعين».

تغمغم بينوف: «يا للصدأ الوسخ». تكاد دامايا تجفل، مع أنها سمعت ما هو أسوأ سابقًا على ألسنة رفاقها الحصى الأفظاظ عندما يغيب المدربون. «نحتاج إلى بعض النور».

تضيء فجأة أنوار من الأرض أمامهم، بالتوالي، يصحب كل نور جديد تكة خافتة يتردد صداها أيضًا. أنوار صغيرة مستديرة بيضاء قريبة من أرجلهما، ومتراصة في خطين متوازيين يمتدان إلى الأمام، ثم أنوار أخرى مستطيلة أضخم من الأولى، بلون أصفر كالزبد، تتفرع من أضواء الممشى وتتجاوزها. تستمر الألواح الصفراء في الاشتعال بالدور، وتنتشر ببطء حتى ترسم سداسي أضلاع هائل ينير بالتدريج الفضاء الذي يقفان فيه؛ قاعة كهفية ذات ستة حوائط، يغطيها بالأعلى ما لا بد من أنه

السقف الرئيسي. السقف عالٍ جدًّا حتى أنهما تريان دعاماته اللامعة بمشقة. الحوائط عديمة الملامح ومبنية بنفس الحجر المستوي الذي يتكون منه بقية الرئيسي، لكن أغلب أرضية القاعة مغطاة بالأسفلت، أو شيء يشابهه جدًّا، شيء مصقول وأشبه بالحجارة لكنه ليس حجارة، قاسٍ نوعًا ومتين.

غير أن في مركز القاعة كان هناك بالفعل منخفض، وإن كان ذلك تقليلًا من ماهيته، بل هو بالأحرى حفرة هائلة جوانبها حوائط مسطحة ولها ست حواف دقيقة، قُطعت بنظافة كما يقطع المرء الألماس. تهمس دامايا وهي تقطع الممشى إلى الأضواء الصفراء التي تنير شكل الحفرة: «يا شر الأرض!».

تومئ بينوف مؤكدة، يبدو عليها نفس الذهول.

إن الحفرة شديدة الانحدار، وتمتد بعمق طوابق متعددة. لو وقعت فيها دامايا لتدحرجت وكسرت كل عظمة في جسدها عند القاع. لكن هيئة الحفرة هي أكثر ما يربكها، لأنها متعددة الأوجه وتضيق كلما تنزل حتى يصبح قاعها نقطة واحدة مستدقة. لا أحد يحفر الحفر على هذا النحو. لماذا حفروها هكذا؟ بذلك يكون الخروج منها مستحيلًا، حتى إن وُجد سلم يمكن أن يبلغ هذا العمق.

لكن، هذه حفرة لم يحفرها أحد، في وسعها سسبنة أن شيئًا ثقيلًا ثقلًا جبارًا نطح الأرض حيث هذه الحفرة، واستقر فيها لزمن طويل بما يكفي لتتكون الصخور وتتصلب التربة حوله حتى صارت تلك المسطحات الملساء النظيفة. ثم رُفع هذا الشيء، أيما كانت ماهيته، بنظافة مثل قطعة زبد من إناء،

دون أن يترك خلفه أثرًا سوى هيئته الخارجية.

لكن ثانية واحدة؛ إن جوانب الحفرة ليست ناعمة بالكامل. تقرفص دامايا كي تنظر عن كثب، بينما تكتفي بينوف بجوارها بالتحديق.

ترى الآن على كل الجوانب الملساء للمنحدر أشياء حادة لا تكاد ترى. هل هي إبر؟ إبر تبرز من شقوق دقيقة في الحوائط الملساء، مسننة وعشوائية، وكأنها جذور نباتات. تلك الإبر مصنوعة من الحديد، تستطيع دامايا شم الصدأ في الهواء. تُعدل تخمينها السابق: لو وقعت في هذه الحفرة، ستتمزق أشلاءً قبل أن تبلغ القاع.

تتنفس بينوف أخيرًا، «لم أكن أتوقع ذلك»، تتحدث بخفوت، لعله نابع من جلال الموقف أو من شدة الذعر، «توقعت أشياء كثيرة، لكن... ليس ذلك».

تسأل دامايا: «ما هذا؟ وما فائدته؟».

تهز بينوف رأسها ببطء: «يفترض به أن يكون...».

«خفيًّا»، يقولها صوت من خلفهما، فتقفز كلتاهما وتدور فزعًا. دامايا هي الأقرب إلى حافة الحفرة، وعندما تتعثر تمر بلحظة دوخة مرعبة تتيقن فيها أنها واقعة لا مراء. غير أنها في الواقع تسترخي، ولا تحاول الانحناء إلى الأمام أو موازنة نفسها أو أي شيء كانت لتفعله لو سنحت لها فرصة عدم الوقوع. إنها ثقيلة جدًّا، والهاوية تتثاءب خلفها، لا مناص.

ثم تقبض بينوف على ذراعها وتجذبها إلى الأمام، وتدرك

فجأة أنها كانت تبعد عن الحافة قدمين أو ثلاثة، لم تكن لتقع إلا لو تركت نفسها تقع. تستغرب من ذلك حدّ أنها تكاد تنسى لماذا كادت تقع في المقام الأول، ثم تقترب الوصية عبر ممشى الأضواء.

امرأة طويلة وعريضة وبرنزية، جميلة وكأنها منحوتة، شعرها رماد براكيني مشذب في هيئة قبعة خشنة. تشعر دامايا أنها أكبر من شافا، مع أن هذا يصعب تمييزه، فبشرتها لا تشوبها شائبة، وعيناها العسليتان لم تمسهما التجاعيد. لكنها تعطي إحساسًا... بأن حضورها أثقل. وابتسامتها تحمل نفس المزيج المُوتِّر من الطمأنينة والشر، الذي يميز كل وصي رأته دامايا.

تفكر: *لا حاجة بي إلى الخوف منها إلا لو حسبتني خطيرة.*

لكن السؤال يطرح نفسه: هل تُعد الأوروچينية التي تذهب إلى حيث ينبغي عليها ألا تفعل خطيرة؟ دامايا تلعق شفتيها وتحاول ألا تبدو مذعورة.

بينوف لا تأبه، وتتنقل بناظرها بين دامايا والمرأة والحفرة والباب. تود دامايا أن تخبرها بألا تفعل ما تفكر في فعله، أي على الأرجح محاولة الهروب. ليس مع وجود وصية. لكن بينوف ليست أوروچينية، ولعل هذا ما قد يحميها حتى لو فعلت أغبى الأمور.

تقول المرأة: «دامايا»، مع أن دامايا لم تقابلها قط، «كم سيخيب أمل شافا».

تندفع بينوف قبل أن تتمكن دامايا من الرد: «إنها معي».

تنظر إليها دامايا متفاجئة، لكن بينوف بدأت في الحديث ويبدو أنه لا يوجد من يقدر على إسكاتها. «أنا من جلبتها هنا، أمرتها أن تأتي. هي لم تعلم حتى عن وجود الباب و... هذا المكان، حتى أخبرتها أنا».

تود دامايا لو تقول إن هذا ليس حقيقيًا، فهي خمنت وجود المكان، لكنها فقط لم تعرف أين تجده. بيد أن الوصية تنظر إلى بينوف بفضول، وحقيقة أن أحدًا لم تُكسر يده حتى الآن تبشر بالخير.

«ومن أنت؟»، تبتسم الوصية، «أرى أنك لست أوروچينية رغم زيك».

بينوف تجفل للحظة، وكأنها نسيت أنها تلعب دور حصاة صغيرة تائهة، «أوه، إممم...»، تعتدل وترفع ذقنها، «اسمي بينوف قيادية يومينِس، اعذريني على تطفلي أيتها الوصية، كان لديَّ سؤال يحتاج إلى إجابة».

تدرك دامايا فجأة أن طريقة حديث بينوف قد تغيرت: باتت كلماتها الآن منتظمة وصوتها ثابتًا وانتفت منه الغطرسة. وكأن مصير العالم يعتمد على إيجادها الإجابة على سؤالها، وكأنها ليست مجرد طفلة مدللة من عائلة قوية قررت في نزوة أن تفعل شيئًا في قمة الغباء.

تتوقف الوصية، تحني رأسها وترمش بينما تبهت ابتسامتها. «قيادية يومينِس؟»، ثم تُشرق، «صار لك اسم كومونة وأنت لا تزالين صغيرة إلى هذا الحد؟ يا للجمال! مرحبًا بك بيننا يا

بينوف القيادية، لو أنك أخبرتنا بقدومك لكنا *أريناك* ما أردت رؤيته».

تجفل بينوف لحظيًا من التوبيخ. «شكرًا لكني أردت أن أرى بنفسي. ربما لم تكن هذه حصافة مني، لكن لا بد من أن والديَّ قد عرفا الآن بأني جئت إلى هنا، لذا في وسعك أن تتحدثي معهما عن ذلك».

تكتشف دامايا متفاجئة أن ذكر بينوف لأن ثمة من يعرف بغيابها لا يخلو من ذكاء، لأنها لم تحسبها ذكية إلى هذا الحد.

تقول الوصية: «سأفعل»، ثم تبتسم لدامايا، ما يجعل أمعاءها تتقلص، «وسأتحدث مع وصيك، سنتحدث كلنا معًا. ألن يكون ذلك لطيفًا؟ أجل. هلا تفضلتما؟»، وتنتحي جانبًا وتنحني قليلًا، تطلب منهما بإيماءة أن تتقدماها. ورغم تهذيبها تعلم كلتاهما أن هذا ليس طلبًا.

تقودهما الوصية إلى خارج القاعة. ما إن يلجن الممر القرميدي مجددًا حتى تنطفئ الأنوار خلفهم. عندما ينغلق باب النفق ويوصد باب المكتب، يتابعن إلى جناح الوصاة. ثم تلمس المرأة كتف دامايا لتوقفها بينما تتقدمهما بينوف بخطوة أو خطوتين. عندما تتوقف بينوف وتنظر إليهما مرتبكة، تقول الوصية لدامايا: «من فضلك انتظري هنا»، وتتابع لتنضم إلى بينوف.

بينوف تنظر إليها، لعلها تحاول أن تخبرها بشيء بعينها،

لكن دامايا تشيح بنظرها، وتتوه الرسالة بينما تقود الوصية بينوف عبر الممر وإلى خلف باب مقفول. يكفي ما سببته بينوف من أذى.

ودامايا طبعًا تنتظر، إنها ليست غبية. تقف أمام باب يقود إلى منطقة تضج بالنشاط رغم تأخر الوقت، يخرج منه وصاة من وقت إلى آخر وينظرون إليها. لا ترد لهم النظر، ويبدو أن في ذلك شيئًا يرضيهم، فيمضون من دون أن يضايقونها.

بعد وهلة تعود الوصية التي كشفتهما في قاعة الحفرة وتقودها عبر الباب بيد لطيفة على كتفها. «والآن لمَ لا نتحدث قليلًا؟ لقد أرسلت في طلب شافا، إنه لحسن الحظ في المدينة، لا في تجوال مثل العادة. لكن إلى أن يصل...».

خلف الباب ثمة مساحة مقسمة بلطف ومفروشة بالسجاد ومفعمة بالمكاتب الصغيرة. بعض المكاتب مشغول وبعضها خاو، والناس المتحركون بين المكاتب يرتدي بعضهم الزي الخمري والبعض الأسود، وقلة قليلة لا ترتدي أية أزياء رسمية، بل أزياء مدنية. ترمق دامايا كل ذلك بانبهار، حتى تضع الوصية يدها على رأسها برفق لكن بحزم، وتحيد بنظرها بعيدًا. تُقاد دامايا إلى مكتب صغير منعزل في آخر القاعة. لكن هذا المكتب خاوٍ تمامًا، والغرفة تعطي إيحاء بأنها غير مستخدمة. ثمة مقعد على كلا جانبي المكتب، فتجلس دامايا على المخصص للضيوف.

تقول بينما تجلس الوصية خلف المكتب: «أنا آسفة، لم... لم أفكر».

تهز الوصية رأسها وكأن هذا لا يهم. «هل لمست أيًّا منهم؟».

«ماذا؟».

«في المقبس»، لا تزال الوصية تبتسم، لكن الوصاة يبتسمون دومًا، لن يفيدها ذلك في شيء. «لقد رأيت النتوءات في حوائط المقبس، ألم ينتابك الفضول؟ كانت على بعد ذراع واحد تحتك حيث وقفت».

مقبس؟ أوه، إنها تقصد إبر الحديد البارزة من الحائط، «لا، لم ألمس أيها». *مقبس ماذا؟*

تميل الوصية إلى الأمام، وتبهت ابتسامتها بغتة، لكنها لا تختفي تمامًا، ولا تستبدلها بالتجهم، بل كل ما في الأمر أن تعبير وجهها يتوقف. «هل ناداك؟ هل لبيته؟».

تشعر دامايا فجأة، غريزيًّا، أن ثمة خطبًا ما، وهذا الإدراك يجفف الكلمات من فمها. حتى صوت الوصية أمسى مختلفًا، أعمق وأخفت، أقرب إلى الهمس، وكأنها تقول ما لا تود أن يسمعه الآخرون.

«ما الذي قاله لك؟». تمد إليها الوصية يدها، ودامايا تفعل المثل فورًا مع أنها تكره أن تفعل، لأن طاعة الوصاة واجبة. تأخذ المرأة يد دامايا وتمسك كفها في راحة يدها، ويتحسس إبهامها أطول خطوط كفها، خط الحياة. «في وسعك أن تخبريني».

تهز دامايا رأسها في حيرة تامة. «ما الذي قال لي ماذا؟».

«إنه غاضب»، ينخفض صوت المرأة أكثر، يصبح أحادي النبرة، وتدرك دامايا أنها لم تعد تحاول ألا تُسمع، وإنما هي تتكلم على نحو مختلف لأن هذا ليس صوتها. «غاضب و... وخائف. لقد سمعت الغضب والخوف يحتشدان، يتعاظمان. إنه يستعد للعودة».

وكأن... وكأن هناك شخصًا آخر داخل الوصية، وهو من يتحدث باستخدام وجهها وصوتها وكل ما فيها. لكن بينما تقول المرأة ما تقول، بدأت قبضتها تشتد حول يد دامايا. إبهامهما الذي يستقر على العظام التي هشمها شافا قبل عام ونصف العام بدأ يضغط، ويسري الخدر في دامايا بينما يفكر جزء منها: *لا أريد أن أؤذى مرة أخرى.*

تقول: «سأخبرك بكل ما تريدين»، لكن الوصية تتابع الضغط، وكأنها لا تسمعها أصلًا.

«لم يفعل ما فعله آخر مرة إلا اضطرارًا». يشتد الضغط. تلك الوصية على عكس شافا أظفارها طويلة. بدأ ظفر الإبهام يخترق لحم دامايا. «لقد تسلل عبر الحوائط ولوث نقاء خليقتهم، استغلهم قبل أن يستغلوه. ولما تم الاتصال العصي على الأذهان، غيَّر من أولئك القادرين على التحكم فيه، كبلهم، ربط مصيرهم بمصيره».

تهمس دامايا: «أرجوك لا تفعلي»، تبدأ راحة يدها تنزف. تتردد في الوقت نفسه تقريبًا طرقة على الباب. تتجاهل المرأة

كليهما.

«جعلهم جزءًا منه».

تقول دامايا: «لا أفهم». هذا يؤلمها. ترتجف، وتنتظر انكسار عظامها.

«كان يبتغي مساعدة، أو مساومة. بدلًا من ذلك... احتدمت المعركة».

«أنا لا أفهم، ليس لكلامك أي معنى». هذا خطأ. ترفع دامايا صوتها على الوصية، مع أنها تعلم أن هذا لا يصح، لكن ما تفعله هي لا يصح. وعدها شافا بأنه لن يؤذيها إلا بسبب وجيه. كل الوصاة يعملون وفقًا لهذا المبدأ، ودامايا تتأكد من ذلك عندما ترى كيف يعاملون رفاقها من الحصى والأوروچينيين ذوي الخواتم. ثمة نظام للحياة في المرتكز، وهذه المرأة تخالفه. «اتركي يدي، سأفعل ما تريدين، لكن اتركيني».

ينفتح الباب ويدخل شافا. نَفَس دامايا ينقطع، لكنه لا ينظر إليها، بل نظرته مثبتة على الوصية التي تقبض على يدها. لا يبتسم وهو يتحرك ليقف خلفها. «تيماي، تحكمي في نفسك».

تفكر دامايا *تيماي ليست هنا*.

تتابع الوصية بصوت كالطنين: «إن تحدث الآن فهو يحذر، لا مساومة المرة القادمة...».

شافا يتنهد قليلًا، ثم يغرز أصابعه في مؤخر جمجمة تيماي.

لم يتضح في البداية، من زاوية دامايا، أن هذا ما فعله. وإنما رأته فقط يقوم بحركة مفاجئة حادة عنيفة تندفع على إثرها رأس تيماي إلى الأمام. تصدر صوتًا خشنًا حلقيًّا شبه بذيء، وتجحظ عيناها. وجه شافا جامد تمامًا بينما يفعل ما يفعل، ذراعه تتلوى. وحينها أخذ أول خيط دم يسيل من حول رقبة تيماي، ويبلل زيها ويقطر في حجرها. ترتخي قبضتها فورًا حول يد دامايا، وكذلك وجهها.

وحينها أيضًا تبدأ دامايا في الصراخ. جعلت تصرخ بينما تستمر ذراع شافا في التلوي، ومنخراه يتوسعان من المجهود الذي يبذله في أيٍّ كان ما يفعله. صوت تهشم العظام وفرقعة الأوتار لا يمكن إنكاره. ثم يرفع شافا يده حاملًا شيئًا صغيرًا غير واضح -ومغطى بالدماء- بين إبهامه وسبابته. تقع تيماي حينها إلى الأمام، وترى دامايا حطام ما كان قاع جمجمتها.

يقول شافا بتعقل: «صمتًا يا صغيرة»، فتسكت دامايا.

يدخل وصي آخر، ينظر إلى تيماي، ينظر إلى شافا، يتنهد. «حظها سيئ».

«جدًّا». يعطي شافا الشيء المغطى بالدماء للرجل، الذي يتلقاه في راحتيه بعناية. يومئ نحو جثة تيماي، «أود أن يذهب هذا من هنا».

«حسنًا». يخرج الرجل ومعه الشيء الذي استخرجه شافا من تيماي، ثم يدخل وصيان آخران، يتنهدان مثلما فعل سابقهما،

ويحملان جسدها من مقعدها، ويجرانها إلى الخارج. يتوقف أحدهما لمسح نقاط الدماء عن المكتب حيث وقعت تيماي بمنديل. يتم ذلك كله بكفاءة. يجلس شافا في مكان تيماي، فترفع دامايا نظرها إليه، لأن هذا ما ينبغي أن يحدث. يحدقان بعضهما إلى بعض بصمت لبعض الوقت.

يقول برفق: «دعيني أرى»، فتقدم إليه يدها، ولدهشتها لا ترتجف.

يأخذها بيده اليسرى، التي لا تزال نظيفة لأنها لم تمزق جذع مخ تيماي. يقلب يدها ويفحصها بعناية، ويتمعن في خط الدم حيث اخترق إبهام تيماي الجلد. تتدحرج نقطة دم وحيدة من حافة يدها، وتقع على المكتب حيث كانت دماء تيماي قبل لحظات. «جيد، خشيت من أن تؤذيك أكثر».

تبدأ تقول: «ما. . .»، ولا تتمكن من استجماع أكثر من هذا.

شافا يبتسم، وإن كانت ابتسامة يحفها الأسى. «هذا شيء لم ينبغِ عليك رؤيته».

«ماذا؟»، يتطلب هذا منها مجهود عشري الخواتم.

يفكر شافا للحظة، ثم يقول: «أنت مدركة أننا، نحن الوصاة، . . . مختلفون»، يبتسم، وكأنه يذكرها باختلافهم. كل الوصاة يبتسمون بكثرة.

تومئ بلا حرف.

«هناك. . . إجراء»، يترك يدها للحظة، ويلمس مؤخر

جمجمته تحت شعره الأسود الطويل المنسدل، «أمر يُفعل فينا لجعلنا ما نحن عليه. زرع شيء ما. وأحيانًا ما تحدث المشاكل وينبغي نزعه، مثلما رأيت»، يهز كتفيه، يده اليمنى لا تزال مغطاة بالدم، «إن صلة الوصي بأوروچينيينه المكلف بهم تساعده على درء أسوأ المشاكل، لكن تيماي سمحت لصلاتها بالتفسخ. حمقاء».

حظيرة باردة في الشمال الأوسط؛ لحظة تعاطف ظاهرية؛ إصبعان دافئان يضغطان على مؤخر جمجمة دامايا. قال لها حينها *الواجب أولًا . هذا شيء يريحني قليلًا* .

تلعق دامايا شفتيها. «كا. . . كانت تقول أشياء، لا معنى لها».

«سمعت بعض مما قالته».

«لم تكن نفسها»، والآن دامايا هي من لا معنى لكلامها، «لم تعد الشخص الذي كانت عليه. أقصد أنه كان هناك شخص آخر، يتكلم كما لو أن. . . كم لو أن هناك شخصًا آخر بالداخل»، في داخلها، في فمها، يتحدث عبرها، «ظلت تقول لي أشياء عن مقبس، عن أنه غاضب».

يخفض شافا رأسه. «تقصد الأب الأرض طبعًا، هذه هلوسة شائعة».

دامايا ترمش، لم يبدُ لها أنها قصدت الأرض.

«وأنت محققة، تيماي لم تكن نفسها. أنا آسف لأنها آذتك، وآسف لأنك رأيت هذا. أنا في غاية الآسف يا صغيرة». وتجد

في صوته ندمًا صادقًا، وفي وجهه تعاطفًا حقيقيًّا، حتى أن داميا بدأت تفعل ما لم تفعله منذ تلك الليلة الباردة المظلمة في الحظيرة بالشمال الأوسط: تبكي.

بعد لحظة ينهض شافا ويدور حول المكتب ويحملها، ويجلس على مقعدها ويدعها تتكور في حضنه وتبكي على كتفه. ثمة نظام للحياة في المرتكز، وهذا هو النظام: ما دام لم يضايق الروچا الوصاة، فالوصاة هم أقرب شيء يشبه الأمان قد يتأتى له في حياته. لذا تبكي داميا طويلًا، ليس فقط مما رأته الليلة، بل تبكي وحدتها التي لا توصف. وشافا... شافا يحبها، يحبها بطريقته العطوفة المخيفة. لا تلقي بالًا للبقعة الدامية التي تتركها يمناه على فخذها، أو ضغطة أصابعه -القوية بما يكفي للقتل- على مؤخر جمجمتها، فكلها أشياء لا تهم في السياق الأوسع.

لكن عندما تنحسر عاصفة البكاء، يمسد شافا ظهرها بيده النظيفة. «كيف تشعرين يا داميا؟».

لا ترفع رأسها عن كتفه. تشم منه رائحة العرق والجلد والحديد، وهي أشياء سترتبط بينها وبين الراحة والخوف إلى الأبد. «أنا بخير».

«جيد، أحتاج منك فعل شيء لأجلي».

«ماذا؟».

يعتصرها برفق، تشجيعًا. «سآخذك إلى إحدى البوتقات حيث ستخوضين امتحان أول خاتم، وأحتاج منك أن تنجحي فيه من

أجلي».

دامايا ترمش، وتعبس، وترفع رأسها. يبتسم لها بعطف. من هذا تفهم بحدس بديهي أنه اختبار لما هو أكثر من أوروچينيتها. في النهاية أكثر الروچات يعرفون بالاختبار مسبقًا، كي يسنح لهم وقت للتدريب والاستعداد. أما هذا فيحدث لها الآن، بلا تحذير مسبق، لأنه فرصتها الوحيدة. لقد أثبتت أنها شخص متمرد وغير جدير بالثقة، وبالتالي تحتاج دامايا أن تثبت أنها شخص مفيد. ولو فشلت فـ. . .

«أحتاجك أن تعيشي يا دامايا»، يلمس شافا جبهتها بجبهته، «يا صغيرتي الطيبة، إن حياتي مليئة بالموت. أرجوك، انجحي في الاختبار من أجلي».

إنها تريد أن تعرف أشياء كثيرة؛ ما الذي قصدته تيماي؟ ماذا سيحدث لبينوف؟ ما هو المقبس ولماذا هو مخفي؟ ما الذي حدث للشرخ منذ سنة؟ بل ولماذا حتى يعطيها شافا كل هذه الفرصة؟ لكنْ ثمة نظام للحياة في المرتكز، وموقعها فيه يحتم عليها ألا تُسائل إرادة الوصي.

لكن. . .

لكن. . .

لكن. تدير رأسها، تنظر إلى قطرة الدماء الوحيدة على المكتب.

هذا لا يصح.

«دامايا؟».

إن ما يفعلونه بها *لا يصح*. كل ما يفعله هذا المكان لكل من يعيشون بين حوائطه. وكل ما يجعلها تفعله، كي تنجو.

«هل ستفعلين ذلك؟ لأجلي؟».

لا تزال تحبه، لكن هذا أيضًا لا يصح.

«لو نجحت»، تغلق دامايا عينيها. لا تستطيع أن تنظر إليه وتقول ذلك، ليس من دون أن يرى أن *هذا لا يصح* في عينيها. «لقد اخترت اسم روچا لنفسي».

لا يوبخها على فظاظتها. «هل فعلت؟»، يبدو سعيدًا، «ما هو؟».

تلعق شفتها. «سيانيت».

يتراجع شافا في المقعد، ويبدو أنه يفكر. «يعجبني».

«فعلًا؟».

«بالطبع. ألست أنت من اخترته؟». إنه يضحك، لكنه ضحك طيب، يضحك معها لا عليها. «يتشكل السيانيت على حواف الصفائح التكتونية، ولا يتفتت من الضغط والحرارة، بل يصبح أقوى».

إنه يفهم فعلًا. تعضّ شفتها وتشعر بدموع جديدة تتكون في عينيها. إن حبها له لا يصح، لكن أشياءَ كثيرة في هذا العالم لا تصح. لذا تحارب دموعها وتأخذ قرارها. البكاء ضعف، البكاء شيء كانت دامايا تفعله، لكن سيانيت ستصبح أقوى.

تقول سيانيت بخفوت: «سأفعلها، سأنجح في الاختبار يا شافا من أجلك، أعدك».

يقول شافا: «فتاتي الرائعة»، ويبتسم، ويحتضنها أكثر.

***

[غير مقروء] أولئك الذين يحملون الأرض بداخلهم. ليسوا على أنفسهم بمسيطرين، فلا تسيدوهم على الآخرين.

اللوح الثاني - «الحقيقة الناقصة» - البيت الثامن

١٨

أنت، تكتشفين تحت الأعاجيب

تأخذك إيكّا إلى البيت الذي خرجت منه مع رفيقاتها. أثاث البيت قليل وحوائطه عارية مخدوشة، ثمة رائحة طعام وأجساد متلكئة؛ لا بد من أن أحدهم كان يعيش هنا حتى وقت قريب، ربما حتى بدأ الموسم. أما الآن فالبيت ليس أكثر من قشرة، تفهمين ذلك عندما تعبرين مع الآخرين باب القبو. تجدين في قاع الدرج قاعة ضخمة خاوية، لا تضيئها إلا المشاعل الخشبية.

وهنا تبدئين في إدراك أن هذا أكثر من مجرد تجمع لشواذ الناس والأجناس، إذ إن حوائط القبو من الجرانيت المصمت. لا يُجلب الجرانيت من المحاجر لبناء مجرد قبو، و... ولست متأكدة إن كان ثمة من حفر هذا القبو. يتوقف الجميع عندما تذهبين إلى أحد الحوائط وتلمسينه، تغلقين عينيك وتتوجهين. نعم، ثمة إحساس بشيء مألوف هنا، لقد شكّل هذا الحائط الأملس الممتاز روچا، شكّله باستخدام تركيز أدق مما يسعك تخيله (وإن كان ليس أدق تركيز سسبنتيه في حياتك). إنك لم تسمعي قط عمن فعل شيئًا مماثلًا بالأوروچينية، الأوروچينية ليست للبناء.

تلتفتين، فترين إيكّا تراقبك. «شغلك؟».

تبتسم، «لا، هذا والمدخل الخفي الآخر موجودان منذ قرون، من قبلي بكثير».

«أكان أهل هذه الكومونة يتعاونون مع الأوروبيين كل ذلك الوقت؟»، لقد قالت إن عمر الكومونة خمسون عامًا فقط.

تضحك إيكّا. «لا، بل قصدت أن هذا العالم تنقل بين أيادٍ عديدة عبر المواسم، ولم تكن كلها بنفس غباء عالمنا الحالي فيما يتعلق بالاستفادة من الأوروبيين».

تقولين: «لسنا أغبياء الآن، الكل يفهم جيدًا كيف يستخدموننا».

إيكّا تعبس، بشفقة، «أأنت مرتكزية؟ كل من نجوا منكم يتحدثون بنفس الشكل».

ترى كم عدد المرتكزيين الذين قابلتهم هذه المرأة؟ «أجل».

«حسنًا، الآن سترين مدى سعة قدراتنا عندما نرغب في ذلك». وتشير إيكّا إلى فتحة واسعة في الحائط وراءها لم تلاحظيها في خضم افتتانك ببنية القبو. تهب نسمة واهنة إلى القبو من هناك. ثمة ثلاثة أشخاص يتسكعون عند فم الفتحة، يراقبونك بتعبيرات تتراوح بين العدوانية والحذر والعجب. لا يحملون أية أسلحة -فالأسلحة مستندة إلى حائط قريب- ولا يثيرون الضجة بشأنها. لكنك تدركين أن هؤلاء حرس بوابة هذه الكومونة التي ليست لها بوابة. هنا، في هذا القبو.

تتحدث الشقراء بهدوء مع أحد الحراس، فيبرز ذلك مدى ضآلتها، إنها أقصر بقدم وغالبًا أنحف بخمسين رطلًا من أقل واحد فيهم. ليت أسلافها فعلوا بها معروفًا وناموا مع سانزيٍّ أو اثنين. على كل حال تتابعين التقدم ويظل الحراس خلفكم،

يجلس اثنان منهما على مقعدين قريبين والثالث يرتقي الدرج، ربما ليتابع مراقبة الخارج من داخل المبنى الخاوي.

عندها تتغير رؤيتك جذريًا: إن القرية المهجورة بالأعلى هي أسوار الكومونة، وهي أقرب إلى التمويه منها إلى التحصين.

لكن تمويه ماذا؟ تتبعين إيكًا عبر الفتحة إلى الظلام خلفها.

«مركز المكان كان دومًا هنا»، تشرح لك هذا بينما تهبطون النفق الطويل، الذي لعله كان مدخل منجم مهجور. ثمة قضبان عربات تعدين، وإن كانت قديمة وغائرة في الصخر الرملي حد أنك لا ترين منهم إلا حواف غريبة تحت قدميك. تبدو دعامات النفق الخشبية عتيقة، مثلها مثل الشمعدانات الحاملة للمصابيح الكهربية ذات الأسلاك، إذ تبدو كما لو أنها صنعت في الأصل لحمل المشاعل الخشبية ثم عدلها مهندس ما لغرضها الجديد. لا تزال الأضواء تعمل، ما يعني أن في الكومونة مولِّدًا سليمًا لطاقة مائية أو أرضية أو كليهما. هذا وحده يجعلها أفضل من تيريمو. النفق دافئ أيضًا، لكنك لا ترين أيًا من أنابيب التدفئة المعتادة. ويزداد الدفء كلما نزلتِ على الأرضية هينة الانحدار أكثر.

«قلت لك إنها كانت منطقة مناجم. عندما شرخ أحدهم حائطًا لم ينبغِ شرخه، انهار ليكشف عن متاهة أنفاق مجهولة، وبذلك اكتشفوا المكان هنا». تصمت إيكًا لفترة طويلة بينما يتسع نفق المدخل، وتنزلون جميعًا درجات سلم معدني تبدو خطيرة. الدرجات كثيرة، وتبدو أيضًا عتيقة، لكنها مع ذلك لا يظهر على معدنها الصدأ ولا الوهن، بل هو أملس ولامع، والدرجات

راسخة كل الرسوخ.

تلاحظين متأخرًا أن آكلة الصخر الصهباء قد ذهبت؛ لم تتبعكم إلى النفق. لا يبدو أن إيكًا قد لاحظت، فتلمسين ذراعها. «أين صديقتكم؟»، مع أنك تعلمين بالفعل.

«آه، هذه؟ إن التنقل بطريقتنا يصعب عليهم، ولهم طرقهم الخاصة في التنقل، ومنها طرق لم أكن لأخمنها أبدًا»، وتنظر شذرًا إلى هوّا الذي ينزل السلالم معكم. ينظر إليها ببرود، ثم يلفظ ضحكة. «مثير للاهتمام».

عند قاع الدرج نفق آخر، عدا أنه يختلف لسبب ما. سقفه منحنٍ لا مربع، ترفعه أعمدة من حجر فضي سميك من نوع ما، تتقوس منفرجة مثل الأضلع على الحوائط. تكادين تتذوقي عمر هذه الممرات من مسام جلدك.

إيكًا تتابع. «إن صخرة أساس هذه المنطقة كلها مفعمة بالأنفاق والحفر، مناجم فوقها مناجم. كل حضارة تبني فوق ما خلفته سابقتها».

تقول تونكي: «هذا أرتوسيدي، من جياماريا. ولايات أوتّي الجنوبية».

لقد سمعتِ عن جياماريا، من دروس التاريخ التي كنت تُدرسينها في المدرسة. كان ذلك اسم أمة عظيمة، تلك التي بدأت شبكة الطرق التي طورتها السانزا لاحقًا، والتي كانت تمتد لتشمل كل ما أمسى الآن الجنوب الأوسط. وماتت قبل عشرة مواسم. أما بقية الأسماء فترجع غالبًا إلى حضارات ميتة

أخرى، من النوع الذي يحلو للجيومستيين الاهتمام به، حتى لو لم يهتم به عداهم أحدًا.

تقولين: «هذا خطر»، بينما تحاولين ألا يبدو توترك جليًا، «لو حُفر في الصخرة أكثر من اللازم. . .».

«نعم، نعم. لكن هذا خطر التعدين في كل وقت، سواء كان من الحفر أو من الهزات».

تونكي لا تنفك تتلفت خلال سيرها، تلتهم كل شيء بعينها، ومع ذلك تدهشين لأنها لا تصطدم بأحد. تقول: «لكن الهزة الشمالية كانت من العنف الكافي لتدمير كل هذا».

«أنت محقة، هذه الهزة، التي نسميها بالمناسبة الانشطار اليومينيسي، بما إن أحدًا لم يطلق عليها اسمًا أفضل بعد، هذه كانت أسوأ ما شهده العالم منذ دهور، ولا أعتقد أني أبالغ بقولي هذا»، تهز إيكًا كتفيها وترميك بنظرة، «لكن الأنفاق لم تنهَر، طبعًا، لأنني كنت هنا. لم أدعها تنهار».

تومئين، ببطء. لا يختلف ذلك عما فعلته مع تيريمو، سوى أن إيكًا لا شك أنها اهتمت بما هو أكثر من السطح. لا بد أيضًا من أن المنطقة كلها مستقرة نسبيًا، وإلا انهارت تلك الأنفاق منذ دهور.

لكنك تقولين: «لكنك لن تظلي هنا أبدًا».

تهز إيكًا كتفيها. «عندما أذهب، سيكون هنا غيري. مثلما قلت من قبل: ثمة كثير منا هنا».

«بخصوص ذلك. . .»، تلتفت تونكي على قدم واحدة وتوجه انتباهها كله بغتة إلى إيكّا. فتضحك إيكّا.

«لا يهدأ عقلك لحظة، أليس كذلك؟».

«أبدًا». تعتقدين أن تونكي لم تتوقف عن ملاحظة الدعامات وتكوين الحوائط، وعدّ الخطوات، كل ذلك وهي تتحدث. «كيف تفعلينها؟ أقصد كيف تستدرجين الأوروپينيين إلى هنا؟».

«أستدرج؟»، تهز إيكّا رأسها، «ليس ذلك بالفعل الخبيث إلى هذه الدرجة، ويتعذر عليَّ وصفه. هناك. . . شيء ما أفعله، مثل. . .». وتسكت.

ثم تتعثرين مرة واحدة وأنت تمشين. ليس أمامك عائق، وإنما بات المشي في خط مستقيم صعبًا فجأة، وكأن ثمة منحدرًا خفيًا يكون في الأرض فجأة يؤدي نحو إيكّا وحدها.

تقفين وتحدقين إليها، وتتوقف بدورها وتلتفت إليك باسمة. تسألين: «كيف تفعلين ذلك؟».

«لا أعرف»، وتفرد ذراعيها أمام نظراتك غير المصدقة، «إنما هو شيء جربت فعله قبل بضع سنوات، وبعدما بدأت بقليل جاء رجل إلى المدينة وقال إنه شعر بي من على بعد أميال. ثم جاء طفلان، لم يعرفا حتى ما الذي جذبهما إلى هذا الطريق. ثم رجل آخر. ولم أتوقف عن فعل ذلك من حينها».

تسأل تونكي: «فعل ماذا؟»، تنقل عينها بينك وبين إيكّا.

توضح إيكّا: «لا يشعر بهذا إلا الروچات»، وإن كنت قد خمنت هذا وحدك، ثم تنقل بصرها إلى هوّا، الذي كان يراقب كليكما بسكون تام، «وهؤلاء، كما اكتشفت لاحقًا».

فتقول تونكي مندفعة: «بخصوص ذلك...».

«يا نار الأرض وصدأ العالم، ألا تتوقف أسئلتك؟»، تقول ذلك الشقراء، التي تهز رأسها وتشير إليكم جميعًا بمتابعة المشي.

يتناهى إلى مسامعك بعض الجلبة من حين إلى حين، والهواء يتحرك على نحو ملحوظ. لكن كيف يمكن هذا؟ أنت بالتأكيد على عمق ميل على الأقل، وربما ضعفي ذلك. النسيم دافئ وتشوبه روائح كدت تنسينها بعد أسابيع من تنفس الكبريت والرماد عبر القناع؛ طعام مطهو، قمامة تتعفن، دخان خشب يحترق. ناس، إنك تشتمين رائحة ناس، الكثير من الناس. وترين أمامك نور، أقوى بكثير من خيوط الأضواء الكهربية على الحوائط.

«كومونة تحت أرضية؟»، قالت تونكي ما تفكرين فيه، وإن كان صوتها متشكك أكثر (فأنت أكثر خبرة منها بالمستحيلات)، «لا، لا أحد بهذه الغباء».

ولا تجيب إيكّا إلا بالضحك.

تبدأ الأضواء الغريبة تضيء النفق حولكم، والهواء يهبّ أسرع، والجلبة تشتد. يتحول النفق في نهايته إلى شرفة واسعة ذات حاجز معدني للأمان تمنح الواقف فيها منظورًا خلابًا.

لأن مهندسها أو ومبتكرها فهم جيدًا ما الذي سيشعر به الوافد الجديد عندما يصل إلى هنا. وتفعلين بالضبط ما أراده هذا المصمم العتيق: تحدقين بثغر مفتوح، وقد غلبك الذهول.

إن ذلك جيود. تسسبنين ذلك من الطريقة التي تتحول بها الصخور حولك فجأة من شيء إلى آخر. تكونت فقاعة قبل عصور لا حصر لها وسط تدفق معادن منصهرة في باطن الأب الأرض، مثل حصاة في جدول، مثل طية في نسيج. وفي ذلك الجيب نشأت البلورات، يغذيها الضغط الذي لا يمكن استيعابه، ويغسلها الماء والنار. وهذا الجيود كبير كمدينة.

وربما لهذا بنى أحدهم بالفعل فيه مدينة.

تقفين أمام مغارة مقببة شاسعة مترعة بأعمدة بلورية متوهجة بحجم جذوع الأشجار، جذوع الأشجار الكبيرة، أو بحجم المباني، المباني الضخمة. تبرز تلك الأعمدة من الحوائط بفوضى عشوائية؛ متباينة الطول والمحيط، بعضها أبيض وبعضها شفاف وقليل منها رمادي أو ذو لمسة بنفسجية. بعضها قصير، قمته المدببة لا تبعد عن الحائط الذي برز منه إلا بضعة أقدام، وبعضها يمتد من أحد جانبي المغارة إلى مسافة لا يمكن تمييزها. يشبهون طرقًا أكثر انحدارًا من أن يتسلقها أحد، وتذهب في اتجاهات لا معنى لها. وكأن أحدهم جاء بمهندسة معمارية، وطلب منها بناء مدينة من أجمل المواد المتاحة، ثم ألقى كل تلك المباني في صندوق كما اتفق على سبيل المزاح.

بل والأدهى أنهم يعيشون فيها. تلاحظين جسورًا نحيلة

من الحبال في كل مكان؛ كابلات ضخمة تتدلى مرصعة بالمصابيح الكهربية والحبال وبكرات تحمل مصاعد صغيرة من منصة إلى أخرى. وترين على مسافة رجلًا يصعد درجًا خشبيًا بُني حول عمود أبيض جبار مائل، وطفلين يلعبان على الأرض في الأسفل، بين بلورتين قصيرتين بحجم البيوت.

بل إن بعض البلورات في الواقع بيوت. ثمة فتحات حُفرت فيها على شاكلة أبواب ونوافذ. ترين الناس يتحركون حول وداخل بعضهم. يتراقص الدخان المتصاعد من فتحات المداخن في رؤوس البلورات المدببة.

تهمسين: «يا للأرض الشرير آكل أبنائه!».

تقف إيكّا بيديها على فخذيها، تراقب رد فعلك بما يشبه الفخر. تعترف: «لسنا من بنينا أكثر هذه الأشياء. نحن من وضعنا الإضافات الحديثة مثل الجسور الجديدة، أما تجويف الأعمدة فكان من قبلنا. لا علم لنا كيف فعلوها من دون أن يهشموا البلورات. الممرات المعدنية، مثلها مثل درجات سلم النفق التي مررنا بها، لا يعلم المهندسون كيف صنعت، وقوالو الحديد والخيميائيون يهيجون وينتشون لما يرونها. عندنا ميكانيزمات بالأعلى هناك...»، وتشير نحو سقف المغارة الذي لا يكاد يُرى ويرتفع عن رأسك مئات الأقدام. يشقّ عليك سماعها، عقلك خدر، وعيناك بدأتا تؤلمانك من فرط التحديق من دون رمش، «... تضخ الهواء الفاسد إلى طبقة أرض مسامية ترشحه وتعيده إلى السطح، وثمة مضخات أخرى تجلب الهواء النقي. وثمة ميكانيزمات تقع خارج الجيود

تنقل الماء من ينابيع ماء ساخنة تحت أرضية بعيدة جدًا، عبر توربينات تمنحنا الطاقة الكهربائية -وذلك الجزء بالذات استغرقنا دهورًا كي نفهمه- وأيضًا لاستخدام الماء اليومي العادي»، تتنهد، «لكن، بصراحة، لا علم لنا كيف تعمل أغلب الأشياء التي وجدناها. فكل تلك قد بُنيت قبل زمن بعيد، قبل حتى أن توجد السانزا القديمة».

«إن الجيودات تفقد استقرارها ما إن تُخترق قشرتها»، حتى تونكي يغمرها الذهول، ترين بجانب عينك أنها ساكنة تمامًا لأول مرة منذ قابلتها، «لا أجد مغزى للبناء داخل جيود. ولماذا تتوهج البلورات؟».

إنها محقة.

تهزّ إيكًا كتفيها وتطوي ذراعيها. «ليست عندي فكرة. لكن من بنوها بنوها كي تدوم، حتى ولو ضربتها الهزات. لذا فعلوا في الجيود أشياءَ ليتأكدوا من بقائه. وقد بقي... لكنهم لم يبقوا معه. عندما وجد الكاستريميون هذا المكان، كان يعجّ بالهياكل العظمية، وبعضها كان قديمًا إلى حد أنها تفتت تمامًا ما إن لمسناها».

«إذن أسلاف قومك قرروا أن ينتقلوا إلى أثر هائل من حضارة ميتة قُتِل آخر من خاطروا بالسكن فيه»، تتشدقين، لكن بنبرة واهنة، إنك مذهولة إلى حد يصعب عليك معه إتقان النبرة المطلوبة، «ولم لا؟ هيا نكرر معًا أخطاء الماضي الكبرى».

«صدقيني، ذلك جدل مستمر حتى الآن»، تتنهد إيكًا وتستند

إلى حاجز الشرفة، ما يجعلك تجفلين. لو انزلقت، فالطريق إلى أسفل طويل جدًّا، وبعض البلورات في القاع تبدو حادة جدًّا.

«لزمن طويل لم يكن هناك من يتقبل الحياة هنا. استخدمت كاستريما هذا المكان كبيت أحراز، وليس حتى لتخزين الأساسيات كالطعام والدواء. لكن طوال كل ذلك الوقت، لم ينشرخ حتى حائط، حتى بعد الهزات. وأكثر ما أقنعنا كان التاريخ، فالكومونة التي حكمت تلك المنطقة خلال آخر موسم، وقد كانت كومونة حقيقية ملائمة ذات أسوار وكل ما تتطلبه الكومونات، اجتاحتها عصبة أغيار وأحرقوها حتى سووها بالأرض، وكل ما له قيمة في مخازنها سُلب. ولم يكن لدى الناجين إلا خيار الالتجاء إلى هنا، أو محاولة النجاة بالأعلى بلا أسوار ولا دفء، وحيث يحوم حولهم كل من يبحث عن فرصة سائغة. وكان هؤلاء أسلافنا».

القانون الوحيد هو الضرورة، هكذا نصّ قول الحجر.

«وحتى ذلك لم يمضِ على ما يرام»، تعتدل إيكّا وتشير إليكم كي تتبعوها مجددًا. تبدؤون في المشي على منحدر واسع مسطح ينزل برفق إلى قاع المغارة. تدركين متأخرًا أنه أيضًا بلورة، وأنكم تمشون على جانبها. رصفها أحدهم بالأسمنت كي تصبح أخشن للسائرين، لكنك ترين بعد حواف الشريط الرمادي الوهج الأبيض الهادئ. «أغلب من انتقلوا إلى هنا خلال الموسم ماتوا أيضًا. لم يتمكنوا من تشغيل ميكانيزمات الهواء، البقاء هنا أكثر من أيام قليلة بهذا الشكل يعني الاختناق، ولم يكن عندهم أيضًا أي طعام. لذا رغم الدفء

والأمان ووفرة المياه، تضور أغلبهم جوعًا قبل عودة الشمس إلى السماء».

حكاية قديمة لا يميزها إلا مكان وقوعها الفريد. تومئين بشرود، وتحاولين ألا تتعثري عندما يلفت انتباهك رجل كبير يقطع المغارة معلقًا في بكرة بالكابلات، ومؤخرته تسترخي في حلقة من الحبال. تتوقف إيكّا وتلوح له، ويرد لها الرجل التحية ويتابع التحليق.

«الناجون من ذلك الكابوس هم من أسسوا المركز التجاري الذي أصبح مع الوقت كاستريما. تناقلت الأجيال قصص هذا المكان، لكن مع ذلك لم يرغب أحد في الحياة هنا... حتى أدركت جدتي الكبرى لماذا لا تعمل الميكانيزمات، وأصلحتهم بمجرد أن مشت عبر المدخل»، وتشير إيكّا إلى الطريق الذي جئتم منه، «وهو نفس ما حدث معي عندما نزلت هنا أول مرة».

تتوقفين، ويتابع الكل من دونك للحظة. هوّا أول من يلاحظ تأخرك، فيلتفت وينظر إليك. ثمة شيء من الحذر في تعبير وجهه لم يكن فيه من قبل، تلاحظين ذلك بصعوبة وسط ذعرك وعجبك. لاحقًا، عندما تجدين وقتًا مناسبًا بعد ما أنتم فيه، ستتحدثين معه. أما الآن فثمة أمور أهم يجب اعتبارها.

تقولين بفم جاف: «أتعنين أن الميكانيزمات تعمل بالأوروچينية؟».

إيكّا تومئ بنصف ابتسامة. «هذا ما يعتقده المهندسون.

وعمومًا حقيقة أن كل شيء يعمل الآن يجعل من تلك نتيجة واضحة».

«هل...»، تتلمسين الكلمات ولا تجدينها، «كيف؟».

إيكّا تضحك، وتهز رأسها. «ليست عندي أدنى فكرة، إنها ببساطة تعمل».

هذا يرعبك أكثر من كل ما عرضته عليكم.

تتنهد إيكّا وتضع يداها على فخذيها. تقول: «إيسّون»، فترجفين، «أليس هذا اسمك؟».

تلعقين شفتيك، «إيسّون مقاو...»، ثم تتوقفين، لأنك كنت على وشك إعطائهم الاسم الذي أعطيته لأهل تيريمو منذ أعوام، وهذه كذبة. تقولين مرة أخرى: «إيسّون»، وتتوقفين عندها. هذا كذب محدود.

ترمي إيكّا عينها إلى رفيقيك. تقول تونكي: «تونكي مبتكرة ديبارس»، وترميك بنظرة شبه محرجة، ثم تنظر إلى قدميها.

يقول هوّا: «هوّا». تحدق إليه إيكّا لوهلة تطول، وكأنها تتوقع أكثر، لكنه لا يعرضه.

«طيب». تفتح إيكّا ذراعيها وكأنها تحيط بالجيود كله، وتنظر إلى ثلاثتكم بذقن مرفوعة، بما يشبه التحدي. «نحن في كاستريما نفعل ما يفعله الجميع: نحاول أن ننجو. لكننا خلال ذلك لا نمانع الابتكار قليلًا»، تميل برأسها إلى تونكي التي تلفظ ضحكة متوترة، «قد نموت ونحن نفعل، لكن هذا

قد يحدث على كل حال بحق الصدأ، إننا في موسم».

تلعقين شفتيك. «أيمكننا أن نذهب؟».

تنطلق تونكي بنظرة غاضبة: «ما الذي تعنينه بحق الصدأ بالذهاب؟ نحن بالكاد بدأنا الاستكشاف و...»، ثم تدرك فجأة ماذا تعنين. يشحب وجهها على شحوبه. «أوه».

ابتسامة إيكّا حادة كالماس. «أنت لست بغبية إذن، هذا جيد. هيا بنا، ثمة أناس نريد مقابلتهم».

وتومئ إليكم كي تتبعاها مجددًا، وتتابع نزولها المنحدر، ولا تجيب على سؤالك.

***

إن السِسَبينا، ذلك العضو المزدوج في قاع جذع المخ، قد ثبت عمليًّا أنها حساسة لما هو أكثر من الحركات الزلزالية المحلية والضغط الجوي. لوحظ في الاختبارات المجراة عليها استجابات لوجود الكائنات المفترسة، وللمشاعر المختلفة، ولأقصى الحرارة وأقصى البرد، ولحركة الأجسام السماوية. أما ميكانيزمات هذه الاستجابات فلم يتم تحديدها.

ناندفيد مبتكر موركيتسي، «ملاحظات على التنوعات السيسونية في الأفراد مفرطي التطور». الجامعة السابعة، كومونة دراسة البيومستية. وجزيل الامتنان للمرتكز على تبرعه بعينات متوفاة للبحث.

١٩

سيانيت، بالمرصاد

كان قد مضى على وجودهما في ميوف ثلاثة أيام عندما تغير شيء ما. قضت سيانيت تلك الأيام الثلاثة وهي تشعر بالانفصال عن المكان لأكثر من علة. العلة الأولى أنها لا تستطيع التكلم بلغتهم، وهي لغة يخبرها ألابستر أنها تدعى الإيتوريية. لا تزال عدة كومونات ساحلية تتحدث بها، مع أن أكثرهم تعلم السانزية لأسباب تجارية. ألابستر يفترض أن أكثر أهل تلك الجزر ينحدرون من السواحل، ما يبدو واضحًا من اللون المهيمن عليهم وشعورهم الغريبة، لكن لما كانوا يغيرون ولا يتاجرون، لم يحتاجوا إلى الإبقاء على اللسان السانزي. يحاول ألابستر أن يعلمها الإيتوريية لكنها ليست في مزاج ملائم لتعلم «شيء جديد»، وذلك يرجع إلى العلة الثانية، تلك التي يشير إليها ألابستر بعدما حظيا بوقت كافٍ للتعافي من متاعبهما: ليس في وسعهما المغادرة، أو بالأحرى ليس لديهما مكان يذهبان إليه.

يشرح لها: «ما دام الأوصياء قد حاولوا قتلنا مرة، فسيحاولون أخرى». يفعل ذلك بينما يتمشيان على أحد مرتفعات الجزيرة القاحلة، فذلك هو السبيل الوحيد لأي خصوصية حقيقية، وأي شيء سوى ذلك سيجلب عليهما حشودًا من الأطفال الذين يتبعونهما ويحاولون تقليد أصوات السانزية الغريبة. ثمة كثير مما يمكن فعله هنا -يذهب الأطفال

إلى المدرسة في الأمسيات، بعدما يكون الجميع قد انتهوا من الصيد وما إلى ذلك من مهمات الصباح- لكن من الواضح أن وسائل الترفيه ليست من بين هذا الكثير.

يتابع ألابستر: «إن العودة إلى المرتكز من دون أن نعرف ما الذي فعلناه لاستفزاز سخط الأوصياء حماقة تامة، ربما لن نتجاوز حتى البوابات من دون أن يلقي أحدهم علينا سكينًا معيقًا آخر».

وهو شيء يبدو لها الآن واضحًا بعدما فكرت فيه. ومع ذلك ثمة شيء آخر لا يقل وضوحًا، تتذكره عندما تنظر عبر الأفق وترى الكتلة المدخنة التي هي كل ما تبقى من آليا. «يحسبوننا متنا». تنتزع عينها انتزاعًا من تلك الكتلة، وتحاول ألا تتخيل ما الذي صار بالكومونة الساحلية الصغيرة الجميلة التي تذكرها. كل تجهيزات آليا وتحضيراتها كانت تتمحور حول النجاة من موجة تسونامي، لا من بركان كان من الجلي أن انفجاره مستحيل. مسكينة هيرسميث، بل حتى أسايل لم تكن تستحق الميتة المريعة التي عانت منها على الأرجح.

لا تستطيع التفكير في ذلك، وبدلًا منه تركز مع ألابستر. «وموتنا في آليا يسمح لنا بالحياة أحرارًا هنا، أهذا ما تقول؟».

«بالضبط»، والآن ألابستر يبتسم، يكاد يرقص في مكانه. لم تره من قبل متحمسًا إلى هذه الدرجة، وكأنه غير مدرك للثمن الذي دفعاه مقابل حريتهما... أو لعله لا يأبه. «ليست هناك علاقة بين القارة وهنا، وإن وجدت، فلن يمكن وصفها بالعلاقة

الودودة. وصاتنا المكلفون بنا يستطيعون الإحساس بنا لو اقتربنا بما يكفي، لكن لا أحد من صنفهم سيأتي إلى هنا أبدًا. إن تلك الجزر ليست موجودة حتى على الخرائط»، ثم ينقلب إلى الجدية، «لكن على القارة فلن يكون هناك أية وسيلة للفرار من المرتكز. كل وصي في شرق يومينِس بالتأكيد يتشمم كل شبر في أطلال آليا الآن بحثًا عن أية علامة على نجاتنا. وهم على الأرجح يوزعون ملصقات بصورنا على دوريات الطريق الإمبراطوري ومليشيات الأرباع في الإقليم. أعتقد أنهم سيعتبرونني ميسالم الجديد، وأنت شريكتي في الجريمة. أو ربما تنالين أخيرًا بعض التقدير ويقررون أنك أنت العقل المدبر».

طيب.

إنه محق. سيحتاج المرتكز إلى كبش فداء بعد دمار الكومونة بتلك الطريقة المريعة. لمَ لا نضحي إذن بالروجين اللذين كانا هناك، اللذين كان يفترض بهما أن يكونا ماهرين كفاية لاحتواء أي حدث أرضي بينهما؟ إن دمار آليا يعدّ خيانة لكل ما وعد المرتكز القارة به: أوروچينيون خاضعون مطيعون، والأمان من أسوأ الزلازل والبراكين، أي الحرية من الخوف، على الأقل حتى يحين الموسم الخامس القادم. سيشيطنهم المرتكز بكل طريقة ممكنة، لأنه لو لم يفعل سيهدم الناس أسواره السبجية ويذبحون كل من فيه حتى آخر حصاة.

ولما أصبحت قادرة على السسبنة مجددًا، بعدما استفاقت سِسَبيينتها من خدرها، أدركت أكثر إلى أي مدى ساءت الأمور

في آليا. إن آليا على حافة وعيها -وتلك في حد ذاتها مفاجئة، فلسبب ما بات في وسعها بلوغ نطاق سسبنة أوسع بكثير مما كانت تستطيع من قبل- ويظهر لها بوضوح، على السطح الممتد إلى الحافة الشرقية للصفيحة الكبرى، أن ثمة أنبوبًا مشتعلًا ينزل إلى أعماق قشرة الكوكب نفسها. لا تستطيع ساين اتباعه أكثر، ولا تحتاج إلى أن تفعل، لأنها قادرة على تمييز ما الذي صنع هذا الأنبوب، فحوائطه سداسية الأضلاع، وله نفس محيط المسلة العقيقية.

وألابستر منتشٍ، وهذا وحده سبب كافٍ لكراهيته.

تبهت ابتسامته عندما يرى وجهها. «يا شر الأرض، ألا تسعدين أبدًا؟».

«سيجدوننا، وصاتنا قادرون على تتبعنا».

يهزّ رأسه، «وصيتي لا تستطيع»، تتذكرين تلميح ذلك الوصي الغريب بذلك في آليا، «أما وصيك، فعندما انقطعت أوروچينيتك، فقد أثرك. هذا يفصل كل شيء لعلمك، وليس فقط قدراتك. سيحتاج إلى لمسك مرة أخرى كي يعيد تشغيل الاتصال».

لم تعرفي ذلك من قبل. «لكنه لن يتوقف عن البحث».

يتوقف ألابستر. «هل كنت تحبين الوجود في المرتكز إلى هذه الدرجة؟».

يربكها السؤال، ويغضبها أكثر. «كان في وسعي على الأقل أن أكون نفسي هناك، لم أكن مضطرة إلى إخفاء من أنا».

يومئ ببطء، ثمة شيء في تعبير وجهه يخبرها أنه يفهم ما تشعر به جيدًا. «ومن أنت عندما تكونين هناك؟».

تصبح فجأة غاضبة إلى حد يصعب عليها معه معرفة سبب غضبها. «عليك اللعنة».

ابتسامته المصطنعة تجعلها تحترق أكثر من آليا، «أتذكرين كم مرة فعلناها، حتى ونحن لا نطيق بعضنا، بناءً على أوامر الآخرين؟ أم أنك أقنعت نفسك أنك تميلين إليّ؟ أكنت تودين أن تكوني مع أي رجل، حتى لو كان رجلًا متوسطًا مملًا مثلي؟».

لا ترد بالكلمات. لم تعد تفكر أو تتحدث. بل صارت في الأرض الذي أخذ يرتجف بغضبها ويضاعفه أضعافًا. يتجسد نطاق قدرتها عاليًا ورقيقًا حولها، ويثلج دائرة ثلجية شديدة البرودة والعنف حد أن الهواء يضطرم ويتأجج باللون الأبيض للحظة. إنها ستثلجه من هنا إلى القطبين.

لكن ألابستر يتنهد ويشدّ عضلاته قليلًا، ويشطب نطاق قدرته نطاقها بيسر مثلما تطمس الأصابع نار شمعة. يفعل هذا برقة شديدة مقارنة بما يستطيع فعله، لكن عمق السرعة والقوة اللذين أخمد بهما عاصفة غضبها تجعلها تترنح. يتقدم نحوها وكأنه ينوي مساعدتها، لكنها ترمي نفسها مبتعدة عنه بصوت كما الزمجرة. يتراجع من فوره، رافعًا يده وكأنه يطلب الهدنة.

يقول: «آسف»، ويبدو صوته صادقًا، فلا تغادره مغاضبة، «كنت فقط أحاول إثبات أمرًا».

وقد أثبته. ليس الأمر وكأنها لم تعلم بهذا من قبل، بأنها عبدة، وبأن كل الروچات عبيدًا، وأن إحساسها بالأمان وبقيمة الذات الذي يمنحه لها المرتكز مرهون بافتقارها إلى حقها في الحياة، بل وحتى حقها في التحكم في جسدها الخاص. لكن أن تعلم هذا، أن تعترف به في قرارة نفسها شيء، وأن يُقذف في وجهها شيء آخر. لا أحد منهم يستخدم هذا ضد الآخر -ولا حتى كي يثبت أمرًا- لأن ذلك فعل قاسٍ وغير ضروري. لذلك تكره ألابستر؛ ليس لأنه أقوى منها ولا لأنه مجنون، بل لأنه يرفض السماح لها باستمرار أيٍّ من الأكاذيب المهذبة والحقائق غير المنطوقة، التي حافظت عليها آمنة ومرتاحة لأعوام.

يحدقان بعضهما إلى بعض لفترة أطول، ثم يهزّ ألابستر رأسه ويستدير ليرحل. تتبعه ساينيت، لأن ليس هناك أي مكان آخر تذهب إليه. ينزلان مجددًا إلى مستوى الكهف. وبينما هما على الدرج، لا تجد سيانيت مفرًّا من مواجهة العلة الثالثة لإحساسها بالانفصال عن ميوف.

تطفو الآن في مرفأ الكومونة سفينة -أو لعلها فرقاطة، أو غليون، لا علم لها بما يفرق أي من تلك الكلمات عن كلمة قارب- ضخمة رشيقة، تجعل كل ما عداها من سفن تبدو قزمة بالمقارنة، ولو اجتمعوا. هيكل السفينة من الخشب شديد القتامة يكاد يكون أسود، مرقعًا بألواح فاتحة هنا وهناك. أشرعتها داكنة ومرتقة في أكثر من مكان وأبهتتها المياه والشمس... ومع كل ذلك، رغم البقع والرقع، للسفينة كلها فتنة غريبة. اسمها كلالسو، أو على الأقل هكذا تسمعه

أذنها. عادت كلالسو إلى ميوف بعد يومين من وصول سيانيت وألابستر، وعلى متنها كان عدد كبير من سكان الكومونة البالغين الأصحاء، وكثير من السقماء الذين أصابتهم الأمراض خلال قضاء أسابيع من الافتراس على خطوط النقل الساحلي.

جلبت كلالسو أيضًا على متنها قبطانها، والثاني في قيادة الكومونة، وهو في الواقع الثاني فقط لأن أغلب وقته يقضيه بعيدًا عن الجزيرة. لولا ذلك كانت ساين لتخمن أنه قائد الجزيرة الحقيقي من اللحظة التي ترجل فيها عن المعبر الخشبي لأرض الجزيرة، وذلك لأنها وحتى وهي لا تفهم منهم كلمة، ميزت أن الجميع يحبونه ويتطلعون إليه. اسمه إينون، أو إينون مقاوم ميوف بحسب لغة أهل القارة. رجل ضخم أسود البشرة مثل أغلب الميوفيين، بنيته أقرب إلى الأشداء منه إلى المقاومين، وشخصيته يحجب تألقها ألمع القياديين اليومينِسيين.

عدا أنه ليس في الواقع مقاومًا، ولا شديدًا، ولا قياديًّا، ولا تعني أي من أسماء الاستخدام شيئًا في هذه الكومونة التي ترفض الكثير من التقاليد السانزية. إنه أوروچيني، بري، ولد حرًّا ورباه علنًا هارلاس، الذي هو أيضًا روچا. كل قادتهم هنا روچات. بهذا نجت الكومونة من مواسم أكثر مما اهتموا بحصرها.

أما فيما يتجاوز هذه الحقيقة... لا تعلم ساين في الواقع كيف تتعامل مع إينون.

فهي على سبيل المثال تسمعه بوضوح ما إن صار عند

المدخل الرئيسي لكهوف الكومونة. الكل يستطيع أن يسمعه، بما إنه يتحدث داخل الكهوف بنفس علو صوته على سطح سفينته. إنه لا يحتاج إلى ذلك، فالكهوف تردد صدى أخفت الأصوات، لكنه ليس من أولئك الرجال الذين يحدون من أنفسهم، حتى عندما ينبغي عليهم ذلك.

مثل الآن.

«سيانيت، ألابسترا!». تجتمع الكومونة حول نار الطباخ للتشارك في وجبة العشاء. يجلس الجميع على مصاطب حجرية أو خشبية، ويسترخون ويثرثرون، لكن ثمة تكتلًا كبيرًا يجلس حول إينون الذي يسامرهم بحكاياته. بيد أنه يبدل لسانه إلى السانزية فور رؤيتهما، إذ إنه من بين قلة في الكومونة تستطيع التحدث بها، وإن كان بلكنة ثقيلة. «كنت أنتظركما، لقد احتفظنا بالقصص الجيدة من أجلكما، تعاليا هنا». ينهض ويشير إليهما وكأنما الصياح بأقصى عزم رئتيه ليس كافيًا لجذب انتباههما، وكأنما أيضًا رجل طوله ستة أقدام ونصف ذو لبدة هائلة من الضفائر ويرتدي ملابس تعود إلى ثلاثة بلاد مختلفة -كلها صارخة الألوان- سيصعب تمييزه وسط الجموع.

ومع ذلك تجد سيانيت نفسها تخطو عبر حلقات المصاطب إلى الحلقة التي يبدو أن إينون تركها مفتوحة لأجلهما. يغمغم عدد من أعضاء الكومونة بالتحية لهما، التحية التي بدأت ساين تميزها، وبدافع من الأدب تحاول أن تنطق بها بتلعثم، ما يثير بعض الضحكات عندما تخطئها. يبتسم إينون لها ويكرر التعبير بوضوح، فتحاول مرة أخرى وتراه يومئ. يقول إينون:

«ممتاز»، يقولها بحرارة لا يسعها معها إلا تصديقه.

ثم يبتسم إلى ألابستر الذي يجاورها، «يبدو أنك معلم رائع».

يحني ألابستر رأسه قليلًا. «في الواقع لا، لا أستطيع حثّ تلاميذي على ألا يكرهوني».

«هممم»، صوت إينون خفيض وعميق ويتردد صداه مثل أعمق الزلازل، وعندما يبتسم، يكون ذلك كانبثاق سيل حمم من الأرض، مشرق وساخن ومُنذر بالخطر، خاصة عمًّا قريب. «علينا إذن أن نرى إن كان في وسعنا تغيير ذلك، هممم؟»، وينظر إلى ساين، دون أن يستحي من إبداء اهتمامه، ومن دون أن يأبه بضحكات عدد من أعضاء الكومونة الآخرين.

وتلك هي العلة؛ هذا الرجل السخيف الجهوري الفظ لم يبذل أي مجهود لمداراة ميله إلى سيانيت. ولسوء الحظ -لأن لو كان الأمر عكس ذلك لسهل عليها- ثمة شيء فيه يجعلها تجد في نفسها ميلًا إليه أيضًا، ربما برِّيته، فهي لم تقابل شخصًا مثله قط.

والمشكلة أنه مهتم بألابستر أيضًا، وألابستر لا يبدو ممانعًا كذلك.

هذا مريك.

وما إن أتم إينون إرباكهما بنجاح، حتى التفت بكل فتنته إلى قومه. «ها نحن ذاك، بين يدينا وفرة من الطعام والأشياء الجديدة الحسنة، التي صنعها وتحمل ثمنها أناس آخرون»، ثم يحول لسانه إلى اللغة الإيتوريية ويكرر قوله للجميع.

يضحكون على آخر جزء، خاصة وأن أكثرهم يرتدي بالفعل الجديد من الثياب والجواهر وما شابه ذلك منذ جاءت السفينة. ثم يتابع إينون، ولا تحتاج ساين إلى ألابستر كي يفسر لها أن إينون يحكي للجميع حكاية، لأن إينون يفعل ذلك بجسده كله. ينحني إلى الأمام ويتحدث بهدوء، والكل يشتد مع توتر اللحظة التي يصفها، ثم يمثل وقوع أحدهم من فوق شيء ما، ويحاكي صوت الوقوع عبر ضم راحتيه ثم اعتصار الهواء بينهما. من كان ينصت إليه من الصغار يقعون على قفاهم ضحكًا، والأكبر يقهقهون عاليًا، والناضجون يبتسمون.

يترجم لها ألابستر القليل من ذلك؛ يبدو أن إينون يحكي للجميع عن أحدث غاراته على كومونة ساحلية صغيرة على بعد عشرة أيام من الإبحار شمالًا. لا تنصت سيانيت إلى تلخيصه إلا بنصف ذهن، وأغلب انتباهها مركز مع حركات جسد إينون، وتتخيله يقوم بحركات مختلفة تمامًا. عندها يتوقف ألابستر عن الترجمة. لما تدرك أخيرًا أنه فعل، متفاجئة، تجد أنه ينظر إليها عن كثب.

يسألها: «أيعجبك؟».

ساين تتجهم، بدافع الإحراج في الأغلب. إنه يتحدث بخفوت، لكنهما يجلسان إلى جوار إينون مباشرة، ولو أنه قرر فجأة أن يحول إليهما انتباهه... وماذا لو أنه منتبه إليهما بالفعل؟ ربما يسهلهذا من سير الأمور، طالما صار كل شيء على المكشوف. عدا أنها تفضل أن يكون لها خيار في الأمر، وألابستر كالعادة لا يمنحها خيارات. «أليس فيك ذرة

كياسة؟».

«نعم، ولا ذرة. أخبريني».

«لماذا؟ أفي هذا نوع من التحدي؟»، فهي قد رأت الطريقة التي ينظر بها ألابستر إلى إينون، ويكاد هذا يكون لطيفًا، أي مراقبة رجل في الأربعين يتورد ويتلعثم مثل طفل، «أتريدني أن أتراجع؟».

ألابستر يجفل، ويبدو شبه مجروح. ثم يعبس وكأنه ارتبك من ردة فعله -ما يجعل منهما اثنين في ذلك- ثم يتراجع قليلًا. يلتوي فمه قليلًا وهو يغمغم: «لو قلت نعم، هل ستفعلين؟ هل ستفعلين حقًا؟».

سيانيت ترمش. في الواقع هي من اقترح ذلك، لكن هل ستفعل فعلًا؟ فجأة صارت لا تعرف الإجابة.

وعندما تفشل في الإجابة، يلتوي وجه ألابستر إحباطًا. يهمهم بشيء ربما من قبيل «لا بأس» ثم ينهض ويخطو إلى خارج الدائرة، محاذرًا ألا يزعج أحدًا بذهابه. ما يعني أن سيانيت ستخسر القدرة على متابعة الحكاية، لكن لا مشكلة في ذلك؛ إن إينون متعة للناظرين من دون حاجة إلى الكلمات، ولما أمست غير مضطرة إلى التركيز مع القصة، بات في وسعها التفكر في سؤال ألابستر. بعد وهلة تنتهي الحكاية، ويصفق الجميع، وتتبعها حكاية أخرى على الفور. حينما ينهض الناس لإعادة ملء أطباقهم من الآنية الضخمة الممتلئة بالجمبري المتبل والأرز وفقاعات البحر المدخنة، تقرر سيانيت أن تذهب

للبحث عن ألابستر. لا علم لها بما ستقوله له، لكن... لكنه يستحق إجابة ما.

تجده في منزلهما، متكورًا في أحد أركان الغرفة الخاوية الضخمة، على بعد أقدام قليلة من الفراش المصنوع من أعشاب البحر المجففة وفراء الحيوانات التي كانا ينامان عليها. لمَّا كان لم يهتم بإيقاد المصابيح، تميز كبقعة أكثر قتامة مما عداها من بقية الظلال. يصيح ما إن تلج الغرفة: «اذهبي من هنا».

تصيح ردًا: «أنا أعيش هنا أيضًا، اذهب أنت إلى مكان آخر لو أردت أن تبكي أو أيًا كان ما تفعله». يا للأرض، تتمنى لو أنه لا يبكي.

يتنهد، لا يبدو أنه كان يبكي، وإن كانت ساقاه مرفوعتين ومرفقاه مستندين إلى ركبتيه ورأسه نصف مدفون في يديه. «ساين، إن قلبك من حديد».

«وقلبك أيضًا عندما ترغب في ذلك».

«أنا لا أرغب في ذلك، ليس دائمًا. يا للصدأ يا ساين، ألا تتعبين أبدًا من كل هذا؟»، يتململ قليلًا، عيناها اعتادتا الظلام فترى أنه ينظر إليها، «ألا تريدين أبدًا أن تصبحي... مجرد إنسانة؟».

تدخل البيت وتستند إلى الحائط حذاء المدخل، وتعقد ذراعيها وقدميها، «لسنا بشرًا».

«بل نحن بشر»، يشتعل صوته غضبًا، «لا تهمني المراسيم

الغبية التي أقرها المجلس الفلاني، ولا كيف يصنف الجيومستيون الناس ولا أي من هذا الخراء. إنما قولهم بأننا لسنا بشرًا ليس إلا كذبة يلوكونها كي لا يثقلهم الذنب من سوء معاملتهم إيانا...».

وهذا أيضًا أمر يعرفه كل الروجات، لكن ألابستر وحده فظ بما يكفي للتصريح به. ساينيت تتنهد وتريح رأسها إلى الحائط. «إن أزعجك ميلي له يا أحمق، فسأتراجع». وبذلك صار لسؤاله رد.

يخرّ ألابستر صامتًا في خضم ثورته، ويحدق إليها. «ألا تميلين إليه».

«أجل»، لم يكلفها قول ذلك شيئًا، «لكنني لن أهتم لو...»، تهز كتفيها قليلًا.

يتنفس ألابستر بعمق، ويكرر ذلك ثانيًا، وثالثًا. لا تستطيع أن تفسر ما الذي تعنيه أي من هذه الأنفاس.

يقول أخيرًا: «يفترض بي أن أقدم إليك نفس العرض، أن أفعل ما هو صواب أو حتى أتظاهر بذلك، لكن أنا...»، ينحني أكثر في الظلام، ويضيق من إحكام ذراعيه حول ركبتيه. ثم يتحدث من جديد بصوت لا يكاد يُسمع: «مضى وقت طويل يا ساين».

ليس منذ أن حظي بأحدهم بالطبع، وإنما منذ أن حظي بأحدٍ يريده.

تتعالى الضحكات في مركز المغارة، وها هم الناس يقطعون

الممرات، يثرثرون ويمضي كل منهم إلى حال سبيله. بات في وسعهما سماع صوت إينون يهدر عمًّا قريب. حتى وهو يتكلم في محادثة عادية يستطيع الجميع سماعه.

تتنفس ساين بعمق. «أتريد مني أن أذهب وأأتي به؟».

يظل ألابستر صامتًا لوهلة تطول. إنها تحسّ به يحدق إليها، وثمة نوع من الضغط الشعوري يثقل الغرفة لا يسعها تفسيره. لعله يشعر بالمهانة، ولعله متأثر. ليأكلها الصدأ لو فهمته يومًا... وليأكلها الصدأ لو كانت تعرف لماذا تفعل له هذا.

ثم يومئ، ويمرر يده في شعره، ويخفض رأسه. «شكرًا لك». تكاد نبرته تكون باردة، لكنها تعلم تلك النبرة، لأنها تستخدمها هي نفسها كلما احتاجت إلى التشبث بما تبقى من كرامتها بأظافرها وأنفاسها اللاهثة.

هكذا تمضي وتتبع هذا الهدير، حتى تجد إينون في النهاية بالقرب من نار الطباخ منخرطًا في محادثة عميقة مع هارلاس. لقد انفرط عقد الجميع، وأمست المغارة الآن تردد صدى الأزيز المتداخل لشجار الرضع الرافضين للنوم، والضحك، والثرثرة، وصرير القوارب في المرفأ بالخارج بينما تتخبط خلال سباتها، وتردد فوق كل ذلك صدى جلبة البحر.

تُجلس سيانيت نفسها قبالة حائط قريب، وتنصت إلى كل تلك الأصوات الغرائبية، وتنتظر. بعد حوالي عشر دقائق يفرغ إينون من حديثه وينهض. هارلاس يبتعد وهو يضحك من شيء قاله إينون الخلاب في كل وقت. ويأتي إينون، كما توقعت

ساين، ويستند إلى الحائط بجوارها.

يقول عرضًا بينما يتأمل سقف المغارة المقبب، وكأن به ما يثير اهتمامه: «طاقمي يظنون أني مجنون لسعيي إليك. يعتقدون أنني لا أعجبك».

تقول سيانيت: «الجميع يعتقدون أني لا يعجبني أحد»، وهذا في أغلب الوقت صحيح، «لكنك تعجبني».

ينظر إليها متأملًا، ما يعجبها. إن الغزل يربكها، تفضل عنه التصريح المباشر على هذا النحو. يقول: «لقد قابلت من هم مثلك من قبل، أي الذين نشؤوا في المرتكز»، لهجته تجعل الكلمة تبدو وكأنها *المنتكس*، وتشعر أنها أصدق وقعًا، «وأنت أسعد واحدة رأيتها».

تضحك ساينيت حتى القهقهة على مزحته... ثم لمَّا تراه يلوي شفته ويرتسم في نظرته تعبير متعاطف ثقيل، تدرك أنه لم يكن يمزح على الإطلاق. أوه. «ألابستر سعيد».

«ليس كذلك».

صحيح، ليس كذلك. لمثل هذا الموقف لا تحب سيانيت المزاح كثيرًا أيضًا. تتنهد. «أنا في الواقع هنا... من أجله».

«فعلًا؟ أقررتما المشاركة؟».

«إنه...»، ترمش بينما تستوعب ما قال، «نعم؟».

يهز إينون كتفيه، وتبدو تلك إيماءة خارقة نظرًا إلى ضخامته، وكيفية جلوسه، وللخشخشة التي تصدر عن لبدته. «إنكما

عاشقان بالفعل، هذا ما ظننته».

يا له من ظن. «إيه... لا، لسنا، أوه... لا»، ثمة أشياء ليست جاهزة للتفكير فيها، «ربما في وقت لاحق»، وقت لاحق بعيد.

يضحك، وإن كان ليس عليها. «نعم، نعم. لماذا جئت إذن؟ كي تطلبي مني رؤية صديقك؟».

«إنه ليس بـ...، يا للصدأ».

إينون يضحك -برقة، بالنسبة إليه- وينزاح حتى يستند بجانبه إلى الحائط العمودي على الحائط الذي تستند إليه سيانيت، كي لا تشعر بأنها محاصرة، حتى مع أنه قريب بما يكفي لتشعر بحرارة جسده. هذا شيء يفعله الرجال الضخام إن أرادوا أن يقدموا انطباعًا بالمراعاة لا الإخافة. تُقدر مراعاته، وتكره نفسها لرفضها قبول عرض ألابستر بينما يقول: «أعتقد أنك صديقة رائعة».

«أنا كذلك وحق الصدأ»، وتفرك عينيها.

«هوني عليك، الكل يرى أنك الأقوى بينكما». ترمش سيانيت عندما تسمع ذلك، لكنه جاد تمامًا. يرفع يدًا ويمرر إصبعًا على جانب وجهها، من صدغها حتى ذقنها، يعذبها ببطء. «إنه مهشم. يلملم أجزاءه ويحافظ على تماسكه بابتسامة ومرارة، لكن الكل يرى صدوعه. أما أنت، فمنبعجة ومتورمة، لكنك سليمة. لطيف منك أن تعتني به بهذا الشكل».

«لكن أحدًا ما اعتنى بي»، ثم تطبق فمها بقوة حتى إن أسنانها تصطك. لم تقصد قول ذلك.

إينون يبتسم، لكنها ابتسامة رقيقة حانية. يقول: «أنا سأعتني بك»، وينحني كي يقبلها. وكم هي قبلة شائكة؛ شفتاه جافتان ولحيته بدأت تنبت. أغلب رجال السواحل لا تنبت لهم لحى، لكن يبدو أن في إينون بعض الدماء السانزية، خاصة مع كل ذلك الشعر. لكن قبلته رغم خشونتها في غاية الرقة، تعطيها شعورًا أقرب إلى «شكرًا لك» من محاولة إغواء. على الأرجح لأن هذا ما ينتويه. «لاحقًا، أعدك».

ثم يغادر، وتحدق إليه سيانيت قليلًا، ثم تفكر بعد فوات الأوان *وأنا أين أنام الليلة إذن بحق الصدأ؟*

ويتضح أن هذا سؤال سابق لأوانه، لأنها ليست ناعسة. تذهب إلى الحافة بالخارج، حيث لا يزال آخرون يتلكؤون في الذهاب إلى النوم ويرغبون في استنشاق نسيم الليل، أو الحديث حيث لا تستطيع نصف الكومونة سماعهم. ولم تكن الوحيدة المستندة إلى الحاجز وتراقب مياه الليل بأسى. تتدحرج الأمواج بانتظام، القوارب الصغيرة وكلالسو تتأرجح وتتخبط، ونور النجوم الواهن يشتت الانعكاسات على الأمواج التي تبدو وكأنها ممتدة إلى ما لا نهاية.

إن الحياة في ميوف هانئة هادئة. من اللطيف أن تكون على طبيعتها في مكان يتقبلها، ومن الألطف أن لا يوجد هنا شيء تخشاه. قابلت ساين من قبل امرأة في المسابح -امرأة من طاقم سفينة كلالسو، وأغلب هؤلاء يتحدثون ولو القليل من

السانزية- وشرحت لها المرأة الأمور ببساطة بينما تستمتعان بالمياه التي تدفئها الصخور التي يسخنها الأطفال في النار، وذلك جزء من واجباتهم اليومية. وما شرحته لها كان بسيطًا جدًّا، قالت: «بكم نحيا»، بينما تهز كتفيها وتدع رأسها يقع إلى الوراء حيث حافة حوض الاستحمام، ودون أن يبدو عليها أي اهتمام بغرابة ما قالته.

في أي مكان على القارة، يقتنع الجميع بأن وجود الروچات عمًّا قريب معناه الهلاك الحتمي.

ثم قالت المرأة شيئًا أحفظ ساين حفيظة حقيقية. «هارلاس عجوز، إينون يواجه خطرًا كبيرًا في الغارات. أنت والضاحك...»، الضاحك هو الاسم الذي أطلقه الميوفيون على ألابستر، عندما كان النطق باسمه يتعذر على من لا يعرف السانزية، «... ستنجبون أطفالًا؟ أعطونا واحدًا، ممكن؟ أم نضطر إلى سرقة واحد من القارة؟».

مجرد تخيل هؤلاء القوم، الذين يبرزون بين الحشود مثل آكلة الصخور، يحاولون التسلل إلى المرتكز لخطف حصاة، أو سرقة طفل بري قبل أن يأتيه الوصي، مجرد تخيل ذلك يجعل سيانيت ترتجف. ليست متأكدة إن كانت تفضل أنهم يطمعون في أن تحبل سيانيت أيضًا، لكنهم في هذا لا يختلفون عن المرتكز، أليس كذلك؟ لكن أي طفل ستنجبه من ألابستر هنا لن ينتهي به الحال في محطة توصيل.

تتلكأ على الحافة لعدة ساعات، تنسى نفسها بين أصوات الأمواج، وتشرد رويدًا رويدًا في حالة من انعدام التفكير. ثم

تدرك أخيرًا أن ظهرها يؤلمها وكذلك قدماها، ورياح البحر تبرد أكثر فأكثر، ولا يسعها أن تظل واقفة هنا طوال الليل. هكذا تعود إلى المغارة، غير متأكدة إلى أين تذهب بالضبط، فقط تدع ساقيها تحملانها إلى حيث أرادا. ولعل ذلك ما جعلها ينتهي بها الحال خارج *بيتها*، تقف أمام الستار الذي يفترض به أن يحمي الخصوصية، وتنصت إلى نحيب ألابستر عبره.

إنه هو بلا شك، تعرف هذا الصوت، حتى وهو مكتوم، بين الشهقات نصف المكبوتة. لا يكاد الصوت يُسمع في الواقع، حتى رغم عدم وجود أبواب ونوافذ... لكنها تعرف هذا البكاء، أليس كذلك؟ كل من نشأ في المرتكز يتعلم كيف يبكي بخفوت شديد جدًا.

وقد كانت تلك الفكرة، بالإضافة إلى الإحساس الذي تبعها بمتانة الصلة بينهما، هما ما جعلاها ترفع يدها ببطء وتزيح الستار جانبًا.

الهواء يعبق برائحة ما حدث. ألابستر متكور في ناحية، ظهره موجه إليها، كتفاه العظميتان ترتعشان. إينون يجلس معتدلًا، يمسد له شعره. عيناه تقفزان إلى أعلى حينما تفتح سيانيت الستار، عدا أنه لا يبدو منزعجًا، ولا متفاجئًا، بل في الواقع -وفي ضوء محادثتهما السابقة لا يجب أن تكون هي أيضًا متفاجئة، لكنها كذلك- يرفع يده، ويشير إليها.

لا تفهم لماذا تطيعه، ولا تفهم لماذا تنضم إليهما. ترفع عينها فترى ابتسامة إينون الحزينة المرحبة. لكن رغم عدم فهمها لما تفعله، تفعله.

تروح ساين في النوم بهذا الشكل، وبحسب ما تذكر يظل ألابستر يبكي بقية الليلة، ويظل إينون مستيقظًا معه ليطمئنه طوال الوقت. لذا، عندما تصحو في الصباح وتزحف خارجة من الفراش، وتخطو متعثرة إلى وعاء قضاء الحاجة وتتقيأ فيه بصخب، لا يستيقظان. لا أحد يطمئنها بعدما جلست مكانها ترتجف عقب ذلك. لكن هذا ليس بجديد.

طيب، على الأقل لن يضطر أهل ميوف إلى سرقة الأطفال الآن.

***

لا تجعل للحم سعرًا.

اللوح الأول - «عن النجاة» - البيت السادس

فاصلة

وتشهد حياتك وقتًا سعيدًا، وقتًا لن أصفه لك، إذ إنه لا يهم. لعلكِ تحسبين أن تركيزي في أسباب الرعب والوجع كل هذا التركيز لا يصح، لكن في النهاية الوجع هو ما يشكلنا. نحن كائنات تولد من الحرارة والضغط والطحن والحركة اللانهائية. السكون لنا يعني... عدم الحياة.

لكن ما يهم هو أن تعرفي أنه لم يكن كل شيء كارثيًّا. كانت هناك فترات طويلة من السلام بين الكوارث، فرص كي تبردي وتتصلبي، قبل أن يُستأنَف الطحن.

إليك ما أنت في حاجة إلى أن تفهميه: ثمة فصائل في كل حرب، أولئك يرغبون في السلام، وأولئك يرغبون في مزيد من الحرب لأسباب متعددة، وأولئك الذين تتجاوز رغباتهم الاثنين. وهذه حرب متعددة الأطراف، ليست فقط بين اثنين. هل حسبت أنها فقط بين الراكدين والأوروچينيين؟ لا، لا، تذكري آكلي الصخر والوصاة، و... تذكري المواسم. ولا تنسي أبدًا الأب الأرض، فهو لم ينسَك.

أي إن، وبينما أنت تستريحين، تستجمع تلك الفصائل قواها، وعاجلًا أو آجلًا ستبدأ في التقدم.

٢٠

سيانيت، إياب بعد غياب

لم يكن ذلك ما تخيلت سيانيت أنها ستقضي بقية حياتها تفعله، أي الجلوس بلا عمل ولا فائدة. لذا تذهب للبحث عن إينون ذات يوم بينما يجهز طاقم الكلالسو السفينة للإبحار.

يقول: «لا»، محدقًا إليها وكأنها مجنونة، «لن تصبحي قرصانة وقد وضعت طفلًا من فورك».

«وضعت الطفل منذ عامين كاملين». إنها تكاد تجن من تغيير الحفاضات واستجداء الناس كي يعطوها دروسًا في الإيتوربية والمساعدة في صيد السمك بالشباك. لقد انتهت من الرضاعة، وتلك كانت الحجة التي تذرع بها إينون حتى الآن لإثنائها عن الذهاب، وقد كانت حجة عبثية على أية حال، إذ إن هذه الأمور تشاركية في ميوف، مثلها مثل كل ما عداها. عندما لا تكون موجودة، يأخذ ألابستر الرضيع إلى إحدى الأمهات الأخريات في الكومونة، بالضبط مثلما ترضع ساين أطفال الآخرين بدورها لو صدف وكانت قريبة من رضيع جائع وثديها مدرار. ولمّا كان بستر هو من يغير الحفاضات أكثر من غيره، ويهدهد كورندم الصغير حتى ينام، ويغني له ويلعب معه ويأخذه للتنزه وكل ذلك، بات على سيانيت أن تشغل نفسها بشيء آخر.

«سيانيت!». يتوقف في منتصف لوح التحميل الخشبي الذي يقود إلى مخازن السفينة. إنهم يملؤون المخازن ببراميل المياه

والطعام، بالإضافة إلى سلال من أشياء مبهمة؛ سلال من السلاسل من أجل المنجنيق، وأكياس من القار وزيت السمك، وطيات من القماش السميك الذي يفترض به أن يكون شراعًا احتياطيًّا إن دعت إليه الحاجة. عندما يتوقف إينون مع سيانيت في منتصف لوح التحميل، يتوقف كل شيء حولهما، وعندما تتعالى الشكاوى المعترضة من الرصيف، يرفع رأسه ويرمي نظرات نارية تخرس الجميع. الجميع عدا سيانيت بالطبع.

تقول بإحباط: «أنا ضجرة. ليس هناك ما أفعله هنا غير الصيد وانتظار عودتك مع طاقمك من الغارات، والنميمة حول أناس لا أعرفهم، وترديد القصص حول أشياء لا تهمني. لقد قضيت حياتي إما في التدريب أو في العمل. بحق الأرض، لا تتوقع مني قضاء الأيام جالسة أحدق إلى المياه».

«لكن ألابستر يفعل».

تقلب سيانيت عينيها، مع أن ذلك صحيح. عندما لا يكون ألابستر مع الطفل، فهو يقضي أغلب أيامه على المرتفعات فوق المستعمرة، يتأمل في العالم ويتفكر في أمور لا يُسبر لها غور، لساعات وساعات. تعلم ذلك، فقد شاهدته يفعل. «أنا لست هو يا إينون، يمكنك أن تستخدمني».

يلتوي تعبير وجه إينون، لأن هذا سهم أصاب هدفه.

هذه أمور لا يُصرح بها بينهم، لكن سيانيت ليست غبية. هناك كثير من الأشياء التي يستطيع روچا ماهر فعلها في الغارات التي يشنها طاقم إينون. هذا لا يعني بدء الهزات

وتفجير البراكين، فهي لن تفعل ذلك وهو لن يطلبه منها. لكن يسهل عليها مثلًا استدعاء طاقة كافية من الطبيعة المحيطة كي تخفض درجة حرارة سطح الماء، ما يكفي لحجب السفينة في ضباب يغطي على كرِّها وفرِّها. ويسهل عليها بنفس القدر ضرب الغابات على خط الساحل بذبذبات تحت أرضية فائقة الدقة، ما يجعل أسراب الطيور أو قطعان الفئران تهرع هاربة من الأشجار إلى المستعمرات القريبة، ما يشكل إلهاءً. وغير ذلك كثير. بدأت سيانيت تفهم أن فوائد الأوروچينية تتجاوز مجرد قمع الهزات بكثير.

أو بالأحرى، يمكن أن تكون مفيدة، لو استطاع إينون استخدام أوروچينيته على هذا النحو. مع كل تلك الكاريزما الفائقة والجموح البدني، يظل إينون بريًّا، يفتقر إلى أي تدريب يزيد على القليل الذي دربه عليه هارلاس، الذي كان بدوره بريًّا فقير التدريب. لقد شعرت بأوروچينية إينون عندما كان يخمد هزات محدودة، وصُعقت من انعدام كفاءة قدرته وخشونتها. حاولت أن تعلمه إتقان التحكم، وأنصت إليها، وحاول صدقًا، لكنه لم يتحسن. لا تعلم لذلك سببًا. ومن دون هذا المستوى من التحكم، لا يغنم طاقم الكلالسو إلا بالطريقة القديمة: يحاربون ويموتون من أجل كل لقمة.

يقول إينون بنظرة مضطربة: «ألابستر يستطيع أن يساعدنا بهذه الأشياء».

تقول ساين بصبر يكاد ينفد: «ألابستر يمرض من مجرد النظر إليها»، وتشير إلى هيكل الكلالسو المتموج. إن المزحة التي

تردّدها الكومونة كلها أن بستر يصير أخضر رغم سواده الشديد ما إن يضطر إلى اعتلاء سفينة. إنه يتقيأ حتى أكثر مما كانت ساين تفعل في غثيان الحمل. «ماذا لو لم أفعل أي شيء سوى حجب السفينة بالضباب؟ أو أيًّا كان ما تأمرني بفعله؟».

يضع إينون يديه على فخذيه ويقول بتعبير ساخر: «أتتظاهرين بطاعة أوامري؟ إنك لا تطيعينني حتى في البيت».

«يا لك من نغل!». وهذا ليس إلا من قبيل السخافة، لأنه لا يحاول أبدًا أمرها بشيء في البيت. بل إن هذا ليس إلا من السلوك الميوفي الغريب، أي المزاح بخصوص الحياة الخاصة. تحاول أن تعتاد على ذلك بعدما صارت تفهم ما يقوله الميوفيون، بين كل جملة والثانية يحاول أحدهم معاكستها بتلميح عن كيف تقضي وقتها مع أوسم الرجال في الكومونة. يقول إينون أنهم لا يفعلون ذلك إلا لأن وجهها يتحول إلى أغرب الألوان عندما تلقي العجائز المتغضنات النكات البذيئة. «هذا ليس له علاقة بأي شيء».

«هل أنت متأكدة؟»، وينكزها في صدرها بإصبع كبيرة، «لا عشاق على السفينة، تلك قاعدة اتبعتها على الدوام. لا يمكننا حتى أن نكون أصدقاء ما إن نبحر. ما أقوله يصير، وأي شيء عدا ذلك يعني أن نموت. إنك تُسائلين كل شيء يا سيانيت، وليس هناك وقت للمساءلة في البحر».

هذا.. ليس من العدل إثارته إلى هذه النقطة. تتململ ساين باضطراب، «أستطيع اتباع الأوامر بلا أسئلة. الأرض يعلم أنني فعلت ذلك من قبل بما يكفي يا إينون...»، تأخذ نفسًا

عميقًا، «سأفعل كل شيء يا إينون وحق الأرض كي أخرج من هذه الجزيرة لبعض الوقت».

«وتلك مشكلة أخرى»، يقترب منها ويخفض صوته، «إن كورندم ابنك يا سيانيت، ألا يهمك أمره إلى حد أنك تطمحين طوال الوقت إلى الرحيل؟».

«أنا أتأكد أنه معتنًى به»، وهذا صحيح. كورندم دومًا نظيف وحسن التغذية. لم ترغب يومًا في طفل، لكنها الآن وقد أنجبت واحدًا، وحملته وأرضعته وكل هذه الأشياء... تشعر بشيء من الإنجاز مخلوط بإقرار أليم، لأنها وألابستر قد تمكنا من إنجاب طفل جميل. أحيانًا تنظر إلى وجه ابنها وتتعجب من أنه موجود، وأنه يبدو كاملًا وصحيحًا، بينما كلا أبويه ليسا أكثر من حطام مرير. من ذا الذي تحاول أن تخدعه؟ إنه حب، إنها تحب ابنها. لكن هذا لا يعني أنها ترغب في قضاء كل ساعة من أيامها الصدئة في حضرته.

يهزّ إينون رأسه ويلتفت عنها، ويلوح بذراعيه. «حسنًا، حسنًا حسنًا أيتها المرأة السخيفة. اذهبي إذن وأخبري ألابستر بأن كلينا ذاهبان».

«حسـ..»، لكنه ذهب، صعد المنحدر إلى الخزانة، حيث تسمعه يصيح على أحدهم عن شيء لا تميزه، لأن أذنيها لا تميزان الإيتروبية عندما تتردد بهذا الصوت.

ومع ذلك تنزل المنحدر متقافزة قليلًا، تلوح بما يشبه الاعتذار لبقية أفراد الطاقم المنزعجين من التعطل. تتجه إلى

الكومونة.

ألابستر ليس في البيت وكورندم ليس مع سلسي، وهي المرأة التي تحتفظ بأغلب أطفال الكومونة عندما يكون آباؤهم منشغلين. ترفع سلسي حاجبيها عندما ترمي ساين رأسها عبر الباب. «هل وافق؟».

لا تستطيع سيانيت كبح ابتسامتها، «وافق»، فتضحك سلسي.

«إذن أراهن أننا لن نراك مرة أخرى، الأمواج لا تنتظر إلا الشباك»، وتخمن سيانيت أن هذا مثل ميوفي ما، أيًّا كان معناه. «ألابستر فوق مع كورو مرة أخرى».

مرة أخرى. تقول: «شكرًا»، وتهزّ رأسها. إنها لمعجزة أن الولد لم تنبت له أجنحة.

تتجه إلى أعلى مستويات الجزيرة، ومنه تتسلق أعلى ذروة صخرية، وها هما هناك، يجلسان على بطانية بالقرب من الحافة. كورو ينظر إليها وهي تقترب، يشرق وجهه ويشير إليها. وألابستر، الذي شعر على الأرجح بخطواتها على الدرج، لم يأبه بالالتفات.

عندما تصبح ساين قريبة منه بما يكفي لسماع صوته الهادئ، يسأل: «هل وافق إينون أخيرًا على أخذك معه؟».

«هاه»، تستقر سيانيت على البطانية إلى جواره، وتفتح ذراعيها لتلقي كورو الذي تسلق خروجًا من حضن ألابستر حيث كان يجلس. «لو علمت أنك تعرف بالفعل، لما أتعبت نفسي

بصعود كل هذه السلالم».

«خمنت لا أكثر. إنك لا تصعدين إلى هنا عادةً بابتسامة على وجهك، علمت أن لديك أنباءً». يلتفت إليها ألابستر أخيرًا، ويراقب كورو الذي وقف في حجرها ويدفع صدرها. ساينيت تسنده بحركة غريزية، لكنه في الواقع يتقن الوقوف متزنًا حتى مع التفاوت في استواء حجرها. ثم تلاحظ أن نظر ألابستر ليس مثبتًا على كورندم وحده.

تسأله متجهمة: «ماذا؟».

«هل ستعودين؟».

هذا السؤال المباغت النابع من العدم يجعل يدي ساينيت تقعان. لحسن الحظ كان كورو قد أتقن الوقوف على ساقيها وهو يضحك، بينما جعلت هي تحدق إلى ألابستر. «ما الذي...؟ ماذا؟».

يهزّ ألابستر كتفيه، وتلحظ ساينيت حينها فقط التغضن بين حاجبيه، والنظرة المهمومة في عينيه، وحينها فقط تفهم ما الذي كان إينون يحاول أن يقوله لها. وكأنما ليؤكد ظنها، يقول ألابستر بمرارة: «أنت لم تعودي مضطرة إلى البقاء، نلت حريتك التي أردتها. وإينون نال ما أراد بدوره، طفل روجا سيعتني بالكومونة لو حدث له شيء. بل هو أيضًا حصل عليَّ لتدريب الطفل أفضل مما كان هارلاس ليفعل، لأنه يعلم أني لن أغادر».

يا نار أعماق الأرض. تتنهد ساينيت وتدفع عنها يد كورو

التي بدأت تؤلمها. «لا أيها الطفل الطماع، لم يعد عندي لبن، اهدأ». ولأن ذلك يجعل وجه كورو يتلوى بالأسى والإحباط، تجذبه إليها أكثر وتلف ذراعيها حوله، وتبدأ تلعب بقدميه، وتلك طريقة جيدة عادةً لإلهائه، وتنجح. الأطفال الصغار على ما يبدو يُفتَنون أيما افتتان بأصابع أقدامهم. والآن وقد اعتنت بأمر ذلك الطفل، تستطيع الالتفات إلى ألابستر، الذي يبدو أنه شرد في البحر مجددًا، لكنه غالبًا أقرب ما يكون إلى نقطة الذوبان.

تقول: «كان في وسعك أن تغادر»، تشير إلى ما هو واضح لأن هذا هو ما تفعله معه دومًا، «عرض علينا إينون من قبل أن يعيدنا إلى القارة لو أردنا. ولو أننا لم نفعل شيئًا غبيًّا، مثل إخماد هزة أمام حشد من الناس، سيستطيع كلانا أن يعيش حياة جيدة في مكان ما».

«لدينا حياة جيدة هنا». يشق عليها سماعه بسبب الرياح، لكنها مع ذلك قادرة على الشعور بما لا يقول؛ *لا تتركيني*.

«يا للصدأ، بستر، ما خطبك؟ أنا لا أنوي الرحيل»، ليس الآن على أية حال، لكن المحادثة أمست مريعة بالفعل، لا حاجة إلى زيادتها سوءًا بالتصريح بذلك، «أنا فقط سأذهب إلى حيث يسعني أن أكون مفيدة و....».

«أنت مفيدة هنا». وها هو الآن يلتفت إليها محدقًا إليها تحديقًا هائلًا، وهذا يزعجها في الواقع؛ يزعجها كل هذا الكم من الوجع والوحدة تحت قشرة السخط على وجهه، وتزعجها أكثر حقيقة أنها منزعجة من ذلك.

«بل أنا لست كذلك»، وعندما يفتح فمه ليعترض تسبقه، «لست مفيدة. أنت نفسك قلتها، صار لدى ميوف ذي عشرة خواتم يحميها. أتحسبني لم ألاحظ كيف لم تضربنا ولو ارتجافة واهنة تحت سطحية في نطاق قدرتي طوال الوقت الذي قضيناه هنا؟ لقد كنت تخمد كل التهديدات الممكنة قبل أن أستطيع أنا أو إينون الشعور بها...»، ثم يتداعى حديثها وتضيق وجهها، عندما يهزّ ألابستر رأسه وترتسم على شفتيه ابتسامة أربكتها.

يقول: «لست أنا».

«ماذا؟».

«أنا لم أخمد شيئًا منذ عام تقريبًا»، ثم يومئ نحو الطفل، الذي كان منكبًا على أصابع سيانيت ويفحصها بتركيز. تحدق في كورو، فينظر إليها كورو ويبتسم.

إن كورندم هو ما كان يطمح إليه المرتكز عندما كلفوها بألابستر. إنه لم يرث من هيئة ألابستر كثيرًا، فهو ليس أغمق من ساين إلا بدرجة بنية واحدة، وشعره بدأ ينمو بالفعل من مجرد زغب إلى بدايات مكنسة رماد بركانية، هي التي لها أسلاف سانزيون لا هو، إذن فقد ورث شعره منها لا من بستر أيضًا. لكن ما ورثه من أبيه فعلًا هو وعي هائل بالأرض. لم يخطر لسيانيت قبل الآن أن ابنها قد يكون واعيًا بما يكفي للسسبنة، أما أن يتمكن من كبح الهزات الميكروية، فتلك ليست غريزة، بل مهارة.

تغمغم: «يا شر الأرض». كورو يضحك. ثم يمد ألابستر يده بسرعة وينتزعه من بين ذراعيها، وينهض. «انتظر، هذا...».

ينفجر: «اذهبي»، ويقبض على السلة التي جلبها معه، وينحني كي يعيد إليها لعب الطفل والحفاضات المطوية. «اذهبي، اركبي سفينتك الصدئة، عرضي نفسك للموت مع إينون، لماذا قد أهتم؟ أنا سأبقى هنا مع كورو مهما فعلتما».

ويذهب، بأكتاف مشدودة ومشية حازمة، متجاهلًا صراخ كورو المعترض، ودون أن يكترث حتى بأخذ البطانية التي لا تزال سيانيت تجلس عليها.

يا نار الأرض.

تظل سيانيت جالسة لبعض الوقت، تحاول فهم كيف انتهى بها الحال إلى راعية شعورية لذي عشرة خواتم مجنون وعالقة في قلب اللامكان مع طفل خارق القوى. ثم تغرب الشمس، وتتعب من التفكير، فتنهض وتأخذ البطانية، وتنزل عائدة إلى الكومونة.

الكل مجتمع لوجبة العشاء، لكن سيانيت تفضل اعتزال التجمع هذه المرة، وتكتفي بملء طبق بسمك التول المشوي وعشب الثلاث ورقات المطهو على مهل، بالإضافة إلى الشعير المُحلى، الذي سُرق بلا شك من كومونة قارية ما. تحمل الطبق وتعود إلى البيت، ولا تتفاجأ بوجود ألابستر هناك بالفعل، متكورًا في الفراش مع كورو النائم. كانوا قد غيروا الفراش إلى آخر أكبر وأفضل؛ صارت الحاشية معلقة على

أربعة أعمدة قوية فيما يشبه الأرجوحة الشبكية، واتضح أنه صار مريحًا إلى حد غير متوقع، وعالي التحمل على الرغم من الوزن الذي يتعرض له. عندما تدخل تجد ألابستر مستيقظًا رغم سكونه، فتتنهد، وتحمل كورو وتضعه في فراش قريب معلق وأصغر من فراشهم، وأدنى إلى الأرض تحسبًا لتسلقه إياه أو تدحرجه وقوعًا منه في الليل. ثم تدخل إلى الفراش مع ألابستر، وتنظر إليه. بعد فترة يتخلى عن تمسكه بالمسافة بينهما وينزاح مقتربًا منها، لكن لا ينظر إلى عينها بينما يفعل. لكن سيانيت تعرف ما الذي يريده، لذا، تتنهد، وتنقلب على ظهرها، فيقترب منها أكثر، حتى يريح رأسه في النهاية على كتفها، ما كان يرغب فيه على الأرجح من البداية.

يقول: «آسف».

تهز كتفيها. «لا تشغل بالك»، ثم، ولأن إينون محق وهذا جزئيًا ذنبها، تتنهد وتضيف، «سأعود، أنا أحب المكان هنا فعلًا، لكني فقط... لا أطيق المكوث طويلًا».

«أنت دائمًا كذلك. ما الذي تبحثين عنه؟».

تهزّ رأسها. «لا أعلم».

ثم تفكر، بشكل يكاد يكون لا واعٍ: *وسيلة لتغيير الأمور، لأن هذا لا يصح.*

لكنه كان دائمًا ماهرًا في تخمين أفكارها. يقول بثقل شديد: «لا يمكنك جعل أي شيء أفضل، يظل العالم كما هو، لا سبيل إلى تغييره إلا تدميره وبدؤه من جديد»، يتنهد، «خذي

منه ما تستطيعين يا ساين، أحبي ابنك، بل وحتى عيشي حياة القراصنة لو سيسعدك ذلك، لكن توقفي عن البحث عمَّا هو أفضل من هذا».

تلعق شفتيها. «يجب أن يحظى كورندم بما هو أفضل».

يتنهد ألابستر. «نعم، يجب»، لم يقل ما هو أكثر، لكن ما سكت عنه بدا أعلى من قوله: *لكن هذا لن يحدث*.

هذا لا يصح.

***

تبحر الكلالسو في اليوم التالي. يقف ألابستر على الرصيف مع نصف بقية سكان الكومونة الذين يلوحون ويتمنون أطيب الأمنيات. لا يلوح معهم، لكنه يشير إلى السفينة بينما تبتعد، مشجعًا كورو على التلويح إلى سيانيت وإينون اللذين يلوحان لهما. ويفعل كورو، وللحظة، تشعر سيانيت بما يشبه الندم، لكنها تتجاوزه بسرعة.

لم يعد أمامها إلا البحر المفتوح وعملٌ كثيرٌ: نصب خيوط صيد السمك وتسلق الصواري لشد وفك الأشرعة، بناءً على أوامر إينون، وشد حبال عدة براميل انفك عقدها في لحظة ما في الخزانة بالأسفل. عمل شاق. وترتمي سيانيت نائمة في فراشها الصغير تحت أحد الحواجز بعد الغروب بوقت قصير، لأن إينون لا يدعها تنام معه، ولأنها بلا طاقة تكفي للذهاب إلى الكابينة على أية حال.

لكن الأمور تتحسن، تزداد قوة بمرور الأيام، وتبدأ تفهم لماذا

يبدو طاقم الكلالسو على الدوام أكثر حيوية بقليل وأكثر جدارة بالاهتمام من بين كل من في ميوف. في اليوم الرابع تسمع نداءً من ناحية اليسار. . . يا للصدأ، من ميسرة السفينة، فتهرع مع البقية إلى الحاجز وترى مشهدًا مدهشًا: أعمدة هائلة من الرذاذ تخترق السطح حيث صعدت من الأعماق وحوش هائلة تسبح بجوارهم. أحد تلك الوحوش اخترق السطح لينظر إليهم، واتضح أنه ضخم ضخامة غير معقولة، عينه وحدها أكبر من رأس سيانيت. إن لطمة واحدة من زعانفه كفيلة بقلب السفينة. لكنه لا يؤذيهم، وتخبرها إحدى أفراد الطاقم أنه فقط فضولي، وتبدو مستمتعة بذهول سيانيت.

في الليل يراقبون النجوم. لم تكترث ساين قط بالسماء، الأرض تحت قدمها كان دومًا الأهم. لكن إينون يشير إلى أنماط في حركات النجوم، ويشرح لها أن النجوم التي تراها في الواقع شموس أخرى، لكل منها عوالم خاصة وربما يعيش عليهم أقوام آخرون يواجهون معاناتهم الخاصة. لقد سمعت من قبل بالعلوم الزائفة مثل التنجيم، وتعلم أن أتباعها يقولون أشياء مشابهة، لكنها الآن، وهي تراقب السماء التي لا تتوقف عن الحركة، صارت تفهم لماذا يؤمنون بذلك. صارت تفهم لماذا يهتمون بالسماء مع أنها ساكنة ولا علاقة لها بالحياة اليومية. في ليالٍ مثل تلك، ولبعض الوقت، باتت هي أيضًا تهتم.

وفي الليل أيضًا يشرب أفراد الطاقم ويغنون الأغاني. سيانيت تخطئ في نطق الكلمات البذيئة، فتجعلها من دون قصد أكثر

بذاءة، وتكون صداقات مع نصف أفراد الطاقم بمجرد فعل ذلك.

أما النصف الثاني من الطاقم فيتحفظون في حكمهم عليها، حتى يلمحوا هدفًا محتملًا في يومهم السابع. لقد كانوا يتربصون بالقرب من طرق الشحن بين شبه جزيرتين عامرتين بالسكان، ويراقبون من قمم الصواري بالمناظير بحثًا عن سفن تستحق عناء السلب. لا يلقي إينون الأوامر قبل أن يخبرهم المراقب بأنه رأى سفينة ضخمة من النوع الذي ينقل غالبًا بضائع أثقل أو أخطر من أن تنقلها العربات على الأرض: الزيوت وأحجار المحاجر والكيماويات الحساسة والأخشاب، أي بالضبط الأشياء بعينها التي تحتاج إليها كومونة عالقة على جزيرة قاحلة في منتصف المحيط كل الاحتياج. تصاحب تلك السفينة أخرى، أصغر منها و-بحسب من يستطيعون رؤية هذه الأشياء عبر المنظار وتمييز مثل تلك الأمور بمجرد النظر- تعجّ على الأرجح بجنود المليشيات ورؤوس الكباش وترسانة خاصة (ربما إحدى السفينتين قرقورة والأخرى قربيلة، تلك هي الكلمات التي يستخدمها البحارة، لكنها لا تتذكر أيهما هذه وأيهما تلك، ومحاولة التذكر توجع رأسها، لذا ستكتفي بالسفينة الكبيرة والصغيرة). إن استعدادهم لمواجهة القراصنة يؤكد أن السفينة تنقل ما يستحق القرصنة.

ينظر إينون إلى سيانيت، فتبتسم بشراسة.

تثير ضبابين. يتطلب الضباب الأول منها استخدام الطاقة المحيطة عند الحد الأقصى لنطاق قدرتها، وتفعل ذلك، لأن

هناك تقع السفينة الأصغر. والضباب الثاني تثيره في الممر بين الكلالسو وسفينة البضائع، كي يتمكنوا من الاقتراب منهم قبل أن يروهم.

يحدث كل شيء بدقة عقارب الساعة. أغلب طاقم إينون مهرة وخبراء فيما يفعلون، والذين مثل سيانيت، من لا يعلمون بعد ما يجب فعله، يُدفعون إلى الأطراف كي لا يعطلون البقية. تبرز الكلالسو من الضباب، وتبدأ السفينة الأخرى في دق جرس الإنذار لكن بعد فوات الأوان. أطلق طاقم إينون المجانق ومزقوا أشرعتهم بسلال السلاسل، ثم تنزلق الكلالسو إلى أقرب ما يكون حتى تحسبهم ساين على وشك الاصطدام، لكن إينون يعرف ما الذي يفعله، ويلقي أفراد الطاقم الخطاطيف عبر المسافة بين السفينتين، فيربطونهما معًا، ثم يجذبونها إليهم من خلال بكرات ضخمة تحتل أغلب سطح الكلالسو.

ثم تغدو الأمور خطيرة من تلك اللحظة، ويدفعها أحد أفراد الطاقم الأكبر سنًّا إلى ما تحت السطح، عندما يبدأ طاقم سفينة البضائع في رمي الأسهم والمقاليع والسكاكين عليهم. تجلس في ظل درجات السلم بينما يهرع أفراد الطاقم صعودًا ونزولًا. يدق قلبها دقًّا، راحتا يديها متعرقتان. يرتطم شيء ثقيل بهيكل السفينة على مسافة لا تبعد خمسة أقدام من رأسها، فتجفل.

لكن هذا وشر الأرض أفضل بكثير من التسكع في الجزيرة تصطاد وتغني أغاني المهد.

ينتهي كل شيء في دقائق. عندما تتلاشى الضجة وتتجرأ

سيانيت على الصعود إلى السطح مجددًا، ترى الألواح التي ثبتت بين السفينتين وطاقم إينون يركضون فوقها ذهابًا وإيابًا. بعضهم قد قبض على أفراد السفينة التجارية وحاصروهم على السطح برؤوس السكاكين السبجية، وبقية الطاقم يستسلمون ويسلمون أسلحتهم والثمين من متعلقاتهم خوفًا من أن تتعرض الرهائن للأذى. وبدأ بالفعل بعض بحارة إينون في الذهاب إلى الخزانات، وجلب البراميل والصناديق ونقلها إلى سطح الكلالسو. سيصنفون الغنائم لاحقًا، أما الآن فالسرعة هي اسم اللعبة.

لكن فجأة تندلع الصيحات ويدقّ أحد المعلقين بحبال الأشرعة والصواري جرسًا بجنون، وتلوحت من بين الضباب السفينة المقاتلة المصاحبة لسفينة البضائع متجهة صوبهم. وتدرك سيانيت متأخرًا خطأها: لقد افترضت أن السفينة المقاتلة ستتوقف عندما تفتقر إلى الرؤية، خاصة وأنها تعلم بقربها من سفن غيرها. لكن الناس لا يتصرفون بمنتهى العقلانية، وها هي السفينة تقترب منهم بسرعتها الكاملة، ورغم صرخات طاقمها الملتاعة من فوق سطحها عندما أدركوا الخطر بدورهم، ليس لديهم أدنى وسيلة لإيقافها قبل أن تصطدم بالكلالسو وسفينة البضائع... وإغراق ثلاثتهم على الأرجح.

سيانيت، التي تزخر بالطاقة المسحوبة من الدفء وموجات البحر اللانهائية، تستجيب بلا تفكير، مثلما تعلمت في مئات التدريبات المرتكزية، وتتوجه إلى تحت، عبر معادن مياه البحر الزلقة الغريبة، وعبر تربة المحيط الرطبة عديمة النفع، إلى

تحت، حيث تكمن صخرة قاع المحيط، صخرة قديمة وصافية، وطوع أمرها.

وفي مكان آخر ها هي تنشب مخالبها في الهواء وتصيح وتفكر «إلى فوق»، وفجأة، تتشقق السفينة المقاتلة بصوت عالٍ وتتوقف في مكانها. يتوقف كل من على السفن الثلاث عن الصراخ، تدفعهم الصدمة إلى الصمت. هذا لأن صخرة القاع الهائلة قد اخترقت السفينة المقاتلة كخازوق مسنون من قعرها إلى فوق سطحها بعدة أقدام.

ترتجف سيانيت، وتخفض يديها ببطء.

تتحول الصيحات على متن الكلالسو إلى تهليل عشوائي، وحتى القلة على سطح سفينة البضائع هدؤوا قليلًا. سفينة واحدة مدمرة خير من ثلاثٍ غارقات.

تمضي الأمور بسلاسة بعدما أمست السفينة المقاتلة عاجزة ومخوزقة. يأتي إينون ليجدها في نفس الوقت الذي يبلغه فيه طاقمه بأن خزانات سفينة البضائع صارت خاوية. تحركت ساين إلى المقدمة، حيث تستطيع أن ترى بوضوح الناس على السفينة المقاتلة يحاولون تكسير العمود بالمعاول.

يقف إينون إلى جوارها، وترفع نظرها مستعدة لملاقاة غضبه، لكنه أبعد ما يكون عن الغضب.

يقول متعجبًا: «لم أكن أعلم أن في وسع المرء فعل هذه الأشياء، حسبتك وألابستر تتبجحان لا أكثر».

تلك هي أول مرة يمتدح شخص من خارج المرتكز أوروچينية

سيانيت، ولو لم تكن قد بدأت تحب إينون بالفعل لبدأت الآن. تقول بخجل: «لم يكن ينبغي عليَّ رفع الصخرة إلى هذا الارتفاع. لو أنني فكرت قبلها، لرفعت العمود بما يكفي فقط لاختراق بدن السفينة كي يحسبوا أنهم ارتطموا بعائق ما».

يستعيد إينون جديته عندما يفهم. «أها، والآن صاروا يعرفون أن معنا أوروچينيًّا ماهرًا». يشتدّ محياه على نحو لا تفهمه سيانيت، لكنها تقرر ألا تحاول أن تفهم. إنها سعيدة بوقوفها هنا، معه، تتدفأ بوهج النجاح. ولوهلة ظلا يراقبان انتهاء التحميل من سفينة البضائع معًا.

أحد أفراد طاقم إينون يأتي ليبلغه بأنهم قد انتهوا. رُفعت الألواح وأُعيدت الحبال والخطاطيف إلى البكرات. صاروا مستعدين للذهاب. يأمر إينون بصوت ثقيل: «انتظار».

إنها شبه عارفة ما الذي سيتبع ذلك، لكنها مع ذلك تكاد تمرض عندما ينظر إليها بمحيا كالجليد. «أغرقيهما».

لقد وعدته بألا تُسائل أوامره، لكنها مع ذلك تتردد. إنها لم تقتل أحدًا من قبل، ليس عمدًا. لقد أخطأت عندما رفعت العمود الصخري بهذا الارتفاع، هل من الضروري أن يموت الناس بسبب حماقتها؟ تخطو خطوة إلى الأمام، وتجفل مسبقًا، حتى مع أنه لم يؤذِها من قبل قط، عظام يدها ترتجف بشدة مع ذلك.

لكن إينون يقول في أذنها: «من أجل بستر وكورو».

ليس لهذا أي معنى، بستر وكورو ليسا هنا. لكن حينها

يتبدى لها مجمل مضامين كلماته (إن سلامة كل من في ميوف تعتمد على ألا يعدّهم أهل القارة أكثر من إزعاج محدود لا خطرًا جاد)، ويجعلها هذا تتصلب كالجليد بدورها.

تقول له: «عليك أن تبعدنا عن هنا».

يلتفت إينون مرة واحدة ويلقي أوامره بإبحار الكلالسو. ما إن يبتعدوا مسافة آمنة، حتى تأخذ سيانيت نفسًا عميقًا.

من أجل أسرتها. تستغرب التفكير فيهم بهذا الوصف، مع أنهم كذلك. والأغرب أنها تفعل ذلك من أجل سبب حقيقي، وليس لأنها أُمرت بفعله. هل يعني ذلك أنها لم تعد سلاحًا؟ ما هي إذن إن لم تكن ذلك؟

لا يهم.

بإشارة من إرادتها تحرر الصخرة نفسها من بدن السفينة المقاتلة، وتترك خلفها فجوة بقطر عشرة أقدام عند المؤخرة. تبدأ السفينة تغرق على الفور، بينما ترتفع مقدمتها إلى أعلى تدخلها المياه. ثم تستدعي سيانيت مزيدًا من القوة من سطح المحيط فتثير ضبابًا كافيًا لحجب المشهد لأميال. تزحزح العمود كي تصوبه نحو قاع سفينة البضائع، ثم تدفعه مرة واحدة، وتسحبه مرة واحدة. كطعنة خنجر. يتشقق هيكل السفينة مثل قشرة بيض، وينفلق بعد لحظة إلى نصفين. انتهى كل شيء.

يحجب الضباب السفينتين الغارقتين بينما تبحر الكلالسو مبتعدة. صرخات الطاقمين الغارقين تظل مع سيانيت لوقت

طويل بعد ذلك، بينما ينجرفون في البياض التام.

***

يسمح إينون باستثناء من القاعدة من أجلها تلك الليلة. ولاحقًا، وهي جالسة في غرفة القبطان، تقول ساين: «أريد أن أرى آليا».

يتنهد إينون. «لا، أنت لا تريدين».

لكنه يأمر بالتوجه إليها مع ذلك، لأنه يحبها. تمخر السفينة في مسارها الجديد.

***

بحسب الأسطورة، لم يكن الأب الأرض يكره الحياة.

بل في الواقع، كما يقول القوالون، فعل الأب الأرض ذات مرة كل ما في وسعه، كي ييسر الانبثاق الغريب للحياة على سطحه؛ ابتدع مواسم متساوية متوقعة، وأبطأ من تبدل الرياح والأمواج والحرارة إلى حد يسمح للكائنات الحية بالتكيف، والتطور، واستدعى المياه التي تنقي نفسها بنفسها، والسموات التي تروق دومًا بعد العواصف. لم يخلق الأرض الحياة، فتلك حدثت بالصدفة، لكنها أعجبته وأبهجته، واعتز برعايته لمثل هذا الشذوذ الجامح البديع على سطحه.

بيد أن الناس أضروا بالأب الأرض ضررًا بالغًا. سمموا مياهه إلى حد عجزت معه قدراته على التنقية، وقتلوا كثيرًا من تجليات الحياة الأخرى على سطحه، وثقبوا قشرته، وغاصوا

في لحمه ودمائه، سعيًا إلى نخاع عظمه الشهي. أما ذروة عجرفة البشر وجبروتهم فكانت الأوروپيينيين، الذين ارتكبوا جرمًا حتى الأرض لم يستطع أن يغفره: دمروا ابنه الوحيد.

لم تقابل سيانيت قط قوالًا يعلم معنى هذه الكلمات الملغزة. إنها ليست من قول الصخر، بل تراثًا متناقلًا شفاهة ويُسجل أحيانًا على زوائل، كالأوراق وجلود الحيوانات، وتوارثه عبر المواسم قد بدله تبديلًا. أحيانًا يكون ما دمره الأوروپينيون للأرض سكينه السبجي المفضلة، وأحيانًا ظله، وأحيانًا مستولدته المفضلة. ومهما كان معنى تلك الكلمات، يتفق القوالون والجيومستيون أن بعد ارتكاب الأوروپيينيين إثمهم الأفدح، شقّ الأب الأرض سطحه مثل قشرة بيض. فهلك كل كائن حي تقريبًا عندما تجلى غضبه لأول مرة، في أول موسم خامس وأسوأ المواسم قاطبة: موسم الانشقاق. ورغم شدة بأس هؤلاء القوم الأقدمين، أتاهم الموسم بلا تحذير، بلا وقت كافٍ لبناء بيوت أحراز، بلا قول صخر يرشدهم. ولم يكن إلا بالمصادفة البحتة أن نجا من النوع البشري قلة كافية للتكاثر من جديد بعد ذلك، ولم يحدث بعدها قط أن بلغت الحياة قمم المجد التي عرفتها من قبل. لن يسمح غضب الأرض بذلك أبدًا.

لطالما تفكرت سيانيت في هذه الحكايات. إنها بالطبع تتضمن درجة من الضرورة الشاعرية التي دخلتها عندما كان الناس البدائيون يحاولون تفسير ما لا يفهمون... لكن كل الأساطير تتضمن جذوة حقيقة. ربما مثلًا كان قدامى

الأوروچينيين هم من شقّوا قشرة الكوكب؟ لقد صار من الواضح أن الأوروچينية تنطوي على ما يفوق ما تعلمته في المرتكز، وربما لو أن الأسطورة حقيقية، فامتناع المرتكز عن تعليم الأوروچينيين هذه الأشياء له سبب وجيه. لكن الحقائق تظل حقائق: حتى لو تمكن كل أوروچيني في الوجود، بمن فيهم الرضع، من التعاون معًا، لن يتمكنوا من تدمير سطح العالم. بل سيؤدي ذلك إلى تثليج كل شيء، لا توجد حرارة أو حركة كافية في أي مكان تكفي لإحداث هذا القدر من الضرر، وسينتهون إلى إنهاك أنفسهم حد الموت.

ما يعني أن في هذه الحكاية جزءًا مستحيلًا، لا يمكن لوم الأوروچينية على غضب الأرض. وإن كان أحد لن يتقبل تلك النتيجة أبدًا، إلا لو كان روچا آخر.

غير أنه لمن المبهر أن البشرية تمكنت من النجاة من نار أول المواسم. لأن لو كان العالم كله حينها مثلما هي آليا الآن... فسيانيت باتت تفهم الآن قدر الكراهية الذي يكنه الأب الأرض لهم جميعًا.

آليا الآن كابوس هلاك ليلي أحمر. لم يبقَ من الكومونة إلا حلقة الفوهة التي احتضنتها ذات يوم، وحتى تلك يصعب رؤيتها. تحدق ساين عبر الغشاوة الملتهبة المتذبذبة، تحسب أنها قد تلمح أطلال مبانٍ أو طرق على منحدرات الفوهة، لكنها أماني لا تُنال.

وهج النيران يضيء أسفل غيوم الرماد التي تحجب سماء الليل. حيثما كان المرفأ أمسى الآن قمعًا بركانيًا لا ينفك

يكبر، ويصاحب تسلقه خروج غيوم من البحر غيوم ودم مخاض أحمر ملتهب. لقد بلغ من الحجم ما يكفي لاحتلال صحن الفوهة القديمة كله، زائد أنه بدأ يتكاثر، فثمة فتحتان إضافيتان تتمسحان في جانبه، وتتجشأان الغاز والحمم معًا مثل أبيهما. غالبًا سيندمج الثلاثة معًا عمَّا قريب ليصبحوا وحشًا واحدًا هائلًا يجتاح الجبال المحيطة ويهدد كل كومونة في نطاق سحب غازه وانفجاراته اللاحقة.

كل من عرفته سيانيت في آليا هلك. لا تقدر الكلالسو على الاقتراب من شواطئها أكثر من خمسة أميال، إن تجرأت على ما هو أكثر خاطرت بالموت، سواء بغمر السفينة في المياه الساخنة أو بالاختناق في الغيوم الحارقة التي تبصقها الجبال دوريًا، أو بالطهو فوق إحدى الفتحات الفرعية في مرحلة التكون، التي تنتشر في أرجاء ما كان ذات يوم مرفأ آليا مثل عجلات من نار، وتتربص تحت الماء قرب الشاطئ مثل ألغام مهلكة. إن ساين تسسبن كل تلك البقع الساخنة، عواصف الغضب الهائجة تحت بشرة الأرض الخارجية مباشرة، بل إن إينون نفسه يسسبنهم، ويوجه السفينة بعيدًا عن الأقرب منهم للانفجار في أي لحظة. لكن هشاشة طبقات الأرض هنا تعني أن ليس من المستبعد أن تنفتح واحدة جديدة تحتهم في أية لحظة، قبل أن يتأتى لساين إدراك وجودها أو إيقافها، إن إينون يخاطر كثيرًا بتحقيقه رغبتها.

يقول إينون بجانبها بخفوت: «استطاع العديد من سكان الأطراف البعيدة للكومونة الهروب». كان جلّ طاقم الكلالسو

قد ارتقوا سطحها، وأخذوا يتأملون آليا بصمت. «يقولون إن برقًا أحمر خاطفًا جاءهم من المرفأ بغتة، وتبعته سلسلة بروق أخرى في إيقاع متساوٍ، وكأن ثمة شيئًا نابضًا. لكن ما قتل أكثر الناس كان الارتجاج الأولي الذي سوى أغلب بيوت الكومونة بالأرض، عندما أخذ المرفأ كله يغلي مرة واحدة بلا إنذار». ترتجف سيانيت.

بلا إنذار. كانت آليا كومونة من مئة ألف نسمة، صغيرة بالمقاييس الاستوائية، لكن ضخمة بالمقاييس الساحلية. كانت كومونة ذات كبرياء، كبرياء مستحق، وكانت لديها آمال عظمى.

الصدأ على ذلك، الصدأ على ذلك وليحترق في الأحشاء الكريهة النتنة للأب الأرض.

«سيانيت؟»، يحدق إليها إينون. وذلك لأن ساين قد رفعت قبضتيها أمامها وكأنها تقبض على لجام حصان منهك ملهوف، ولأنها تجلى حولها نطاق قدرة ضيق وعالٍ ومشدود. لم يكن باردًا، فثمة كثير من قوة الأرض التي يمكنها أن تسحب منها عمًّا قريب، لكنه قوي، وحتى الروچا غير المدرب يقدر على سسبنة القوى المجتمعة رهن إرادتها. إينون يتنفس ويأخذ خطوة إلى الوراء. «ساين، ما الذي...».

تغمغم وكأنها تقول لنفسها: «لا أستطيع تركها هكذا». إن المنطقة برمتها دمل متورم قاتل يكاد ينفجر. البركان ليس إلا أول تحذير. إن أكثر فتحات الأرض عادةً ما تكون ضيقة ومتلوية، تكافح لبلوغ السطح عبر طبقات متنوعة من الصخور

والمعادن، وتقاوم أيضًا ثقلها الذاتي. تطفح ثم تبرد ثم تنسد، ثم تطفح من جديد. أما هذا فأنبوب حمم هائل قادم مباشرة من المكان الذي انتهت إليه المسلة العقيقية، أينما كان ذلك، يجلب كراهية الأرض العميقة إلى سطحها. سوف ينفجر الإقليم كله عمّا قريب لو لم يفعل أحد شيئًا، سينفجر انفجارًا سيقدح بالتأكيد بداية موسم. إنها لا تصدق كيف ترك المرتكز الوضع بهذا الشكل.

لذا، تطعن سيانيت الأرض بنفسها، وتستجمع الحرارة، ثم تنهال عليها بكل الغضب الذي ينتابها من رؤية آليا، هذه *كانت آليا، هذا كان مكانًا للبشر، هنا عاش بشر*. بشر لم يستحقوا ما أصابهم بسبب...

...ـــي

لأن غباءهم منعهم من ترك المسلة النائمة في حالها، أو لأنهم تجرؤوا على أن يحلموا بالمستقبل. لا أحد يستحق الموت من أجل ذلك.

يكاد يكون الأمر سهلًا. في النهاية هذا ما تفعله الأوروچينية، والبقعة الساخنة تتوسل أن يستخدمها أحد. بل في الواقع الخطر يكمن في عدم استخدامها. لو أنها امتصت كل تلك القوة والحرارة من دون أن تمررها إلى مكان آخر، ستهلك، لكن لحسن حظها -تضحك لنفسها، ويرتج جسدها كله مع ذلك- لديها بركان كامل لتخنقه.

تكور أصابع إحدى يديها في قبضة، وتجفف حلق البركان

بوعيها. إنها لا تحرقه، بل تبرده، تعيد توجيه غضبه إليه لتحكم غلق كل ثغرة. ترغم كتل الحمم المتنامية على العودة إلى تحت، تحت، تحت... وبينما تفعل ذلك تتعمد سحب طبقات الأرض في نمط متداخل، كي تضغط كل طبقة على التي أسفلها، وتحاصر الحمم تحت، على الأقل حتى تجد لنفسها طريقًا آخر لكن أبطأ نحو السطح. تلك عملية شديدة الحساسية، فهي تتضمن ملايين أطنان الصخور، وكم من الضغط كافٍ لتشكيل الألماس. لكن سيانيت ابنة المرتكز، ولقد أتقن المرتكز تدريبها. تفتح عينيها فتجد نفسها بين ذراعي إينون، والسفينة تمور تحت قدميها. ترفع نظرها وهي ترمش من المفاجأة فترى عيني إينون، جاحظتين جامحتين. يلاحظ أنها عادت، وتعابير الخوف والارتياع يشجعانها ويوقظانها في نفس الوقت.

يقول بصوت يطغى على رذاذ البحر الهائج وصياح الطاقم العالي: «لقد قلت للجميع إنك لن تقتليننا»، تنظر حولها وترى الجميع يحاولون بجنون إنزال الأشرعة، في محاولة لاستعادة بعض التحكم وسط بحر فقد في لحظة كل هدوئه. «أرجوك حاولي ألا تجعليني أبدو كاذبًا».

خراء! لقد اعتادت ممارسة الأوروچينية على الأرض، ونسيت أن تأخذ في اعتبارها تداعيات إغلاق الصدوع على المياه. لقد أثارت هزات من أجل غرض طيب، لكنها هزات رغم ذلك، و... يا للأرض، إنها تشعر بها، لقد سببت تسونامي. و... تجفل وتتأوه، بينما تدقّ سسبيينتها اعتراضًا في مؤخرة رأسها.

لقد غالت في استخدامها.

«إينون»، رأسها تدق ألمًا، «عليك أن...آه... أن تدفع أمواجًا تحت سطحية متماثلة المدى...».

«ماذا؟»، ينظر بعيدًا عنها ويصيح بشيء إلى إحدى أفراد طاقمه بلغته، فتسب وتلعن بداخلها. إنه بالطبع لا يفهم حرفًا مما قالته، إنه لا يعرف لغة المرتكز.

لكن عندها، وعلى حين غرة، تضربهم برودة مفاجئة في الهواء حولهم. أنَّ خشب السفينة من تبدل درجة الحرارة. تشهق ساين ذعرًا، غير أن التغيير لم يكن في الواقع ضخمًا، ليس أكثر من الفارق بين طقس ليلة صيف وليلة خريف، وإن كان في خلال دقائق. وثمة حضور في ذلك التبدل مألوف مثل أيدٍ دافئة في الليل. يشهق إينون بغتة عندما يتعرفه بدوره، إنه ألابستر. بالطبع! إن مداه يشمل كل تلك المسافة. يقمع ألابستر الأمواج المتجمعة في لحظات.

عندما ينتهي، تستقر السفينة على المياه الرائقة من جديد، تواجه بركان آليا، الذي أمسى الآن ساكنًا وقاتمًا. لا يزال ينفث الدخان، وسيظل ساخنًا لعقود قادمة، لكنه لم يعد يبصق الحمم الطازجة أو الغاز. والسماء فوقه بدأت بالفعل تصفو.

يأتي ليشي، الضابط الأول لإينون، ويرمي سيانيت بنظرة مضطربة. يقول شيئًا بسرعة بالغة لا تتمكن سيانيت من ترجمتها بالكامل، لكنها تفهم مغزاها: قل لها المرة القادمة التي ترغب فيها في إخماد بركان، أن تترجل عن السفينة

قبلها.

ليشي محق. تغمغم ساين بالإيتروبية «آسفة»، فيغمغم الرجل ويغادر يدبّ الأرض.

يهزّ إينون رأسه ويتركها، ويصيح لبسط الأشرعة من جديد. ينظر إليها، «هل أنت بخير؟».

«أنا بخير»، تدعك رأسها، «أنا فقط لم أعمل على شيء بهذا الحجم من قبل».

«أنا لم أعتقد أنك قادرة، حسبت أنها أشياء لا يفعلها إلا من شابه ألابستر، ذوي الخواتم العديدة، أقصد أكثر من خواتمك. لكنك قوية مثله».

«لا»، تضحك سيانيت قليلًا، وتقبض على الحاجز وتتشبث به كي لا تضطر إلى الاستناد إلى إينون أكثر من ذلك، «أنا فقط أفعل ما هو ممكن، أما هو فيعيد كتابة قوانين الطبيعة الصدئة».

«هممم»، تجد سيانيت في صوت إينون غرابة، فتنظر إليه متفاجئة فتجد ما يشبه نظرة الامتنان على وجهه. «أحيانًا، عندما أرى ما الذي تفعلانه، أتمنى لو كنت ذهبت إلى مرتكزكما هذا».

«لا تقل هذا». إنها لا تريد حتى أن تتخيل كيف كان سيصبح حاله لو نشأ في الأَسر مثل بقيتهم. كان سيصبح إينون، لكن من دون ضحكته المجلجلة أو عربدته الحيوية أو ثقته المبتهجة، إينون، لكن يده القوية الرشيقة ستصبح أوهن

وأخرق، لأنها كانت ستكسر. كان سيصبح إينون، من دون إينون.

يبتسم ابتسامة ترثى لها، وكأنه خمن ما يدور في ذهنها. «عليك أن تخبريني ذات يوم كيف هو المرتكز، ولماذا تخرجون جميعًا من هذا المكان بكفاءة هائلة... لكن أيضًا بخوف هائل».

ويختتم ذلك بالتربيت على ظهرها، ويذهب ليشرف على سير الأمور.

لكن سيانيت تبقى حيث هي عند الحاجز، وقد غمرها برد مباغت حتى النخاع، على نحوٍ لا علاقة له بالتموجات العابرة لقوى ألابستر.

وهذا لأنها، وبينما تميل السفينة على أحد جانبيها إبان ذهابها، تلقي نظرة أخيرة على المكان الذي كان آليا قبل أن تدمره...

... وترى أحدهم.

أو تحسب أنها ترى. لم تكن متأكدة في البداية. تضيق عينيها فتميز بمشقة أحد الشرائط الشاحبة التي تتلاشى في صحن فوهة آليا عند طرفه الجنوبي، الذي بات أوضح للناظرين بعدما بهت وهج البركان الأحمر. هذا ليس الطريق الإمبراطوري الذي خاضته مع بستر ليصلا إلى آليا، بل هو أقرب إلى طريق ترابي شقّه السكان المحليون في الغابة المحيطة، بقطع شجرة تلو الشجرة، وحافظوا عليه من الانسداد

مجددًا لعقود بالمشي فيه.

ثمة نقطة ضئيلة تتحرك على هذا الطريق تبدو، من تلك المسافة، مثل شخص ينزل منحدرًا. لكن لا يمكن، لا يوجد شخص عاقل مستعد للبقاء قريبًا إلى هذا الحد من بركان نشيط فتاك قتل بالفعل الآلاف.

تضيق عينيها أكثر، وتمضي إلى مؤخرة السفينة كي تتابع النظر إلى هذا الاتجاه بينما تبتعد الكلالسو عن الساحل. ليتها كان معها أحد مناظير إينون، ليتها كانت لتتأكد.

لأنها لبعض الوقت تفكر، ولبعض الوقت ترى، أو تهلوس من ضجرها، أو تتخيل من توترها...

إن كبار المرتكز لن يتركوا كارثة تختمر مثل تلك من دون أن يتدخلوا. إلا لو كان لديهم سبب كبير لعدم التدخل، إلا لو أُمروا بعدم التدخل.

...أن النقطة المتحركة هي شخص يرتدي زيًّا خمريًّا.

***

يقولون إن الأرض غاضب

لأنه لا يصحبه صاحب

وأقول إن الأرض غاضب

لأنه يعيش وحيدًا

أغنية شعبية عتيقة (قبل إمبراطورية)

٢١

أنت، تستعيدين زمان نفسك

«أنتِ!»، تقولينها على حين غرة لتونكي، التي ليست بتونكي.

تونكي، التي تقترب من أحد الحوائط البلورية بعين لامعة وإزميل صغير في يدها جلبته من مكان ما، تتوقف وتنظر إليك مرتبكة. «نعم؟».

اليوم في آخره، وأنت منهكة. إن استكشاف الكومونات المستحيلة الخفية في جيودات هائلة تحت أرضية لَأَمرٌ مرهق عليك. قوم إيكّا خصصوا لك ولرفقتك شقة تقع في منتصف أحد الأعمدة البلورية الطويلة، تعيَّن عليك أن تمشي على جسر من الحبال وعلى منصة خشبية تحيط بالعمود كي تبلغيها. الشقة مستوية مع أن البلورة نفسها مائلة، إن من حفروا ذلك المكان على ما يبدو لم يفهموا أن الناس لا ينسون أنهم يعيشون في شيء مائل بزاوية خمس وأربعين درجة حتى لو كانت الأرضية مستوية. لكنك منهكة، لذا تحاولين ألا تفكري في ذلك.

وفي لحظة ما، وبينما تتأملين المكان وتنزلين متاعك وتفكرين سيكون *هذا* بيتي حتى *أستطيع الهروب*، تدركين فجأة أنك تعرفين تونكي. لقد كنت تعرفينها بشكل ما طوال الوقت.

تصيحين مرة واحدة: «بينوف. قيادية. يومينِس»، وتبدو كل

كلمة وكأنها تضرب تونكي مثل لكمة، إذ تجفل وتتراجع إلى الخلف مرة تلو الأخرى ثم ثالثة، حتى تلتصق بحائط الشقة الأملس البلوري. النظرة المرتسمة على وجهها نظرة رعب، أو لعلها نظرة حزن شديد حد أنه يبدو رعبًا. لكن في مرحلة ما، لا يختلف هذا عن ذاك.

تقول بصوت ضئيل: «حسبتك لا تذكرين».

تنهضين واقفة، وتستقر راحتاك على الطاولة. «سفرك معنا إذن لم يكن صدفة، لا يمكن».

تحاول تونكي أن تبتسم، لكنها تتجهم. «إن المصادفات غير المعقولة تحدث أحيانًا...».

«ليس معك»، ليس مع طفلة تمكنت من دخول المرتكز بالخداع وكشفت عن سرٍّ أدى إلى موت وصية. المرأة التي كانت تلك الطفلة لن تدع الأمور للصدفة، لا شك عندك في ذلك. «وإن كانت قدرتك الصدئة على التنكر تحسنت بمرور السنوات».

هوّا، الذي كان يقف عند مدخل الشقة -يحرسك بحسب ما تظنين- يدير رأسه بينك وبينها، لعله يراقب تلك المواجهة استعدادًا لمواجهتك له القريبة.

تشيح تونكي بنظرها، ترتجف قليلًا. «إنها ليست صدفة...»، تأخذ نفسًا عميقًا، «لم أكن أتبعك، بل جعلت آخرين يتبعونك، وهذا يختلف. لم أشرع في اتباعك بنفسي إلا قبل عدة سنوات».

«أجعلت ناس تراقبني *ثلاثون سنة*؟».

ترمش، ثم ترتخي قليلًا وتضحك، تبدو ضحكة مريرة. «إن عائلتي أغنى من الإمبراطور نفسه. كان ذلك يسيرًا في أول عشرين عامًا تقريبًا، ثم فقدناك منذ عشرة أعوام، لكن...».

تصفعين الطاولة بيديك، وتلاحظين -أو لعل هذا خيالك لا أكثر- أن حوائط الشقة البلورية تتوهج أكثر قليلًا للحظة. يكاد هذا يشتت انتباهك. يكاد.

تقولين عبر أسنانك: «لم يعد في وسعي تلقي مزيدًا من المفاجآت الآن».

تتنهد تونكي قليلًا وترتخي مستندة إلى الحائط: «آسفة...».

تهزين رأسك بشدة حتى إن ضفائرك تنفك عقدتها. «لا أريد اعتذارات، أريد تفسيرًا. من أنت؟ المبتكرة أم القيادية؟».

«كلاهما؟».

ستثلجينها! ترى ذلك في عينيك فتندفع قائلة: «لقد ولدت قيادية، كنت كذلك فعلًا، أنا بينوف، لكن...»، تفرد ذراعيها، «ماذا أقود بالضبط؟ لست ماهرة في القيادة، أنت رأيت كيف كنت وأنا طفلة، لست جيدة فيما يخص الـ... ناس. أما مع الأشياء فالعكس هو الصحيح».

«لا حاجة بي إلى تاريخك الصدئ...».

«لكنه ذو صلة، للتاريخ دومًا صلة». تونكي، أو بينوف،

أيًّما كانت، تخطو مبتعدة عن الحائط بنظرة متوسلة على وجهها. «أنا فعلًا جيومستية. ذهبت فعلًا إلى السابعة، مع أن. . .»، ينقلب وجهها على نحو لا تفهمينه، «لم تمضِ الأمور على ما يرام. لكني قضيت حياتي كلها أدرس هذا الشيء، هذا *المقبس*، الذي وجدناه في المرتكز. أتعلمين ماذا كان ذلك يا إيسّون؟».

«لا أهتم».

غير أن عند ذلك تونكي/بينوف تصيح فيك موبخة: «بل هو مهم». الآن هي من صارت تبدو غاضبة وأنت من تتراجعين من المفاجأة. «لقد سخرت حياتي لهذا السر، إنه مهم، ويجب أن يهمك أيضًا، لأنك واحدة من قلة قليلة في السكون برمتها تستطيع أن تجعل الأمور أفضل».

«ما الذي تتحدثين عنه بحق نار الأرض؟».

«لقد صُنعت هناك»، تتقدم بينوف/تونكي حثيثًا، بات وجهها في النور، «هناك، في مقبس المرتكز، صُنعت المسلات، ومن هناك انقلب كل شيء رأسًا على عقب».

***

ينتهي بكما الحال إلى التعارف من جديد. تعارف كامل هذه المرة.

إن تونكي في الواقع بينوف، لكنها تفضل تونكي، وهو الاسم الذي اتخذته لنفسها وهي تنضم إلى الجامعة السابعة. يتضح أن اتخاذ طفل من قيادة يومينِس أية مهنة غير السياسة

أو القضاء أو التجارة عالية المستوى ليس أمرًا مفروغًا منه. وليس أيضًا أمرًا مفروغًا منه أن يصبح من وُلد ولدًا غير ذلك. من الواضح أن العائلات القيادية لا تستخدم المستولدات، بل يتكاثرون بين بعضهم، وأنوثة تونكي أحبطت بضع زيجات مرتبة مسبقًا. كان في وسعهم ترتيب زيجات أخرى، لكن ذلك مع ميل تونكي الصغيرة إلى قول وفعل أشياء لا معنى لها، كان بمثابة القشة الأخيرة. لذا دفنتها عائلتها في أفضل مراكز التعليم، ومنحوها شخصية جديدة، وطائفة استخدام مزيفة، وتبرؤوا منها بهدوء، من دون ضجة ولا فضائح مرهقة.

ومع ذلك ازدهرت تونكي هناك، باستثناء القليل من الشجارات الغاضبة مع أكاديميين ذائعي الصيت فازت بأغلبهم، وقضت أغلب حياتها العملية تدرس الهوس الذي أدى بها إلى المرتكز تلك الليلة قبل سنوات بعيدة: المسلات.

تفسر: «لم يكن غريبًا أني اهتممت بك، أعني... أنت ساعدتني، وددت أن أتأكد أن هذا لم يؤذك، هكذا بدأ اهتمامي... لكني لمَّا تمعنت في أمرك فهمت أن لديك إمكانيات. كنت أحد القلة الذين لعلهم ذات يوم يطورون قدرة على التحكم في المسلات. تلك مهارة نادرة، و... تمنيت أن...».

بحلول تلك اللحظة كنتما قد جلستما مجددًا، وسكنت أصواتكما. لا يسعك المحافظة على اشتعال غضبك من ذلك، فثمة كثير مما يتعين عليك التعامل معه الآن. تنظرين إلى هوّا، الذي يقف عند حافة الغرفة يراقب كلًّا منكما

بوقفة حذرة. لا زلت في حاجة إلى الحديث معه. كل الأسرار تنكشف، بما فيها أسرارك.

تقولين: «لكني متّ. تلك كانت الطريقة الوحيدة للاختباء عن المرتكز، متّ وهربت منهم. وهذا مع ذلك لم يصرفك عني».

«طيب، صحيح. لكن من وضعتهم في إثرك لم يعتمدوا على القوى المبهمة لتتبعك، بل على الاستدلال المنطقي، وذلك أضمن بكثير». تسترخي تونكي في المقعد على الجهة المقابلة لك من الطاولة. لهذه الشقة ثلاث غرف: هذا الفضاء المركزي الأقرب إلى العرين، وغرفتا نوم ملحقتان به. تحتاج تونكي إلى غرفة مستقلة لأن رائحتها بدأت تفوح مجددًا. وأنت لن تكوني مستعدة لمشاركة غرفة مع هوّا مجددًا إلا عندما تحصلين على إجاباتك منه، لذا قد تضطرين إلى النوم هنا في العرين لبعض الوقت.

«عملت في الأعوام القليلة المنقضية مع... بعض الناس»، تبدو تونكي فجأة حذرة، وهو شيء لا يتعذر عليها، «جيومستيين آخرين في الغالب، يشغلهم نفس نوع الأسئلة التي تشغلني، ويتخصصون في تخصصات أخرى. لنا عدة سنوات نتتبع المسلات، على الأقل ما تيسر لنا منها. هل لاحظت أية أنماط في طريقة حركاتها؟ إنهم يحومون ببطء حيثما يوجد أوروچيني ذو مهارة كافية عمًّا قريب، أي شخص يقدر على استخدامهم. كانت هناك اثنتان فقط تتجهان إليك في تيريمو، وكان ذلك يكفي للاستنباط».

تنظرين إليها، عابسة. «تقتربان مني؟».

«نعم، أو من أوروچيني آخر في محيطك»، باتت تونكي الآن مسترخية، وتأكل ثمرة فاكهة مجففة من حزمتها، غافلة عن تعبيرك المضطرب وأنت تحدقين إليها. لقد جمد الدم في عروقك. «خطوط التثليث المساحية كانت واضحة تمامًا، تيريمو كانت مركز الدائرة، لا بد من أنك كنت هناك لسنوات طويلة، فإحداهما ظلت تسافر قادمة من الساحل الشرقي في نفس الاتجاه لحوالي عقد من الزمان».

تهمسين: «الجمشتية».

«بالضبط»، تونكي تراقبك، «ولهذا استربت في أنك حية. إن المسلات تـ. . . ترتبط على نحو ما بأوروچينيين معينين. لا أعلم كيف يحدث ذلك ولا أعلم له سببًا، لكنه يحدث بدقة ويمكن توقعه».

هذا هو الاستدلال إذن. تهزين رأسك بصمت من المفاجأة، وهي تتابع: «وكلتا المسلتين ازدادتا سرعة في آخر عامين أو ثلاثة، لذا سافرت إلى الإقليم وتظاهرت بأني من الأغيار لأراقبهما عن قرب. لم أنوِ أبدًا الاقتراب منك. ثم حدث ما حدث في الشمال، وبدأت أفكر في أن من الأفضل أن أكون قريبة من مسلاتي مثلك، أي شخص قادر على الارتباط بالمسلات. لذا حاولت أن أبحث عنك، وكنت في طريقي إلى تيريمو عندما وجدتك في بيت الطريق. كنت محظوظة، نويت أن أتتبعك لعدة أيام، أفكر خلالها إن كان من الجيد أن أخبرك بحقيقتي. . . ثم حول هذا الكيركوزا إلى تمثال»، وتلوح إلى هوّا، «فوجدت أن من الأفضل أن أخرس وأراقب سير الأمور

لبعض الوقت».

هذا بشكل ما مفهوم. «ذكرتِ أن كانت هناك أكثر من مسلة متجهة إلى تيريمو»، تلعقين شفتيك، «كان ينبغي أن تكون هناك واحدة». أنت لم تتصلي إلا بالجمشتية، أو هي على الأقل الوحيدة المتبقية.

«اثنان، الجمشتية، وأخرى من ميرز». وتلك صحراء شاسعة في الشمال الشرقي.

تهزين رأسك. «أنا لم أذهب إلى ميرز قط».

تسكت تونكي لوهلة، لعلها تفكر، ولعلها منزعجة. «طيب. كم كان عدد الأوروچينيين في تيريمو؟».

ثلاثة، لكن، «ازدادتا سرعة»، فجأة لم تعودي قادرة على التفكير، لست قادرة على إجابة سؤالها، لست قادرة على استجماع جملة كاملة. *ازدادتا سرعة في آخر عامين أو ثلاثة.*

«نعم، ولم نعلم لذلك سببًا»، تتوقف تونكي فجأة، ترميك بنظرة جانبية وتضيق عينيها، «أتعرفين أنت؟».

كان عمر أوتشي عامين، ويقترب من الثالث.

تهمسين: «اذهبي، خذي حمامًا أو أفعلي أي شيء، أحتاج أن أفكر».

تتردد، من الجلي أنها تريد إلقاء أسئلة أكثر، لكنك ترفعين عينك إليها، فتنهض من فورها وتغادر. بعد دقائق قليلة من مغادرتها الشقة ووقوع الستائر الثقيلة وراءها -لا يوجد أبواب

في شقق هذا المكان، لكن فيه ستائر للخصوصية- تجلسين مكانك صامتة وخاوية الرأس، لبعض الوقت.

ثم ترفعين عينك إلى هوّا، الواقف إلى جوار مقعد تونكي الخاوي، يبدو وكأنه ينتظر دوره.

تقولين: «أنت إذن آكل صخر».

يومئ، بتجهم.

«تبدو...»، وتشيرين إليه، لا تعرفين ماذا تقولين بالضبط. لم يبدُ طبيعيًّا قط، لكنه بالتأكيد لا يبدو كما يفترض بآكلي الصخور أن يبدوا. شعورهم لا تتحرك وجلدهم لا ينزف، ويتحركون عبر الصخر المصمت لمحَ البصر، لكن صعود الدرج يستغرق منهم ساعات.

يتحرك قليلًا في مكانه، ويأتي بصرّته إلى حجره. يعبث بها لبعض الوقت ثم يخرج منها حزمة الخرق المربوطة التي لم ترينها معه منذ بعض الوقت. هذا إذن حيث يحتفظ بها. يفك الحزمة، ويسمح لك أخيرًا برؤية ما الذي كان يحمله طوال الوقت.

تحتوي الحزمة بحسب ما ترين على قطع صغيرة عديدة من بلورات غير مصقولة، لعلها من الكوارتز، أو ربما من الجص، عدا أن بعضها ليس أبيض عكرًا بل أحمر قاتمًا. يخطر لك أن هذه الحزمة تبدو الآن أصغر مما كانت عليه، لكنك لست متأكدة من ذلك. هل ضاع منه بعضهم؟

تقولين: «صخور؟ أكنت تحمل صخورًا؟».

يتردد هوّا قليلًا، ثم يلتقط إحدى القطع البيضاء؛ إنها بحجم إبهامك تقريبًا، مربعة، أحد جوانبها مكسور. تبدو قاسية.

يلتقمها. تحدقين إليه، ويراك تحدقين. يلوكها في فمه قليلًا، كما لو أنه يبحث عن الزاوية المناسبة للانقضاض، أو ربما يحركها بلسانه مستمتعًا بمذاقها. لعلها مالحة.

ثم يلتوي فكه، ويتردد صوت طحن عالٍ على نحو مفاجئ في سكون الغرفة. ثم عدة طحنات أخرى، ليست بذات الصوت العالي، لكنها لا تدع مجالًا للشك في أن ما يمضغه هو طعام. ثم يزدرد، ويلعق شفتيه.

تلك هي أول مرة ترينه يأكل.

تقولين: «طعام؟».

يقول: «أنا». ويمد يده فوق كومة الصخور بتلذذ غريب.

تتجهمين قليلًا، فهو مبهم أكثر من المعتاد. «هذا إذن... ماذا؟ شيء يجعلك تبدو مثلنا؟»، وهو شيء لم تحسبي أنهم قادرون عليه. غير أن أكلة الصخور لا يشاركون أي شيء عن أنفسهم، ولا يتقبلون فضول الآخرين. لقد قرأت تفاصيل محاولة الجامعة السادسة في أركارا للقبض على آكل صخر كي يدرسوه، قبل موسمين، والنتيجة كانت الجامعة السابعة في ديبارس، التي لم تُبنَ إلا بعدما تمكنوا من استخراج ما يكفي من الكتب من أطلال السادسة.

«إن البلورات وسط تخزين ممتاز»، ليس لكلماته أي معنى،

ثم يكرر عندها هوّا بوضوح: «هذا أنا».

تودين أن تسأليه أكثر عن ذلك، لكنك تقررين ألا تفعلي. لو أرادك أن تفهمي لشرح، وهذا على كل حال الجزء المهم.

تسألين: «لماذا؟ لماذا جبرت نفسك على ذلك؟ لماذا لم تكن... على طبيعتك؟».

يرميك هوّا بنظرة متشككة تجعلك تدركين مدى غباء سؤالك. هل كنت ستتركينه فعلًا يسافر معك لو عرفت حقيقته؟ لكن مع ذلك لو كنت عرفت حقيقته ما كنت ستحاولين منعه. لا أحد يمنع آكل صخر من فعل ما يرغب في فعله.

تسألين: «أعني، عندما تتعب نفسك؟ ألا يمكنك فقط أن... إن بني جنسك يسافرون عبر الصخر».

«صحيح، لكني أردت السفر معك».

وهذا يأخذكما إلى لب الموضوع. «لماذا؟».

«لأني أحبك»، ويهزّ كتفيه. يهز كتفيه مثل طفل سُئل عن شيء لا يعرف كيف يصيغه أو لا يرغب في أن يحاول. ربما ليس بالأمر المهم فعلًا، ربما تلك مجرد نزوة، ربما سيذهب ويتركها في النهاية متبعًا نزوة جديدة. غير أن حقيقة أنه ليس طفلًا -ليس حتى بشرًا، وعمره على الأرجح عدة مواسم، وينتمي إلى جنس من الناس الذين لا يستطيعون التصرف بناءً على نزوات- تجعل من هذا كذبًا.

تفركين وجهك، تعود يدك متسخة بالرماد. إنك أيضًا في حاجة إلى الاغتسال. وبينما تتنهدين تسمعينه يقول برفق: «لن أؤذيك».

ترمشين عندما تسمعين هذا، وتخفضين يديك برفق. لم يخطر لك قط أنه قد يؤذيك، وحتى الآن، وأنت تعرفين طبيعته، وقد رأيت ما الذي يستطيع فعله... يشقّ عليك أن تفكري فيه باعتباره كائنًا مبهمًا مرعبًا غريبًا، وفوق ذلك، وفوق كل شيء آخر، لقد أخبرك لماذا فعل ذلك بنفسه. إنه يحبك، ولا يريدك أن تخافيه.

تقولين: «تسعدني معرفة ذلك»، ولا يعود هناك المزيد ليقال، فتنظران إلى بعضكما لوهلة.

ثم يقول: «المكان هنا ليس آمنًا».

«ألاحظت ذلك فعلًا؟».

خرجت الكلمات منك بنبرة ساخرة واضحة قبل أن تلاحظي نفسك. لكن، هل فعلًا يفاجئك أنك صرت لاذعة نوعًا؟ أنت كذلك في الواقع منذ كنت في تيريمو. لكن يخطر لك حينها أنك لم تكوني كذلك مع جيجا أو مع غيره قبل موت أوتشي. كنت حينها أكثر مراعاة ورقة وهدوءًا. لم تكوني متهكمة قط، ولو غضبت ما كنت لتبدي غضبتك. ليست هذه إيسّون المعهودة.

طيب، صحيح، أنت لم تعودي إيسّون، لست إيسّون *فقط*، ليس بعد الآن.

تبدئين: «الآخرون أمثالك هنا...»، وجهه الصغير ينعقد في غضب جلي، تتوقفين من المفاجأة.

يقول ببرود: «ليسوا أمثالي».

طيب، هذا ينهي الكلام إذن.

تقولين: «أحتاج إلى الراحة». لقد كنت تمشين طوال اليوم، وبقدر ما أنت أيضًا في حاجة إلى الاستحمام، لست متأكدة إن كنت مستعدة لخلع ملابسك لتصبحي أكثر هشاشة أمام الكاستريميين. خاصة وأنك على ما يبدو قد أصبحت أسيرتهم بطريقتهم اللطيفة المتفهمة.

يومئ، ويبدأ في جمع حزمته من الصخور مرة أخرى. «سأتولى المراقبة».

«هل تنام أبدًا؟».

«أحيانًا، أقل مما تنامين. لا أحتاج إلى النوم الآن».

كم أن هذا ملائم. وأنت تثقين به أكثر مما تثقين بأهل هذه الكومونة. يجب ألا تثقي به كل هذه الثقة، لكنك تفعلين.

هكذا تنهضين وتتجهين إلى غرفة النوم، وتتمددين على الحاشية. إنها حاشية بسيطة، لا تزيد على جيب قماشي محشو بالقش والقطن، لكنها أفضل من سطح الأرض الناشف أو حتى الفراش القابل للطي. لذا ترتمين عليها وتروحين في النوم خلال ثوان.

عندما تستيقظين، لا تعرفين كم مرَّ من الوقت. هوّا متكور

إلى جوارك مثلما كان يفعل على مدى الأسابيع المنقضية. تجلسين، وتنظرين إليه عابسة، يرمش وينظر إليك بقلق. في النهاية تهزين رأسك، وتنهضين وأنت تهمهمين لنفسك.

لقد عادت تونكي إلى حجرتها، تسمعين غطيطها من هنا. وما إن تضعي قدمك خارج الشقة حتى تكتشفي أن لا علم لك بماذا قد تكون الساعة الآن. يمكنك في الأعلى تميز النهار من الليل حتى مع هطل الرماد، فهو إما رماد ساطع وغيوم ساطعة وإما رماد قاتم وغيوم قاتمة ذات صبغة حمراء. أما هنا، فتنظرين ولا تجدي شيئًا عدا البلورات العملاقة المتوهجة، والمدينة المستحيلة التي بناها الناس فيها.

تخرجين إلى المنصة الخشبية خارج بابك وتنظرين من فوق حاجز الأمان الذي لا علاقة له بالأمان. أيًّا كانت الساعة الآن فيبدو أن هناك العشرات على الأرض في الأسفل يمضون إلى شؤونهم. أنت في حاجة إلى التعرف أكثر على تلك الكومونة، قبل أن تدمريها، وهو ما سيحدث لو حاولوا منعك من المغادرة.

(تتجاهلين ذلك الصوت الصغير في رأسك الذي يهمس *إيكّاروچا أيضًا. هل ستقاتلينها فعلًا؟*).

(أنت ماهرة فعلًا في تجاهل الأصوات الصغيرة).

إن اكتشاف طريق يؤدي إلى القاع لأمر عسير في البداية. لأن كل المنصات والجسور والسلالم في المكان بُنيت كي تصل بين البلورات وبعضها، ولما كانت البلورات تذهب في

كل اتجاه، كذا تذهب التوصيلات. لا يمكنك اتباع الطريق بالحدس والغريزة، سيكون عليك أن تأخذي درجًا وتمشي حول أحد الأعمدة البلورية العريضة كي تجدي عندها درجًا آخر ينزل بك... فقط كي تجدي نفسك عند منصة بلا سلالم من أي نوع، ما يجبرك على العودة من حيث جئت. لا يوجد سوى القليل من الناس في الخارج، وأولئك ينظرون إليك بفضول أو عدوانية عندما تمرين بهم، على الأرجح لأنك يبدو عليك بوضوح أنك جديدة؛ هم نظيفون وأنت بلون رماد الطريق. يبدون صحيحين وحسني التغذية، وأنت ملابسك تتدلى حول جسدك لأنك لم تفعلي شيئًا خلال الأسابيع الماضية سوى المشي وتناول مؤنة السفر الشحيحة. لا يسعك إلا الامتعاض منهم فور رؤيتهم، ما يجعلك تترفعين عن سؤالهم عن الطريق.

لكنك في النهاية تبلغين القاع. يظهر تحت هنا أكثر من أي مكان آخر أنك تمشين على أرضية فقاعة صخرية هائلة، لأن الأرض تنحدر وتنبعج حولك كي تشكل قعر صحن شاسع واضح. تلك هي الحافة المدببة للشكل البيضوي الذي هو كاستريما. ثمة بلورات في الأسفل هنا أيضًا، لكنها مدببة، بعضها يعلو بالكاد إلى مستوى صدرك، وأضخمها لا يزيد طولها على عشرة أو خمسة عشر قدمًا. بعضها تدور حولها حواجز خشبية، وتميزين في بعض الأماكن مساحات من الأرضية خشنة وباهتة عمًّا عداها، حيث كانت بلورات لكن تمت إزالتها لإفساح المكان (تتساءلين، بلا اهتمام، كيف فعلوا ذلك). كل ذلك يشكل متاهة من الممرات المتقاطعة، كل منها يقود إلى أحد أماكن الكومونة الرئيسية أو غيرها:

الفرَّان أو الحداد أو صانع الزجاج أو المخبز. تلاحظين وجود بعض الخيام والمعسكرات الصغيرة حذاء بعض الطرق، بعضها مسكون. لماذا؟ ألا يستمتع كل السكان بالمشي على ألواح الخشب المربوطة بالأحزمة فوق مئات الأقدام من قاع الأرض المغطى بالنتوءات المسننة؟

(ها أنت تفعلينها مجددًا، التهكم الذي لا يليق بإيسّون. الصدأ على ذلك، لقد تعبت من كبح نفسك).

ويسهل في الواقع إيجاد الطريق إلى الحمامات من نمط آثار الأقدام المبتلة على سطح الأرض الصخري الرمادي/الأخضر، تأتي جميعها من اتجاه واحد. تتبعينها وتفاجئين وتسعدين بأن الحمام في الواقع حوض ضخم من المياه النقية التي يتصاعد منها البخار. يرتفع الحوض قليلًا عن أرضية الجيود الطبيعية، وتخرج منه قناة تصريف ملتوية تنتهي إلى ماسورة نحاسية ضخمة تذهب إلى... مكان ما. ترين على الناحية الأخرى من الحوض ما يشبه الشلال ينبثق من ماسورة أخرى تغذي الحوض. يبدو أن المياه تُدار كل بضع ساعات مثلًا لتنظيفها، لكنه مع ذلك ثمة مكان آخر واضح مخصص للغسل في أحد الجوانب، حيث توجد مصاطب خشبية ورفوف مترعة باللوازم المختلفة. ثمة عدد قليل من الناس هناك، مشغولون بحكّ جلودهم قبل أن ينزلوا الحوض الكبير.

بينما أنت منخرطة فيما تفعلين يخيم عليك ظل أحدهم، فتجفلين وتقفزين على قدميك وتوقعين المصطبة بينما تفعلين ذلك، وتتجهين إلى الأرض، ثم يخطر لك أن لعل هذا رد فعل

مبالغ فيه. ثم تكادين توقعي الإسفنجة المليئة بالصابون في يدك، لأن...

... إنه لِرنا.

يقول بينما تحدقين إليه: «كنت متأكد أن هذه أنت يا إيسّون».

لا تنفكي تحدقي إليه، يبدو مختلفًا بشكل ما؛ أثقل مثلًا، وإن كان أنحف أيضًا، مثلك: منهك من السفر. انقضى منذ آخر مرة... كم؟ أسابيع؟ أشهر؟ لقد فقدت إحساسك بالزمن. وما الذي يفعله هنا؟ يفترض به أن يكون في تيريمو، راسك لن يسمح أبدًا برحيل الطبيب...

آه، صحيح.

«إذن لقد تمكنت إيكّا بالفعل من استدعائك. كنت أشك في ذلك». منهك، يبدو منهكًا. هناك ندبة على حافة فكه، بقعة باهتة تشبه الهلال لا يبدو أنها ستستعيد لونها. تتابعين التحديق إليه بينما يتململ ويقول: «من بين كل الأماكن التي كان يمكن أن أنتهي إليها... أجدك هنا. لعل هذا هو القدر، أو لعل هناك فعلًا آلهة غير الأب الأرض، آلهة تكترث بنا فعلًا، أو لعلهم أشرار أيضًا، وهذه مزحتهم. الصدأ عليَّ لو أعرف».

تقولين: «لِرنا»، وهذا يساعد.

ينظر إلى أسفل، وتتذكرين متأخرة أنك لست في كامل ملابسك. يقول وهو يغضّ بصره بسرعة: «يجب أن أدعك تكملين، لنتحدث عندما تنتهين». لا تأبهي بما أنت عليه

-فهو قد ولّد أحد طفليك بحق الصدأ- لكنه مهذب. هذه من عاداته المألوفة، أي معاملتك وكأنك إنسان عادي رغم علمه بحقيقتك، وهذا يدفئ صدرك على نحو غريب، بعد كل هذه الغرابة التي خربت حياتك. أنت لست معتادة على أن تتبعك حياةٌ ما بعد أن غادرتها.

يمضي مغادرًا منطقة الغسل، وبعد لحظة تعودين إلى الجلوس وتستكملين الاغتسال. لا يزعجك أحد آخر بينما تستحمين، وإن كنت تلاحظين نظرات بعض الكاستريميين بفضول متزايد، وإن كانت بعدائية أقل. لكن هذا لا يفاجئك، فأنت لا تبدين خطرة على نحو خاص، وإنما ما لا يبدو عليك هو ما سيجعلهم يكرهونك لاحقًا.

لكن مع ذلك... هل يعلمون بحقيقة إيكّا؟ الشقراء التي كانت برفقتها على السطح تعلم. لعل إيكّا لها سلطة ما عليها تضمن صمتها. لكن هذا لا يبدو صحيحًا، إيكّا منفتحة جدًّا بخصوص حقيقتها، وتتحدث بأريحية تامة عنها للغرباء. ولها كاريزما ساحقة أيضًا لا تخطئها عين. إنها تتصرف وكأن الأوروچينية ليست إلا موهبة عادية، مجرد سمة شخصية. لقد رأيت هذا السلوك وهذا القبول الكوموني الواسع للأوروچينية مرة واحدة فقط من قبل.

ما إن تكتفي من النقع وتشعرين بالنظافة، حتى تخرجي من الحمام. ليس لديك مناشف، ليس لديك إلا ملابسك التي كانت متسخة بالرماد، استغرقت منك في فركها طويلًا حتى نظفت. تجدينها مبتلة عندما تنتهين، وليست لديك جرأة كافية

للمشي في كومونة غريبة من دونها، والطقس على أية حال يبدو كالصيف، فترتدين الملابس المبتلة عسى أن تجف عليك سريعًا. تجدين لِرنا في انتظارك عندما تغادرين. يقول: «تعالي من هنا»، ويلتفت كي يمشي معك.

تتبعينه، ويقودك عبر متاهة من السلالم والمنصات حتى تبلغا بلورة رمادية قصيرة تبرز حوالي عشرين قدمًا فقط من الحائط. لديه شقة هنا أصغر من التي تشاركينها مع تونكي وهوّا، لكن ترين فيها رفوفًا عامرة بحزم الأعشاب والضمادات المطوية، ولا يصعب عليك تخمين أن المصاطب الغريبة التي وجدتها في الغرفة الرئيسية يفترض بها أن تكون أسرَّة مرتجلة. على الطبيب أن يكون جاهزًا للزيارات المنزلية. يقودك إلى الجلوس على إحدى المصاطب، ويجلس أمامك.

يقول بهدوء: «غادرت تيريمو بعدك. أويامار، نائب راسك الأحمق لو تذكرينه، كان يحاول إقامة انتخابات لاختيار قائد جديد. لم يرغب في تولي المسؤولية مع قدوم الموسم. الكل يعلم أن راسك لم يكن عليه أن يختاره أبدًا، لكن عائلته أسدت إلى راسك جميلًا فيما يخص حقوق قطع وتجارة الأشجار على الطريق الغربي. . .»، حديثه يتداعى، لأن تلك التفاصيل لم تعد تهم الآن، «على أية حال، نصف الأشداء اللعناء صاروا يهيمون في الكومونة سكارى، يسرقون بيوت الأحراز ويتهمون الجميع بأنهم روچات أو أصحاب روچات. والنصف الآخر أخذوا يفعلون نفس الشيء لكن بهدوء، وبذهن صافٍ، ما كان أسوأ وأضل. علمت أن دوري قادم ولو بعد حين؛ الكل يعرف أني كنت

صديقك».

إذن هذا أيضًا خطؤك. لقد اضطر إلى الفرار من مكان كان يفترض به أن يكون آمنًا بسببك. تخفضين عينيك باضطراب. إنه أيضًا يستخدم كلمة «روچا» الآن.

«فكرت في أن أتجه إلى بريلينس، مسقط رأس أمي. إنهم يعرفونني هناك بالكاد، لكنهم يعرفون عني، أي إنني طبيب وما إلى ذلك، ربما لي فرصة هناك. سيكون هذا أفضل من البقاء في تيريمو على أية حال، حيث سيشنقونني، أو سأجوع حتى الموت عندما يحلّ البرد بعدما أكل الأشداء أو سرقوا كل شيء، وفكرت أني...»، يتردد، ويرفع نظره إليك لطرفة عين ثم يعود إلى النظر إلى يديه، «قد ألحق بك على الطريق، لو أنني تحركت بسرعة كافية. لكن هذا كان غباء، بالطبع لم ألحق بك».

لطالما كان هناك هذا الشيء غير المصرح به بينك وبينه. اكتشف لِرنا حقيقتك في وقت ما خلال حياتك في تيريمو. لم تخبريه بها، بل هو اكتشفها لأنه راقبك بما يكفي لملاحظة العلامات، ولأنه فطن. لطالما أُعجب بك ابن ماكنبا هذا. حسبتِ أنه سيكبر ويتجاوز هذا الإعجاب في النهاية. تتململين قليلًا، منزعجة من اكتشافك أنه لم يتجاوز.

يتابع: «تسللت في تلك الليلة عبر أحد شقوق الجدار بالقرب من... من حيث حاولوا إيقافك». ذراعاه يستريحان على ركبتيه، وينظر إلى يديه المتشابكتين، الساكنتين على الأغلب، لكنه يفرك أحد إبهاميه في مفصل الآخر ببطء،

مرارًا وتكرارًا، في حركة تبدو تأملية. «مشيت مع جموع الناس مسترشدًا بخريطة كانت عندي... لكنني لم أذهب إلى بريلينس من قبل، بل وحق نار الأرض أنا لم أغادر تيريمو من قبل إلا مرة واحدة، عندما ذهبت لاستكمال تدريبي الطبي في هيلجا. عمومًا، إما أن الخريطة كانت غير سليمة وإما أني لم أتقن قراءتها، وعلى الأرجح كليهما. لم تكن معي بوصلة، ولعلي خرجت من الطريق الإمبراطوري مبكرًا، وربما توليت الجنوب الشرقي في حين حسبت أني متجه جنوبيًا... لا أعرف بالضبط»، يتنهد، ويحك رأسه، «وعندما أدركت إلى أي مدًى أنا تائه، كنت قد ذهبت بعيدًا جدًّا حتى أنني تابعت طريقي متمنيًا إيجاد طريق أفضل لو استمررت كما أنا. لكن كانت هناك مجموعة ما عند أحد التقاطعات، قطاع طرق أو أغيار أو ما شابه. كنت مع مجموعة صغيرة في ذلك الوقت، قوامها رجل كبير عالجته من جرح بالغ في صدره يدعى مارالد، وابنته التي تقريبًا في الخامسة عشرة. قطاع الطرق...».

يتوقف، ويلتوي فكه. يمكنك أن تخمني ما حدث، لِرنا ليس بمقاتل. غير أنه لا يزال حيًّا، وهذا كل ما يهم.

«ألقى مارالد بنفسه على أحدهم. لم يكن معه سلاح ولا غيره، والمرأة كانت معها منجل. لا أعلم ما الذي كان يفكر فيه»، يأخذ لِرنا نفسًا عميقًا، «بيد أنه نظر إليَّ، و... وأنا... وأنا حملت ابنته وركضت». يضيق فكه أكثر، حتى أنك تدهشين من أنك لا تسمعي صوت طحن الأسنان. «غادرتني الفتاة لاحقًا، نعتتني بالجبان ومضت وحدها».

تقولين: «لو أنك لم تفعل ذلك، لقتلوك وقتلوها أيضًا». قول الصخر يقول: *النجاة من الخطر شرف*. أن تعيش جبانًا أفضل من أن تموت بطلًا.

يزمّ لِرنا شفتيه. «هذا ما قلته لنفسي حينها. لكن لاحقًا، عندما غادرت... آه ونار الأرض. لعلي لم أفعل إلا إرجاء المحتوم. فتاة في مثل سنها، بلا سلاح، وعلى الطريق وحدها...».

لا تقولي شيئًا. لو كانت الفتاة بصحة جيدة ولها هيئة سليمة، لعل أحدهم يأويها، ولو حتى كمستولدة. ولو أن لها اسم استخدام جيد، أو كان في وسعها إيجاد سلاح ولوازم وإثبات نفسها، فهذا سيساعدها أكثر. لا جدال طبعًا أن فرصتها لو ظلت مع لِرنا كانت ستصبح أفضل من فرصتها وحدها، لكن هكذا كان خيارها.

«لا أعلم حتى ما الذي كانوا يريدونه»، ينظر لِرنا إلى يديه. يبدو أنه كان يأكل في نفسه بخصوص هذا الأمر من وقتها، «لم يكن معنا إلا مخالنا».

«هذا كافٍ لو كانت مؤنتهم قد نفدت»، تقولين قبل أن تتذكري أن تحسني اختيار كلماتك، لكن لا يبدو عليه أنه سمعك على أية حال.

«هكذا تابعت وحدي»، تصدر عنه ضحكة قصيرة مريرة، «كنت قلقًا عليها حتى أني لم يخطر لي أني أيضًا في حال أسوأ وحدي». هذا حقيقي، إن لِرنا أوسطي متوسط الحجم مثلك،

عدا أنه لم يرث الانتفاخ السانزي ولا الطول، وغالبًا بذل كثيرًا كي يثبت جدارته الذهنية. لكنه كبر مع ذلك ليصبح وسيمًا بالصدفة الجينية على الأرجح، في حين يسعى البعض حثيثًا إلى تلك النتائج بالاستيلاد. أنفه سيباكي طويل، وكتفاه ولونه سانزيان، وشفتاه ساحل-غربية... تعدد الأعراق في سماته يجعله غير مناسب لذوق الكومونات الاستوائية، لكن بمقاييس الجنوب أوسطيين يُعدّ فاكهة للناظرين.

يتابع: «عندما مررت بكاستريما، بدت لي مهجورة. كنت منهكًا بعدما هربت من... فكرت على أية حال أن أأوي إلى أحد تلك البيوت لقضاء الليل، لعلي أقدر على إيقاد نار صغيرة من دون أن يلاحظني أحد، وأتناول وجبة محترمة على سبيل التغيير، وأظل لبعض الوقت حتى أفكر فيما أفعله بعد ذلك»، ابتسم بوهن، «وعندما استيقظت وجدتني محاصرًا. قلت لهم إنني طبيب، فأنزلوني إلى هنا. وكان ذلك تقريبًا قبل أسبوعين».

تومئين. ثم تخبرينه بحكايتك، دون أن تتكلفي عناء إخفاء شيء أو الكذب بشأن آخر. الحكاية كلها، وليس فقط الجزء الخاص بتيريمو. ربما لأنك تشعرين ببعض الذنب. إنه يستحق الحقيقة كاملة.

بعدما يخيم على كليكما الصمت لبعض الوقت، يهزّ لِرنا رأسه ويتنهد. يقول برفق: «لم أظن يومًا أنني سأعيش خلال موسم. أعني... لقد أنصتّ إلى القول طوال عمري، مثلي مثل غيري، لكنني حسبت دومًا أن هذا لن يحدث *لي*».

الكل يحسب ذلك. أنت بكل تأكيد لم تحسبي أنك ستكونين مضطرة إلى التعامل مع نهاية العالم فوق كل شيء.

يقول لِرنا بعد وهلة: «ناسّون ليست هنا». يتحدث برفق، لكن رأسك مع ذلك ارتفعت بحركة حادة. يرق محياه عندما يرى النظرة التي لا بد أنها ارتسمت على وجهك. «أنا آسف، لكني هنا منذ وقت كافٍ لمقابلة غيري من الوافدين الجدد في هذه الكومونة. أعلم ان هذا ما كنتِ تأملين إيجاده».

ناسّون ليست هنا. لم يعد لمسعاك وجهة، لم تعد هناك وسيلة واقعية لإيجادها. ينعدم فيك الأمل مرة واحدة.

«إيسّون»، ينحني لِرنا إلى الأمام بغتة ويأخذ بيديك. تدركين أن يديك كانتا ترتجفان، لكن أصابعه تهدئان أصابعك. «ستجدينها».

كلمات بلا معنى. هراء تلقائي يهدف إلى طمأنتك. تضربك الحقيقة مجددًا، هذه المرة أقوى من تلك السابقة على السطح، عندما انهرت أمام إيكّا. انتهى كل شيء. كل ما كان؛ تلك الرحلة الغريبة، التماسك، التركيز في هدفك... كل ذلك كان بلا فائدة. راحت ناسّون، ضاعت منك، وجيجا لن يدفع أبدًا ثمن ما فعل، وأنت...

وما المهم فيك بحق الصدأ؟ من يأبه بك؟ ذلك هو مربط الفرس، أليس كذلك؟ كان لديك ذات مرة من يأبهون بك، كان لديك ذات مرة أطفال يتطلعون إليك ويعيشون رهن كلمتك، كان لديك ذات مرة -ومرتان، وثلاث مرات، لكن أول مرتين لا

تُحسبان- رجل تستيقظين إلى جواره كل صباح، رجل يكترث بوجودك. عشت ذات مرة محاطة بالحوائط التي بناها من أجلك، في بيت صنعتماه معًا، في مجتمع *اختار* في الواقع أن يضمك إليه.

بيد أن كل ذلك بُني على الكذب. انهياره كان في الواقع مسألة وقت.

يقول لِرنا: «اسمعي». صوته يجعلك ترمشين، ويجعل دموعك تنهمر. مزيد من الدموع. صار لك بعض الوقت جالسة هنا صامتة، تبكين. يتحرك ليجلس إلى جوارك، فتميلين إليه. تعلمين أنك لا ينبغي عليك ذلك، لكنك تفعلينه. وعندما يحيطك بذراعه تجدين في ذلك راحة. إنه صديق على الأقل، وسيظل كذلك دومًا. «لعل... لعل هذا ليس بالشيء السيئ، أقصد البقاء هنا. يتعذر عليك التفكير مع كل ما تمرين به. إن هذه الكومونة غريبة»، يعبس، «ولست متأكدًا إن كنت أحب البقاء فيها، لكنه بلا شك أفضل من الوجود على السطح الآن. وربما عندما يتاح لك وقت كافٍ للتفكير يخطر لك إلى أين لعل جيجا قد ذهب».

إنه يحاول بشدة. تهزين رأسك قليلًا، لكن خواءه يمنعك من الاعتراض.

«ألديك مكان؟ لقد منحوني هذا المكان، وبالتأكيد منحوك شيئًا ما. ثمة أماكن عديدة هنا»، تومئين، ويأخذ لِرنا نفسًا عميقًا، «إذن هيا بنا، فلتعرفيني برفاقك هؤلاء».

هكذا تستجمعين زمان نفسك وتقودينه من هذا المكان، وفي الاتجاه الذي تشعرين بأنه قد يأخذكما إلى الشقة المخصصة لك. الوقت الذي يستغرقه منكما الطريق يمنحك فرصة لاستيعاب المزيد من الغرابة غير المحتملة لتلك الكومونة. تمران ببلورة من الأكثر بياضًا وبهاءً، بها قاعة تحتوي على رفوف عديدة تعجّ بالصحف المسطحة الشبيهة بصواني الخبيز. وثمة قاعة أخرى، مغبرة ومهجورة، تحتوي على ما تفترضين أنه أدوات تعذيب، عدا أنها تفتقر إلى الكفاءة المطلوبة، فأنت لست متأكدة كيف يفترض بحلقات معلقة بالسقف بالسلاسل أن تؤذي. وهناك أيضًا تلك السلالم المعدنية، تلك التي صنعها بناة المكان الأصليون. ثمة سلالم أخرى صُنعت حديثًا، لكنها يسهل تفريقها عن الأصلية، لأن الأصلية لم تصدأ، ولم تتدهور بأي شكل، وبناؤها لم يكن نفعيًّا بحتًا. تزخر حواجز السلالم وحواف الممشى بزخارف غريبة: وجوه منقوشة، أفرع نباتات هيئتها تختلف عن أي نبات رأيته في حياتك، وأشياء تظنين أنها كتابة، عدا أنها ليست أكثر من رموز مدببة بأحجام متباينة. يتمكن ذلك من إخراجك من مزاجك السيئ عندما تحاولين فهم ما الذي ترينه.

تقولين: «هذا جنون»، وتمرين بأصابعك على النقوش التي تبدو مثل كيركوزا يزمجر، «هذا المكان أثر هائل لحضارة ميتة، مثله مثل الآلاف غيره في شتى أنحاء السكون. تلك الآثار فخاخ موت. إن الكومونات الاستوائية تسوي الأرض بآثارها أو تغرقها ما استطاعت، وهذا أذكى شيء يمكن فعله. لو أن من صنعوا هذه الأماكن لم ينجوا بها، فكيف لنا أن

نحاول نفس الأمر؟».

«ليست كل الآثار فخاخ موت». يعتلي لِرنا المنصة، محافظًا على نفسه قريبًا جدًّا من العمود البلوري الذي تدور المنصة حوله، ويحافظ على بصره مثبتًا بإحكام أمامه. يتكثف العرق فوق شفته العليا. لم تدركي من قبل أنه يخاف المرتفعات، لكن كيف لك أن تعرفي وتيريمو كانت مسطحة بقدر ما كانت مضجرة. يحافظ على صوته هادئًا بعناية. «ثمة شائعات أن يومينِس مبنية على سلسلة من أطلال الحضارات الميتة».

وانظر إلى أين صارت الآن. لكنك لا تنطقين بها.

تقولين: «كان على أولئك القوم أن يكتفوا ببناء الأسوار مثل الجميع»، ثم تتوقفين، لأنك يخطر لك أن الهدف هو النجاة، والنجاة أحيانًا تتطلب التغيير. حقيقة أن الإستراتيجيات التقليدية -مثل بناء الأسوار، واستقبال المفيدين ونبذ عديمي الفائدة، والتسلح وتخزين المستلزمات، وتمني الحظ- قد نفعت، لا تعني أن غيرها من الطرق لن تنفع. لكن هذه؟ نزول حفرة والاختباء في كرة من الصخور المسننة مع حفنة من آكلي الصخر والروچات؟ ذلك يفتقر إلى الحد الأدنى من الحكمة.

تغمغمين: «وسيدركون ذلك لو حاولوا أن يرغموني على البقاء هنا».

لو أن لِرنا قد سمعك، فهو لا يرد.

تجدين شقتك أخيرًا. تونكي مستيقظة وتجلس في غرفة المعيشة، تأكل من صحن مليء بشيء ما، لم يكن في

متاعكم. يبدو كعصيدة، وبه أشياء صفراء صغيرة تنفرين منها في البداية، ثم، عندما يميل الصحن قليلًا، تدركين أنها حبوب نابتة. أي طعام أحراز التقليدي.

(ترميك بنظرة وجلة قليلًا وأنت تدخلين، لكن ما عرفته عنها يبدو هامشيًّا جدًّا مقارنة بكل ما اضطررت إلى مواجهته اليوم، حتى أنك تلوحين بالتحية وتجلسين على المقعد المقابل لها كالعادة، فتستريح).

يتحدث لِرنا بتهذيب حذر مع تونكي، وتفعل هي نفس الشيء معه، فقط حتى يذكر أنه كان يُجري تحاليل الدم والبول على سكان كاستريما ليرى إن كان هناك أي نقص فيتامينات. تكادين تبتسمين عندما تميل تونكي إلى الأمام وتقول بنظرة متلهفة: «بأي نوع من الأدوات؟».

ثم يدخل هوّا. هذا يفاجئك، إذ لم تدركي أنه قد خرج. عيناه بياض الثلج تقعان فورًا على لِرنا وتتفحصانه فحصًا، ثم يرتخي. يرتخي بوضوح حتى أنك لم تلاحظي إلا الآن كم كان مشدودًا طوال الوقت، منذ جئتما تلك الكومونة المجنونة.

ثم تُنحِّين ذلك جانبًا باعتباره أحد الغرائب المتعددة التي ستحاولين فهمها لاحقًا، لأنه يقول: «إيسّون، ثمة شخص هنا عليك أن تقابليه».

«من؟».

«رجل، من يومينِس».

تحدقون جميعًا إليه. «لماذا؟»، تتحدثين ببطء، لعلك فاتك

شيء ما، «لماذا قد أود مقابلة شخص من يومينِس؟».

«لأنه سأل عنك».

تحاولين التزام الصبر، «هوّا، أنا لا أعرف أحدًا من يومينِس»، ليس الآن على الأقل.

«يقول إنه يعرفك، وأنه تتبعك إلى هنا، ووصل قبلك عندما أدرك إلى أين أنت ذاهبة»، هوّا يعبس قليلًا، وكأن ذلك ضايقه، «ويقول إنه يريد أن يراك، ليرى إن صرت قادرة على فعلها».

«فعل ماذا؟».

«لم يحدد»، تنتقل عينا هوّا من تونكي إلى لِرنا، قبل أن تعود إليك. لعل هناك ما لا يريدهما أن يسمعاه. «إنه مثلك».

«ماذا...»، طيب. تفركين عينيك وتأخذين نفسًا عميقًا، وتقولينها كي لا يشعر بحاجة إلى إخفائها. «إذن هو روچا».

«نعم، لا، إنه مثلك...»، ويحرك أصابعه بدلًا من الكلمات. تفتح تونكي وجهها، فتشيرين إليها بحدة، فتحدق إليك. بعد لحظة يتنهد هوّا. «لقد قال أن أقول لك لو أنك لم تذهبي إليه، فإنك مدينة له. من أجل كورندم».

تتجمدين.

تهمسين: «ألابستر».

يقول هوّا وقد أشرق محياه، «نعم، هذا هو اسمه»، ثم يعبس مجددًا، «إنه يموت».

***

موسم الجنون (٣ قبل إمبراطوري – ٧ إمبراطوري): انفجرت فخاخ كياش، وهي عدة منافذ لبركان خارق قديم (نفس البركان المسؤول عن الموسم المزدوج الذي يُعتقد أنه وقع قبل ١٠٬٠٠٠ سنة تقريبًا)، أدى انفجارها إلى ملء الهواء بكميات هائلة من الزبرجد الزيتوني وغيره من فتات الصخور البركانية قاتمة اللون. نتج من ذلك عشر سنوات من الظلام، والتي لم تكن فقط ذات آثار كارثية مثلما يحدث في المواسم عادة، بل أدت أيضًا إلى معدل أمراض ذهنية أكبر من المعتاد بكثير. أميرة الحرب السانزية فريشي هزمت عددًا من الكومونات السقيمة بالحرب النفسية، إذ أقنعت أعداءها بأن بواباتهم وأسوارهم لا فائدة لها، وأن الأشباح تتربص بهم. توجت فريشي كإمبراطورة يوم ظهر أول شعاع شمس جديد.

مواسم السانزا

٢٢

سيانيت، مهشمة

إنه الصباح التالي للحفل الصاخب الذي أقامه الميوفيون احتفالًا بعودة الكلالسو الآمنة محملة ببضاعة ثمينة جدًّا: حجارة عالية الجودة مزينة بالزخارف، وأخشاب معطرة لصنع الأثاث، وقماش مزخرف فاخر يستحق ضعفي وزنه من الألماس، وكم ممتاز من العملات القابلة للمبادلة، ما يتضمن عملات ورقية عالية الفئة وأصابع كاملة من عروق اللؤلؤ. لم تغنم السفينة أي طعام، لكن كل هذا المال يكفي لأن يرسلوا تجارهم لشراء حمولة مركب كامل من أي شيء يرغبونه في القارة. فتح هارلاس برميل خمر أنتاركتيكي شديد القوة، ولذا لا تزال نصف الكومونة غارقة في النوم.

مرت خمسة أيام منذ أطفأت سيانيت البركان الذي أثارته، والذي قتل مدينة بأسرها، وثمانية أيام منذ دمرت سفينتين مليئتين بالناس، لتحافظ على سرية وجود أسرتها. تشعر وكأن الجميع يحتفلون بجرائم القتل الجماعية المتعددة التي ارتكبتها.

لا تزال في الفراش، الذي التجأت إليه منذ أن أفرغت السفينة حمولتها. لم يعد إينون إلى البيت بعد، لقد طلبت منه أن يذهب ويحكي قصص رحلته كما يتوقع منه الناس، فهي لا تريده أن يعاني من كآبتها. لقد أخذ كورو معه، لأن كورو يحب الاحتفالات، ففيها يطعمه الجميع ويلاعبونه، بل هو حتى

يحاول أن يساعد إينون في حكي الحكايات، ويصرخ بأصوات لا معنى لها بأعلى ما في صدره. هذا الطفل أقرب لإينون مما يحق له وراثيًا أن يكون.

ألابستر هو من بقي مع ساين، يتحدث معها عبر صمتها، ويجبرها على الرد عليه بينما هي تفضل ألا تفكر حتى. يقول إنه يعلم كيف تشعر حيال أشياء كهذه، مع أنه لا يفصح عما حدث معه ليعلم. لكنها تصدقه مع ذلك.

تقول له في النهاية: «عليك أن تذهب. انضم إلى حلقة الحكي، لتجعل كورو يتذكر أن لديه على الأقل والدين جيدين».

«كفى غباءً».

«إينون يظن أنني أم سيئة».

ألابستر يتنهد. «لا، أنت فقط لست من نوع الأمهات التي يريد إينون منك أن تكونيه. لكنك من نوع الأمهات التي يحتاجه ابننا». تلتفت إليه وتتجهم، فيهزّ كتفيه. «سيكون كورندم قويًا ذات يوم، ويحتاج إلى أبوين قويين، أنا...»، يتلعثم فجأة. تشعرين أنه قرر فجأة تغيير الموضوع. «خذي، جلبت لك شيئًا».

ساين تتنهد وتدفع نفسها إلى الاعتدال، بينما يقرفص هو بجوار السرير ليكشف عن لفافة صغيرة قماشية. يدفعها الفضول رغمًا عنها إلى الانحناء إلى الأمام أكثر، فترى خاتمين لامعين من الحجر، مناسبين تمامًا لأصابعها. أحدهما من

اليشم والآخر من اللؤلؤ.

تحملق إليه، فيهزّ كتفيه. «إن إطفاء بركان نشيط ليس بالشيء الذي يفعله ذو أربعة خواتم».

تقول بحزم: «إننا أحرار»، مع أنها لا تشعر بأنها حرة، فهي في النهاية قد أصلحت آليا، أي أتمت المهمة التي أرسلها المرتكز هناك من أجلها، وإن كانت قد أتمتها بعد فوات الأوان وهلاك المكان. مثل هذه الأمور تدفعها إلى الانخراط في نوبات ضحك جنونية عندما تفكر فيها، لذا تتابع الحديث قبل أن تفعل: «إننا لسنا مضطرين إلى ارتداء أيٍّ من هذه الخواتم بعد الآن، ولا الأزياء الرسمية السوداء. أنا لم أعقص شعري في كعكة منذ شهور، وأنت لست مضطرًّا إلى خدمة كل امرأة يرسلونها إليك وكأنك فحل تزاوج. انسَ المرتكز».

يبتسم بستر قليلًا، بأسى. «لا يمكننا ذلك يا ساين، على أحدنا أن يدرب كورو...».

«لسنا مضطرين إلى تدريبه على أي شيء»، ها هي تكذب مجددًا. تتمنى لو يذهب. «دعه يتعلم الأساسيات من إينون وهارلاس. كفى ذلك أولئك القوم لقرون عديدة».

«إينون لم يكن ليقدر على إخماد هذا البركان يا ساين. لو أنه حاول، لفجر البقعة الساخنة تحته، وبدأ بذلك موسمًا. لقد أنقذت العالم من ذلك».

«فلتعطني وسامًا إذن، لا خواتم»، تحملق إلى السقف، «لكنني أنا سبب وجود هذا البركان أصلًا، لذا لا تفعل».

يتجه ألابستر ليزيح شعرها عن وجهها. صار يفعل ذلك كثيرًا بعدما اعتادت إطلاق العنان له. لطالما كانت تشعر بالخزي قليلًا من شعرها، إنه ملتوٍ، لكن بلا صلابة من أي نوع، لا الصلابة المشدودة للشعر السانزي ولا الصلابة المجعدة للشعر الساحلي. إنها ليست إلا هجينة أوسطية لا تعلم حتى أيًّا من أسلافها يُلام على ذلك الشعر. لكنه على الأقل لا يعوق حركتها. يقول برقة تجعلها تكاد تبكي: «تلك هي طبيعتنا. نحن ميسالم لا شمشنا. ألم تسمعي بتلك القصة؟».

ترتجف أصابعها عندما تتذكر الألم. «نعم».

«من وصيك، أليس كذلك؟ إنهم يحبون حكيها للأطفال». يتزحزح بستر ليستند إلى عمود الفراش، مستندًا بظهره إليها، ومسترخيًا. تفكر سيانيت في أن تطلب منه أن يذهب، لكنها لا تصرح بهذا. إنها لا تنظر إليه، لذا تعلم ما الذي يفعله بلفافة الخواتم التي لم تأخذها. ليأكلها لو أراد، فهي لا تهتم.

«حكت لي وصيتي نفس الهراء أيضًا يا ساين، عن ذلك الوحش ميسالم الذي قرر إعلان الحرب على الأمة كلها وعلى الإمبراطور السانزي بلا سبب يذكر».

تعبس سيانيت رغمًا عنها. «أكان عنده سبب؟».

«أوه يا شر الأرض. استخدمي رأسك الصدئة».

يزعجها توبيخه، وانزعاجها يقلل من تبلدها قليلًا. يبهجها بإغضابها، إنه ألابستر كما عهدته. تدير رأسها كي تحدق إلى مؤخر رأسه. «ماذا كان السبب؟».

«أبسط الأسباب وأقواها على الإطلاق: الانتقام. الإمبراطور كان أنافوميث، وحدث الأمر كله بعد نهاية موسم الأسنان مباشرة، وهو الموسم الذي لا يتحدثون عنه كثيرًا في المدارس. حدثت فيه مجاعة هائلة في كومونات النصف الشمالي من العالم. مأساتهم كانت أفدح لأن الهزة التي بدأت كل شيء كانت بالقرب من القطب الشمالي. استغرق الموسم عامًا كي يصل إلى الكومونات الاستوائية والجنـ. . .».

«كيف لك أن تعرف كل هذا؟»، فلم تسمع ساين من قبل بأي من هذا، لا في بوتقات الحصى ولا في غيرها.

يهزّ ألابستر كتفيه، فيهز معه الفراش كله. «لم يُسمح لي بالتدريب مع غيري من الحصى في مثل عمري، فقد حصلت على خواتم قبل أن ينمو لأغلبهم شعر في عانته. أطلق المدربون لي العنان في مكتبة الكبار لتعويضي عن ذلك. ولم يكترثوا كثيرًا بما أقرأ»، ويتنهد، «زائد أني في أول مهمة لي، كان... عرفت أركيوميستيو... كان... تحدثنا كثيرًا، بالإضافة إلى... أشياء أخرى. عمومًا كل شيء موجود، فقط لو وضعتِ الحقائق معًا وتجاوزتِ بتفكيرك ما علموه لك. كانت السانزا حينها إمبراطورية جديدة، لا تزال تنمو، في عز قوتها. لكن أغلبها كان لا يزال في النصف الشمالي، ونصف الكومونات الاستوائية حينها وبعض الكومونات السانزية الكبيرة لم تكن بارعة في الاستعداد للمواسم مثلما هم الآن (يومينِس لم تكن العاصمة حينها بعد). وخسروا نصف طعام بيوت الأحراز بشكل ما، ربما بسبب حريق أو فطريات، الأرض

يعلم كيف. لذا قررت الكومونات السانزية كي تنجو أن تتعاون معًا في الإغارة على كومونات الأعراق الأدنى»، تلتوي شفتاه، «وكان وقتها عندما بدؤوا في تسميتنا «الأعراق الأدنى» في الواقع».

«أغاروا إذن على بيوت أحراز الكومونات الأخرى؟»، تستطيع أن تخمن ذلك بسهولة، بدأت تضجر.

«لا، لم يتبقَ عند أحد أية أحراز مع نهاية هذا الموسم. سرق السانزيون بشرًا».

«ناس؟ لمـ. . .»، ثم تفهم.

لا حاجة إلى العبيد خلال الموسم. لكل كومونة أشداؤها، ولو احتاجوا إلى ما هو أكثر، فهناك دومًا الأغيار المستعدون لأي نوع من العمل مقابل الطعام. لكن قيمة اللحم البشري ترتفع لأسباب أخرى، عندما يسوء الوضع بما فيه الكفاية.

بينما ساين تكافح الغثيان متمددة في مكانها، يتابع ألابستر: «وكان في ذلك الموسم أن بدأ السانزيون يستسيغون مذاق أطباق فريدة من نوعها. وحتى بعدما انتهى الموسم، وبدأ الأخضر يزدهر وعادت المواشي لأكل الأعشاب أو توقفت عن البيات الموسمي، ظلوا على عادتهم الجديدة. كانوا يرسلون فرقًا للإغارة على المستعمرات الصغيرة والكومونات الحديثة من الأعراق الذين ليس لهم حلفاء سانزيون. تختلف المصادر على التفاصيل، لكنهم يتفقون على شيء واحد: ميسالم كان الناجي الوحيد من أسرته التي أُسرت كلها في غارة. زُعم أن

أطفاله قد ذُبحوا على مائدة أنافوميث، لكنني أظن أن هذا من قبيل المبالغة الدرامية»، ألابستر يتنهد، «حتى مع ذلك فإن جريمة موتهم تقع على عاتق أنافوميث، ولذلك أراد أن يقتله ثأرًا لهم، مثلما سيرغب أي رجل في مكانه».

لكن الروچا ليس أي رجل. ليس للروچا حق أن يغضب أو يطالب بالعدالة أو يحمي من يحب. ولهذا قتلته شمشنا، وأصبحت بطلة لفعلها ذلك.

تتأمل سيانيت ذلك في صمت. ثم يتململ ألابستر قليلًا، وتشعر بيده تضغط لفافة الخواتم في راحتها التي لا تقاومه.

يقول: «لقد بنى الأوروچينيون المرتكز»، إنها لم تسمعه تقريبًا قط يستخدم لفظة أوروچيني، «نحن من بنيناه تحت التهديد بالإبادة، ونحن من استخدمناه لربط الطوق حول رقبتنا، لكننا من بنيناه. نحن سبب نمو قوة السانزا القديمة وبقائها كل هذا الزمن، وسر قدرتها على حكم نصف العالم، حتى لو لم يعترف بذلك أحد. نحن من اكتشفنا إلى أي مدى في وسعنا أن نكون مذهلين لو تعلمنا كيف نصقل الهبة التي وُلدنا بها».

«إنها لعنة لا هبة»، تغلق عينيها، لكنها لا ترفض لفافته.

«إنها هبة لو جعلتنا أفضل، ولعنة لو أهلكتنا. أنت من يقرر ذلك، لا المدربون ولا الوصاة ولا غيرهم». ويتزحزح من جديد، ويتحرك الفراش قليلًا عندما يميل ألابستر عليه. بعد لحظة تشعر بشفاه على جبهتها، شفاه جافة ومطمئنة. ثم يستقر

معتدلًا على الأرض بجوار الفراش، ولا ينطق بالمزيد.

تقول بعد فترة، برفق شديد: «حسبت أنني رأيت وصيًا في آليا».

لا يرد ألابستر لبعض الوقت، وكانت قد حسبت أنه لن يرد عندما قال: «سأمزق العالم كله لو آذونا مجددًا».

تفكر *لكن هذا لن ينفي الأذى لو وقع.*

لكنه كان مع ذلك مطمئنًا نوعًا ما. إنه ذلك النوع من الكذب الذي تحتاج إلى سماعه. تحافظ سيانيت على عينيها مغلقة لوقت أطول، ليست نائمة، بل تفكر. يظل ألابستر لبعض الوقت بينما هي كذلك، ولوجوده هي ممتنة كل الامتنان.

***

عندما ينتهي العالم بعد أسابيع ثلاثة، سينتهي في أحد أجمل الأيام التي رأتها سيانيت على الإطلاق. السماء رائقة حتى مبلغ البصر، إلا من غيمة عابرة من حين إلى حين، والبحر هادئ، وحتى الرياح السائدة ليست باردة وكاوية كما هي العادة، وإنما دافئة ورطبة.

اليوم جميل حد أن الكومونة كلها تقرر الصعود إلى المرتفعات. القادرون يحملون على ظهورهم من لا يطيقون صعود الدرج، بينما يجري الأطفال بين الأقدام حتى يكادوا يقتلون الجميع. المسؤولون عن واجب الطبخ يضعون كعك السمك وقطع الفواكه وكرات الحبوب الموسمية في أوانٍ

صغيرة يسهل حملها، والكل يجلب معه البطانيات. إينون يأتي بآلة موسيقية لم تر سيانيت مثلها، شيء يشبه الطبل لكن بأوتار جيتار، آلة كانت لتثير بلا شك السخط اليومينِسي لو رأوا مثلها هناك. ألابستر يأتي بكورندم. سيانيت تأتي برواية شديدة الرداءة وجدها أحدهم في حاوية منهوبة، من الروايات التي تجعلها أول صفحاتها تجفل وتنفجر مقهقهة، وتتابع، طبعًا، القراءة. كم هي تحب الكتب التي لا هدف لها سوى المتعة.

يتناثر الميوفيون على المنحدر خلف القمة التي تصد أغلب الريح وحيث الشمس مكتملة مشرقة. تفرش سيانيت بطانيتها بعيدًا عن الجميع، لكنهم سرعان ما يحيطون بها ويفرشون بطاطينهم حولها، ويبتسمون لها عندما تحدق إليهم.

لقد أدركت خلال السنوات الثلاث المنقضية أن أكثر الميوفيين يعدّونها هي وألابستر أشبه بحيوانات برية عزمت أن تصطنع لنفسها حياة بين البشر، كائنات لا يمكن أن تتحضر ومع ذلك وجودهم لطيف، أو على الأقل إزعاج مسلٍ. لذا، عندما يرون أنها تحتاج إلى مساعدة في شيء ما ولا تعترف بذلك، يساعدونها. ولا يتوقفون عن التربيت على ألابستر، واحتضانه وجذبه بيده وحثّه على الرقص، ما يجعل سيانيت ممتنة أن أحدًا على الأقل لا يحاول فعل ذلك معها. لكن مع ذلك، الكل يرى بوضوح أن ألابستر يسعد بلمسات الآخرين، مهما تظاهر بالحرج وتراجع. هذا على الأرجح يرجع إلى أنه لم يحظَ بكثير من اللمس في المرتكز، حيث كان الجميع يخشى

قوته. ولعلهم يفعلون المثل مع ساين، ويعتقدون أنها تستمع بتذكيرها مرارًا أنها الآن جزء من مجتمع، تعين أهله ويعينونها، فلا تعود في حاجة إلى حماية نفسها من كل شخص وكل شيء.

إنهم محقون، لكن هذا لا يعني أنها ستخبرهم بذلك.

يمضي اليوم وإينون يرمي كورو في الهواء ويلتقطه، وألابستر يتظاهر بأنه غير مرغوب مع أن أوروچينيته تطلق هزات ميكروية في طبقات الأرض العميقة تحت الماء مع كل رمية، وهيمو يبدأ لعبة شعرية جماعية ذات لحن يبدو أن أغلب الميوفيين يعرفونه، وأويل ابنة أوف الرضيعة تركض عبر البطاطين المفرودة، وتخطو فوق عشرة أشخاص على الأقل قبل أن يجذبها أحدهم ويدغدغها حتى تخضع، وتتناقل الأيدي سلة تحتوي زجاجات فخارية صغيرة تحتوي شيئًا يحرق أنف ساين عندما تستنشقه، و. . .

و.

تعتقد أحيانًا أنها قادرة على أن تحب أولئك الناس.

لعلها تحبهم بالفعل. ليست متأكدة. لكن بعدما يرتمي إينون لأخذ قيلولة، وكورو ينام بالفعل على صدره، وبعدما تحول الإلقاء الشعري إلى مسابقة في النكات البذيئة، وما إن ثملت مما كان في تلك الزجاجات، حتى أن العالم بدأ يدور حولها من تلقاء نفسه. . . ترفع سيانيت عينيها وترى ألابستر. يستند إلى أحد كوعيه ويتصفح الكتاب المربع الذي رمته أخيرًا، ترتسم

على وجهه تعبيرات مريعة ومضحكة بينما يقلب صفحاته. لا يشبه من قريب ولا من بعيد الوحش شبه المجنون الذي أرسلته فلدسبار معه في بداية هذه الرحلة.

ترتفع عيناه فتقبض على عينيها، وللحظة تجد في نظرته شيئًا من الحذر، يفاجئها ذلك. غير أنها الوحيدة هنا التي تعلم كيف كانت حياته من قبل؛ هل يسيئه وجودها هنا؟ هل هي تذكرة مستمرة بما كان يؤثر نسيانه؟

يبتسم، فتعبس من رد فعله التلقائي، تتسع ابتسامته أكثر. «ألا زلتِ لا تحبينني؟».

تضحك باقتضاب، «ولماذا تهتم؟».

يهزّ رأسه، مستمتعًا، ثم يمد يده ويمسد شعر كورو. يتقلب الطفل ويغمغم في نومه، فيرقّ وجه ألابستر. «أترغبين في طفل آخر؟».

سيانيت تجفل، وينفغر فمها. «بالطبع لا، أنا لم أرغب في هذا أصلًا».

«لكنه جاء، وكم هو جميل، أترين؟ أنت تنجبين أجمل الأطفال»، وهذا غالبًا أغبى شيء يمكنه قوله على الإطلاق، لكنه ألابستر، «يمكن أن يكون طفلك التالي من إينون».

«ربما يود إينون أن يكون له رأي في قرارنا بخصوص مستقبله الاستيلادي».

«إنه يحب كورو، وهو أب رائع. لديه طفلان آخران بالفعل،

وهما في خير حال، وإن كانا راكدين»، ويتفكر قليلًا، «لعل طفلك من إينون يكون راكدًا، ولن يكون في ذلك مشكلة، هنا».

تهز سيانيت رأسها، لكنها تفكر في تلك الفرزجة الصغيرة التي علمتها نسوة الجزيرة كيف تستخدمها. تفكر في التوقف عن استخدامها، لكنها تعود فتقول: «الحرية تعني أننا المتحكمون فيما نفعله الآن، وليس غيرنا».

«صحيح. غير أني الآن، لما صرت قادرًا على التفكير فيما أريد...»، يهز كتفيه كغير المكترث، وإن كانت في نظرته عاطفة جمة، «أنا لم أرد قط من الحياة كثيرًا. كل ما أردته هو أن أستطيع أن أعيشها، فقط. لست مثلك يا ساين، لا أريد أن أثبت نفسي، لا أرغب في تغيير العالم أو مساعدة الناس أو أن أصبح أي شيء عظيم. كل ما أريده هو... هذا».

إنها تفهم ذلك. لذا تتمدد على تلك الناحية من إينون، ويتمدد ألابستر على الناحية الأخرى، ويستريحون جميعًا ويستمتعون بذلك الإحساس بالكمال، بالرضا، لبعض الوقت، لأنهم لا يزالون قادرين على ذلك.

وهذا طبعًا لا يمكن أن يدوم.

تستيقظ سيانيت عندما يعتدل إينون جالسًا ويغطيها بظله. لقد حظيت بقيلولة رائعة رغم أنها لم ترغب في ذلك، والشمس الآن تميل نحو المحيط. كورو مهتاج، فتعتدل جالسة تلقائيًا، تفرك عينها بإحدى يديها وتفحص حفاضته القماشية بالأخرى.

الحفاضة نظيفة، لكن صوته يوترها، وعندما تفيق بالكامل ترى السبب. إينون يحمل كورو بذهن غائب بأحد ذراعيه، ويقطب وجهه وهو ينظر إلى ألابستر. أما ألابستر فواقف على قدميه، جسده كله مشدود.

يغمغم: «شيء ما...». ينظر في اتجاه القارة، ولا يمكنه رؤية شيء، فالقمة الصخرية أمامه، لكنه بالطبع لا يستخدم عينيه.

لذا تعبس ساين، وترسل وعيها، لعل هنالك تسونامي أو ما هو أسوأ قادم من تلك الناحية. لكنها لا تجد شيئًا.

خواء مريب. يجب أن يكون هناك شيء ما. بين الجزيرة والقارة تلتقي صفيحتان، ونقاط التلاقي لا تسكن أبدًا، فالصفائح تتخبط وترتج وتتقافز وتتذبذب بملايين الطرق متناهية الصغر التي لا يسسبنها إلا الروچات، مثلما يحصل المهندس على الكهرباء من المياه بالتوربينات والكيماويات. لكن فجأة، لم تعد السسبنة تلتقط شيئًا من ذلك التلاقي على الإطلاق، على نحو مستحيل.

بدأت تنظر إلى ألابستر من ارتباكها، لكن انتباهها يذهب بالكامل إلى كورندم، الذي يتقافز ويكافح للتحرر من مسكة إينون ويصرخ ويمخّط، تعتريه نوبة غضب كاملة، مع أنه ليس من الأطفال الذين يفعلون مثل تلك الأشياء. ألابستر أيضًا ينظر إلى الطفل، تعبيره يتبدل إلى آخر ملتوٍ وملتاع.

يقول: «لا. لا لا لا، لن أسمح لهم، ليس مجددًا».

«ماذا؟»، تحدق إليه سيانيت، وتحاول ألا تلاحظ الذعر المتنامي بداخلها، بينما أخذ من حولهم يغمغمون ويتساءلون عن سر توتر ثلاثتهم، حتى إن شخصين أخذا يرتقيان القمة ليريا ما قد يسعهما رؤيته. «بستر، ماذا هناك بحق الأرض؟».

يصدر عنه صوت لا يشبه أية كلمة، مجرد نفي، وفجأة يركض صاعدًا المنحدر نحو القمة. تحدق إليه سيانيت، ثم في إينون، الذي يهزّ رأسه ولا يقل ارتباكًا عنها. أما الشخصان اللذان سبقا بستر إلى القمة فقد أخذا يصيحان ويشيران إلى الجميع. ثمة خطب ما.

تحاول سيانيت وإينون أن يهرعا إلى القمة مع الآخرين. يبلغانها معًا، وهناك أخذا ينظران نحو المحيط الذي يفصل الجزيرة عن القارة.

هناك، في الأفق، أربعة سفن صغيرة جدًّا، لكن تقترب حثيثًا.

ينبس إينون بسَبة ويدفع بكورو إلى سيانيت، فتكاد سيانيت توقعه لكنها تتمكن من احتضانه جيدًا، ريثما يخوض إينون في جيوبه وحقائبه بحثًا عن منظاره الصغير. يمده وينظر عبره بتركيز للحظة، ثم يتجهم، بينما تحاول سيانيت عبثًا تهدئة كورو، وكورو غير قابل للتهدئة. عندما ينزل إينون المنظار، تجذب سيانيت ذراعه وتدفع إليه كورو، وتأخذ من يده المنظار.

صارت السفن الأربع أكبر. أشرعتها بيضاء، عادية، لا تستطيع أن تجزم بما أغضب ألابستر. ثم تلاحظ الأشخاص الواقفين في مقدمة أحدهم.

وأزياءهم الخمرية.

تطرد الصدمة النفس من صدرها. تتراجع خطوة، تلفظ بالكلمة التي يحتاج إينون أن يسمعها، لكنها تخرج بلا حرارة، بلا صوت. يأخذ منها إينون المنظار لأنها تبدو على وشك أن توقعه. ثم، ولأنهم عليهم أن يفعلوا شيئًا ما، عليها أن تفعل شيئًا ما، تستجمع نفسها وتركز، تقول بوضوح: «أوصياء».

إينون يتجهم، «كيف...». تراقبه ريثما يدرك ما الذي يعنيه ذلك. يشيح بناظره للحظة، حائرًا، ثم يهزّ رأسه. لا يهم كيف وجدوا ميوف، المهم ألّا يُسمح لهم بنزول الجزيرة، ألّا يُسمح لهم بالحياة.

يقول: «أعطي كورو لأحدهم»، يقسو تعبير وجهه، «سنحتاج إليك يا ساين».

سيانيت تومئ وتدور، تنظر حولها. ديلاشيت، وهي أحد السانزيين القلائل هنا، تهرع بطفلها الصغير الذي يكبر كورو بستة أشهر تقريبًا. كانت تعتني بكورو في عدة مناسبات، وأرضعته حينما كانت سيانيت مشغولة. تلوح لها سيانيت وتركض نحوها، تقول: «أرجوك»، وتدفع بكورو بين ذراعيها. ديلاشيت تومئ.

أما كورو فلا يوافق على تلك الخطة. يتشبث بسيانيت ويصرخ ويركل و... يا شر الأرض، ترتج الجزيرة كلها مرة واحدة. ديلاشيت تتعثر وتحملق إلى سيانيت رعبًا.

تغمغم: «خراء»، وتأخذ كورو مجددًا. ثم عندما يهدأ بعدما

تعلق بفخذها، تركض كي تلحق بإينون، الذي كان بالفعل يركض نحو السلالم الحديدية، يصيح على طاقمه كي يعتلوا الكلالسو ويتجهزوا للإقلاع.

هذا جنون. تفكر بينما تركض أن كل ذلك جنون. لا تفهم كيف اكتشف الأوصياء هذا المكان، لا تفهم كيف هم قادمون. لماذا هنا؟ لماذا الآن؟ لقد كانت ميوف قائمة وتغير على السواحل لأجيال. الشيء المختلف الوحيد الآن هو وجودها وألابستر.

تتجاهل الصوت الصغير في مؤخر عقلها الذي يهمس: *لقد اتبعوك بشكل ما إلى هنا، تعلمين ذلك. كان عليك ألا تعودي إلى آليا، فقد كانت فخًا. كان عليك ألا تأتي إلى هنا، فكل ما نلمسينه يهلك.*

لا تنظر إلى يديها حيث وضعت الخواتم الأربعة التي منحها لها المرتكز، والاثنين اللذين منحهما لها ألابستر، ارتدتهم فقط كي تُري ألابستر أنها تقدر بادرته. آخر خاتمين ليسا حقيقيين، فهي لم تنجح في أيٍّ اختبارات خواتم كي تستحقهما. لكن من ذا الذي يعرف قيمة تلك الخواتم أكثر من الرجل الذي حصل منها على عشرة؟ علاوة على أنها، بحق الخراء، أخمدت بركانًا صنعته مسلة مكسورة بداخلها آكل صخر.

هكذا تقرر سيانيت، فجأة وبحسم، أنها سترى هؤلاء الأوصياء ما الذي تستطيع فعله ذات ستة خواتم.

تصل إلى مستوى الكومونة، وترى الفوضى قائمة. يخرج الناس السكاكين السبجية والمقاليع وكرات السلاسل من حيث كانوا يخبؤونها، ويجمعون متعلقاتهم، ويحمّلون القوارب برماح الصيد. تهرع ساين صاعدة إلى الكلالسو، حيث يصرخ إينون آمرًا برفع مرساة أخرى. ثم يخطر لها مرة واحدة أن تتساءل إلى أين ذهب ألابستر.

تتوقف مرة واحدة على سطح السفينة، ثم تشعر فجأة بموجة من الأوروچينية تبلغ من العمق والقوة أنها تحسب للحظة أن العالم كله يرتعد. كل نقطة مياه في المرفأ ترتجف للحظة، حتى تحسب سيانيت أن حتى الغيوم قد شعرت بذلك.

ثم مرة واحدة، على بعد أقل من خمس مئة متر من المرفأ، يرتفع من المياه جدار. كتلة هائلة من الصخر المصمت، مستطيلة تمامًا وكأنها منحوتة، ضخمة بما يكفي -أوه، يا للصدأ المتقشر، لا- لغلق المرفأ الملعون كله.

«يا بستر! لعنة الأرض عليك...». يستحيل أن يصله صوتها مع هدير المياه وزئير الصخرة -الضخمة كما الجزيرة نفسها- التي يرفعها ألابستر. كيف له أن يفعل ذلك من دون قدح هزات أو إثارة بقع ساخنة قريبة؟ ومن دون أن يثلج نصف الجزيرة؟ لكن حينها، يلمع شيء في طرف عينها، فتلتفت، فترى المسلة الجمشتية في الأفق، أقرب مما كانت من قبل. إنها قادمة إليهم. هكذا يفعلها إذن.

إينون يسبّ ويلعن بغضب. إنه يفهم تمامًا أن ألابستر يتصرف كأحمق مفرط في الحماية، أيما كانت طريقة فعله ذلك. ثم

يتحول غضبه إلى مجهود. يتعالى الضباب من سطح المياه حول السفينة، وتئن ألواح سطحها ويغطيها الثلج، بينما يحاول أن يهشم أقرب جزء له من الجدار الصخري كي يتمكنوا من الخروج منه ويقاتلون. يتشقق الحائط، ثم يدوي صوت هدير منخفض من خلفه. وعندما ينهار الجزء الذي استهدفه إينون من الجدار، يجدون ببساطة جدارًا آخر خلفه.

أما سيانيت فتنشغل بمحاولة التحكم في أمواج المياه. إن استخدام الأوروچينية على الماء ممكن، لكنه عسير. غير أنها بدأت أخيرًا تتمكن منه، بعدما عاشت طويلًا قرب امتداد شاسع من المياه. كان ذلك من أشياء قليلة علمها إينون لها ولألابستر؛ ثمة دفء ومعادن في المياه بما يكفي لأن تشعر بهم، وحركة المياه تشبه حركة الصخور -لكن أسرع- إلى حد يكفي للتلاعب بها قليلًا، بخفة. وها هي تفعل الآن، وهي تحافظ على كورو لصق جسدها كي يكون في المنطقة الآمنة من نطاق قوتها، وتركز بشدة كي ترسل موجات صادمة نحو الموجات القادمة تجاههم، بسرعة كافية لكسرها. تنجح نوعًا ما؛ ترتج الكلالسو ارتجاجًا وتنقطع من مراسيها، لكنها لا تنقلب ولا يموت عليها أحد. تعتبر سيانيت ذلك انتصارًا.

يقول إينون لاهثًا: «ما الذي يفعله بحق الصدأ؟». تتبع نظرته فترى أخيرًا ألابستر.

إنه يقف فوق المنحدرات، على أعلى نقطة بالجزيرة. حتى من مكانها تستطيع ساين رؤية البرد القاسي الذي يشكله نطاق قوته، والهواء الدافئ يعصف حوله إثر تبدل درجات الحرارة،

ورطوبة الجو تترسب في ثلج متطاير. أليس من المفترض أنه يستخدم المسلة؟ لماذا قد يحتاج إلى البيئة المحيطة إذن؟ إلا لو كان ما يفعله هائلًا حتى إن المسلة ذاتها لا تكفيه.

تقول ساين: «يا نار الأرض. ينبغي عليَّ الصعود إليه».

يقبض إينون على ذراعها. عندما ترفع نظرها إليه ترى عينيه متسعتين، وخائفتين قليلًا. «سنكون عبئًا عليه».

«لا يمكننا أن نظل مكاننا منتظرين. إنه ليس... مضمونًا». حتى وهي تقول ذلك تشعر بأمعائها تتقلص. إن إينون لم يرَ ألابستر فاقدًا للتحكم قط، ولا تريد أن يراه كذلك. لقد كان ألابستر طيبًا جدًّا مع ميوف، وتقريبًا لم يعد مجنونًا. لكن ساين تفكر:

ما انكسر مرة، سينكسر أخرى، بسهولة

وتهزّ رأسها، وتحاول أن تعطي كورو لإينون. «يجب عليَّ ذلك. لعلي أستطيع مساعدته. كورو لا يتركني أعطيه لأي شخص آخر... أرجوك...».

إينون يلعن، لكنه يأخذ الطفل، ويتعلق كورو بقميص إينون ويضع إبهامه في فمه. عندها تذهب ساين، تركض حذاء القمة الصخرية وصعودًا على الدرج.

وبينما هي تصعد فوق مستوى الجدار الصخري، يصبح في وسعها أخيرًا رؤية ما الذي يحدث خلفه، وللحظة تجمدها الصدمة. باتت السفن أقرب بكثير خلف الجدار الذي رفعه ألابستر لحماية المرفأ، لكنهم ثلاثة فقط، فالرابعة قد خرجت

عن مسارها وتتمايل بشدة... لا، بل هي تغرق. ليس لديها أدنى فكرة كيف تمكن من ذلك. وثمة أخرى تخوض المياه بشكل غريب، صاريها مكسور ومقدمتها مرفوعة وأرينتها بادية للعيان، ثم تلاحظ سيانيت وجود جلاميد من الصخر على سطحها الخلفي. لقد أمطر ألابستر هؤلاء النغال بالصخر. ليس لديها أدنى فكرة عن كيف فعل ذلك، لكن المشهد يجعلها ترغب في التهليل.

لكن السفينتين المتبقيتين تنفصلان؛ تتابع إحداهما الاتجاه المباشر نحو الجزيرة، والأخرى تنفصل عنها، ربما كي تلتف حول الجزيرة وتهرب من نطاق وصول حجارة ألابستر. تفكر سيانيت أنها لن تسمح لها، وتشرع في فعل ما فعلته سابقًا في السفينة المهاجمة خلال غارتها الأخيرة، عندما استدعت شريحة من صخرة قاع البحر لتخوزقها. تثلج حولها مسافة قطرها عشرة أقدام كي تفعلها، ثم تنثر كتلًا جليدية على سطح الماء في المسافة بينها وبين السفينة، ثم تشكلها على هيئة شظايا مدببة مفككة، وترفعها عاليًا و...

... ويتوقف كل شيء. كل القوة الأوروچينية التي استجمعتها تتلاشى. تشهق سيانيت بينما تتسرب منها كل الطاقة والحرارة، ثم تفهم: هنالك وصي على متن هذه السفينة، أيضًا. لعل هنالك أوصياء على كل السفن، ما يفسر لماذا لم يدمرهم بستر جميعًا حتى الآن؛ فليس في وسعه مهاجمة وصي مباشرة، بل كل ما يسعه هو إلقاء جلاميد حجارة من خارج نطاق إعاقة الأوصياء. لا تستطيع مجرد تخيل

كم القوة التي يتطلبها فعل ذلك، لم يكن ليتمكن منه لولا المسلة، ولو لم يكن ذا عشرة خواتم مجنونًا عنيدًا.

طيب، حقيقة أنها لا تستطيع ضرب السفينة مباشرة، لا تعني أنها غير قادرة على إيجاد طريقة أخرى لضربها. تركض حذاء حافة القمة الصخرية بينما تحاول السفينة التي حاولت تدميرها أن تلف إلى خلف الجزيرة، تحاول أن تبقيها في نطاق نظرها. هل يحسبون أنهم سيجدون طريقًا آخر إلى الجزيرة؟ كم سيخيب أملهم، إن مرفأ ميوف هو الجزء الوحيد من الجزيرة الذي يمكن بالكاد بلوغه، أما بقيتها فليست سوى عمود صخري مسنن.

وهذا يعطيها فكرة. تبتسم، وتتوقف، ثم تنزل يديها إلى ركبتيها كي تتمكن من التركيز.

إنها ليست بقوة ألابستر، ولا تعرف كيف تتصل بالمسلة الجمشتية بغير إرشاده، وبعد ما حدث في آليا تخشى أن تحاول، وحافة الصفيحة أبعد من نطاق بلوغها، ولا توجد عمًا قريب أية فتحات بركانية أو بقع ساخنة. لكن لديها ميوف نفسها، تلك الصخرة الشستية الحبيبة الثقيلة *القشرية*.

هكذا ترمي بنفسها إلى أسفل. أعمق وأعمق. تتلمس طريقها عبر الصخور وطبقات الصخرة الميوفية، تبحث عن أفضل نقطة انكسار، تبحث عن مرتكز، تضحك في قرارة نفسها. في النهاية تجدها، رائع. وبالخارج تدور السفينة حول منحنى الجزيرة. جيد.

تسحب سيانيت كل الحرارة والحياة الميكروية من الصخرة

في نقطة واحدة مركزة. لكن تترك الرطوبة، والرطوبة هي ما تتجمد، وينتشر التجمد بينما تبردها سيانيت أكثر وأكثر، تسحب مزيدًا من الحرارة، وتغزل نطاق قدرة مستطيل وشديد الرهافة حولها حتى أنه يقطع نسيج الصخرة كما يقطع السكين اللحم. تتشكل حولها دائرة ثلجية، لكن هذا لا شيء مقارنة بلوح الثلج الهائل المتنامي داخل الصخرة، ويبترها بترًا.

وعندما تقترب السفينة من تلك النقطة، تطلق سراح كل القوة التي منحتها لها الجزيرة، تدفعها دفعًا إلى مصدرها الأول.

ينفصل عن حافة الجزيرة إصبع صخري نحيل هائل. تحافظ عليه طاقة الوضع في مكانه للحظة، ثم يتقشر بأنين منخفض أجوف عن الجزيرة، وتتهشم قاعدته بالقرب من سطح الماء. تفتح سيانيت عينيها وتنهض وتركض، تكاد تنزلق فوق دائرة ثلجها، وتتجه نحو تلك الناحية من الجزيرة. لكنها متعبة، وبعد خطوات قليلة يتحول ركضها إلى مشي بطيء، ويشق عليها التنفس وكأنها طُعنت في جانبها. لكنها تصل في الوقت المناسب كي ترى:

الإصبع الصخري وقد وقع مباشرة على السفينة. تبتسم بوحشية عندما ترى سطح السفينة مشطورًا وتسمع صراخ من بدؤوا بالفعل يقعون في الماء. يرتدي أكثرهم ملابس متنوعة، لعلهم مرتزقة. لكنها تعتقد أنها تلمح زيًّا خمريًّا يلمع تحت سطح الماء، يجذبه إلى الأعماق أكثر فأكثر أحد شطري السفينة الغارقة.

«بماذا نفعتك وصايتك الآن، يا بن الكانيبالي الصدئ».

تنهض سيانيت مبتسمة، وتتجه إلى ناحية ألابستر من جديد.

وبينما هي تنزل من المرتفعات تراه مجددًا، مثل تمثال صغير، لا يزال يصنع واجهته الثلجية. وللحظة تشعر أنها مبهورة به. إنه مذهل برغم كل شيء. لكن فجأة يدوي انفجار غريب أجوف من البحر، وينفجر شيء ما حول ألابستر، مؤديًا إلى رذاذ حجري ودخان وارتجاج شديد.

هذا مدفع. مدفع صدئ. أخبرها إينون عن تلك الأشياء من قبل، إنها من اختراع الكومونات الاستوائية، لها سنوات تطور فيها. ليس غريبًا إذن أن يمتلك الوصاة واحدًا. تشرع ساين في الركض، ركضًا خشنًا عشوائيًا بدافع من الذعر. إنها لا ترى بستر جيدًا عبر الدخان، لكنها ترى أنه سقط.

تعلم حتى قبل أن تصل إليه أنه مصاب. توقفت الرياح الباردة حوله عن الهبوب، وتستطيع رؤية أنه على أطرافه الأربعة، محاط بدائرة من الثلج المتشقق يبلغ عرضها عدة أمتار. تتوقف سيانيت خارج الدائرة، فلو أنه فاقد للوعي لن يلاحظ أنها في نطاق قدرته. «ألابستر!».

يتحرك قليلًا، تستطيع سماعه يئن ويتذمر. كم يبلغ سوء إصابته؟ تتراقص سيانيت على حافة الدائرة الثلجية للحظة، ثم تقرر أخيرًا المخاطرة، وتركض نحو المنطقة الآمنة حوله. لا يزال على أربع، بالكاد. رأسه متدلٍّ، ومعدته تتقلص حينما ترى قطرات دماء على الصخر تحته.

تقول وهي تتجه إليه، أملًا أن يطمئنه ذلك: «لقد دمرت

السفينة الأخرى. وأستطيع أن أدمر هذه أيضًا لو أنك لم تفعل».

إنها تتشدق. ليست متأكدة في الواقع كم لا يزال فيها من قدرة. تتمنى أنه قضى عليها، لكنها ترفع نظرها وتلعن في داخلها، لأن السفينة المتبقية لا تزال هناك، تبدو سليمة، ويبدو أنها قد أنزلت المرساة، وتنتظر. تنتظر ماذا؟ لا يسعها التخمين.

يقول: «ساين»، صوته ممزق، مترع بالخوف؟ أم بشيء غيره؟ «عديني أنك لن تسمحي لهم بآخذ كورو مهما حدث».

«ماذا؟ بالطبع لن أسمح لهم». تقترب منه وتقرفص إلى جواره. «بستر...»، يرنو إليها، دائخًا، ربما من انفجار المدفع. جرح شيء ما جبهته، والجرح مثل كل جروح الرأس، ينزف بغزارة. تتفحصه، تلمس صدره، تتمنى أن إصابته ليست أفدح. إنه لا يزال حيًا، إذن لا بد أن انفجار المدفع شبه أخطأه، لكن كل ما يتطلبه الأمر شظية صخرية بسرعة صحيحة في المكان الخطأ و...

والآن فقط تكتشف أن... ذراعيه وساعديه، ركبتيه، وبقية رجليه من الفخذين إلى الكاحلين... كلهم راحوا. ليسوا مبتورين ولا دمرهم الانفجار، بل كل من أطرافه ينتهي بنعومة وسلاسة في سطح الأرض تحته، وهو يحرك أطرافه وكأنها عالقة في ماء لا في صخر صلب. تدرك متأخرًا أنه يعاني؛ أنه ليس واقفًا على أطرافه الأربعة، بل هو يُسحب إلى الأرض رغمًا عن إرادته.

آكلة الصخر! يا صدأ الأرض!

تشد سيانيت كتفيه وتحاول شده، لكن هذا أشبه بمحاولة رفع صخرة. أمسى أثقل بشكل ما. لم يعد ملمس لحمه كما اللحم، لقد جعلت آكلة الصخر جسده أقرب إلى الصخر كي تجعله يمر عبر الصخر المصمت، ولا تستطيع سيانيت إخراجه. ينزل أكثر في الصخر مع كل نفس، صار الآن منقوعًا حتى كتفيه وفخذيه، ولا تستطيع رؤية قدميه على الإطلاق.

«اتركيه أخذك الأرض!»، لن تخطر لها المفارقة في لعنتها إلا لاحقًا، أما الآن فلا يخطر لها إلا أن تطعن الصخر بوعيها، تحاول أن تبحث عن آكلة الصخر...

ثمة شيء في الأسفل، لكنه ليس كأي شيء شعرت به من قبل. ثمة ثقل، ثقل يبلغ من العمق والصلابة والضخامة حدًّا يستحيل بلوغه في حيز صغير مثل هذا، ليس على هذا النحو المضغوط. تشعر وكأن جبلًا يشد ألابستر إلى تحت بكل وزنه. ألابستر يقاوم، ولهذا فقط لا يزال هنا. لكنه واهن، ويخسر، وليس لديها أدنى فكرة عن كيف تساعده. إن آكلة الصخر شديدة الـ... شيء ما. شديدة الكثرة، شديدة الضخامة، شديدة القوة، ولا تملك سيانيت إلا أن تقفز خارجة إلى نفسها، بإحساس مبهم أنها فلتت في آخر لحظة.

يقول لاهثًا: «عِديني»، بينما هي تحاول من جديد شدّ كتفيه من الصخر بجلّ عزمها، إنها مستعدة لفعل أي شيء في مواجهة هذا الوزن الهائل. «تعلمين ما الذي سيفعلونه به

يا ساين. تخيلي طفلًا بهذه القوة، طفلي أنا، وقد وُلد خارج المرتكز. تعلمين ماذا سيفعلون به».

مقعد سلكي في محطة توصيل معتمة... لا تستطيع مجرد التفكير في ذلك. لا شيء ينجح، ويكاد يكون كله في الصخر الآن، لا شيء خارجه إلا وجهه وكتفاه، وهذا فقط لأنه يشرئب كي يظل فوق سطح الصخر. تبدأ ترمي الكلمات كما اتفق بين دموعها، تبحث عبثًا عن كلمات تستطيع بشكل ما أن تصلح الوضع. «أعرف، أعدك، أوه، يا للصدأ، بستر، أرجوك، لا أقدر أن... ليس وحدي، لا أقدر...».

تنبثق من الأرض يد آكلة الصخر، بيضاء وصلبة وأناملها بلون الصدأ. تفزع سيانيت وتصرخ وتجفل، تحسب أن تلك الكائنة تهاجمها... لكن لا. تلتف اليد حول مؤخر رأس ألابستر برقة ملحوظة، من كان يحسب أن الجبال رقيقة؟ لكنها بلا رحمة. وعندما تجذب اليد ألابستر، ينزل معها. تنسل كتفيه من بين يدي ساين، ثم ذقنه، ثم فمه، ثم أنفه، ثم عيناه المرعوبتان...

ويذهب.

تركع سيانيت على الصخر القاسي البارد، وحدها. تبكي. يسقط دمعها على تلك البقعة في الصخر حيث كانت رأس ألابستر قبل لحظة. الصخر لا يتشرب الدمع، بل يكسره.

ثم تشعر بما يحدث. الوقوع، والشدّ. تجفل خارجة من حزنها، وتقفز واقفة على قدميها وتهرع متعثرة نحو حافة

المرتفع حيث ترى السفينة المتبقية، بل السفينتين، فالتي رماها ألابستر بالحجارة يبدو أنها تمكنت من تصحيح مسارها بشكل ما. لا، ليس بشكل ما. إن الجليد يمتد على سطح الماء حول السفينتين. هناك روچا على أحدهما يعمل لصالح الوصاة. ذو أربع خواتم على الأقل، فهي تشعر بمستوى تحكم دقيق جدًّا. وعلاوة على كل ذلك الثلج، ترى سربًا من خنازير البحر تقفز خارج الماء، تتسابق إلى الثلج، ثم ترى الثلج يقبض عليهم ويجمد أجسادهم وهي نصفها في الماء ونصفها خارجه.

ما الذي يفعله هذا الروچا بكل تلك القوة؟

ثم ترى جزءًا من الجدار الصخري الذي رفعه بستر يرتج.

«لا...». سيانيت تلتفت وتركض مجددًا، بأنفاس متهدجة، وتسسبن عوضًا عن أن ترى روچات الوصاة يهاجمون أساس الجدار. إن الناحية التي ينحني فيها الجدار ليقابل الانحناء الطبيعي في مرفأ ميوف ضعيفة. سيسقطه الروچات.

تستغرق زمنًا طويلًا حتى تصل إلى مستوى الكومونة، ومنها إلى الرصيف. يغشاها الرعب من أن يبحر إينون بدونها. لا بد أنه يسسبن بدوره ما يحدث. لكن الحمد للصخر، الكلالسو لا تزال موجودة، وعندما تصعد وهي تترنح إلى سطحها، يأخذ بيدها بعض من الطاقم ويجلسونها قبل أن تنهار. يسندون ظهرها إلى لوحٍ، وترى أنهم ينزلون الأشرعة.

«إينون»، تشهق بشدة بينما تحاول التقاط أنفاسها، «أرجوكم».

يأخذونها إليه وهم شبه يحملونها. إينون على سطح السفينة العلوي، إحدى يديه على عجلة الربان والأخرى تحمل كورو إلى فخذه. لا ينظر إليها، جلّ تركيزه منصب على الجدار، حيث ظهر بالفعل في أعلاه ثقب، وبينما تقترب سيانيت منه يحدث جَيَشَان أخير، ثم ينشق الجدار بالكامل وتقع منه كتل ضخمة في الماء، تجعل السفينة ترتج بعنف، لكن إينون لم تهتز فيه شعرة.

وبينما هي ترتمي على مصطبة قريبة، وبينما تغادر السفينة الرصيف، يقول بتجهم: «سنبحر لملاقاتهم». الكل جاهز للقتال، المقاليع مشدودة والحراب في الأيادي. «سنقودهم بعيدًا عن الكومونة أولًا، هكذا سيستطيع البقية أن يخلوها في قوارب الصيد».

تريد سيانيت أن تقول *لا توجد قوارب صيد كافية للجميع*، لكنها لا تفعل. إينون يعلم عمومًا.

وما إن تبحر السفينة عبر الممر الضيق الذي شقه أوروچينيو الوصاة في الجدار، حتى تهاجمهم سفينة الوصاة. تتصاعد نفخة دخان من سطح سفينة الوصاة فور ظهور الكلالسو، بينما يسمعون شيئًا يقطع الهواء بسرعة إلى جوارهم. إنها ضربة مدفع أخرى، تخطئهم بالكاد. يصيح إينون، فيرد أحد مسؤولي المقاليع برمية سلة سلاسل ثقيلة، تمزق شراعهم الأمامي وصاريهم الأوسط. ثم رمية أخرى، وهذه المرة برميل من القار الحارق، وعندما يصيبهم ترى ساين بعض طاقم سفينة الوصاة يركضون بالنار ممسكة فيهم. تمرق الكلالسو متجاوزة سفينة

الوصاة التي تجنح نحو أحد مرتفعات ميوف الصخرية، وقد أمسى سطحها جحيمًا مستعرًا.

لكن قبل أن تبتعد السفينة تبصق نفخة دخان أخرى، ويدوي انفجار. هذه المرة ترتج الكلالسو من الضربة. يا للصدأ ونار الأرض، كم يملكون من تلك المدافع؟ تنهض سيانيت وتركض نحو الحاجز محاولة رؤية هذا المدفع، وإن كانت لا تعلم ماذا تفعل بشأنه. هناك ثقب في جانب الكلالسو، وتسمع صراخ الطاقم تحت سطح المركب، لكنها لا تزال تتحرك حتى الآن.

إنها تلك السفينة التي رماها ألابستر بالصخور. اختفى من فوق سطحها بعض الصخور، وعادت تطفو على الماء بيسر مجددًا. لا ترى المدفع، لكنها ترى ثلاثة أشخاص بالقرب من مقدمة السفينة، اثنين في زي خمري وثالث في أسود. ثم ترى زيًّا خمريًّا ثالثًا ينضم إليهم.

تشعر بعيونهم مستقرة عليها.

تدور سفينة الوصاة قليلًا حتى تبدأ سيانيت تأمل أنها تبتعد، غير أنها ترى المدافع تنطلق هذه المرة. ثلاثة مدافع، كتل سوداء ضخمة بالقرب من حاجز ميسرة السفينة، تنتفض وترتد إلى الخلف قليلًا عندما تضرب، في تناغم شبه تام. ثم يدوي بعد لحظة تشقق وتمزق هائلان من جسد الكلالسو التي تنتفض وكأنها ضربها خمسة تسونامي. ترفع سيانيت نظرها في اللحظة المناسبة لرؤية الصاري يتفتت إلى شظايا. ثم ينهار كل شيء.

يصرّ أساس الصاري ثم ينهار مثل شجرة مبتورة، ويقع على السطح بقوة مساوية. تطقطق السفينة بشدة وتبدأ في الميل نحو ميسرتها تحت ضغط الأشرعة المنهارة الثقيلة. ترى رجلين يقعان في الماء مع الأشرعة، يسحقهم أو يخنقهم الوزن المضني للأقمشة والحبال والأخشاب، ولكنها، يا رحمة الأرض، لا تستطيع أن تفكر فيهم. إن الصاري بينها وبين ناحية الربان من السطح، يفصل بينها وبين إينون وكورو.

وسفينة الوصاة تدنو.

لا! تتوجه سيانيت إلى الماء، تحاول استدعاء شيء، أي شيء، إلى سسبينتها المنتهكة. لكنها لا تصل إلى شيء. عقلها أركد من الزجاج. الوصاة قريبون جدًّا.

لا تستطيع التفكير. تعلق وسط أجزاء الصاري، تستغرق ما تشعر أنه زمن لا نهائي في مقاومة الحبال السميكة كي تتحرر. ثم تتحرر أخيرًا، عدا أنها ترى الجميع يركضون إلى الاتجاه الذي جاءت منه بالسكاكين السبجية والحراب، يصيحون ويصرخون، لأن سفينة الوصاة قد أزفت، وبدؤوا يعتلونهم.

لا.

تسمع أصوات الناس يموتون حولها. لقد جلب الوصاة قوات من نوع ما معهم، لعلهم مليشيا كومونة محلية ما استأجروها أو استولوا عليها، والقتال غير متكافئ بالمرة. إن طاقم إينون ممتاز وذو خبرة، لكنهم اعتادوا استهداف مراكب التجار واهنة

الحماية وقوارب المسافرين. فور بلوغ سيانيت ناحية الربان -لا تجد إينون، لا بد أنه نزل- ترى إيسلا ابنة عمة إينون تمزق وجه أحد المهاجمين بسكينها السبجية. يترنح المهاجم بتأثير ضربتها، لكنه يعتدل ويدفع بسكينه في بطنها، وعندما تقع يدفعها عنه، فتقع فوق جثة ميوفي آخر. يعتلي مزيد من المهاجمين السطح بمرور كل دقيقة.

ويحدث المثل في كل مكان. إنهم يخسرون.

يجب أن تصل إلى إينون وكورو.

لا أحد تقريبًا تحت السطح. الكل قد صعد ليدافع عن السفينة. لكنها تشعر بالرجفة التي هي في الواقع خوف كورو وتتبعها إلى كابينة إينون. عندما تصلها تجد الباب مشرعًا، ويخرج منها إينون حاملًا سكينًا في يده، يكاد يطعنها. لكنه يتوقف مرتبكًا، فتنظر خلفه وترى أن كورو ملفوف في سلة تحت الحاجز الأمامي، أأمن مكان في السفينة، ظاهريًّا. ثم، وبينما هي واقفة في مكانها بغباء، يشدّها إينون ويدفعها إلى داخل الكابينة.

«ماذا...».

يقول إينون: «ابقي هنا. يجب أن أذهب للقتال. افعلي أي شيء كي...».

لا يكمل. يتحرك شخص ما وراءه أسرع مما يسع سيانيت أن تحذره، رجل عاري الجذع. يصفق بيديه على صدغي رأس إينون، بأصابع مفرودة حول خديه مثل عناكب، ويبتسم لسيانيت

بينما تجحظ عينا إينون.

ثم...

يا للأرض إنه...

تشعر بهذا عندما يحدث. ليس فقط من خلال سِسَبينتها، بل وكأن صخرة خشنة تكشط جلدها، وكأن عظامها كلها تنسحق، وكأن... وكأن... وكأن كل شيء في إينون، كل قوته وحيويته وجماله وعنفوانه، قد جُعل شرًّا. وكأن كل ما فيه قد تركز وتضخم وانقلب عليه بألعن طريقة. لا يتأتى لإينون وقت كافٍ ليشعر بالخوف، ولا يتأتى لسيانيت وقت كافٍ لتصرخ بينما ينهار إينون أمامها.

وكأنها ترى هزة تحدث أمام عينها، وكأنها ترى الأرض ينشق، ترى البقايا تنطحن وتتفتت ثم تنفصل بعضها عن بعض. عدا أن كل ذلك يحدث في اللحم.

بستر، *لم تخبرني قط، لم تخبرني كيف هو الأمر*

أمسى إينون كومة على الأرض. يقف الوصي الذي قتله منقوعًا في دمائه، وتتسع ضحكته وسط الدماء.

يقول صوت: «آه يا صغيرة»، فيتحول دمها إلى حجر، «ها أنتِ ذا».

تهمس: «لا». تهزّ رأسها رفضًا، تعود إلى الوراء خطوة. كورو يبكي. تتراجع مجددًا وتتعثر في فراش إينون، تبحث عن السلة، وتأخذ كورو بين ذراعيها. يتشبث بها ويرتجف بشدة.

«لا».

ينظر الوصي عاري الجذع جانبًا، ثم يتحرك كي يفسح مكانًا لدخول وصي آخر، صاحب الصوت. لا.

يقول شافا وصي وارانت برفق: «لا داعي إلى الأداء المسرحي يا دامايا»، ثم يتوقف، يبدو معتذرًا، «يا سيانيت».

لم تره منذ أعوام، لكن صوته لم يتغير، ووجهه لم يتغير. إنه لا يتغير. بل هو حتى يبتسم، وإن كانت ابتسامته تبهت قليلًا، نفورًا، عندما يلاحظ فوضى دماء إينون. ينظر إلى الوصي عاري الجذع الذي لا يزال واسع الابتسامة. يتنهد شافا لكنه يرد الابتسامة. ثم يلتفتان بابتساميتهما الشنيعتين المربعتين إلى سيانيت.

لا يمكن أن تعود. لا يمكن أن تعود.

«وما هذا؟»، يبتسم شافا ناظرًا إلى كورو بين ذراعيه. «يا له من جميل. ابن ألابستر؟ هل هو أيضًا حي؟ نحب كلنا أن نرى ألابستر أيضًا يا سيانيت، أين هو؟».

عادة الرد متأصلة فيها. «أخذته آكلة صخر». يرتجف صوتها. تتراجع إلى الخلف من جديد حتى يخبط رأسها بالحاجز. لم يعد ثمة مفر.

ولأول مرة منذ عرفت شافا تراه يرمش ويبدو متفاجئًا. «آكلة... هممم»، تغشاه الجدية، «أرى ذلك، كان علينا أن نقتله قبل أن تصل إليه، رحمةً له طبعًا، فأنت لا يمكنك مجرد تخيل ما الذي سيفعلونه به يا سيانيت للآسف».

ثم يبتسم شافا مجددًا، وتتذكر هي كل ما حاولت نسيانه. تشعر بالوحدة مجددًا، والعجز، كما كانت في ذلك اليوم بالقرب من باليلا، ضائعة في عالم كريه، بلا أحد تعوِّل عليه سوى رجل لا يأتي حبه سوى مغلفًا بالقسوة.

يقول شافا: «غير أن ابنه سيكون بديلًا أفضل بكثير».

***

ثمة لحظات يتغير فيها كل شيء. تفهمين ذلك.

***

كورو يعوي رعبًا، ربما حتى هو يفهم ما حدث لأبويه بشكل ما. لا تستطيع سيانيت مواساته.

«لا»، وتكرر، «لا لا لا».

ابتسامة شافا تتلاشى. «قلت لك من قبل يا سيانيت، لا تقولي لي لا أبدًا».

***

حتى أقسى الصخور قد تنشق. فقط تحتاج إلى القوة المناسبة مركزة على الزاوية المناسبة. أي مرتكز للضغط والضعف.

***

قال لها ألابستر عديني.

وحاول إينون أن يقول لها افعلي أي شيء تحتاجين إليه.

وسيانيت تقول: «لا، أيها الملعون».

كوري يبكي. تضع يدها على فمه وأنفه، كي تخرسه، كي تريحه. ستحميه. لن تدعهم يأخذونه، يستعبدونه، يحولون جسده إلى أداة وعقله إلى سلاح وحياته إلى محاكاة ساخرة للحرية.

***

أعتقد أنك تفهمين مثل تلك اللحظات، غريزيًّا. تلك طبيعتنا. لقد ولدنا بكل ذلك الضغط، وأحيانًا، عندما لا تعود الأمور محتملة...

***

شافا يتوقف. «سيانيت...».

«هذا ليس اسمي الصدئ! سأقول لا كما أحب أيها النغل». تصرخ بالكلمات، يتناثر اللعاب من شفتيها. في داخلها خواء مظلم ثقيل، أثقل من آكلة الصخر، وأثقل حتى من الجبال، ويشفط كل شيء مثل بالوعة صرف.

كل من تحبه ميت. كلهم عدا كورو. ولو أنهم أخذوه...

***

... أحيانًا، حتى نحن... ننكسر.

***

أفضل لهذا الطفل ألا يعيش أبدًا من أن يعيش مستعبدًا.

من الأفضل له أن يموت.

من الأفضل لها أن تموت. ألابستر سيكرهها لتركها إياه وحده، لكن ألابستر ليس هنا، والنجاة والحياة ليسا الشيء نفسه.

هكذا تتوجه إلى فوق، إلى الخارج. إن الجمشتية هناك، فوق، تنتظر بصبر الموتى، كما لو أنها تعلم أن تلك اللحظة آتية لا ريب.

تتوجه إليها وتتمنى أن ألابستر كان محقًّا بشأن أن تلك الأشياء أكبر من أن يمكن استيعابها.

ويذوب وعيها وسط الأضواء المتلألئة والموجات متعددة الأوجه، بينما يشهق شافا إدراكًا ويهرع نحوها، وعينا كورو تحاول أن ترف تحت يدها الضاغطة الخانقة...

تفتح نفسها لتلك القوى العتيقة المبهمة، وتمزق العالم إربًا.

***

هنا السكون. هنا قبالة ساحلها الشرقي، جنوب خط الاستواء بقليل.

توجد جزيرة هنا، جزء من سلسلة ألواح زائلة قلما تدوم أكثر من بضع مئات الأعوام. لكن هذه الجزيرة دامت لآلاف السنوات، شاهدة على حكمة أهلها. وتلك هي اللحظة التي ستموت فيها تلك الجزيرة، لكن على الأقل تمكن بعض سكانها من النجاة في مكان آخر. لعل ذلك قد يشعرك أفضل

قليلًا.

المسلة البنفسجية التي تحوم فوقها تخفق، مرة، تنبض نبضة قوة قد تكون مألوفة لأي شخص كان في كومونة تدعى آليا يوم موتها. ومع آخر النبضة، يجيش المحيط أسفلها بينما يضطرب قاع الأرض الصخري تحته. تنبثق من بين الأمواج أعمدة صخرية، مبتلة وحادة كالسكين، وتهشم السفن التي تطفو بالقرب من شواطئ الجزيرة. وكثير من الناس الذين كانوا على متن تلك السفن، يتخوزقون. كثيفة هي غابة الموت حولهم.

يمتد اضطراب الأرض في موجة طويلة ملتوية تبدأ من الجزيرة، تتشكل من سلسلة مرعبة من الرماح الناتئة المنبثقة، من أول مرفأ ميوف وحتى أطلال ما كانت آليا. جسر أرضي. ليس من النوع الذي قد يحب أحد عبوره، لكنه يظل مع ذلك جسرًا.

عندما ينتهي كل ذلك الموت، وتخمد المسلة، لا يبقى على قيد الحياة في المحيط إلا حفنة من الناس. منهم امرأة تطفو فاقدة للوعي وسط حطام سفينتها الهالكة. وليس بعيدًا عنها يطفو أيضًا طفل، لكن وجهه إلى أسفل.

سيجدها رفاقها الناجون ويأخذونها إلى القارة. هناك ستهيم على وجهها، ضائعة من الداخل والخارج، لعامين طويلين.

لكن ليست وحيدة، فذلك كان حينما وجدتها. لحظة نبضة المسلة كانت لحظة تردد الغناء بوجودها عبر العالم؛ وعد،

إعلان، دعوة لا يمكن مقاومة إغوائها. كثير منّا سعوا إليها حينها، لكنني كنت أول من وجدها. منعت الآخرين عنها وتتبعتها، وراقبتها، وحرستها. سعدت لما وَجَدَت مدينة صغيرة تدعى تيريمو، ووجدت فيها الراحة والسعادة، لبعض الوقت.

قدمت نفسي إليها في النهاية، أخيرًا، بعد عشرة أعوام، وهي تغادر تيريمو. تلك ليست طريقتنا عادةً في مثل تلك الأمور بالطبع، هذا النوع من العلاقات ليس النوع الذي نسعى إليه مع بني نوعها. لكنها كانت، ولا تزال مميزة. لقد كنت، ولا تزالين، مميزة.

قلت لها إن اسمي هوّا. وهو اسم مثل غيره من الأسماء.

هكذا بدأت الحكاية. اسمعي. افهمي. هكذا تغير العالم.

٢٣

أنت كل ما تحتاجينه

ثمة مكان في كاستريما يقع في المستوى الأدنى من الجيود، أنت تعتقدين أنه لم ينبثق من الجيود بل هو بلا شك مبني: حوائطه لم تُنحت في البلور المصمت، وإنما هي شرائح من الميكا قادمة من المحاجر، مرقطة برقائق متناهية الصغر من البلور لا تقل جمالًا عن بنات عمومتها الهائلة. ما الذي يجعل أحدهم يحمل تلك الصخور إلى هنا ويبني بهم مبنى وسط كل تلك الأماكن المعدة للسكن الخاوية؟ ليس لديك فكرة، ولا تسألين. لا تهتمين.

يأتي لِرنا معك، لأن تلك عيادة الكومونة الرئيسية، والرجل الذي أنت ذاهبة لرؤيته مريضه. لكنك توقفينه عند الباب، ويرتسم على وجهك ما يخبره بأن يتوخى الحذر. لا يعترض عندما تتابعين وحدك.

تلجين من الباب المفتوح ببطء، ثم تتوقفين حين تلمحين آكلة الصخر في الناحية المقابلة من القاعة الرئيسية للعيادة. أنتيموني، صح، كدت تنسين الاسم الذي سماها به ألابستر. ترد النظر إليك بلا تعبير، يشق تمييزها عن بياض الحائط، لولا صدأ أناملها وسواد «شعرها» وعيناها. إنها لم تتغير ألبتة منذ رأيتها آخر مرة قبل اثنتي عشرة سنة، ساعة نهاية ميوف. لكن اثنتي عشرة سنة بالنسبة إلى نوعها لا شيء.

تومئين إليها رغم كل شيء. تلك هي الأصول، ولا يزال بك

بقايا من تلك المرأة التي رباها المرتكز. في وسعك أن تكوني مهذبة مع أي شخص، مهما كنت تكرهينه.

تقول: «كفى اقترابًا».

حديثها ليس لك. تلتفتين، ولا تفاجئك رؤية هوّا خلفك. من أين جاء؟ إنه ساكن بقدر سكون أنتيموني، سكون غير طبيعي، ما يجعلك تدركين أخيرًا أنه لا يتنفس. إنه لم يتنفس قط طوال المدة التي عرفته خلالها. كيف فاتك ذلك بحق الصدأ؟ يرمقها هوّا بنفس وهج التحفز الثابت الذي رمى به آكلة الصخر المصاحبة لإيكّا. ربما لا يحب آكلو الصخر بعضهم بعضًا، لذا تصبح اللقاءات غريبة.

يقول هوّا: «لست مهتمًّا به».

تنتقل عينا أنتيموني إليك للحظة، ثم تعود نظرتها إلى هوّا. «أنا لا أهتم بها إلا من أجله».

لا يقول هوّا شيئًا. ربما يفكر في هذا، لعل ذلك كان عرض هدنة، أو إعرابًا عن حدود المطالبات. تهزين رأسك وتتابعين المشي متجاوزة كليهما.

في آخر القاعة الرئيسية، فوق كومة من الوسائد والبطاطين، يتمدد جسد نحيل أسود، يتنفس بصفير. يتقلب قليلًا، يرفع رأسه ببطء عندما تقتربين. تجلسين مقرفصة بالكاد خارج نطاق يده، وترتاحين عندما تتعرفين عليه. لقد تغير فيه كل شيء إلا عيناه، فهاتان تظلان كما كانتا.

يقول: «ساين». صوته مثل حصى كثيف.

تقولين بتلقائية: «بل إيسّون الآن».

يومئ. ويبدو أن هذا يؤلمه؛ وللحظة تنغلق عيناه بقوة. يسحب نفسًا آخر، ويظهر بوضوح أنه يبذل مجهودًا كي يسترخي وينتعش نوعًا. «كنت أعلم أنك لم تموتي».

تقولين: «لماذا إذن لم تأتِ؟».

«كان عليَّ أن أتعامل مع مشاكلي الخاصة». يبتسم قليلًا. تسمعين لحم جانب وجهه الأيسر -ثمة رقعة ضخمة محروقة هناك- عندما يتغضن. تتحرك عيناه نحو أنتيموني، بنفس البطء الذي يتحرك به آكلو الصخر. ثم يعود بانتباهه إليك.

(إليها، إلى سيانيت).

إليك، إيسّون. الصدأ على ذلك، ستسعدين عندما تكتشفين في النهاية من أنت فعلًا.

«وكنت مشغولًا». ويرفع ألابستر ذراعه اليمنى، التي تنتهي بغتة عند منتصف ساعده. إنه لا يرتدي أي شيء على نصف جسده العلوي، هكذا يمكنك أن تريْ بوضوح ماذا حلّ به: لم يبقَ منه الكثير، فهو يفتقر إلى قطع عديدة، ويفوح بعطن الدماء والصديد والبول واللحم المحترق. عدا أن إصابة ذراعه ليست من الحرائق اليومينِسية، أو على الأقل ليس مباشرة. إن جدعة ذراعه يتوجها شيء قاسٍ وبني، ليس لحمًا بكل تأكيد، فهو قاسٍ جدًّا وهيئته الخارجية أقرب إلى الطباشير.

إنه حجر. صارت ذراعه حجرًا. ذهب أغلبها، وعلى

الجدعة. . .

. . . آثار أسنان. إن تلك آثار أسنان. تنظرين إلى أنتيموني مجددًا، وتتذكرين ابتسامة ماسية.

يقول بستر: «سمعت أنك أيضًا كنت منشغلة».

تومئين، وتنتزعين عينيك أخيرًا عن آكلة الصخر (الآن فقط تعرفين أي صخر يأكله آكلو الصخر). «بعد ميوف، كنت. . .». لا تعرفين ماذا تقولين. بعض الأحزان أثقل من أن يمكن حملها، ورغم ذلك أنت حملتها مرارًا وتكرارًا. «احتجت لأن أصبح مختلفة».

ليس لذلك معنى. لكن ألابستر مع ذلك يصدر صوتًا واهنًا مؤكدًا، وكأنه يتفهم. «على الأقل عشت حرة».

وكأن إخفاء كل شيء حرية. «نعم».

«هل استقررت؟».

«تزوجت، أنجبت طفلين». ألابستر صامت، ومع كل تلك البقع الحجرية البنية من الفحم والطباشير على وجهه، لا يمكنك تمييز إن كان يبتسم أو يتجهم. تفترضين التجهم، ومع ذلك تضيفين: «كلاهما كان. . . مثلي. أنا. . . زوجي. . .».

الكمات تجعل الأشياء حقيقية على نحو لا تقدر عليه حتى الذكريات. لذا تتوقفين.

يقول ألابستر برقة شديدة: «أتفهم لماذا قتلت كورندم»، وعندما تتمايلين في مكانك، ترنحًا من صدمة جملته، يكمل:

«لكني لن أسامحك على هذا أبدًا».

اللعنة. اللعنة عليه. اللعنة عليك.

تستغرقين وهلة كي تردين.

تتمكنين في النهاية من قول: «سأتفهم لو أردت قتلي»، ثم تلعقين شفتيك، تزدردين لعابك، تبصقين الكلمات: «لكني في حاجة إلى قتل زوجي أولًا».

يتنهد ألابستر بصفير آخر. «طفليك الآخرين».

تومئين. لا يهم في تلك اللحظة إن كانت ناسّون حية. لقد أخذها جيجا منك، وتلك إهانة كافية.

«أنا لن أقتلك يا سيـ. . . يا إيسّون». صوته متعب. لعله لا يسمع الصوت الواهن الصادر عنك، الذي لا هو راحة ولا إحباط. «لن أقتلك حتى لو كنت أستطيع».

«حتى لو. . .؟».

«أصار في وسعك فعلها؟»، قفز فوق ارتباكك مثلما كان يفعل دومًا، لم يتغير فيه شيء إلا جسده المنتهك. «لقد جذبت العقيقية في آليا، لكن تلك كانت نصف ميتة. وأنت بالتأكيد قد استخدمت الجمشتية في ميوف، لكن ذلك كان. . . تصرفًا يائسًا. أصار في وسعك فعلها طوع إرادتك الآن؟».

«أنا. . .». أنت لا تفهمين. عدا أن شيئًا ما يشدّ انتباهك عن رعب ما تبقى من معلمك، حبيبك، صديقك. إلى جوار ألابستر وخلفه، شيء يستقر قبالة حائط العيادة. يبدو مثل سكين

سبجي، لكن نصله أطول بكثير، وأعرض من أن يُستخدم عمليًّا. مقبضه شديد الضخامة، وربما لأن النصل طويل بغباء، وقطعته الواقية ستعيق أي شخص يستخدمه لأول مرة في قطع اللحم أو قص عقدة. وهو ليس مصنوعًا من الزجاج السبجي، أو ليس من أي زجاج رأيت مثله من قبل. لونه وردي، يميل إلى الأحمر، و...

وتحدقين إليه، إلى داخله، وتشعرين به يجذب عقلك. تقعين، تقعين إلى أعلى، في عمود لا نهائي من الأضواء الوردية النابضة متعددة الأوجه..

تشهقين، وترتدين عائدة إلى نفسك بصورة دفاعية. ثم ترمقين ألابستر. يبتسم مجددًا، بألم.

يقول مؤكدًا صدمتك: «هذه الإسبينلية. هذه لي. هل جعلت أيهم لك بعد؟ هل تأتي المسلات رهن استدعائك؟».

أنت لا تفهمين، لكنك تفهمين. لا تريدين أن تصدقيه، لكنك في الواقع كنت تعرفين طوال الوقت.

«أنت من شق ذاك الصدع في الشمال». تتنفسين، يداك تتكوران في قبضتين، «أنت من مزق القارة، أنت من بدأ هذا الموسم، بالمسلات! أنت من فعل... كل هذا».

«نعم، بالمسلات، وبمساعدة الموصلين، وهم الآن جميعًا في سلام»، يزفر بصفير، «أحتاج إلى مساعدتك».

تهزين رأسك تلقائيًّا، لكن ليس رفضًا. «لإصلاح الصدع؟».

«أوه، لا يا ساين»، لا تأبهي بتصحيح الاسم له هذه المرة. لا تستطيعين إنزال عينيك عن وجهه المستمتع شبه العظمي. تلاحظين عندما يتنفس أن إحدى أسنانه صارت صخرية أيضًا. كم من أعضائه حصل لها المثل؟ وإلى متى سيظل حيًّا -لو ظل حيًّا- بهذا الشكل؟

يقول ألابستر: «لا أود إصلاحه، بل كان هذا ضررًا جانبيًّا. لكن يومينِس نالت ما تستحق. ما أريد منك فعله، يا داماياتي، يا سيانيتي، يا إيسّوني، هو جعله أسوأ».

تحدقين إليه عاجزة عن الحديث. ثم ينحني إلى الأمام، تؤلمه تلك الحركة بلا شك، تسمعين صرير تمدد لحمه، وتشقق قطعة حجرية في مكان ما فيه. لكنه عندما يقترب منك بما يكفي، يبتسم، وتكتشفين فجأة. يا شر الأرض! أنه ليس بمجنون على الإطلاق، ولم يكن كذلك قط.

يقول: «أخبريني، هل سمعت قط بشيء اسمه القمر؟».

ملحق ١

قائمة بالمواسم الخمسة المسجلة قبل وبعد إنشاء الائتلاف السانزي الاستوائي، من الأحدث إلى الأقدم

موسم الاختناق (٢٧١٤ – ٢٧١٩ إمبراطوري): السبب التقريبي: انفجار بركاني. الموقع: أنتاركتيكا، بالقرب من ديفيتيريس. انفجار بركان أكوك أدى إلى تكون غشاء سحابي نصف قطره خمسة أميال من الرماد متناهي الصغر، الذي يتصلب في الرئة والأغشية المخاطية. نجم عنه خمسة أعوام بلا شعاع شمس، وإن كان التأثير على النصف الشمالي من العالم كان أخف (عامان فقط).

موسم الحمض (٢٣٢٢ – ٢٣٢٩ إمبراطوري): السبب التقريبي: هزة فوق الدرجة العاشرة. الموقع: غير معلوم؛ في المحيط البعيد. تحرك مفاجئ في الصفائح أدى إلى نشوء سلسلة من البراكين في مسار تيار نفاث رئيسي يهبّ على الساحل الغربي ويطوق في النهاية أغلب السكون، وصار هذا التيار محمضًا. هلكت أكثر الكومونات الساحلية مع أول موجات التسونامي، وبقيتها إما انهارت وإما انتقلت مرغمة بعدما تآكلت أغلب أساطيلها ومنشآتها الساحلية، وجفت منابع صيدها. دام الاحتجاب الجوي وراء السحب سبع سنوات، وظلت الدرجة الحامضية للكومونات الساحلية غير محتملة

لعدة سنوات بعدها.

موسم الغليان (١٨٤٢ - ١٨٤٥ إمبراطوري): السبب التقريبي: انفجار بقعة ساخنة تحت بحيرة عظمى. الموقع: الجنوب الأوسط، ربع بحيرة تكاريس. أطلق الانفجار ملايين الجالونات من البخار والجسيمات في الهواء، أدت إلى مطر حمضي واحتجاب جوي فوق النصف الجنوبي من القارة لثلاثة أعوام. عدا أن النصف الشمالي لم يعانِ من أية آثار سلبية، لذا يختلف الأركيومستيون إن كان يعتبر موسمًا «بحق» أم لا.

موسم انقطاع الأنفاس (١٦٨٩ - ١٧٩٨ إمبراطوري): السبب التقريبي: حادثة تعدين. الموقع الشمال الأوسط، ربع سازد. وذلك موسم سببه بشري تمامًا، إذ حثّه إشعال عمال المناجم في حقول الفحم بالحافة الشمالية الشرقية من الشمال الأوسط نار تحت أرضية. وهو موسم معتدل نوعًا تخلله ضوء الشمس من حين إلى حين ولم يشهد هطول رماد أو تحميضًا إلا في إقليم نشئه. لم تعلن الأحكام الموسمية سوى كومونات قليلة. هلك قرابة أربعة عشر مليون نسمة في مدينة هيلدين مع ثورة الغاز الطبيعي الأولية وحفرة اللهب النتيجة والحريق المتفشي، قبل أن يتمكن الأوروچينيون الإمبراطوريون من السيطرة على الحريق وإحكام غلق حدود النيران لمنع انتشارها أكثر. لم يمكن إطفاء النار، وإنما عُزلت فقط، وظلت تستعر لمئة وعشرين سنة. نشرت الرياح السائدة دخانها، وسببت مشاكل تنفسية وحالات اختناق جماعية في الإقليم لعشرات السنين. وأحد الأضرار الثانوية لخسارة حقول الفحم بالشمال

الأوسط كان الارتفاع الكارثي لتكلفة التدفئة والوقود، والاعتماد الأوسع على التدفئة الهيدروليكية والأرضية، ما قاد إلى إنشاء الهيئة الهندسية.

موسم الأسنان (١٥٥٣ – ١٥٦٦): السبب التقريبي: هزة محيطية أثارت انفجارًا بركانيًا خارقًا. الموقع: الشقوق الأركتيكية. إحدى الهزات التابعة لهزة محيطية اخترقت بقعة ساخنة لم تكن معروفة بالقرب من القطب الشمالي، ما أثار ثورة بركان خارق. سجل الشهود سماع الانفجار حتى قرب الأنتاركتيكا. بلغ الرماد الطبقات العليا من الغلاف الجوي، وانتشر حول العالم بسرعة، وإن ظلت الأركتيكا الأكثر تأثرًا. الضرر الناجم عن هذا الموسم ضاعفه قلة تحضير العديد من الكومونات، لأن بين هذا الموسم وسابقه تسع مئة سنة، وشاع الاعتقاد حينها أن المواسم ليست إلا أسطورة. سُجلت حالات كانيبالية من الشمال وحتى المنطقة الاستوائية. تأسس المرتكز مع نهاية هذا الموسم في يومينِس، بالإضافة إلى فرعين تابعين له بالأركتيكا والأنتاركتيكا.

موسم الفطر (٦٠٢ إمبراطوري): السبب التقريبي: انفجار بركاني. الموقع: الغرب الاستوائي. سلسلة من ثورات المحيط خلال الرياح الشرقية الاستوائية الموسمية رفعت مستوى الرطوبة في الإقليم وحجبت أشعة الشمس فوق قرابة ٢٠٪ من القارة لستة أشهر. مع أن هذا كان موسمًا منخفض الحدة مقارنة بغيره، توقيته شكّل ظروفًا ملائمة لانتشار الفطر من المناطق الاستوائية إلى الشمال أوسطية

والجنوب أوسطية، ما قضى على محصول الميروق بالكامل (كان أساسيًّا وقتها وأمسى الآن منقرضًا). المجاعة الناجمة استمرت أربع سنوات (سنتان حتى تراجع وباء الفطر وسنتان حتى تعافت الزراعة وشبكات توزيع الطعام). كل الكومونات المتأثرة تقريبًا تمكنت من الاعتماد على مخازنها الخاصة، ما أثبت كفاءة الإصلاحات الإمبراطورية والتخطيط للمواسم. وأظهر الإمبراطور كرمًا شديدًا بمشاركته الحبوب المخزنة مع الأقاليم التي كانت تعتمد على الميروق. بعد ذلك انضمت كثير من كومونات الأقاليم الأوسطية والساحلية طواعية إلى الإمبراطورية، فتضاعفت سيادتها، وبدأ عصرها الذهبي.

موسم الجنون (٣ ق. إمبراطوري – ٧ إمبراطوري): السبب التقريبي: انفجار بركاني. الموقع: فخاخ كياش. انفجار عدة منافذ لبركان خارق قديم (نفس البركان المسؤول عن الموسم المزدوج الذي يُعتقد أنه وقع قبل ١٠٬٠٠٠ سنة تقريبًا) أدى إلى ملء الهواء بكميات هائلة من معدن الأوجيت قاتم اللون. سنوات الظلام العشر الناجمة لم تكن فقط كارثية مثلما هي المواسم عادة، بل أدت أيضًا إلى معدل أمراض ذهنية أكبر من المعتاد بكثير. نشأ الائتلاف السانزي الاستوائي (والذي يُعرف عادة بالإمبراطورية السانزية) خلال هذا الموسم، عندما تمكنت أميرة الحرب اليومينِسية فريشي من هزيمة عدد من الكومونات السقيمة باستخدام تقنيات الحرب النفسية (انظر فن الجنون – عدة مؤلفين – دار نشر الجامعة السابعة). توجت فريشي نفسها كإمبراطورة مع عودة أول شعاع شمس.

[**ملحوظة تحريرية:** أكثر أنباء المواسم التي سبقت نشأة السانزا متناقضة أو غير مؤكدة. التالي هو أنباء المواسم المتفق عليها في مؤتمر الجامعة السابعة الأركيومستي عام ٢٥٣٢ إمبراطوري].

موسم التِّيه (حوالي ٨٠٠ ق. إمبراطوري): السبب التقريبي: تزحزح القطب المغناطيسي. الموقع: غير مؤكد. أدى هذا الموسم إلى انقراض العديد من المحاصيل التجارية الهامة في ذلك الوقت، وإلى عشرين عامًا من المجاعة نتيجة ارتباك الملقحات من تحرك القطب الشمالي.

موسم تبدل الرياح (حوالي ١٩٠٠ ق. إمبراطوري): السبب التقريبي: غير معروف. الموقع: غير مؤكد. تبدلت اتجاهات الرياح السائدة لأسباب غير معروفة لأعوام طويلة، قبل أن ترجع كما كانت. تجمع الآراء على أن هذا كان موسمًا حتى مع عدم حدوث احتجاب جوي، فقط لأن ما أثاره ربما كان هزة أرضية ضخمة (وعلى الأرجح في المحيط البعيد).

موسم المعدن الثقيل (حوالي ٤٢٠٠ ق. إمبراطوري): السبب التقريبي: انفجار بركاني. الموقع: الجنوب الأوسط بالقرب من الساحل الشرقي. أدت ثورة بركان (لعله كان بركان يرجا) إلى احتجاب جوي دام عشر سنوات، واستفحل أكثر من الانتشار الهائل لعدوى الزئبق في النصف الشرقي من السكون.

موسم البحار الصفراء (حوالي ٩٢٠٠ ق. إمبراطوري): السبب التقريبي: غير معروف. الموقع: السواحل الشرقية

والغربية، والأقاليم الساحلية حتى أقصى الجنوب عند الأنتاركتيكا. لا يُعرف عن هذا الموسم إلا من الكتابات القديمة في الأطلال الاستوائية. انتشرت لأسباب غير معلومة عدوى بكتيرية في كل أشكال الحياة البحرية، وسببت مجاعات في السواحل لعشرات السنين.

الموسم المزدوج (حوالي ٩٨٠٠ ق. إمبراطوري): السبب التقريبي: انفجار بركاني. الموقع: الجنوب الأوسط. بحسب التقاليد الشفهية والأغاني التي تعود إلى هذا الزمن، ثورة إحدى المنافذ البركانية سببت احتجابًا جويًّا لثلاثة أعوام، وعندما بدأت الغيوم تتراجع حدث انفجار آخر لمنفذ آخر، أدى إلى استمرار الاحتجاب ثلاثين عامًا آخرين.

ملحق ٢

قائمة بالمصطلحات شائعة الاستخدام في شتى أنحاء السكون

الأحكام الموسمية: قانون عرفي يمكن أن يعلنه أي قائد كومونة أو محافظ ربع أو حاكم إقليمي أو عضو مرموق في قيادة يومينِس. خلال الأحكام الموسمية تُعطل الحكومة الربعية والإقليمية، وتُعد الكومونات وحدات اجتماعية سياسية ذات سيادة مستقلة. وإن كان التعاون المحلي بين الكومونات شيئًا تنصح به بشدة السياسة الإمبراطورية.

أركتيكا: المنطقة الواقعة بأقصى شمال القارة.

استوائي: الوصف الذي يطلق على مناطق خطوط العرض التي تحيط بخط الاستواء وتتضمنه، باستثناء الأقاليم الساحلية. ويوصف أيضًا الأشخاص من ذلك الإقليم بالاستوائيين. أكثر الكومونات الاستوائية مزدهرة وقوية سياسيًا، وذلك بفضل الطقس المعتدل والاستقرار النسبي لصفيحة منتصف القارة. كانت المناطق الاستوائية ذات يوم مركز إمبراطورية السانزا القديمة.

اسم استخدام: الاسم الثاني الذي يحمله أغلب المواطنين، ويشير إلى طائفة الاستخدام التي ينتمي إليها. يوجد عشرون اسم استخدام مُعترف بها، غير أن ثمة سبعة فقط يشيع استخدامها في الإمبراطورية السانزية الحالية والقديمة. يرث

الولد اسم استخدامه من أبيه والبنت من أمها، طبقًا للنظرية التي تقترح أن السمات تورث بسهولة أكثر بتلك الطريقة.

اسم كوموني: الاسم الثالث الذي يحمله أغلب المواطنين، ويشير إلى انتماءاتهم وحقوقهم الكومونية. يُمنح الاسم عادة عند سن البلوغ، ويشير إلى أن هذا الشخص يعدّ عضوًا قيمًا في هذا المجتمع. يمكن للمهاجرين إلى كومونة طلب التبني إليها، وإن قُبلوا، يحملون اسمها في أسمائهم.

أغيار: المجرمون وغيرهم من غير المرغوب فيهم، غير القادرين على نيل قبول أية كومونة.

إقليم: المستوى الأعلى من نظام الحكم الإمبراطوري. الأقاليم المعترف بها إمبراطوريًا هي الأركتيكا والشمال الأوسط والسواحل الغربية والسواحل الشرقية والاستوائية والأنتاركتيكية. لكل إقليم حاكم يأتمر بأمره كل محافظي الأرباع، وحكام الأقاليم يعينهم الإمبراطور بنفسه، غير أن في الواقع أغلبهم تختاره كبرى عائلات القيادة اليومينِسية، ومن بينهم.

آكلو الصخر: كائنات واعية تشبه البشر يندر رؤيتها، جلودها وشعرها وكل ما فيها يشبه الصخر. لا يُعلم عنهم إلا أقل القليل.

أمان: مشروب تقليدي يُقدم في المفاوضات، وفي المقابلات الأولى بين أطراف ربما تكون متعادية، أو في غيرها من المقابلات الرسمية. يحتوي على حليب نباتي يتفاعل مع وجود

أي مادة غريبة.

أنتاركتيكا: المنطقة الواقعة بأقصى جنوب القارة.

أواسط: خطوط العرض الوسطية في القارة، تلك التي بين الاستوائية والقطبية. ويُنعت أيضًا سكان تلك الأقاليم بالأواسط (وأحيانًا أوسطيون). تعتبر تلك الأقاليم أماكن نائية في السكون، مع أنها تنتج أغلب طعام العالم وأهم مواده وموارده. ثمة إقليمان أوسطان: شمالي (الشمال الأوسط)، وجنوبي (الجنوب الأوسط).

أوروچيني: الشخص القادر على ممارسة الأوروچينية، سواء مُدرب أو لا. يوصف ازدراءً بلقب روچا.

أوروچينية: القدرة على استخدام طاقات الحرارة والوضع وأشكال الطاقة المتعلقة بهما، للتعامل مع الأنشطة الأرضية.

بيت الطريق: محطات توجد على مسافات في كل طريق إمبراطوري، وبعض الطرق الأدنى. كل بيوت الطرق تحتوي على مصدر مياه وتقع بالقرب من أرض صالح للزراعة أو غابات أو غيرها من الموارد المفيدة. يقام كثير منها في أماكن أقل عرضة للأنشطة الأرضية.

الجامعة السابعة: كلية شهيرة لدراسة الجيومستية وقول الصخر، مدعومة حاليًا من الإمبراطور وتقع في مدينة ديبارس الاستوائية. بعض النسخ السابقة من الجامعة كانت إما برعاية خاصة أو جماعية؛ الجامعة الثالثة مثلًا في أم-إلات (تقريبًا ٣٠٠٠ ق. إمبراطوري) كانت تُعدّ دولة ذات سيادة خاصة في

زمنها. بعض الكليات الربعية أو الإقليمية الأصغر، تدفع إلى الجامعة لتتلقي الخبرات والموارد في المقابل.

جيوميستي: ذلك الذي يدرس الصخر ومكانه في العالم الطبيعي، وهو مصطلح عام للعلماء. يدرس الجيوميستيون على الأخص علوم الخصائص الحجرية والكيمياء والجيولوجيا، وهي تخصصات لا تُعتبر علومًا منفصلة في السكون. يتخصص قلة من الجيومستيين في دراسة الأوروچينية وتأثيرها.

حرز: طعام ومؤونة مخزنة. تحافظ الكومونات على بيوت الأحراز محكمة الغلق وتحت حراسة مشددة طوال الوقت، تحسبًا للموسم الخامس. لا تحق مشاركة الأحراز إلا لأعضاء الكومونة المعترف بهم، وإن كان يمكن لأفراد الكومونة الكبار أن يطعموا من أنصبتهم أطفالًا وآخرين غير معترف بهم. وكثيرًا ما تحتفظ العائلات في منازلها ببيوت أحراز خاصة بها، ويحمونها أيضًا من الغرباء.

حصى: أطفال الأوروچينيين في المرتكز، الذين لم ينالوا خواتم بعد.

خاتم: تستخدم الخواتم للإشارة إلى الرتبة بين الأوروچينيين الإمبراطوريين. المتدربون الصغار في حاجة إلى النجاح في سلسلة اختبارات للحصول على خاتمهم الأول. أعلى رتبة يمكن لأوروچيني تحقيقها هي عشرة خواتم. كل خاتم يُصنع من حجر شبه كريم مصقول.

خضرة: رقعة أرض هاجعة داخل أسوار أغلب الكومونات أو خارج الأسوار مباشرة، مثلما ينصح قول الحجر. خضرة الكومونات يمكن أن تستخدم للزراعة أو لرعي الحيوانات طوال الوقت، أو يمكن استخدامها كحدائق أو كأراضٍ هاجعة في خارج وقت المواسم. حتى بعض المنازل المستقلة تحافظ على مساحات خضرة أو حدائق خاصة أيضًا.

راكد الرأس: مصطلح ازدرائي يستخدمه الأوروچينيون لوصف من يفتقر إلى القدرة الأوروچينية، يُختصر عادة بـ«راكد».

ربع: المستوى الأوسط من نظام الحكم الإمبراطوري. كل أربع كومونات قريبة جغرافيًّا تشكل ربعًا. كل ربع له محافظ يعمل تحت سلطته قادة الكومونات، ويعمل بدوره تحت سلطة الحاكم الإقليمي. أكبر كومونة في كل ربع هي عاصمتها، وعواصم الأرباع الكبرى تتصل بعضها ببعض بالطرق الإمبراطورية.

ساحلي: شخص ينتمي إلى كومونة ساحلية. يندر أن تتمكن كومونة ساحلية من تحمل كلفة أوروچيني إمبراطوري ليزيل الشعاب المرجانية أو يحميها من التسونامي، لذا يتعين على المدن الساحلية أن تعيد بناء نفسها باستمرار، وبالتالي أغلبهم شحيح الموارد. الناس في ساحل القارة الغربي عادةً ما يكون شعرهم شاحبًا منسدلًا، وأحيانًا تكون لأعينهم ثنايا جلدية. والناس في الساحل الشرقي عادةً ما يكون شعرهم قاتمًا مجعدًا، وأحيانًا تكون لأعينهم ثنايا جلدية.

سانزا: كانت ذات مرة دولة (وحدة ذات نظام حكم متدنٍّ، قبل إمبراطوري) استوائية، وهي أصل العرق السانزي. مع نهاية موسم الجنون (٧ إمبراطوري) تم إلغاء دولة السانزا واستُبدل بها الائتلاف السانزي الاستوائي، الذي تكون من ستة كومونات ذات أغلبية سانزية تحت حكم الإمبراطورة فيرشي قيادية يومينِس. أخذ الائتلاف في الاتساع بعد الموسم، حتى هيمن على كل أقاليم السكون بحلول عام ٨٠٠ إمبراطوري. وفي زمن موسم الأسنان، صار الائتلاف يُعرف شعبيًّا بإمبراطورية السانزا القديمة. وطبقًا لاتفاقية شيلتين عام ١٨٥٠ إمبراطوري، لم يعد للائتلاف وجود، بعدما تقرر أن الحكم المحلي (تحت الإرشاد اليومينِسي) أكثر كفاءة للعمل عندما يحلّ الموسم. لكن عمليًّا لا تزال أغلب الكومونات تتبع النظام الإمبراطوري في الحكم والإدارة المالية والتعليم وغيرها، وأكثر الحكام الإقليميين لا يزالون يدفعون الضرائب إجلالًا ليومينِس.

سانزي: أحد أفراد العرق السانزي. السانزي المثالي طبقًا لمعايير الاستيلاد اليومينِسية ذو بشرة برنزية وشعر رماد براكيني، وذو بنية ميزومورفية أو إندومورفية، وطول السانزي الناضج لا يقل عن ستة أقدام.

السانزية: لغة العرق السانزي، وهي اللغة الرسمية لإمبراطورية السانزا القديمة، والآن هي اللغة المشتركة لأغلب السكون.

سسونا: الوعي بحركة الأرض. العضو الحسّي الذي يقوم

بتلك الوظيفة هو السِسَبينا، ومكانه في جذع الدماغ. الفعل: سسبن، سسبنة، فهو مسسبن.

سيباكي: شخص ينتمي إلى عرق السيباك. كانت السيباك ذات مرة دولة (وحدة ذات نظام حكم متدنٍّ، قبل إمبراطوري) في الجنوب الأوسط، ثم أصبحت جزءًا من نظام الأرباع بعدما غزتها السانزا القديمة منذ قرون بعيدة.

شديد: أحد أسماء طوائف الاستخدام الشائعة السبعة. الأشداء هم أفراد يُختارون بناءً على قوتهم الجسدية، ومسؤولون عن الأعمال الشاقة والحماية خلال الموسم.

شعر رماد البراكين: سمة سانزية عرقية مميزة، تُعد من معايير الاستيلاد الحالية المحبذة لدى طائفة استخدام المستولدين، ويُعطى حاملها أفضلية في الاختيار. الشعر الرماد براكيني مجعد وكثيف جدًّا، ينمو عادةً مثل شعلة إلى أعلى، وينسدل حول الوجه والكتفين. يتميز بمقاومته للحمض وإن نُقع لا يحتفظ من الماء إلا بالقليل، وثبتت فعاليته كمرشح للرماد في الظروف القاسية. أغلب الكومونات لا تنصّ معايير استيلادها إلا على الملمس، بيد أن المستولدين الاستوائيين مطالبون بأن يكون لمنتجهم المنشود أيضًا لون الرماد الطبيعي (تدرج بين الرمادي والأبيض، موجود منذ الولادة).

صدع: مكان ذو شروخ في قشرة الأرض، ترفع من احتمالية الهزات القوية وثورات البراكين.

الطريق الإمبراطوري: أحد أهم إنجازات إمبراطورية السانزا

القديمة. تصل الطرق العالية (الطرق المرفوعة من أجل المشاة وراكبي الأحصنة) كل الكومونات الرئيسية والأرباع الكبرى ببعضها. بنى تلك الطرق فرق من المهندسين والأوروچينيين الإمبراطوريين، إذ حدد الأوروچينيون أنسب الأماكن لمد الطرق بحسب خلوها من الأنشطة الأرضية (أو بإخماد تلك الأنشطة إن لم تكن مستقرة)، وأقام المهندسون شبكات المياه وغيرها من الموارد الأساسية لخدمة المسافرين خلال المواسم.

قوال: من يدرس قول الحجر والتاريخ الضائع.

قول الحديد: مثله مثل الخيمياء والتنجيم، علم زائف لا تقره الجامعة السابعة.

كسّار: حرفي يعمل بمعدات صغيرة، ويستخدم الحجر والزجاج والعظام وغيرها من المواد. قد يستخدم الكسّارون في الكومونات الكبيرة أساليب إنتاج ميكانيكية أو ضخمة. الكسّارون الذين يعملون في المعادن أو الكسّارون غير المهرة يشيع نعتهم بالـ«صدائين».

كومونة: أصغر الوحدات الاجتماعية-السياسية في نظام الحكم الإمبراطوري، وعادةً ما توازي قرية أو بلدة، وإن كانت المدن الضخمة كثيرًا ما تتضمن عدة كومونات. أعضاء الكومونة المقبولون هم من مُنحوا الحق في أحرازها وحمايتها، والذين يساعدون الكومونة بدورهم من خلال المساهمات والضرائب.

كيركوزا: حيوان ثديي متوسط الحجم، أحيانًا يُربى كحيوان

أليف أو يستخدم لحراسة البيوت والمواشي. نباتي في الظروف العادية، ومفترس خلال المواسم.

مبتكر: أحد طوائف الاستخدام السبعة. المبتكرون هم أفراد يُختارون بناءً على إبداعهم وبراعتهم التطبيقية، وهم المسؤولون عن حل المشاكل التقنية واللوجستية خلال المواسم.

محطة توصيل: تنتشر شبكة محطات التوصيل في السكون تحت الرعاية الإمبراطورية بهدف تقليل أو إخماد النشاط الأرضي. ونظرًا إلى الندرة النسبية للأوروچينيين المدربين بالمرتكز، أفكثر محطات التوصيل موجودة في المناطق الاستوائية.

مخلاة هروب: حقيبة متاع صغيرة يسهل حملها، يحتفظ بها أكثر الناس في بيوتهم تحسبًا للهزات أو غيرها من حالات الطوارئ.

مدرسة: مكان يذهب إليه الأطفال غير القادرين على العمل بعدُ، كي يُعتنى بهم ريثما يقضي الكبار شؤونهم في الكومونة. وعندما تسمح الظروف، يكون مكانًا للتعليم.

مرتكز: كيان شبه عسكري أسسته السانزا القديمة بعد موسم الأسنان (١٥٦٠ إمبراطوري). مقر المرتكز الرئيسي في يومينِس، وإن كان هناك مرتكزان تابعان في إقليمي الأركتيكا والأنتاركتيكا، لتغطية أكبر مساحة ممكنة من القارة. وحدهم الأوروچينيون المدربون بالمرتكز (أو «الأوروچينيون

الإمبراطوريون») يُسمح لهم بممارسة صنعة الأوروچينية المحرمة في الظروف الأخرى، بشرط الالتزام بالقواعد المؤسسية الصارمة وتحت إشراف الوصاة. إن المرتكز نظام قائم بذاته ومكتفٍ بذاته. يميز الأوروچينيين الإمبراطوريين زيُّهم الرسمي الأسود، الذي تُشاع تسميته بالـ«معاطف السوداء».

مستولد: أحد أسماء طوائف الاستخدام السبعة الشائعة. المستولدون هم أشخاص يُختارون بناءً على عافيتهم وهيئاتهم المرغوبة. هم المسؤولون خلال المواسم عن الحفاظ على السلالات الطيبة وتحسين الكومونة أو العرق طبقًا لمعايير محددة. إن وُلد في طائفة المستولدين من لا تتحقق فيهم معايير الاستيلاد المحلية المرغوبة، قد يُسمح لهم بحمل اسم استخدام أحد أقاربه في التسمية الكومونية.

مقاومة: أحد طوائف الاستخدام السبعة الشائعة. المقاومون هم أفراد يُختارون بناءً على قدرتهم على النجاة من المجاعات والأوبئة. هم المسؤولون عن العناية بالعاجزين وأجساد الموتى خلال المواسم.

موسم خامس: شتاء ممتد، يدوم لستة أشهر على الأقل بحسب المعايير الإمبراطورية، يحثّه نشاط أرضي أو أي تبدل هائل في البيئة.

ميلا: نبات أوسطي، يشبه البطيخ الذي ينمو في المناخ الاستوائي. الميلا نبات ينمو في كرمة ويثمر عادةً فوق الأرض. لكن خلال الموسم، ينمو ثمره تحت الأرض مثل الدرنات. بعض أنواع الميلا ينتج زهورًا تقتنص الحشرات.

نغل: شخص ولد بلا طائفة استخدام، وهذا لا يمكن حدوثه إلا لولد أبوه مجهول. وإن استطاع نغل إثبات نفسه، قد يُسمح له بحمل اسم طائفة استخدام أمه في التسمية الكومونية.

هزة: حركة في طبقات الأرض.

هشيم: مساحة من الأرض ضربها نشاط أرضي شديد الحدة و/أو قبل زمن قريب.

وصي: عضو في جماعة الوصاة الذين يقال إنهم أقدم من المرتكز. الوصاة يتتبعون الأوروچينيين في السكون ويرشدونهم ويحمونهم ويحمون الناس منهم .

شكر وعرفان

ولدت تلك الرواية الفانتازية، جزئيًّا، في الفضاء.

لعلك قد خمنت ذلك، لو أنك أكملتها حتى سطرها الأخير. لحظة استنبات تلك الفكرة كانت في Launch Pad، وهي ورشة كانت تدعمها وكالة ناسا حضرتها في يوليو ٢٠٠٩. هدف الورشة كان جمع عدد من المؤثرين الإعلاميين -والمذهل أن كتاب الخيال العلمي والفانتازيا كانوا منهم- لتحسين فهمهم للعلوم، ليستخدموها بشكل أفضل في أعمالهم لو كانوا فاعلين. إذ يبدو أن العديد من الحقائق المغلوطة الشائعة بين العامة عن الفضاء يرجع الفضل في نشرها إلى المؤلفين. لكن للأسف، لا أظنني أسدي إلى العالم أفضل خدمة في توصيل الحقائق العلمية الدقيقة عندما أربط بين الفلك وكائنات صخرية عاقلة. آسفة يا رفاقي في الورشة.

لن أستطيع إخباركم عن المناقشات الحيوية المذهلة التي وضعت بذور تلك الرواية في مخي (إذ يفترض أن أكون موجزة)، لكن يمكنني أن أخبركم بأن تلك النقاشات الحيوية المذهلة كانت العادي في Launch Pad. لذا، لو أنك إعلامي مؤثر وعندك فرصة للحضور، فأنا أرشحها لك بشدة. ويجب أن أشكر كل من كانوا حاضرين في الورشة في ذلك العام، الذين شاركوا في بذر تلك الفكرة في عقلي سواء أدركوا ذلك أو لا. منهم مايك براذرتون Mike Brotherton (منسق الورشة، والأستاذ بجامعة وايومنج، وكاتب خيال علمي)، وفيل بليت Phil Plait، الفلكي السيئ (هذا لقب فقط، إنه ليس

سيئًا في الواقع، أقصد... طيب، ابحثوا عنه)، وجاي وجو هالدمان Gay and Joe Haldeman، وبات كاديجان Pat Cadigan، والكوميدي العلمي براين مالو Brian Malow، وتارا فريديت Tara Fredette (التي هي الآن تارا مالو)، وجورد سيلار Gord Sellar.

وتحية كبيرة أيضًا إلى محررتي Devi Pillai، ووكيلتي لوسيان ديفر Lucienne Diver، اللتين أقنعتاني بعدم التخلي عن الرواية. إن ثلاثية **الأرض المكسور** أكثر عمل كتبته تحديًا، وخلال كتابة **الموسم الخامس** كانت هناك لحظات عديدة ثقيلة الوطء حتى أنني فكرت في الاستسلام. (في الواقع، أعتقد أن كلماتي بالضبط كانت وقتها: «لأمسحن هذه الفوضى، ولأخترقن موقع Dropbox لأنال من النسخ الاحتياطية، ثم لأرمين حاسبي المحمول من فوق جبل، وأمشي فوقه بسيارة، ثم لأحرقن كليهما، ولأستخدمن حفارًا لدفن الدليل. هل يحتاج المرء إلى رخصة خاصة كي يقود حفارًا؟»). إن كيت إليوت Kate Elliott (شكر آخر هنا، لكونها صديقة وناصحة دائمًا) تسمي مثل تلك اللحظات «هُوَّة الشك» التي لا مفر لكل كاتب من الوقوع فيها في مرحلة ما من أي مشروع ضخم. وهوتي كانت عميقة ومريعة، مثل الصدع اليومينِسي.

ومن الذين ساعدوني في تجاوز هوتي: روز فوكس Rose Fox، دانييل فريدمان Danielle Friedman مستشاري الطبي، وميكي كيندال Mikki Kendall، ومجموعتي للكتابة، ومديري في وظيفتي اليومية (الذي لا أظنه يحب

تسميته)، وقطي الملك أوزمنديس King ozzymandias.

نعم، حتى القط ساعد. كي يستطيع الكاتب استجماع زمام نفسه يحتاج إلى قرية كاملة.

ودائمًا وأبدًا، شكرًا لكم جميعًا، على قراءتكم.

عن المؤلفة

ن. ك. جيميسين N. K. Jemisin

نورا كيتا جيمسين كاتبة أمريكية مشهورة في مجال الخيال العلمي والفنتازيا. تتناول رواياتها موضوعات متنوعة مثل الصراع الثقافي والقمع والنجاة في عالم مضطرب. حصلت على جوائز عديدة عن أعمالها، منها جائزة هيوغو Hugo لأفضل رواية لثلاث سنوات متتالية (٢٠١٥، ٢٠١٦، ٢٠١٧)، على ثلاثية الأرض المكسور (الموسم الخامس، بوابة المسلة، السماء الحجرية)، وهي أول كاتبة تحقق هذا الإنجاز.

عن المترجم

محمد أ. جمال

كاتب ومترجم مصري، نُشرت له روايتان: «طيران – ٢٠٢١» و«كتاب خيبة الأمل – ٢٠١٨»، وعدد من الأعمال المترجمة من الإنجليزية إلى العربية، منها: «البطل بألف وجه جوزيف كامبل» و«إفطار الأبطال – كورت فونيجت» و«أساطير إسكندنافية – نيل غايمان». حاز جائزة «أخبار الأدب» في الرواية ٢٠١٧، ومنحة آفاق في الكتابة الإبداعية ٢٠٢٢.